

القدم الحديثة

**** معرفني ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة



تأليف: هياك لندن

ترجمه: نرون سلامة

رابعه: الدكتور محمد مندور

القَدَمُ الحَدِيدِيَّةُ

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

**تصدر هذه السلسلة بمطوينة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.**

الألف كطب

٥٩٠

القدم الحديدية

مقالة

تأليف

جمال لندن

ترجمه

نورون سلامه

رأجه

د. محمد مندور

١٩٦٦

الناشر

دار تحف من مصر

الطبع والنشر

القاهرة

THE IRON HEEL

هذه ترجمة كتاب:

Jack London

تأليف:

مقدمة

في هذا الكتاب شاهد جاك لندن ما يمكن أن تفعله الفاشية للعالم في المستقبل البعيد . لقد تنبأ منذ عام ١٩٠٦ عبر ربع قرن من الزمان بسحق الاحتكارية للحركة الاشتراكية التي وجد فيها جاك لندن خلاص الإنسانية العاملة .

وفي كلمة موجزة فإن الكتاب مغمم بالحبوية ، واقعي ، ومثير . ذلك أن جاك لندن عرف الناس البسطاء في أمريكا مثلما فعل الكتاب من أسلافه ، وبينما غالى في رؤياه في بعض النواحي ، وبينما شدد على التناقض الطبقي الذي خلقته الصناعة وبسط منه . فقد تنبأ في صدق بوحشية نظام الدكتاتورية العسكرية التي نشأت وفقا للبيانات التي حددها جاك لندن على وجه التقريب .

ولقد اشتهر اسم جاك لندن في جميع أنحاء العالم بمؤلفه «القدم الحديدية» ، فقد خضع «لندن» في بعض كتبه الأخرى لمساومة التقاليد ، أو خفف من حدة قصته لأسباب تجارية . ولكنه في هذا الكتاب كان أميناً مع نفسه تماماً . وينقد جاك لندن في ملاحظاته التي أوردتها في أسفل الصفحات والتي يفترض أنها قد ذبلت بعد مضي عدة قرون ، البيان الاجتماعي لنظامنا وقد نفذ إلى أعماقه دون هيبة أو تردد . وبينما يظل جاك لندن غارقاً في قصته ، الكتاب الموهوب ، فإنه راح يكتبها في انفعال صريح ، وأمانة لا تعرف الرحمة ووجدان لا يشعر بالخجل .

ماكس ليرنر

مقدمة المترجم

دائماً ما يقدم النقاد هذه - الرواية - «القدم الحديدية» ، وهي أشهر مؤلفات الكاتب الأمريكي «جاك لندن» ، على أنها رقياً تصورهما وتخيّلها في ذهنه ، تجري حوادثها العنيفة والدامية بعد عشرات الأعوام . وربما أكد هذا الانطباع الطريقة التي ابتدعها الكاتب في سرد قصته عندما ذيل صفحاتها بملاحظات كتبت بعد مضي سبعة قرون على تاريخ الحوادث الحقيقية . ورغم أن كل هذا يطابق مجرى أحداث الكتاب ، فمن العبث أن ننظر إليه بوصفه تجربة عاشت في عقل أحد الكتاب الملهمين . ذلك أن التجربة تبعث من أرض أمريكية فجأت فيها أحداث المستقبل ممترجة بأحداث ماض قريب لشعب عظيم ، استمد منها الكاتب خطوط روايته .

ويرى البعض أن جاك لندن قد بانغ في مشاهد العنف والفسوة التي راحت الاحتكارية تحطم بهما قوى الشعب والعمال في مذابح رهيبية وربما وجدنا له العذر في أن الرواية عمل من صنع الخيال . ولكننا ندرك أن «جاك لندن» كتب هذا المؤلف في عام ١٩٠٦ ولم يكن قد مضى ربع قرن على مذبح عمال شيكاغو والمؤامرة التي دبرتها الرأسمالية الأمريكية ضدهم . ندرك هذا جيداً في بلادنا ونحن نحتفل في أول مايو من كل عام بعيد العمال العالمي الذي يعود إلى ذلك التاريخ وتلك المأساة . أفلا تكن تلك المذبحة تكفي الكاتب الذي عاشها وشاهد أحداثها ، حتى يتصور على ضوءها مستقبل أمة نمت فيها احتكارية مهوالة وتربعت على عرش السلطان وراحت تغزو أسواق العالم لتسود مصائر شعوبه . ولماذا نجح إلى التصور ومذابح التفرة العنصرية مائة أمانا كل يوم . وما زالت الحقائق التي تختفي وراء

اغتيال الرئيس الراحل جون كيندي تنخبط في متاهات الظلام في عالم مليء بالأسرار والمكائد والمؤامرات .

غير أن الثورة نفسها تمزقت بالدماء . فقوق قمة اليأس وخيبة الأمل ظهر الإرهابيون المتعطشون إلى الدماء تدفعهم شهوة الانتقام، أولئك الذين كما وصفهم « جاك لندن » ضلوا الطريق وعرقلوا الثورة الحقيقية وسببوا الأضرار ، ومهدوا الوحش الاحتكارية أن يقيم نظامه في ظل الفوضى والارتباك على دعائم راسخة . وفي الحضيض هدر الوحش الذي تمثل في الفراغ ، الوحش الذي صنعته الاحتكارية نفسها ، ولم يكن هذا الوحش يحمل في نفسه إلا بقايا آدمية فأصابه جنون القتل والاعتيان وعصف به الحقد الأعمى . إنهم ضحايا النظام الرأسمالي ووقوده الذي لا ينفد ، ثم بقي العمال المنظمون وسائر أفراد الشعب . إنهم يصنعون الثورة ويواجهون الاحتكارية وعملاءها الصريحين والمستترين . وفي هذا العام المظلم المليء بالدماسيس ، واجه الثوريون عدوهم اللدود تحت وقع ضرباته التي لا ترحم بنفس أسلحته - الموت مقابل الموت ، والمؤامرة في مواجهة المؤامرة . لقد أقامت الاحتكارية غايتها الدموية وسادت قانونها على نام انتصر فيه الضغيان . ويتساءل الكاتب الذي تخيل نفسه يطل على أحداث القصة بعد سبعة قرون وهو يعيش في عهد « الإخاء الإنساني » ، هل كان هناك سبيل آخر أمام هؤلاء الثوريين في تلك الظروف المريرة ؟ .

وعلى أية حال فهذه المأساة المرعبة للنظام الرأسمالي ، ذلك النظام الذي يجلب معه الحروب والدماء وسحق الشعوب وسفك الدماء التي تلطخ كل آلة وكل شبر من الأرض .

وكما نال ميثاق العمل الوطني :

« إن الصراع الطبقي ودمويته والأخطار الهائلة التي يمكن أن تحدث

نتيجة لذلك، هي في الواقع من صنع الرجعية التي لا تريد التنازل عن احتكاراتها وعن مراكزها الممتدة التي تواعمل فيها استغلال الجماهير .

ولكن ثورتنا العربية تجنبت في ظروف ملائمة وفي ظل تجربة جديدة ذلك الطريق الدموي وتلك الحروب الأهلية عندما أسقطت السلطة الرجعية وجردتها من أسلحتها ، فمبرت الثورة بالشعب إلى طريق حل متناضانه بالوسائل السلمية ، وهكذا قال الميثاق :

« إن الرجعية تتصادم في مصالحها مع مصالح مجموع الشعب بحكم احتكارها لثورته ، ولهذا فإن سلمية الصراع الطبقي لا يمكن أن تتحقق إلا بتجريد الرجعية أولاً وقبل كل شيء من جميع أسلحتها . إن إزالة هذا التصادم يفتح الطريق للحلول السلمية أمام صراع الطبقات . »

ومن هنا نطلع إلى التجربة الأمريكية بخيالاتها وحقائقها بعقل وقلم أحد أبنائها ، بينما تحمل تجربتنا الثورية « فكراً مفتوحاً لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ولا يبعدها عنه بالتعصب ولا يعيد نفسه عنها بالحقده . »

غير أن الكتاب لا ينبض بأحداث الثورة فحسب . « إن جاك لندن ، بصوغ في وقت مبكر منذ عام ١٩٠٦ أفكاره الرائعة عن تطور الرأسمالية ونشوء الاحتكارية التي سماها بالأوليغاركية وأو الأقلية المالية ، وكشف « لندن » في غمار هذا التطور الرأسمالي عن طبيعة ما نعرفه « بالاستعمار الحديث ، أو تصدير رءوس الأموال واستعباد الشعوب المستعمرة . ولقد فهم « جاك لندن ، فهماً رائعاً جوهر الحرب العالمية وحققتها وحتميتها في ظل سيادة النظام الرأسمالي على النطاق العالمي ، بل لقد تنبأ الكاتب بنشوب الحرب بين ألمانيا والولايات المتحدة في نزاعهما الدموي على تقسيم الأسواق ومناطق النفوذ في موعد يتماثل مع نشوب الحرب العالمية الأولى بين الدول

الأوربية ، ولكنه اعتقد أن الاشتراكيين سيتمكنون من وضع نهاية لها ،
الشيء الذى لم يحدث فى الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن جاك لندن لم يكن
يتوقع خيانة العديد من القادة الاشتراكيين فى ذلك الوقت لشعارهم الذى
رفعوه « الحرب ضد الحرب » ... وكثير من الآراء التى يعجز القارىء
عن أن يصدق أنها شاعت فى النور عام ١٩٠٦ . وأكثر من ذلك فهى تأتى من
مفكر أمريكى نازع عاشر وناضل فى قلعة النظام الرأسمالى .

وعلى خلاف كثير من الاشتراكيين فى ذلك الوقت ، بل والأجيال
التي تلت بمختلف مذاهبهم وانجذاباتهم ، لم ير « جاك لندن » فى نظام
الاحتكارية عقم النظام الرأسمالى فى نهايته المحتومة . فإذا كان لندن قد رأى
فى الاحتكارية نهاية الرأسمالية ، فقد رأى فيها فى نفس الوقت محاولة
لتجديدها وبعثها على غرار آخر وفى طور جديد . ومن هنا آمن بأن
الاحتكارية سوف تأتى معها بمنجزات ضخمة ومعجزات جبارة فى مجالات
الصناعة والتسليح ووسائل التقدم .

إن جاك لندن لم يتخذ موقفاً صيغانياً فى فهم أعدائه وقدراتهم . لقد
رأى فى قوة الاحتكاريين شيئاً آخر غير قدرتهم على البطش والإغراء
والخدعة . فرأى فيهم كذلك الإيمان بصواب ما يفعلون ، وخاصة فى صفوف
الشباب منهم الذين رأوا وتعلوا منذ نعومة أظفارهم أنهم حماة الإنسانية من
الغوغاء وأبناء الحضيض .

وهكذا صاغ جاك لندن منذ ذلك الوقت المبكر أفكاراً قد يختلف
الإنسان معها أو يتفق مع جوانب منها ، ولكنه لا يملك فى نهاية الأمر إلا أن
يسلم بعقوبة هذا الرجل ، وهذا الثورى الذى احتل مكانة مرموقة بين
عمالقة الأدب الأمريكى ، وأنتج الإنسانية ، خمسين مؤلفاً خيراً بالحياة
والتجارب الإنسانية المتباينة .

ولد د جاك لندن ، واسمه الحقيقي د جون جريفث لندن ، ، في مدينة سان فرانسيسكو عام ١٨٧٦ م . ورغم أن حياته لم تتجاوز الأربعين عاماً ، إلا أنها كانت حياة حافلة بالكفاح المتواصل منذ الطفولة ، غنية بالخبرة الإنسانية .

فقد عرف د جاك لندن ، الفقر والبؤس منذ أن تفتحت عيناه . عاش في الحرمان ، وعرضه الجوع بنابه منذ طفولته . فقد شرع يكسب رزقه بيديه ولم يتعد العاشرة من عمره ، إذ كان يستيقظ قبل أن يسفر الفجر ، ويحمل الصحف إلى بيوت المشتركين ، ثم يذهب إلى المدرسة . ويعود بعد انتهاء اليوم الدراسي إلى توزيع الصحف ، ثم يشتغل بالليل في أحد أندية الرياضة ، ولما بلغ اثنا عشر سنة ، ألقي نفسه مضطراً إلى قطع دراسته ، وظل سنة يعمل في كندس الحانات ، وأعمال أخرى مشابهة .

أحب د جاك لندن ، منذ صغره الكتب والبحر . فكان ينفق كل دقيقة من فراغه في د نادي البيخوت ، على الميناء ، ينظف يخوت الأغنياء ويشهد ما يدور في الحيات وعلى أرصفة الميناء ، ويستمتع إلى قصص المغامرة المثيرة من أفواه البحارة العالدين والمبحرين . ولم يكدي يبالغ الخامسة عشرة حتى امتلك زورقاً صغيراً ، خرج به من خليج سان فرانسيسكو ، يستمتع بما في الحياة من روعة المغامرة . . . إلى منابت الحمار ، في غارة إثر غارة ، ثم يبيعها على أرصفة الميناء . وكان يذهب في قرات الراحة إلى دار الكتب بالمدينة ويختار منها طائفة من الكتب ، ويذهب بها إلى زورقه ، ثم يوصد باب حجرته ويقرأها كتاباً بعد كتاب . وفي السابعة عشرة أصبح قبطاناً لسفينة صغيرة تدعى د سوفي سنرلند ، ، أبحرت شطر اليابان وسيبيريا ، في مغامرة مخوفة بالمخاطر لصيد عجول البحر . ثم عاد منها وقد هدأت فنته بالبحر .

وخلال الأزمة الاقتصادية التي ألمت بالبلاد الأمريكية عام ١٨٩٣ ،

لم يجد ، جاك لندن ، عملاً إلا في مصنع القنب . ولكنه كتب مرة مقالاً
لمسابقة نظمها صحيفة « فرانسيسكو كول » ، ووصف فيه الإعمار الذي هب
على السفينة « سوفي سذرلند » ، ونال الجائزة الأولى . وما زال القارئ
يحس من هذا المقال بالحياة التي تزخر بين سطوره ، ومن عباراته بوقع كالمقامع
الموسيقى . ومنذ ذلك الحين ، أدرك « جاك » أنه لن يحقق حلمه في الشعور
بالسعادة ، إلا إذا صار كاتباً ، وقص كل ما في ذهنه من روعة المغامرة
وإثارة التجربة . ولكنه ألقى نفسه في حاجة ماسة إلى صقل معرفته بالدراسة
فالتحق بمدرسة ثانوية ، واجتاز امتحان مقررات سنتين في ثلاثة أشهر
ليلتحق بعدها بجامعة كاليفورنيا . ولكنه لم يلبث أن ترك الجامعة بعد فصل
دراسي واحد ، وانضم إلى قافلة المغامرين الأوائل التي راحت تبحث وراء
الذهب في منطقة « ألاسكا » . ورغم أنه عاد خالي الوفاض ، إلا أنه عاد
بثروة هائلة من المعرفة ، وكنز ضخم من التجارب الإنسانية الحية . . .
كانت كلها بمثابة مادة خام لمؤلفاته الأدبية الرائعة : « نداء الطبيعة » ،
« وادي القمر » ، « ذهب البحر » ، « أولاد الذئب » . « قبل آدم » ، « تمرد
على السفينة الزانور » . « الخبز الأبيض » .

هذه هي بعض مؤلفاته الخمسين . وهي من روائع الأدب الواقعي الأمريكي
التي ساهمت في إغناء الأدب العالمي . بل إن هذه الحباء الخائفة بالتجارب التي
عاشها الكاتب ، لم تثمر في مؤلفات أدبية فحسب ، بل أثمرت في فهم عميق
للجتمع الإنساني بطبقاته وكل تناقضاته . فسرعان ما أدى نمو الوعي
الاجتماعي لديه إلى أن يصبح اشتراكياً ثورياً . فقد انضم وهو في الثلاثين
من عمره إلى حزب العمال الأمريكي مع زوجته « تشيرمان كيردج » ،
وكالفا معاً تحت راية الاشتراكية ، في مرتع الرأسمالية وقلعة الاحتكارية .

ولم يكن جاك لندن اشتراكياً خيالياً ، بل أكسبته الدراسة الواعية
والتجربة الذاتية منها علماً سليماً . ويوضح هذا المنهج في روايته « القدم

الحديدية ، التي صاغ فيها تجربته في أدب واقعي ممتع . فإذا كانت أحداث الرواية تبدو بالفعل مستقاة من خضم الحياة بلا زخرفة أو تهويل ، فإنه من الغريب أن تأتي شخصياتها وأبطالها كصورة طبق الأصل لشخصيات حقيقية . فما أكر الشبه بين بطل الرواية وبين مؤلفها ، بل أكر الشبه بين البطلة وزوجة المؤلف ، في آلامهم وآمالهم ، في كفاحهم تحت راية الاشتراكية ومن أجل هذه القضية الإنسانية .

وبعد ، إن الأمة العربية في نضالها من أجل إقامة مجتمع اشتراكي في حاجة إلى الاطلاع على هذه الرواية . فهي ذخيرة اشتراكية ، تمثل خبرة اشتراكي ثوري قديم ، تصدى للكفاح في قلعة الرأسمالية نفسها . وتجربتنا في التطبيق الاشتراكي لا بد وأن تستوعب كافة التجارب الأخرى . وتعتبر هذه الرواية بحق من أروع وأمتع التجارب الثورية المدروسة ، وهي لكاتب عملاق لم تعرفه المكتبة العربية بعد . وهذا ما دفعني إلى ترجمتها وإضافتها إلى المكتبة العربية حتى يطلع عليها شباب الأمة العربية .

المرجم

الفصل الأول

« النسر »

تتمايل الأغصان الحمراء مع نسبات الصيف الرقيقة . وتماوج مياه جدول « الوايلد ووتر » على صخوره المكسوة بالطحالب ، محدثة إيقاعاً عذبا . وفي ضوء الشمس يهيم الفراش ، ومن كل حدب وصوب ينبعث طنين النحل الخافت . وأما جالسة هنا ، مستغرقة في التفكير ، وكل شيء من حولي ساكن ومادى^١ ، غير أن القلق يساورني ، فالهدوء هو ما يبعث في نفسي هذا القلق . ويبدو هذا غير واقعي . حقيقة إن الهدوء يسود العالم كله ، لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . وهأنذا أرهف أذني ، وحواسي جميعها ، لبادرة تم عن العاصفة التي تقترب . أواه ! لعلمنا لاتأتي قبل الأوان ، لعلمنا لاتأتي قبل الأوان!^(١) .

ليس غريبا أن أكون قلقة . فأنا أفكر ، وأفكر ، ولا أستطيع أن أتوقف عن التفكير . لقد عشت فترة طويلة في زحمة الحياة ، حتى ضقت ذرعاً بالطمأنينة والهدوء ، وليس في مقدوري أن أتجنب الاستغراق في التفكير إزاء الأعاصير المحمومة التي توشك أن تثور عما قريب ، حاملة

(١) كانت الانتفاضة الثورية الثانية من أعداد انست ايفرهارد الى حد كبير - وان كان قد تعاون مع القادة الأوربيين - وكان اعتقال ايفرهارد واعدامه في الخفاء ، الحدث الأكبر في ربيع ١٩٣٢ ب.م. ومع ذلك ، فقد بلغ من دقة اعدادة للثورة حدا مكن زملاءه الثوار من وضع خطته موضع التنفيذ ، وان شاب جهودهم بعض الاضطراب او التواني . وبعد اعدام ايفرهارد ، قصدت زوجته الى « وايلد روبين لودج » ، وهو مخبأ في جوف تلال « سونوما » بكاليفورنيا .

الموت والدمار . فصرخات الضحايا تدوى فى أذنى ، وأستطيع أن أرى
مثلا رأيت فى الماضى ^(١) ، الأجساد الغضة الجميلة وهى تشوه وتمزق ،
والأرواح وهى تنتزع بعنف من الأجساد الآبية وتطوح إلى خالقها .
هكذا نصل نحن البؤساء من بنى البشر إلى أهدافنا ، مناظرين وسط الأشلاء
والدمار ، لتقيم على ربوع الأرض سلاماً دائماً وسعادة أبدية .

ثم إننى أعيش فى وحدة . وحين لا أفكر فيما هو آت آجلاً ، أفكر
فيما قد مضى سالفا ولم يعد له وجود . أفكر فى نسرى ، وهو يضرب الفضاء
بجناحين لا يعرفان الكليل ، محلقا نحو شمس الأبدية ، نحو المثل الساطع
للحرية الإنسانية . وليس فى مقدورى أن أجلس مكتوفة الأيدى ، وأظل
أترقب الحدث العظيم الذى هو من صنعه ، بينما لم يعد نسرى موجوداً
بيننا ليرى هذا الحدث . فقد كرس سنوات رجواته من أجله ، ومن أجله
وهب حياته ، إنه عمل يديه ، وهو صانعه ^(٢) .

من هنا ، وفى هذه الفترة القلقة من الانتظار ، سأتفرغ للكتابة عن
زوجى . فليس هناك أحد سواى بين الأحياء ، يستطبع أن يسلط مزيداً من
الأضواء على شخصيته . إن شخصية نبيلة كهذه ، لا يمكن أن تصور بألوان
أكثر مما ينبغى . فلقد كان روحاً عظيمة . وحين يتجرد حى عن الأنانية ،
فإن أشد أسنى هو أنه ليس موجوداً هنا ليشهد بزوغ فجر الغد . محال أن
نقشل فقد أرمى البناء بكل قوة ، وبكل ثقة . الويل للقدم الحديدية ! فعما

(١) انها تشير هنا دون شك الى كومونة شيكاغو .

(٢) مع احترامى الخالص « لافيس ايفرهارد » ، ينبغى ان اشير
الى أن ايفرهارد لم يزد على أن يكون أحد القادة العديدين ، ممن توافرت
لديهم الكفاية فى وضع خطة الانتفاضة الثورية الثانية . ونحن اليوم اذ
تلقى نظرة عبر القرون للماضية ، نستطيع أن نقول فى اطمئنان انه حتى
ولو هاجم ارنست ايفرهارد ، لما كانت نتائج الانتفاضة الثورية الثانية
تختلف كثيراً عما كانت .

فريب سوف ترد إليها الطعنة من الإنسانية المدحورة . وبمجرد أن تطلق إشارة البدء ، ستهض جماهير العمال في ربوع المعمورة . إن شيئاً مثل هذا لم يحدث قط في تاريخ العالم . لقد تأكد تضامن العمال ، ولأول مرة سوف تنشب ثورة عالمية تتسع لتشمل العالم كله (١) .

إن نفسي - كما ترون - تمتلئ بالثورة القادمة . فإني قد عشتها فترة طويلة وبكل جوارحي ليلاً ونهاراً ، حتى أصبحت لا تفارق مخيلتي أبداً . وليس في مقدوري أن أفكر في زوجي دون أن أفكر فيها . كان هو روحها ، فكيف أستطيع أن أفعل بين الاثنين في خواطري ؟

وكما قلت من قبل ، لا يستطيع أحد سواي ، أن يسلط مزيداً من الأضواء على شخصيته . فقد لمس الجمع كيف بذل قرأه في سبيل الحرية وقاسى بمرارة . إنني أدرك إدراكاً تاماً كم عانى وكم قاسى ، فقد كنت إلى جانبه طيلة هذه السنوات العشرين المضطربة . بل إنني لمست فيه صبراً ، وجهداً لا يعرف النوب ، وإخلاصاً لا يجسد التضحية التي وهب لها حياته ، فقط منذ شهرين .

سأحاول أن أكتب ببساطة . وأورى هنا كيف دخل دارنست إيفر هارد ، حياتي ؟ ، وكيف قابلته أول مرة ؟ ، كيف نما تأثيره في جوانحي حتى أصبحت جزءاً منه ؟ ، ثم التغيرات الهائلة التي أحدثها في حياتي . وهذه الوسيلة تستطيع أن

(١) كانت الانتفاضة الثورية الثانية ثورة عالمية حقا . كانت عملاً ضخماً ، عملاً أضخم من أن تخطط له عبقرية رجل واحد . فقد أعدت جماهير العمال في جميع البلدان الاحتكارية في العالم للانتفاض عند اطلاق إشارة البدء . كانت ألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وكل جنوب آسيا ، بلدانا عمالية ، كانت دولا اشتراكية ، وكانت على استعداد لأن تمد يد العون للثورة . وبالفعل مدت يدها ببسالة . ولهذا السبب ما ان سحقت الاحتكارية الثورة الثانية حتى سحقت معها تلك الدول ، وأقامت حكومات احتكارية مكان حكوماتها الاشتراكية .

تأمله من خلال عيني ، وأن تعرف منه - كما عرفت - كل شيء ، عدا ما يمنع الخجل من أن أفضى به .

كان ذلك في هراير ١٩١٢ ، يوم أن التقيت به لأول مرة فقد أتى إلى منزلنا في « بيركلي » كضيف دعاه أبي^(١) إلى مائدة العشاء . ولا أستطيع أن أقول إن الصورة الأولى التي انطبعت عنه في ذهني كانت مستحبة . فقد كان واحداً من كثيرين دعوا إلى مائدة العشاء . وفي حجرة الاستقبال ، حيث اجتمعنا في انتظار كافة المدعوين ، بدا مظهره متناقضا إلى حد ما . كانت هذه الليلة « ليلة المبشرين » ، كما دعاها أبي فيما بعد ونحن على انفراد . ولا ريب أن إرناست كان في غير مكانه وسط هذه المجموعة من رجال الكنيسة .

في المحل الأول ، كانت ملابسه لا تلائم ، إذ كان يرتدي بدلة جاهزة الصنع ، من قماش داكن ، ولا تلبس قده ، وفي الحقيقة لم تكن هناك أية بدلة جاهزة تلائم مع جسمه . وفي تلك الليلة ، كالعادة كانت ملابسه متفتحة بعضلاته ، في حين كانت سترته فيما بين كتفيه - اضخامة نموها - كتلة من التجاعد . وكانت عنقه أشبه بعنق مصارع محترف^(٢) ، غليظة وقوية . إذن ، فهذا هو الفيلسوف الاجتماعي ، وحذاء الخيل سابقا ، الذي اكتشفه

(١) كان « جون كنجهام » والد « ايفيس ايفرهارد » استاذا في جامعة بيركلي بكاليفورنيا وكانت الفيزياء حقله المختار . وبالإضافة إلى ذلك ، قام بأبحاث واسعة . كان يتمتع بمكانة مرموقة كعالم . أما مآثره الرئيسية في الميدان العلمي فهي : دراسته في الإلكترون ، وأعماله الخالدة في « تحديد المادة والطاقة » . . . حيث قرر بصورة نهائية لا تحتمل المنافسة أن الوحدة المطلقية من المادة تتماثل مع الوحدة المطلقة من الطاقة . وسبق أن تقدم بهذه الفكرة ، ولكن دون برهان ، السيد اوليفر لودج وبعض الباحثين في حقل الأبحاث الجديدة « النشاط الإشعاعي » .

(٢) كان من عادة الرجال - في تلك الأيام - أن يتنافسوا على أكياس المال . فكانوا يتصارعون بالأبدى حتى إذا ما هزم أحدهم ، بأن فقد وعيه أو سقط قتيلاً ، استولى الآخر على المال .

أبو - هذا ما جال بخاطري . وبقينا أن هذا ما نمت عليه هيئته بهذه العضلات البارزة ، وبتلك الخنجرة الشبيهة بخنجرة الثور . وسرعان ما وضعته في مصاف ذوى القوى الخارقة ، وقلت فى ذات نفسى : « نوم اعمى »^(١) من أبناء الطبقة العاملة .

ثم عندما صاحنى يديه اكانت مصاخته ثابتة وقوية . ولكنه تطلع إلى فى جرأة بعينه السوداءين ، بجرأة أكثر مما ينبغى على ما أعتقد ، فقد كنت - كما ترى - متأثرة بظروف البيئة ، وسيطرت على حينذاك نظرة طبقية صارخة . وغالبا ما كنت أغتفر مثل هذه الجرأة إذا ما أبدت من رجل ينتمى إلى طبقتى الاجتماعية . أنا أعلم أنه ما كان فى استطاعتى أن أتحمس خفض عينى . وتنفس الصعداء عندما تخطيته واستدرت لأرحب بالأسقف مورهاوس ، الذى أكن له إعزازاً خاصاً . وهو رجل لطيف جاد ، فى مستقبل العمر ، يشابه المسيح فى سحته وطيبته ، وهو عالم أيضا .

بيد أن هذه الجرأة التى تصورتها وقاحة ، كانت مفتاحاً حيوياً لطبيعة إرنست إيفرهارد . فقد كان بسيطاً ، صريحاً ، لايهاب شيئاً ، وكان أبى تضييع وقته فى المجاملات التى تقتضيها التقاليد ولقد أعجبتنى . هكذا أوضح لى فيما بعد - فلماذا لا أملاً عيى بما يعجبنى وإنه - كما قلت - ما كان يخشى شيئاً كان أرسقراطياً بالفطرة ، رغم حقيقة انتمائه إلى معسكر اللاأرسقراطيين . كان رجلاً يفرق حيواناً أشقر - كما جاء فى وصف « نيتشة »^(٢) وبالإضافة إلى ذلك ، كان شعله متقدة بالديمقراطية .

(١) تنسب هذه الإشارة الغامضة الى موسيقى زنجى اعمى ، احدث فى العالم دويماً عاصفاً فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر .
(٢) فردريك نيتشة ، الفيلسوف المعتوه فى القرن التاسع عشر ، والذى افلتت منه لمحات من الحقيقة . ولكن قبل ان يصل اليها ، تصور نفسه يخرج دائرة الفكر البشرى ، فانحرف نحو الجنون .

وإزاء اهتمامي بالاجتماع مع الضيوف الآخرين وإزاء انطباعاتي الأولى غير المستحبة ، نسيت كل شيء عن فيلسوف الطبقة العاملة ، رغم أنني لمحتة على المائدة مرة أو مرتين . وقد لفت نظري بشكل خاص بريق عينيه ، مرة وهو يصغي إلى حديث أحد القساوسة ، ومرة أخرى إلى حديث قس آخر . وقلت في ذات نفسي : « إنه فكه » . وغالباً ما اغتفرت له ملبسه ، غير أن الوقت مضى ، وانهى العشاء ، وهو لم يندس قط بينت شفة ، بينما تحدث القساوسة أحاديث لا تنتهي عن الطبقة العاملة وعلاقتها بالكنيسة ، ووما فعلته وتفعله الكنيسة من أجلها . ولاحظت أن أبي قد تبرم من صمت إرنست . يبدو أنه اتهم مرة فترة سكون وسأله أن يقول شيئاً ، ولكن إرنست هز كتفيه قائلاً : « ليس عندي ما أقوله » ، وواصل التهامه لحبات اللوز المملح .

ولكن والدي ما كان يسكت على تجاهله ، فابرى بعد برهة قائلاً :

— « معنا أحد أبناء الطبقة العاملة . وأنا واثق أنه يستطيع أن يبسط لنا المشكلات بوجهة نظر جديدة ، جديدة بأن تشير الاهتمام وتبعث على الانتعاش . وإنما أشير بذلك إلى مستر إيفر هارد » .

فارتسمت على وجوه الآخرين أسارير الاهتمام على نحو مهذب ، وطلبوا من إرنست في إلحاح أن يبسط وجهة نظره . وكان موقفهم إزاءه غاية في التسامح والطيبة ، ولم يكن هذا في الحقيقة سوى تفضل منهم . ورأيت أن إرنست قد لاحظ ذلك وطرب له . وفي أناة جال بصره فيما حوله ، بينما لمحت بريق الضحك في عينيه .

واستهل حديثه قائلاً :

— « لست محنكا في آداب المجادلات الإكليريكية » ،
ثم تلغثم في تواضع وحيرة ،

فألحوا عليه قائلين : « استمر » .

وقال الدكتور همرفيلد :

- « نحن لا نمانع في سماع الحقيقة من أى رجل » . ثم استدرج قائلنا :

- « إذا كانت مخلصه » .

فضحك إرنست وقال :

- « إذن ، فأنت تفضل الإخلاص على الحقيقة ! » .

فلمث الدكتور همرفيلد ، وراح يتدبر في إجابته :

« إن أفضل من فينا أيها الشاب - ليس معصوماً من الخطأ . ولكل

عالم هفوة » .

وفي الحال تغيرت لهجة إرنست ، ومضى يقول ، وقد بدار جلا آخر :

- « حسناً إذن ، اسمح لي أن أبدأ حديثي فأقول إنكم جميعاً مخطنون .

أتم لا تعرفون شيئاً عن الطبقة العاملة ، بل إن جهلكم عنها فاضح . إن علم

الاجتماع لديكم فاسد وتافه مثل تفاعاة أسلوبكم في التفكير » .

ولم يكن الشيء الموجه كامناً فيما ناله بقدر ما كان كامناً في اللهجة التي

تحدث بها . فقد تنبثت ادى سماعى أول نبرة من صوته . كان صوته جريئاً

كجراحة عينيه . كان نداء النفير الذى هز مشاعرى ، وأثار المائدة كلها ، فدبت

فيها حيوية هزت طابعها الرتيب ، وأيقظتها من غفوتها .

وتساءل الدكتور همرفيلد ، وقد بدا في الحال شيء غير سار في صوته

وفي لهجة حديثه :

- « وما هو الشيء الفاسد والتافه في منهج تفكيرنا ، الى درجة مخيفه

أيها الشاب ؟ »

- دأتم ميتافيزيقون . وفي مقدوركم أن تثبتوا بالبرهان أى شىء
بوساطة الميتافيزيقا* . وحيث إن هذه هى طريقنكم ، فإن كل ميتافيزيقى
يستطيع أن يبرهن على خطأ كل ميتافيزيقى آخر - بما يتفق واقتناعه .
أتم فوضويون فى ملكة الفكر ، وصناع أكوان من الممتوهين . فكل
واحد منكم غارق فى كون من صنعه ، خلقه من أوهامه ونزواته . أتم
لا تعرفون العالم الواقعى الذى تحيون فيه . ولا يحتمل تفكيركم مكاناً فى
العالم الواقعى ، إلا بقدر ما يمثل ظاهرة الشذوذ العقلى .

دأتملون بماذا ذكرنى منظركم ، وأنا جالس إلى المائدة أصفى إليكم
وأتم تتحدثون وتتحدثون؟ ذكرنى على وجه الدقة ، بالمدرسين فى العصور
الوسطى ، وهم يتجادلون فى هبة وتبحر فى العلم حول سؤال استحوذ على
تفكيرهم : كم ملاكا يستطيع أن يرقص على طرف إبرة ؟ لماذا أتم
بأسادنى الأعزاء بمنأى عن الحياة العقلية للقرن العشرين ، كما لو أنكم
نحاكون الساحر الهندى فى الغابة البدائية ، وهو يقوم بعمل التعاويذ منذ
عشرة آلاف سنة .

• وبينما كان إرنست يتكلم ، بدت عليه انفعالات رائعة . فقد اتقد
وجهه ، وقدحت عيناه ومبضا ، وكانت ذقنه وفكه يفضحان عن نزعة
عدوانية . ولكن تلك كانت طريقته ، ودأتما ما أثارت الناس . فقد كانت
- عند الهجوم عليهم - بمثابة مطرقة تدق أعناقهم . ولطالما جعلتهم
ينسون أنفسهم . وهام ضيوفنا الآن ينسون أنفسهم بالفعل . فالأسقف
مورهاوس كان متكثراً إلى الامام ومصغياً يامعان ، وتورد وجه الدكتور
هرفيلد بالحنق والغضب كما استبد الغيظ بأخرين . بينما كان بعضهم يبتسم

* الميتافيزيقا هى البحث فيما وراء الطبيعة . (المترجم)

في نشوة وتعال. أما أنا فقد وجدت أن الموقف في غابة المتعة ورحمت أختلس للنظر إلى أبي . فتملكني الخوف وأنا أراه على وشك أن يقمقه من تأثير هذه القبلة البشرية ، بينما هو مدان بتفجيرها بينما .

وقاطعه الدكتور همر فيلد :

— « إن اصطلاحاتك غامضة إلى حد ما ، فما الذي تعنيه على وجه التحديد عندما تدعونا بالميتافيزيقيين ؟ » .

وتابع إرنست كلامه :

« أنا أدعوكم بالميتافيزيقيين لأنكم تفكرون بمنهج ميتافيزيقي . إن منهجكم في التفكير يناقض المنهج العلمي . فليس هناك أي دليل على صحة استنتاجكم . وفي وسعكم أن تبهضوا على كل شيء ، بينما لا شيء في مقدوركم يمكن إثباته . ولا يستطيع اثنان منكم أن يتفقا على شيء ما . فكل منكم يدخل إلى وجدانه ليفسر ذاته ويفسر الكون . أتم تفسيرون الوجدان بالوجدان ، مثلما تجذبون أربطة أحذيتكم إذا ما أردتم أن ترفعوا أنفسكم » .

فقال الأسقف مورهاوس :

— « لست أفهم . فقد يخيل إلي أن كل نتاج العقل ميتافيزيقي . فالرياضيات ، وهي أكثر العلوم صحة وإقناعاً ، ميتافيزيقية محضة . وأي ... بل كل عملية فكرية للفكر العلمي ميتافيزيقية . بالتأكيد سوف تقرني على ذلك أليس كذلك ؟ »

فأجابه إرنست :

— « أنت كما قلت لست فاهما . فالميتافيزيقي يفكر على نحو استنباطي من خلال ذاته . أما العالم فيفكر على نحو استقرائي من خلال وقائع

التجربة . إن تفكير الميتافيزيقي يبدأ من النظرية إلى الوقائع ، بينما ينطلق تفكير العالم من الوقائع إلى النظرية . الميتافيزيقي يفسر الكون من خلال ذاته ، أما العالم فيفسر ذاته من خلال الوجود .

فغمغم الدكتور همرفيلد في ارتياح :

— « نحمد الله على أننا لسنا علماء ، ا

وسأله إرنست :

— « ماذا تكونون إذن ؟ » .

— « فلاسفة » .

فضحك إرنست وقال :

— « ألم أقل لك ؟ لقد تركت الأرض اليابسة الواقعية ، ورحت
تنخذ من إحدى الكلمات طائرة لك ، تخلق بها في الهواء . أتوسل إليك
أن تهبط إلى الأرض ، وتجبرني على وجه التحديد ما الذي تعنيه بالفلسفة ؟ » .

— « الفلسفة هي . . . (توقف الدكتور همرفيلد ثم تنحج) هي
شيء لا يمكن تعريفه باستيعاب إلا لمثل تلك العقول والطباع التي جبلت
على الفلسفة . فإن العالم ذا الأفق الضيق ، والذي يحشر أنفه في أنبوبة
اختبار ، لا يستطيع أن يفهم الفلسفة ، » .

وتجاهل إرنست الطعنة ، فقد كان من طريقته دائماً أن يتجاهل الطعنة
ليردها إلى صدر الخصم . وما هو ذا الآن يردها في بشاشة أخوية تألقت
على وجهه وفي لهجة حديثه :

— « إذن ؛ سوف تفهم دون شك التعريف الذي سأعرف به الفلسفة
الآن . ولكن قبل أن أصوغ هذا التعريف ، سوف أتحدثك أن تشير

إلى أى خطأ فيه ، أو تبقى ميتافيزيقيا صامتاً . فالفلسفة لا تعدو أن تكون أوسع العلوم كلها ، ومنهجها في التفكير هو نفس المنهج الذى يتبعه أى علم بعينه ، بل العلوم كلها . وبنفس هذا المنهج في التفكير ، المنهج الاستقرائى ، تصهر الفلسفة جميع العلوم في علم واحد جامع . وكما يقول « سبنسر » إن مدلولات أى علم بذاته هى جزئياً معرفة موحدة . فالفلسفة توحد من المعرفة التى تعطىها كل العلوم مجتمعة . الفلسفة هى علم العلوم ، هى سيد العلوم إذا شئت . فأرايك فى تعريفى ؟ .

فتعمم الدكتور همرفيلد فى تخاذل :

- « تعريف جدير بالثقة ، جدير جداً بالثقة » .

ولكن إرنست لم يكن يعرف الرحمة ، فانبرى قائلاً :

- « تذكر أن تعريفى يضع نهاية للميتافيزيقا . وإذا لم تظهر الآن أية ثغرة فيه ، فلسوف تفقد حقاك فى أن تتقدم فيما بعد بحجج ميتافيزيقية . ينبغى أن تجوب الحياء بحثاً عن هذه الثغرة ، وحتى تعثر عليها ، عليك أن تلوذ بالصمت بوصفك ميتافيزيقياً » .

وانتظر إرنست وكان الصمت ألبماً . ووخز الألم الدكتور همرفيلد ، وغلبته الحيرة . فإن هجوم إرنست كان بمثابة مطرقة أوقعته فى بلبلة . وهو لم يألف بعد هذا الأسلوب البسيط المباشر فى المجادلة ، فراح يتلفت حول المائدة ليلتمس العون . ولكن أحداً لم يسعفه . وضبطت أبى يخفى عجزه فى فوطة المائدة .

وقال إرنست ، بعد أن أنزل بالدكتور همرفيلد الهزيمة الفاصلة :

- « هناك طريقة أخرى للحكم على الميتافيزيقيين بعدم صلاحيتهم . فلنحكم عليهم من خلال أعمالهم . ما الذى فعلوه من أجل الجنس البشرى

سوى نسج التخيلات الوهمية ، وتصوير أنفسهم كظلال الآلهة ؟ . إنهم
أضافوا إلى مرح الجنس البشرى شيئاً جديداً ، أنا أقر بذلك . ولكن
ما هو الخير المدوس الذي فلوله من أجل الجنس البشرى ؟ لقد تفلسفوا
وأستمبحكم عنراً أسوأ استعمالي للحكمة — تفلسفوا عن القاب بوصفه
مقراً للعواطف ، بينما كان العلماء يصوغون الدورة الدموية . وأعلنوا
على الملأ أن المجاعة والأوبئة قصاص أنزله الله ، بينما كان العلماء يبنون
صوامع الغلال ، وينشئون شبكة من المجارى بالمدن . وصنعوا آلهة على
صورهم ، وتتفق مع رغباتهم ، بينما كان العلماء يشقون الطرق ويشيدون
الجسور . ووصفوا الأرض على أنها مركز الكون ، بينما كان العلماء
يكشفون الفارة الأمريكية ويختبرون الفضاء بحثاً عن الأجرام السماوية
ومعرفة قوانينها . وباختصار ، لم يفعل الميتافيزيقيون شيئاً من أجل الجنس
البشرى . . . لا شيء على الإطلاق . وأمام تقدم العلم ، بدوا
يدحرون إلى الوراء خطوة خطوة . وما إن قوضت حقائق العلم المؤكدة
تفسيراتهم الذاتية عن الأشياء ، حتى أطلقوا تفسيرات ذاتية جديدة ،
تضمنت تفسيرات لآخر الحقائق المثبتة . وهذا بلا ريب ما سوف يستمررون
عائيه أبد الدهر . إن الميتافيزيقي ، أيها السادة ، ساحر دجال . وليس
الفرق بينكم وبين إنسان الإسكيمو الذي يصنع إلهاً يتلفع بالفرو ، ويأكل
دهن الحوت ، سوى مجرد فرق بضعة آلاف سنة من الحقائق المثبتة .
هذا كل ما هنالك .

ولكن الدكتور بالينجفورد أعلن في تباه :

— ومع ذلك ، فإن فكر أرسطو قد ساد أوروبا طوال اثني عشر
قرناً . وكان أرسطو ميتافيزيقياً .

وجال الدكتور بالينجفورد يبصره حول المائدة ، فكوفي* بابتسامات
الاستحسان وإيماءات الموافقة ، ورد عليه إرنست :

— « ما أنعم المثل الذي ذكرته ! فانت تشير إلى حقبة مظلمة في تاريخ الإنسانية . ونحن في اواقع نسمى هذه الحقبة بالعصور المظلمة . فهي حقبة انتهك فيها الميتافيزيقيون العلم ، حيث تحول علم الفيزياء إلى بحث عن حجر الفلاسفة ، وعلم الكيمياء ، إلى وسيلة لتحويل المعادن إلى ذهب ، وعلم الفلك إلى تنجيم . كما أنا آسف على هذه السيادة التي كانت لفكر أرسطو ، .

وبدا الدكتور بالينجفورد متألماً ، ثم ما لبث أن أشرق وجهه وقال :

— « حتى ولو سلطنا هذه الصورة الفظيعة التي رسمتها لنا ، فينبغي أن نعرف بأن الميتافيزيقا كان لها من السيطرة الفطرية حد استطاعت به أن تسحب الإنسانية من هذه الحقبة المظلمة ، وتخرج بها إلى نور القرون التي أعقبها ، .

فأجابه إرنست مفحماً إياي :

— « ليس للميتافيزيقا علاقة بذلك ، .

فصاح الدكتور همرفيلد :

— « ماذا أأم يؤد التفكير والتأمل إلى رحلات الاستكشاف ! ، .

فابنسم إرنست وقال .

— « آه ، ياسيدي العزيز لقد حسبتك غير أهل للمناقشة . فانت لم تكتشف بعد الثغرة في تعريفى للفلسفة . أنت تقف الآن على قاعدة واهية ولكن هذه هي طريقة الميتافيزيقيين . وأنا أعتذر لك ذلك . كلا ، أعود فأقول ليس للميتافيزيقا علاقة بذلك . فالخبز والزبد ، والحرير والجواهر والدولارات والسنتات ، وإغلاق الطرق التجارية البرية إلى الهند (على نحو طارىء ، هي العوامل التي أدت إلى رحلات الاستكشاف فعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، أوصل الأتراك طريق القوافل إلى الهند .

وتعين على تجار أوروبا أن يجدوا طريقاً آخر . هنا يمكن المبرر الأصلي لرحلات الاستكشاف . فما أبحر كولمبس ، إلا ليجد طريقاً جديداً إلى جزر الهند الشرقية . هذا ما ذكرته جميع كتب التاريخ . وبطريق الصدفة عرفت حقائق جديدة عن طبيعة وحجم وشكل الكرة الأرضية . فجا نألق النظام البطليموسى وانتهى .

وهنا زجر الدكتور همفيلد ، فسأله إرنست :

- ألا تتفق معي إذن ، أين موطن الخطأ في كلامي ،

فاحتد الدكتور همفيلد قائلاً :

- لا أستطيع سوى أن أؤكد موقفي فحسب . فهذه قصة أطول من أن نخوض فيها الآن ، .

فقال إرنست في رقة :

- ليس هناك قصة - مهما طاللت - لا يستطيع العالم أن يخوض فيها ، وهذا هو السبب الذي من أجله يصل العالم إلى أماكن نائية . وهو السبب الذي دفعه على الوصول إلى القارة الأمريكية .

لن أصف السهرة كلها ، رغم أنها متعة لي أن أستعيد في ذاكرتي كل التفاصيل ، وكل لحظة من تلك الساعات الأولى التي بدأت أتعرف فيها يارنست إيفر هارد .

فقد احتدمت معركة رائعة ، وازداد هياج القساوسة وكست وجوههم حمرة الغضب ، خاصة عندما كان إرنست يدعوهم بالفلاسفة الرومانتيكيين وبالخياليين الذين ينسجون الظلال الباهتة ، وما شابه ذلك ، بيد أنه كان في كل مرة يكبح شرودهم ، ويردهم إلى الحقائق ، فكما أوقع أحدهم في مأزق أعلن في انتصار : الحقيقة يارجل . . الحقيقة التي لا تدحض ، ، كان

مدججا بسلاح الحقائق ، كمن لهم بالحقائق ، أعرهم بالحقائق ، ونصب لهم المدفعية لتطلق عليهم وإبلا من الحقائق ، .

قال الدكتور همرفيلد ساخراً :

- « يبدو أنك تتعبد في محراب الحقيقة ، .

وأعقبه الدكتور بالينجفورد بالتفسير :

- « ليس هناك ثمة إله سوى الحقيقة ، ومستر إيفر هارد هونديا ، .

فأذعن إرنست مبتسماً وقال :

- « أنا مثل الرجل التكساسي ، .

وحين التمسوا منه إيضاحاً ، أضاف مفسراً :

- « إن ابن ولاية ميسوري - كما ترون - يقول دائماً : « يتعين

عليك أن تربي ، بينما يقول ابن ولاية تكساس « عليك أن تقنعني بدليل

ملبوس ، . ومن قوله هذا يتضح أنه ليس ميتافيزيقياً ، .

ومرة أخرى ، ما إن قال إرنست إن الفلاسفة الميتافيزيقيين لا يمكنهم

أن يواجهوا محك الحقيقة ، حتى انبرى الدكتور همرفيلد فجأة يسأله :

- « وما هو محك الحقيقة أيها الشاب ! هل تتكرم فتفسر لنا ما حير

منذ عهد طويل ، رهوساً أكثر حكمة من رأسك ، .

- « بالتأكيد ، . أجاب إرنست وقد أثارهم اعتداده بنفسه . لقد

واجهت رهوس الحكمة هذه الحيرة المريرة في أمر الحقيقة لأنهم راحوا

يبحثون عنها في السماء ، وهم كان من السهل أن يعثروا عليها ، لو أنهم بقوا

على الأرض . أجل ، ولوجدوا أنفسهم يختبرون الحقيقة بكل تصرف

عملي ، وبكل فكر يخطر في حياتهم ، .

فانبرى الدكتور همرفيلد يردد وقد فُيغ صبره :

وتعين على تجار أوروبا أن يجدوا طريقاً آخر . هنا يكمن المبرر الأصلي لرحلات الاستكشاف . فاجبر كولمبس ، إلا ليجد طريقاً جديداً إلى جزر الهند الشرقية . هذا ما ذكرته جميع كتب التاريخ . وبطريق الصدفة عرفت حقائق جديدة عن طبيعة وحجم وشكل الكرة الأرضية . نجبا نالق النظام البطليموسى وانتهى .

وهنا زجر الدكتور همرفيلد ، فسأله إرنست :

— « ألا تنفق معى إذن ، أين موطن الخطأ فى كلامى ا ،

فاحتد الدكتور همرفيلد قائلاً :

— « لا أستطيع سوى أن أؤكد موقفى فحسب . فهذه قصة أطول من

أن نخوض فيها الآن ، .

فقال إرنست فى رقة :

— « ليس هناك قصة — مهما طال — لا يستطيع العالم أن يخوض

فيها ، وهذا هو السبب الذى من أجله يصل العالم إلى أماكن نائية . وهو

السبب الذى دفعه على الوصول إلى القارة الأمريكية . »

لن أصف السهرة كلها ، رغم أنها متعة لى أن أستعيد فى ذاكرتى كل

التفاصيل ، وكل لحظة من تلك الساعات الأولى التى بدأت أتعرف فيها

بارنست إيفر هارد .

فقد احتدمت معركة رائعة ، وازداد هياج القساوسة وكست وجوههم

حمره الغضب ، خاصة عندما كان إرنست يدعوهم بالفلاسفة الرومانتيكيين

وبالخياليين الذين ينسجون الظلال الباهتة ، وما شابه ذلك ، بيد أنه كان

فى كل مرة يكبح شرودهم ، ويردهم إلى الحقائق ، فكلمها أوقع أحدهم فى مازق

أعلن فى انتصار : « الحقيقة يارجل . . الحقيقة التى لا تدحض ، ، كان .

مدججا بسلاح الحقائق ، كمن لهم بالحقائق ، أعثرهم بالحقائق ، ونصب لهم المدفعية لتطلق عليهم وابلا من الحقائق ، .

قال الدكتور همرفيلد ساخرأ :

— « يبدو أنك تتعبد في محراب الحقيقة ، .

وأعقبه الدكتور بالينجفورد بالتفسير :

— « ليس هناك ثمة إله سوى الحقيقة ، ومستر إيفر هارد هونبها ، .

فأذعن إرنست هبتسما وقال :

— « أنا مثل الرجل التكساشي ، .

وحين التمسوا منه إيضاحا ، أضاف مفسرا :

— « إن ابن ولاية ميسوري — كما ترون — يقول دائما : « يتعين

عليك أن تربي ، بينما يقول ابن ولاية تكساس « عليك أن تقنعني بدليل

ملموس ، . ومن قوله هذا يتضح أنه ليس هبتا فيزيقيا ، .

ومرة أخرى ، ما إن قال إرنست إن الفلاسفة الميتافيزيقيين لا يمكنهم

أن يواجهوا محك الحقيقة ، حتى انبرى الدكتور همرفيلد فجأة يسأله :

— « وما هو محك الحقيقة أيها الشاب اهل تككرم فتفسر لنا ما حير

منذ عهد طويل ، ره وسا أكثر حكمة من رأسك ، .

— « بالنأ كبد ، . أجب إرنست وقد أثارهم اعتداده بنفسه . ولقد

واجهت الروس الحكيمة هذه الخيرة المريرة في أمر الحقيقة لأنهم راحوا

يبحثون عنها في السماء ، ولم كان من السهل أن يعثروا عليها ، لو أنهم بقوا

على الأرض . أجل ، ولو جدوا أنفسهم يختبرون الحقيقة بكل تصرف

عملي ، وبكل فكر يخطر في حياتهم ، .

فانبرى الدكتور همرفيلد يردد وقد فرغ صبره :

— المحك . . . المحك . دعنا من المقدمات . أعطنا ما قد بحثنا عنه
طويلاً . . . محك الحقيقة . أعطنا إياه وعندئذ نغدو كالألهة ، .

وكان في كتاباته ، وفي لهجة حديثه ريبة ساخرة غير مهذبة ، أدخلت
السرور على معظم الجالسين إلى المائدة . ولكن يبدو أنها ضاقت الأسقف
مورهاوس .

فقال إرنست :

— لقد عبر عنه الدكتور جوردان^(١) بشكل واضح للغاية ، فإن محك
الحقيقة عنده هو : هل لها أية صلاحية ، هل تأتمنها على حياتك ؟ ،
فرد عليه الدكتور همرفيلد في استهزاء :

« بئح . . . إنك لم تأخذ الأسقف بيركلي^(٢) في الحسبان فأنت لم ترد
عليه قط ،

ضحك إرنست وقال :

— « أنبل الميثافيزيقيين جميعهم ، ولكنك تذكر مثلاً تعسا ، فإن
ميثافيزيقية بيركلي — كما قرر بذلك — قد أخفقت ، .

وغضب الدكتور همرفيلد ، وكان محقاً في غضبه . فقد اعتقد أنه
أمسك بإرنست متلبساً في سرقة أو أ كذوبة وصاح فيه :
— « إن حكمك هذا أيها الشاب يتساوى مع كل ما تفوهت به اللبلة ،
فهو ادعاء وضع لا يستند إلى أى أساس من الصحة ، .

(١) مربي مشهور في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين
وكان مديراً لجامعة ستانفورد ، وهي إحدى الهيئات الخاصة في تلك الأيام
(٢) أحد المثاليين القائلين بوحداية الكون . وطالما حير فلاسفة ذلك
العصر بانكاره لوجود المادة . ولكن ما لبثت أن انهارت حججه البارعة ،
عندما عممت حقائق العلم التجريبية على نحو فلسفى .

فرد إرنست في مداعبة :

- « إنني سحقت سحقا . فقط لا أدري ما الذي أصابني ؟ ينبغي
يا دكتور أن تقنعني بدليل ملوس . »

فغمغم الدكتور همرفيلد :

- « سأفعل . . سأفعل ، ما أدراك ؟ أنت لا تعرف أن الأسقف
بيركلي قد أقر بفشل ميتافيزيقيته . فليس لديك أي برهان . إن الميتافيزيقا
- أيها الشباب - كانت دائما على صواب . »

- « إن ما أثبت لي أن ميتافيزيقية بيركلي قد أخفقت ، هو
وتوقف إرنست لحظة ، ثم أضاف في وداعة : « هو أن بيركلي درج بثبات
على أن يدخل من الأبواب بدلا من الجدران . . لأنه اتعن حياته على
الخبر والزبد واللحم المقدد ، لأنه حلق بشفرة أثبت صلاحيتها عندما
أزالت الشعر من وجهه . »

فصاح الدكتور همرفيلد :

- « ولكن هذه أشياء حقيقية والميتافيزيقا شيء عقلي . »

فسأله إرنست في رفق :

- « وهذه الأشياء ، ألا تعمل في - العقل ؟ »

فهم الآخر رأسه بالإيجاب . وتابع إرنست كلامه :

- « وحتى جمهرة من الملائكة تستطيع أن ترقص على طرف إبرة
تعمل في - العقل . والإله الذي يتلفع بالفرو ويتغذى على دهن الحوت
يستطيع أن يوجد ويعمل في - العقل . وليس هناك براهين على عكس

ذلك - في العقل . ألسنت علي ما أعتقد يادكتور - ألسنت تعيش في العقل ؟

- « إن عقلي بالنسبة لي مملوك » .

- « وبتعبير آخر . أنت تخلق في سماء الخيال . ولكنني علي ثقة من أنك تعود إلى الأرض وقت الطعام ، أو حين تحدث هزة أرضية . أو أخبرني يادكتور ، ألا تخشى علي جسدك المعنوي من أن يصاب - في أثناء هزة أرضية - بقالب طوب غير مادي ؟ » .

وفي الحال ، وبلا أدنى وعي ، اندفعت يد الدكتور همرفيلد إلى رأسه حيث توارت ندبة جرح تحت الشعر . فقد تصادف أن ساق إرنست مثلاً محكماً . ذلك أن الدكتور همرفيلد كاد أن يلقى حتفه - في أثناء الزلزال العظيم^(١) . عندما انهارت عليه إحدى المداخن . فاستغرق الجميع في الضحك .

وتسأل إرنست بعد أن هدأت العاصفة :

« حسناً ! ألدريك براهين علي عكس ذلك ! » .

وفي غمرة الصمت تسأل ثانية :

« حسناً ! . . . ما زلت أقول حسناً ! أما حججكم فهي رديئة ! » .

بيد أن الدكتور همرفيلد كان قد سحق مؤقتاً . فاحتدت المعركة في اتجاهات جديدة . وراح إرنست يتحدى القساوسة في نقطة تلو نقطة . وحين أكدوا معرفتهم للطبقة العاملة ، روى لهم حقائق أساسية عنها ، ما كانوا يعرفونها ، وتحداهم أن يدحضوها . لقد زودهم بالحقائق ، دائماً

(١) زلزال عام ١٩٠٦ العظيم الذي دمر سان فرانسيسكو .

بالحقائق . وتم من مرة كبح فيها تحليقهم في الهواء ، وأعادهم إلى الأرض
اليابسة وإلى حقائقها .

كم يبدو المشهد أمام ناظري واضحاً ، ففي وسمى الآن أن أسمعه وفي
صوته نعمة الحرب - يسلخهم بحقائقه . وكل حقيقة منها تنزل عليهم
كضربات سوط تلهب أجسادهم . كان قاسياً . لم يقبل الرحمة من أحد ،
ولم يتفضل بها على أحد^(١) . ولن أنسى ما حيتت عبارات التقرير التي وجهها
لهم في النهاية .

- لقد اعترفت ليلة ، مراراً وتكراراً ، سواء بالمجاهرة المباشرة ،
أو بالأحكام الجاهلة ، أنكم لا تعرفون الطبقة العاملة ، ولكن لا لوم عليكم
في هذا . فأنى أن تعرفوا شيئاً عن الطبقة العاملة ؟ أنتم لا تعيشون في نفس
المكان مع الطبقة العاملة ، بل تقيمون مع الطبقة الرأسمالية في مكان آخر .
ولم لا ؟ إن الطبقة الرأسمالية هي التي تدفع لكم ، هي التي تطعمكم ، هي التي
تخلع عليكم هذه الملابس الخاصة التي ترتدونها الليلة . وفي مقابل ذلك ، تعظون
مخدوميكم بأنواع من الميتافيزيقا ، هي بشكل خاص مقبولة لديهم ، وهم
يتقبلونها لأنها لا تهدد نظام المجتمع القائم ، .

وهنا دب حول المائدة هرج ومرج من المعارضة .

وتابع إرنست كلامه :

- ، أوه ، أنا لا أظن في إخلاصكم . فأنتم مخلصون . إنكم تعظون

(١) هذه الصورة مستوحاة من تقاليد تلك العصور . ففي المباريات
التي يتصارع فيها الرجال حتى الموت ، على طريقتهم الحيوانية الضاربة ،
كان إذا ما ألقى المصارع المنهزم بسلاحه ، فإن المصارع المنتصر كان عليه
أما ان يذبح منافسه ، وأما ان يبقى على حياته .

بما تؤمنون به . وهنا تكمن قوتكم وقبمتكم لدى الطبقة الرأسمالية . أما إذا خطر لكم أن تغيروا اعتقادكم بما يهدد نظام المجتمع القائم ، فإن وعظكم يصبح غير مقبول لدى مستخدميكم . وعندئذ تطردون من الخدمة^(١) . وعلى أية حال ، فبين فترة وأخرى ، يفصل واحد منكم على هذا النحو . ألسنت على صواب .

وفي هذه المرة ، لم تكن هناك معارضة . فقد جلسوا مدعنين في ذهول ماخلا الدكتور همرفيلد الذي قال :

- « إنما يطلب منهم الاستقالة إذا كان تفكيرهم خاطئاً ، .

فأجابه إرنست :

- « وبتعبير آخر ، إذا كان تفكيرهم غير مقبول ، . ثم تابع كلامه :

- « لذلك أقول ، امضوا في سبيلكم . بشروا بمواعظكم . اقبضوا أجوركم . ولكنني أتوسل إليكم بحق الإله ، أن تتركوا الطبقة العاملة وشأنها . فأنتم تنتمون إلى معسكر العدو . وليس بينكم وبين الطبقة العاملة أية علاقة مشتركة . إن أيديكم ناعمة لأنكم عشتم على عمل الآخرين ويطونكم منخمة لأنكم أسرقتم في الطعام ؛ وهنا انتفض الدكتور بالينجفورد ، إذ راحت كل العيون تحمق في بطنه الضخم . وقد قيل إنه لم يرقديه منذ سنوات ؛ ، وعقولكم محشوة بمذاهب لاتعدو أن تكون سوى دعائم للنظام القائم . أنتم جنود مرتزقة ؛ مرتزقة مخلصون - أنا أقر بذلك) مثلما كان رجال الحرس السويسري^(٢) . اخدموا أرباب

(١) طرد خلال تلك الفترة ، كثير من القسس من الكنيسة لتبشيرهم بمقائد غير مقبولة . وقد طردوا بصفة خاصة عندما أضفوا على وعظهم صيغة اشتراكية .

(٢) الحرس الاجنبي المستأجر ليحرس قصر لويس السادس عشر ، أحد ملوك فرنسا الذي أعدمه الشعب .

نعمتكم ومستأجربكم . احرسوا بواعظكم مصالح مستخدميكم ، ولكن
لا تنزلوا إلى الطبقة العاملة وتخدموا في صفوفها كقادة زائفين . فليس في
مقدوركم أن تنتموا بإخلاص إلى كلا المعسكرين في آن واحد . إن الطبقة
العاملة في غنى عنكم . وصدقوني أنها ستواصل كفاحها بدونكم . بل
أكثر من ذلك إنها تستطيع أن تكون أحسن حالا بدونكم عما لو كنتم معها .»

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثاني

« تحديات »

ما إن انصرف الضيوف حتى ارتمنى والدى على أحد المقاعد ، وأطلق
لنفسه العنان في دوى هادر من الضحك ، فنذ وفاة أمي لم أره يضحك هكذا
من كل قلبه .

وقال وهو يضحك :

— « أراهن أن الدكتور همر فيلد لم يواجه قط هذا الموقف في حياته .
آداب الجدال الإكليريكي أهل لاحظت كيف بدأ كالحل - أقصد إيفر هارد -
ثم كيف انقلب أسداً مزججراً ؟ إن لديه عقلاً منظماً على نحو رائع ، وكان
في استطاعته أن يصبح عالماً ناجحاً ، لو وجهت طاقاته في هذا الاتجاه . »

ولست في حاجة إلى القول بأن إرنست إيفر هارد أصبح موضع اهتمامي
على نحو عميق ، ولم يكن مبعث اهتمامي ما قاله أو الكيفية التي تحدث بها
فحسب ، بل الرجل نفسه . فلم يحدث قط أن التقيت برجل مثله ، ويخيل
إلي أن هذا هو السبب الذي من أجله لم أتزوج حتى الآن ، رغم أنني بلغت
من العمر أربعة وعشرين عاماً . إنني أحببته ، يجب أن أعترف بذلك لنفسي
وقد انبني حبي له على بواعث أبعد عن أن تكون لمجرد فطنته أو روعة
مناقشته ، فبصرف النظر عن عضلاته البارزة ، وحنجرته التي تشبه حنجرة
المصارع المحترف ، فقد تأثرت به كفتي صادق ، وشعرت أن روحاً حساسة
رقيقة تتوارى تحت ثياب هذا المثقن المتعطر . أحسست ذلك بوسائل
لم أعرفها ، عدا ما كان متعلقاً بيديها المرأة .

كان في صوته ، الذي يشبه نداء النفير ، شيء ما نفذ إلى قلبي . إنه مازال يرن في أذني . وشعرت برغبة في أن أسمعه من جديد . وأن أرى بريق الضحك في عينيه ، والذي يتناقض مع جدية الانفعالات التي تبدو على وجهه . واضطرت في نفسي مشاعر غامضة لم أدرك كنهها . فغالبا ما أكون قد أحببته حينذاك . ورغم ذلك ، فقد كنت على ثقة من أنني لولم أقابله مرة أخرى ، لتلاشت هذه المشاعر الغامضة ، ولكنت قد نسيت في سهولة .

ولكن الأقدار شامت أن أراه مرة أخرى . فقد كان اهتمام أبي الناشئ . بعلم الاجتماع ، وبالمآدب التي راح يقيمها ، ما أتاح لي فرصة رؤيته . ولم يكن أبي من علماء الاجتماع فقد كان بزواجه من أمي سعيداً جداً ، وكان سعيداً للغاية بالابحاث التي يجريها في علم الفيزياء ، وهو مجال اختصاصه . ولكن عندما ماتت أمي ، كان عمله أعجز من أن يملأ الفراغ الذي خلفته . فاتجه في بادئ الأمر إلى الفلسفة ، اتجه إليها في استخفاف ودون حماسة ، وبعد ما أصبح شغوفاً بها ، انساق إلى علوم الاقتصاد والاجتماع . كان لديه إحساس مرهف بالعدالة وسرعان ما اضطرت في نفسه عاطفة متقدة من أجل القضاء على الظلم . وقد رحبت في امتنان بيوادر هذه الميول الجديدة في الحياة ، وإن كنت لم أومل كثيراً في نتيجة مرجوة . وفي حماس الصبا ، انغمس بهمة في هذه الميول الجديدة ، بصرف النظر عن المآل التي تقوده إليها .

كان أبي قد تعود دائماً على المعمل . ولذلك حول حجرة المائدة إلى منتدى خاص بعلم الاجتماع . وهناك كان يأتي على العشاء رجال من كل نوع ، وعلى اختلاف مقاماتهم ؛ من علماء ، وسياسيين ، وأصحاب بنوك ، وتجار ، ومدرسين ، وقادة عمالين ، وإشتراكيين ، وفوضويين وغيرهم ، وكان يثيرهم للناقشة حتى يحلل أفكارهم عن الحياة والمجتمع .

كان أبي قد التقى يارنست قبيل «ليلة المبشرين» ، وبعد أن انصرف الضيوف ، عرفت منه كيف التقى به . فقد كان ماراً بأحد الشوارع ذات ليلة ، فتوقف ليصغى إلى رجل يعتلي صندوق صابون ، ويخطب في حشد من العمال . لم يكن هذا الرجل سوى يارنست . وليس معنى هذا أنه كان مجرد خطيب من أولئك الذين يعتلون صناديق الصابون ، بل كان يعتلي المنبر في مؤتمرات الحزب الاشتراكي . إذ كان أحد القادة ، بل القائد المعترف به في فلسفة الاشتراكية . ولكنه يمتاز بطريقة ثابتة واضحة في شرح كل ما هو غامض بلغة بسيطة . كان مفسراً ومعلماً بالفطرة ، ولم يكن يعتلي صندوق الصابون إلا كوسيلة يشرح بها علم الاقتصاد للعمال .

وتوقف أبي ليصغى ، فاستثير اهتمامه ، وسعى إلى عقد اجتماع معه ، وبعد أن تعرف إليه ، دعاه إلى المأدبة التي دعا إليها القساوسة . ولم يخبرني أبى ، بالقليل الذي عرفه عنه إلا بعد أن انفض العشاء . فقد ولد في أحضان الطبقة العاملة ، رغم انحدره من سلالة إيفر هارد^(١) العريقة ، التي عاشت في أمريكا فوق المائتين من الأعوام . وعندما بلغ العاشرة من عمره ، التحق بالعمل في المصانع . وبعد أن أنهى فترة التدريب ، أصبح حذاءً للخيل . لقد علم نفسه بنفسه ، فتعلم الألمانية والفرنسية . وكان في ذلك الوقت يكتب دخلاً من بلامن ترجمه مؤلفات علمية لإحدى دور النشر ، وهي دار اشتراكية مكافئة في شيكاغو . وإلى جانب دخله ، كان يحصل على فوائد مبيعات النسخ المحدودة من مؤلفاته الاقتصادية والفلسفية .

هذا كل ما عرفته عنه قبل أن أوى إلى فراشي . ولكني بقيت فترة طويلة مستيقظة وأنا مستلقية على الفراش ، أصغى في مخيلتي إلى صوته . وراودني الخوف من أفكارى . فقد كان رجلاً يختلف عن أبناء طبقتي

(١) كان هناك في تلك الأيام تمييز صارخ ومثير للبغضاء بين من ولد على أرض الوطن ، ومن ولد خارجها .

الاجتماعية غريبا وقويا إلى أبعد الحدود . وسرتني شخصيته المسيطرة
وأفزعني في نفس الوقت فقد راحت تخيلاتي تهيم على نحو طائش ، حتى
وجدت نفسي أتأمله عاشقا ثم زوجاً . وكنت دائما أسمع أن قوة الرجل
إغراء لا تقاومه النساء . ولكنه كان قويا أكثر مما يجب ، فأخذت أصبح :
« لا ، لا . هذا مستحيل . هذا هراء . وفي صبيحة اليوم التالي استيقظت
لأجد نفسي تتوق إلى رؤيته ، ووددت أن أراه يسود الرجال في المناقشة ،
وفي صوته نبرة الحرب ، أن أراه بكل ثقته وبكل قوته يززع فيهم راحة
البال ، ويهز جهودهم الفكرى . وماذا يضيرنا لو أنه بدأ رجلا متفطرسا ؟
ماذا لو أننا استمعنا عبارته : « هل لها آثار مفيدة ؟ أفلا تكمن لغطرسته
آثارها ؟ ألم تكن شيئا رائعا جديرا بأن نراه ؟ بلى ، إنها أثارت المرء إثارة
المركة في بدايتها .

ومضت عدة أيام . قرأت خلالها مؤلفات إرنست التي استعرتها من
أبي . كانت كلبته المكتوبة مثل كلبته المنطوقة ، وانحمة ومقنعة . وكانت
بساطتها التامة تدفع المرء إلى الاقتناع حتى ولو استرسل في الشك . كان
يتمتع بموهبة العرضح وكان المفسر السكامل . ومع ذلك ، ورغم أسلوبه
الواضح ، كانت هناك أشياء كثيرة لم تعجبني فيه . فقد علق أهمية كبرى
على ما أسماه بالصراع الطبقي ، والتناقض بين العمل ورأس المال ،
وتعارض المصالح .

كان أبي قد أبلغني في حور رأى الدكتور هرفيلد في إرنست . إذ بلغ
من تأثره أن قال عنه : « جرو صغير سفيفه ، أصبح بشقافة هزيلة قاصرة ،
مخلوقا مغرورا ، ومن أجل ذلك رفض أن يجتمع إلى إرنست مرة أخرى .

بيد أن الأسقف مورهاوس أبدى اهتماما بإرنست ، وتطاع إلى لقاء
آخر معه . فقد قال عنه : « شاب قوى مفعم بالحياة إلى حد كبير ،
ولكنه واثق من نفسه ، واثق أكثر مما ينبغي . »

وذاث يوم عند الأصيل ، حضر إرنست مع أبي . وكان الأسقف مورداوس قد وصل من قبل ، وشرعنا نحشى الشاي في الشرفة . وبالمناسبة فسرت إقامة إرنست على نحو مستمر في بيركلي ، بأنه كان يتلقى دروساً خاصة في علم الأحياء بالجامعة ، وبأنه كان منكباً على تأليف كتاب جديد بعنوان « الفلسفة والثورة »^(١) .

وعندما أقبل إرنست ، بدت الشرفة فجأة وكأنها لم تعد تسعنا . . . لا لأنه كان ضحماً جداً - فقد كان طوله لا يزيد على أربع أقدام وتسع بوصات - بل لأنه لاح كأنه يشع جواً من الضخامة ، وحين رقف ليلاً في خاتته نفسه ، فظهر عليه ارتباك طفيف ؛ كان مغايراً بشكل غريب لجراءة عينيه ، وثباته ، ويده أو أوائفة التي احتضنت يدي لحظة حين صاحني ، وفي هذه اللحظة بالذات ، بدت عيناه بمثل الثبات والنقطة اللتين عرفنا بهما ، وإن لاح فيهما هذه المرة تساؤل ما . وكما حدث من قبل ، راح يطيل النظر إلى .

وقلت له :

كنت أقرأ كتابك « فلسفة الطبيعة العاملة » .

وأجابني وقد ومضت عيناه في سرور :

- « بالطبع وضعت في اعتبارك طبقة القراء التي يخاطبها الكتاب » .

فقلت متحدية .

- « هذا ما فعلته ومن أجل ذلك سوف أتشاجر معك » .

وقال الأسقف مورهاوس :

(١) ظل هذا الكتاب يطبع سرا طوال القرون الثلاثة التي ساد فيها « القدم الحديدية » ومن هذا الكتاب توجد نسخ عديدة من طبعات مختلفة في المكتبة الوطنية في اردبس .

- وأنا أيضا أريد أن أتشاجر معك يا مستر لفر هارد ، .
وهز إرنست كنفية بلا مبالاة ، وتناول قدحا من الشاي وانحنى
الأسقف وأعطاني الأسبقية في الكلام :

- أنت تثير الكراهية بين الطبقات . وأنا أعتبر أنه من الخطأ ، بل
من الجرم أن تستثير كل النوازع الضيقة والبهيمية لدى الطبقة العاملة .
إن الكراهية الطبقيّة ليست شيئا اجتماعيا . ويبدو لي أنها مضادة للاشتراكية .
فأجاب :

- غير مذنب . فلم يرد مطلقا ذكر الكراهية الطبقيّة في أي شيء
كتبته لا نمسا ولا روحا ، .

فصحت فيه بملامة :

- أوه ، . ومددت يدي أتناول كتابه ، ثم فتحتة وفيما كنت أتصفح
الكتاب بسرعة أخذ يرتشف الشاي وييسم لي . وقرأت بصوت عال .

- صفحة ١٣٢ : وهكذا يبرز الصراع الطبقي في المرحلة الحالية
من التطور الاجتماعي بين الطبقة المالكة وبين طبقة الأجراء ، .

ونظرت إليه ، وتد غمرتني نشوة الانتصار . ولكنه عاد يتسهم وقال :

- لا أجد هنا شيئا يشير إلى الكراهية الطبقيّة ، .

- ، لكنك تقول الصراع الطبقي ، .

- ذلك شيء مختلف عن الكراهية الطبقيّة . وصدقيني نحن لا نثير
أية كراهية . نحن نقول إن الصراع الطبقي هو القانون الذي يحكم التطور
الاجتماعي . واسنا مشواين عن ذلك . فنحن لا نصنع الصراع الطبقي ،
ولأننا نقوم بمجرد تفسيره فحسب ، تماما مثلما فسر نيوتن ، قانون الجاذبية
نحن نفسر طبيعة التعارض بين المصالح ، والذي يحدث الصراع الطبقي ، .

فصحت فيه :

— « ولكن يجب ألا يكون هناك تعارض بين المصالح ، .

فأجابني :

— أنا أتفق معك من كل قلبي . ذلك ما نحاول نحن الاثرا كيين أن
نحققه — أن نلغي التعارض بين المصالح . معذرة ! اسمحي لي أن أقرأ لك
فقرة . وأخذ كتابه وراح يقاب عدة صفحات :

— « صفحة ١٢٦ : إن دورة الصراع الطبقي التي بدأت بالتحلل
المشاعية البدائية القبلية ، ونشوء الملكية الخاصة ، سوف تنتهي بزوال
الملكية الخاصة لوسائل الوجود الاجتماعي ، .

فاعترض الأسقف ، وقد تكشف وجهه الشاحب الصارم عن تالق
خافت من تدهة انفعاله :

— « ولكني لا أتفق معك . إن اقتراضك خاطيء . فلا يوجد مثل
هذا التعارض في المصالح بين العمل ورأس المال . أو بمعنى أصح ، ينبغي
الأ يكون موجوداً ، .

فقال إرنست في وقار :

— « أشكرك ، فأنت بعبارتك الأخيرة قد سللت باقتراضى » .
فتساءل الأسقف في مرارة :

— « ولكن لماذا يوجد هذا التعارض »
وهز إرنست كتفيه وقال .

— « لأننا خلقنا هكذا ، على ما أعتقد ، .
فصاح الآخر :

— ولكننا لم نخلق هكذا .

فتساءل إرنست :

— هل نتحدث عن الإنسان المثالي ؟ عن إنسان غير أناني وعلى صورة الإله ، إنسان نادر وغير موجود عملياً ؟ أم عن الإنسان العادي الشائع ؟ .

— الإنسان العادي الشائع .

- الذي هو ضعيف غير مصوم ، بل ميال للخطأ ؟ .

فهر الأسقف رأسه بالإيجاب .

— وتافه وأناني ؟ .

ومرة أخرى ، أو ما الأسقف برأسه .

فخذه إرنست .

— اتقه ، فأنا أقول إنسان أناني .

وأكد الأسقف قوله في رباطة جأش :

إن الإنسان العادي إنسان أناني .

— ويريد كل ما يستطيع الحصول عليه .

— ويريد كل ما يستطاع أن يحصل عليه . هذا صحيح ، ولكنه مؤسف ،

فأطبق إرنست فكيه ، وقال :

— لقد ضيقت عليك الخناق . دعني أوضح لك . فلنفرض هنا أن

رجلاً يعمل على خطوط المترو . .

فقطعه الأسقف قائلاً :

— ما كان في استطاعته أن يعمل ، لو لم يكن هناك رأس المال .

- هذا صحيح . وسوف تقرني على أن رأس المال ما كان في استطاعته أن يعيش لو لم يكن هناك عمل يجني من ورائه الأرباح . .

فاعتصم الأسقف بالصمت : ولكن إرنست ألح عليه :
- ألا تقرني على ذلك ؟ .

فاوما الأسقف برأسه بالموافقة . وقال إرنست في لهجة التسليم
بالأمر الواقع :

- عندئذ ، فإن رأى كل واحد منا يلفي رأى الآخر ، وعدنا إلى حيث بدأنا . لنبدأ الآن من جديد . فالعمال في خطوط ، المازو ، يقدمون العمل ، وحملة الأسهم يقدمون رأس المال ، وعن طريق الجهد المشترك الذي يقدمه كل من رأس المال والعمال يكتب المال^(١) . ويقسم الفريقان هذا المال المكتسب . فحصة رأس المال تسمى ، الفوائد ، وحصة العمل تسمى الأجر . .

وهنا تدخل الأسقف قائلاً :

- حسن جداً . ولكن ليس هناك ثمة مبرر يدعو إلى أن تتم القسمة على نحو عدائي . فرد عليه إرنست :

- يبدو أنك نسيت ما اتفقنا عليه من قبل . لقد اتفقنا على أن الإنسان العادي أناي . هذا هو الإنسان كما يجب في واقعه . ولكذك رحمت تخلق في الهواء ، لتحاول أن تجرى قسمة بين نوع من الناس ينبغي أن يسمو بإنكار الذات ، بينما هم في الواقع ليسوا سوى أنانيين . فلنعد إلى

(١) في تلك الأيام ، سيطرت جماعات من قطاع الطرق على جميع وسائل النقل ، وفرضت على الجمهور نفس الضريبة التي كانت تحصل من قبل .

الأرض. لما كان العامل إنساناً أمانياً ، فهو يطمع في أن يفوز بكل ما يستطيع الحصول عليه من القسمة . ولما كان الرأسمالي إنساناً أمانياً ، فهو يريد أن يحصل أيضاً على نصيب الأسد . وحين يطمع شخصان في الحصول على النصيب الأكبر من نفس الشيء ، فمندئذ ينشأ تعارض في المصالح ذلك هو التعارض في المصالح بين العمل ورأس المال ، وهو تعارض لا يقبل المصالحة . وما دام هناك عمال ورأسماليون فلسوف يستمر النزاع بينهما على القسمة . واو كنت في « سان فرانسكو » بعد ظهر اليوم ، لتعين عليك أن تسير على قدميك ، فلا توجد عربة واحدة تعمل على خطوط « المترو ».

فقال الأسقف في جزع :

— « إضراب آخر ؟ » (١)

— « نعم ، فهم يتنازعون على تقسيم الأرباح الخاصة بخطوط « المترو ».

فاحتاج الأسقف مورهاوس وصاح :

— « هذا خطأ . هذا قصر نظر من جانب العمال . فكيف يأملون أن

يحافظوا على عطفنا عليهم

فقال أرنت في خبيث :

(١) كانت هذه المنازعات مالوفة جدا في تلك الأيام التي عمت فيها النفوس والاضطراب . ففي بعض الأحيان كان العمال يرفضون العمل ، وأحيانا كان الرأسماليون يرفضون أن يسمحوا للعمال بالعمل . وخلال هذه المنازعات ، حيث عم العنف والشغب ، اتلفت ممتلكات كثيرة ، وفقدت ارواح عديدة . كل هذا لا يمكن ان نتصوره ، مثلما لا نستطيع ان نتصور عادة أخرى من عادات تلك الأيام ، الا وهي عادة الرجال من الطبقات الدنيا في تحطيم الأثاث كلما تنازعوا مع زوجاتهم .

- وحين نضطر إلى السير على أقدامنا ، .

ولكن الأسقف مورهاوس تجاهله ، ومضى يقول :

- وإن نظرتهم للأمور ضيقة للغاية . فالرجال ينبغي أن يكونوا رجالاً ولبسوا وحوشاً . وسوف يحدث الآن عنف وسفك دماء ، وسوف يتخاف أرامل ثكلى وأطفال يتامى . إذ يجب على العمل ورأس المال أن يكونا صديقين . ينبغي أن يعملوا يداً بيد من أجل منفعتهما المتبادلة . فانبرى إرنست ينهيه في جفاء :

- آه ! ها أنت الآن تحلق في الهواء مرة أخرى . اهبط إلى الأرض ، وتذكر أننا انفقنا على أن الإنسان العاды أناى .

وصاح الأسقف :

- ولكن يتحتم عليه ألا يكون كذلك ، .

فأجاب إرنست متضامناً معه :

- هنا أتفق معك . إذ يتحتم على الإنسان ألا يكون أفاًبياً . ولكنه سوف يظل على أنانيته ، طالما هو يعيش فى نظام اجتماعى قائم على أخلاقيات الجشع الحيوانى ، .

وبدت الحـيرة على الأسقف ، وراح والدى يقهقه ، بينما مضى إرنست يقول :

- وأجل ، أخلاقيات الجشع الحيوانى ذلك هو معنى النظام الرأسمالى . وهذا ما تدافع عنه كنيستكم ، وما تعظون به كلما اعتليتم منبر الوعظ . نعم ، أخلاقيات الجشع الحيوانى وليس لها اسم آخر .

والتفت الأسقف إلى أبى مستنجداً ، ولكن أبى أخذ يضحك ، ثم هز رأسه ، وقال :

- « أخشى أن أقول إن مستر إيفر هارد على صواب ، فالمجتمع قائم على قاعدة «دعه يعمل ، قائم على سياسة «دع كل امرئ وشأه» ، المرء لنفسه ، أما المتخلف فلا يأخذ الشيطان ، . وكما قول مستر إيفر هارد في الليلة الماضية ، فإن مهمتكم يا رجال الكنيسة هي المحافظة على النظام الاجتماعي القائم ، بينما المجتمع قائم على القاعدة السالفة ، .
فصاح الأسقف :

- « ولكن هذه ليست تعاليم المسيح ، .
فسارع إرنست إلى إدخال هذه الحقيقة في روعه ، إذ قال :
- « الكنيسة لا تعلم اليوم مبادئ المسيحية ، وهذا هو السبب الذي من أجله لن يكون للعالم أية صلة بالكنيسة ، فهم تتغافل عن الهمجية والوحشية الرهيبة التي تمارسها الطبقة الرأسمالية ضد الطبقة العاملة ، .
فاعترض الأسقف :

- « ولكن الكنيسة لا تتغافل عن هذه المعاملة ، .
فرد عليه إرنست :
- « الكنيسة لا تتحجج ضد هذه المعاملة . وطالما أنها لا تتحجج عليها ،
فهي تتغافل عنها ، وأرجوك أن تذكر سبب هذا التجاهل . فالكنيسة تحظى برعاية الطبقة الرأسمالية .
فقال الأسقف في بساعة :

- « أنا لم أنظر إلى الموضوع على هذا النحو . فلا بد وأنك على خطأ .
إنني أدرك أن هناك كثيراً من المظاهر المحزنة والشريرة في هذا العالم .
بل أعلم أن الكنيسة قد خسرت ما تسميه أنت البروليتاريا (١) .

(١) Proletariat ، وهي مشتقة في الأصل من الكلمة اللاتينية Proletarie وهي الاسم الذي أطلق في احصاء « سيرفيوس توليوس » على أولئك الذين تنحصر قيمتهم بالنسبة للدولة ، في كونهم مجرد أفراد تنجب ذرية . وبمعنى آخر ، أولئك الذين لم تكن لهم أهمية سواء من حيث الثروة أو المكانة أو المقبرة غير العادية .

فصاح إرنست :

- « أتم لم تمتلكوا قط البروليتاريا حتى تخمروها . فقد نشأت البروليتاريا ونمت خارج الكنيسة وبمعزل عنها . »

فقال الأسقف في تحاذل :

- « لست أوافقك على هذا . »

- « إذن ، دهنى أوضع لك . بإدخال الآلات ونشوء النظام الصناعي في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، أبعدت الكثرة الساحقة من العاملين عن الأرض . فتحطم بذلك النظام القديم للعمل . وطرد العاملون من قرايم ، وسيقروا كالقطيع إلى المدن الصناعية . ودُربت الأمم على الآلات الجديدة . فاتتهت بذلك الحياة العائلية . لقد كانت الأحوال رهيبة . بل إنها قصة من الدم . »

فقاخعه الأسقف مورهارس ، وقد بدا وجهه منفعلا بالألم :

- « أنا أعلم . أعلم كم كان ذلك فظيماً . ولكن هذا قد حدث منذ قرن ونصف . »

وتابع إرنست كلامه :

- « في تلك الفترة ، منذ قرن ونصف ، نشأت البروليتاريا الحديثة وتجاهلتها الكنيسة . وبينما انطلق الرأسماليون يقيمون المجازر . اعتصمت الكنيسة بالصمت . فلم يحدث أن احتجت على ذلك ، مثلما هي لا تحتاج اليوم . وتطابق هذه الحقيقة ما قاله أوستن لويس^(١) ، وهو يتحدث

(١) كان مرشحاً ضمن قائمة المرشحين الاشتراكيين ، لمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا في انتخابات خريف عام ١٩٠٦ . وهو انجليزى المولد ، ألف كتباً كثيرة في الاقتصاد السياسى والفلسفة . وهو واحد من القادة الاشتراكيين في ذلك العصر .»

عن تلك الفترة : « إن أولئك الذين وجهت إليهم الوصية القائلة « أطمعوا
حملاني ، ، كانوا يرون هذه الحملان تباع في سوق العبيد ، وتكره على
العمل حتى الموت ، ومع ذلك لم يرتفع صوتهم بالاحتجاج . . أجل ،
كانت الكنيسة خرساء وقتئذٍ » . وقبل أن أمضى في حديثي ، أريدك
إما أن تقرني بصراحة ، وإما أن تخالفني بلا مواربة : ألم تكن الكنيسة
خرساء حينذاك ؟ .

وتردد الأسقف مورهاوس . فهو لم يعود - كزميله الدكتور دهمرفيلد
- على مثل هذه المصارعة الضارية ، كما كان إرنست يدعوها .

وقال إرنست بحسم الأمر :

- « إن تاريخ القرن الثامن عشر مدون في الكتب . وإذا لم تكن
الكنيسة خرساء حينذاك ، فلن يكون تجد ذلك مدوناً في كتب التاريخ .
فاعترف الأسقف :

- « أخشى أن أقول إن الكنيسة كانت خرساء بالفعل . »

- « وهي اليوم خرساء أيضاً . »

فقال الأسقف :

- « هنا أختلف معك في الرأي . »

(٢) ليس هناك في صفحات التاريخ ما هو انقطع من معاملة العبيد ،
أطفالاً ونساءً ، في المصانع الإنجليزية ، خلال النصف الأخير من القرن
الثامن عشر الميلادي . ففي مثل هذا الجحيم الصناعي ، تكونت أضخم
الثروات الشامخة .

تمهل إرنست ، ونظر إليه يامعان ، وقبل التحدى قائلاً :

- « حسناً . دعنا نرى : إن في شيكاغو نساء يكدحن طوال الأسبوع مقابل تسعين سنتاً ، فهل احتجت الكنيسة على ذلك ؟ » .

أجاب الأسقف :

-- « هذا أمر أسمع لأول مرة . تسعون سنتاً في الأسبوع ! هذا فتابع ! » .

ولكن إرنست سأله في إصرار :

- « هل احتجت الكنيسة على ذلك ؟ » .

- « الكنيسة لا تلم بذلك » .

كان الأسقف يقاوم بصعوبة ، بينما أخذ إرنست يستخرج منه قائلاً :

- « ومع ذلك فإن الوصية الموجهة إلى الكنيسة هي : « أطعموا حلالى » . وبعد لحظة أضاف :

- « اغفر لى يا سيدى الأسقف سخريتى . ولكن ألا تدهش من أننا قد ضقنا ذرعاً بكم ؟ متى ارتفع صوتكم في محافل الرأسماليين بالاحتجاج على تشغيل الأطفال في محالج القطن بالجنوب^(١) ؟ أطفال تتراوح أعمارهم

(١) كان في امكان ابفرهارد ان يورد مثلاً افضل من واقع تصريحات الكنيسة الجنوبية في دفاعها عن حق الرق ، قبل ما يعرف « بحرب التمرد » . وما نحن نضيف هنا امثلة عديدة مستخرجة من وثائق ذلك العصر . ففي عام ١٨٣٥ ، قررت الجمعية العامة للكنيسة البروتستانتية ان : « الرق معترف به في كل من العهد القديم والجديد ، وان الله لم يحرمه » . ونشرت جمعية شارلستون الممدانية خطاباً لها عام ١٨٣٥ : =

بين السادسة والسابعة ، ويعملون كل ليلة ، وفي نوبة تبلغ اثني عشرة ساعة ؟ لهم لم ينعوموا قط بضوء الشمس ، ويموتون كالذباب ، بينما تجنى الأرباح من دماءهم . ومن حيلة هذه الأرباح تشييد الكنائس الفخمة في « نيواجلند » . وعلى منارها يقدم أمثالكم عظام مبتذلة إلى أولئك المرفين المتخمين ، الذين يجنون هذه الأرباح .

فقههم الأسقف في تخاذل :

« ان حق الاسياد في التصرف بعبيدهم ، حق يقره بوضوح خالق كل الاشياء ، الذي يملك بالتأكيد مطلق الحرية في ان يسبغ حق الملكية على من يشاء » وكتب المحترم ا . د . سمون ، دكتوراه في اللاهوت ، وأستاذ في كلية راندولف ماكون الميثودية في فرجينيا يقول : « ان آيات كثيرة من الكتاب المقدس تؤكد في غير لبس او ابهام ، حق امتلاك العبيد ، وما يترتب على ذلك الحق من وقائع . ولقد نص في وضوح حق بيع العبيد وشرائهم وعلى الجملة ، فاننا سواء اخذنا برأى الشريعة اليهودية التي منها الله نفسه ، ام الى ما ارتآه الجنس البشري ومارسه في جميع العصور ، ام الى وصايا العهد الجديد والقانون الاخلاقي ، فلا بد واننا نصل الى هسلنا الاستنتاج : الا وهو ان الرق لا يتنافى مع المبادئ الاخلاقية ، واذا ما ثبت لدينا ان العبيد الافريقيين الأوائل ، قد اوثقوا الى اغلال العبودية على نحو شرعي ، ترتب على ذلك نتيجة حتمية ، الا وهي حق الاحتفاظ بابناء العبيد في اغلال العبودية . وهكذا نرى ان الرق الموجود في امريكا مبني على اساس من الحق » .

وليس غريبا ، ان تضرب الكنيسة على هذه النعمة نفسها فيما بعد ، على نحو جيل بأكمله ، وفيما يتعلق بالدفاع عن حق الملكية الرأسمالية . ففي متحف « ازجارد » الكبير كتاب بعنوان : « مقالات في التطبيق » تأليف هنري فاندريك ونشر عام ١٩٠٥ . ويبدو من هذا الكتاب ان مؤلفه فاندريك كان لا بد احد رجال الكنيسة . وهذا الكتاب مثل لا بأس به يوضح ما كان ايفرهارد يدعوه بالتفكير البورجوازي . اذ لاحظ وجه الشبه بين كلمات تشارلستون الممدانية المنصوصة اعلاه ، وبين كلمات فاندريك بعد سبعين عاما : ان الكتاب المقدس يعلمنا ان الرب يملك العالم . انه يعطى ما يتفق ومشيئته الالهية ، وما يتفق مع القوانين العامة » .

.. لست أدري ، .

كان وجهه شاحباً ، وبدأ وكأنه يعاني شيئاً ؛

.. إذن ، فأنتم لم ترفعوا صوتكم بالاحتجاج ، .

هز الأسقف رأسه .

.. إذن ، فالكنيسة اليوم خرساء مثلما كانت في القرن الثامن عشر ، .

ولاذ الأسقف بالصمت . وتجنب إرنست لأول مرة أن يضغط عليه .

.. لا تنس أن كل قس يحتاج ، سيكون مصيره الطرد ، .

فافترض الأسقف قائلاً :

.. من الصعب أن أصدق ذلك ، .

وسأله إرنست :

.. وأستعدُّ أنت للاحتجاج ، .

.. أرني شروراً في مجتمعنا ، مثل تلك التي ذكرتها . وأنا أحتج عليكم ، .

فقال إرنست في هدوء :

.. وسوف أربك . أنا تحت تصرفك . وسوف آخذك في رحلة

إلى الجحيم ، .

.. وسوف أرفع صوتي بالاحتجاج ، .

واعتدل الأسقف على كرسيه ، وشاعت على وجهه الرقيق خشونة

المحارب ، وأضاف :

.. ولن تكون الكنيسة خرساء ، .

فقال إرنست محذراً إياه :

- سوف تطرد من الخدمة . .

ورد عليه الأسقف :

- سوف أثبت لك عكس ذلك . سوف أثبت ، لو كان ماتقوه
صحيحاً ، إن الكنيسة قد تاهت في ظلام الجهل . وفضلاً عن ذلك ، أنا
أصر على أن كل ما هو فظيع في المجتمع الصناعي يرجع إلى جهل الطبقة
الرأسمالية . وهي سوف تصاح كل ما هو خاطئ حالماتلقى الرسالة ،
ولسوف يكون من واجب الكنيسة أن تحمل إليها هذه الرسالة . .

وضحك إرنست ، ضحك في وحشية . فوجدت نفسي أنساق إلى الدفاع

عن الأسقف رقلت :

- تذكر . أنت لا ترى سوى جانب واحد من قطعة النقود ،
فهناك الكثير من الخير في نفوسنا . رغم أنك لا ترى فينا أي خير على
الإطلاق . إن الأسقف مورهاوس على صواب . فأخطاء المجتمع الصناعي
وهي أخطاء رهيبية كما تقول ، إنما ترجع إلى الجهل . إن تقسيمات المجتمع قد
زادت حدة . .

ورد علي :

- إن الهندي الأحمر ، ليس في وحشية ، ولا همجية الطبقة الرأسمالية .

وفي تلك اللحظة كرهته ، وأحببته :

- أنت لا تعرفنا . فنحن لسنا وحوشاً ولا همجيين . .

فقال متحدياً :

- برهنى على ذلك . .

فقلت ، وقد استبد بي الغضب :

- وكيف أستطيع أن أبرهن على ذلك ؟ . . . ولك أنت بالذات ، .
وهز رأسه قائلاً :

- وأنا لا أسألك أن تبرهنى لى ، إنما أسألك أن تبرهنى على ذلك لنفسك .
- وأنا أعرف ، .

وأجابنى فى وقاحة :

- أنت لا تعرفين شيئاً ، .
فقال أبى مهدتاً :

- ماذا جرى يا أولاد ؟ ، .
وقلت فى غيظ :

- أنا لا أبالي أن
ولكن إرنت قاطعنى :

- أنا أعرف أن لديك أولدى أيبك - فمذنا نفس الشىء -
ملا مستمراً فى مصانع سيرا ، .

فصحت :

- وما علاقة هذا بموضوعنا ؟ ،

فقال متثاقلاً :

- لا توجد علاقة وثيقة . . . سوى أن الثوب الذى ترتدينه مخضب
بالدم ، والطعام الذى تأكلينه ، مسبك ، بالدم . إن دماء الأطفال الصغار
والرجال الأشداء ، تقطر من سقف منزلك . وفى وسعنى أن أغمض عيني ،
وإن أسمع هذه الدماء تقطر الآن من حولى قطرة فقطرة . .

وكيما يضفي على كلماته وقعا عمليا ، أغمض عينيه ، وانكأ على كرسيه إلى الورا . أما أنا فقد انفجرت بدموع المهانة والكبرياء الجريحة ، إذ لم أعامل قط بمثل هذه المعاملة الوحشية في حياتي ، وقد ارتبك كل من الأسقف وأبي ، واستولى عليهما الانزعاج . فحاولا أن يغيرا من مجرى الحديث إلى اتجاه أيسر . ولكن إرنست فتح عينيه ونظر إلى ، بينما أشار إليهما بأن يلزما الصمت . كان حلقه جافا ، وعيناه عابستين ، لم يبد فيهما بريق الضحك ، ما الذي كان علي وشك أن يقوله ؟ أي تأنيب رهيب كان يعتزم أن يوجهه إلى ؟ هذا ما لم أعرفه مطلقا . ذلك أنه في تلك اللحظة ، كان رجلا يجتاز الرصيف ، ثم مالبث أن توقف وراح ينظر إلينا . كان رجلا ضخما فقير الملابس يحمل على ظهره حملا كبيرا من الكراسي وستائر من الخيزران وعصى من البامبو . وراح يحملق في المنزل ، كما لو كان يسأل نفسه : أيدخل ويحاول أن يبيعنا شيئا من بضاعته أم لا ؟ .

وقال إرنست :

« هذا الرجل يدعى جاكسون ، .

قلت في اقتضاب :

« كان ينبغي ، وله مثل هذا الجسد الضخم ، أن يلتحق بعمل ،

بدلا من أن يتجول في الشوارع (١) ، .

فقال إرنست في رقة :

(١) كانت الشوارع في تلك الايام تحفل بالآلاف مؤلفة من هؤلاء التجار الفقراء ، الذين كانوا يعرفون « بالباعة المتجولين » . كانوا يحملون كل ما يملكون من سلع ، وينتقلون بها من بيت الى بيت . وليس هناك تبديد اكثر من ذلك للطاقة البشرية . فقد كان التوزيع يتم بطريقة مشوشة وغير معقولة ، مثلما يحدث في نظام المجتمع العام .

- ، لاحظي ذراعه اليسرى ، ،

ونظرت إليها ، فوجدت مكانها خاليا .

وتابع إرنست كلامه في رقة :

- ، إن بعضنا من دماء هذه الذراع قد سمعها تقطر من سقف منزلك .
فقد فقد ذراعه في مصانع سيرا . ومثل جواد محطم ، ألقبته أنت ليموت على
قارعة الطريق . وحين أقول أنت ، فأنا أعني مدير المصنع وموظفيه الذين تدفعين
لهم أنت وسائر حملة الأسهم مرتباتهم ، حتى يديروا لكم شئون المصنع . كان
هذا حادثاً من حوادث العمل . وتسبب عن محاولته أن يوفر للشركة بضعة
دولارات . فقد أنشب ترس الآلة أسنانه في ذراعه . وكان يمكن أن يترك
قطعة حجر الصوان التي رآها تصل إلى الأسنان . وكان من الممكن أن
تسحق هذه القطعة صفا مزدوجاً من الأسنان ، ولكنه بسط ذراعه ، لمسك
بقطعة الحجر ، فأثبت الآلة بمخالبها في ذراعه ، وهرستها من أطراف
الأصابع حتى الكتف . حدث هذا في الليل ، وكانت المصانع تعمل في وقت
إضافي . وجنت من وراء هذا الوقت الإضافي أرباحاً دسمة خلال هذا الموسم .
وكان جاكسون قد اشتغل ساعات كثيرة . وفقدت عضلاته مرونتها وقوتها
وتباطأت سرعة حركاته ، فأمسكت الآلة بذراعه . إن لديه زوجة
وثلاثة أولاد ، .

وسألته :

- ، ماذا فعلت الشركة من أجله ؟ ،

- ، لا شيء أوه ! أجل ، لقد فعلت شيئاً ما . فقد وفقت في

إصدار الحكم ببطلان دعوى التعويض التي رفعها عقب مغادرته المستشفى .

إن الشركة ، كما تعدين تستخدم محامين أكفاء للغاية . .

فقلت ، وأنا مقتنعة بقولي :

— أنت لم ترو القصة كلها. أو بالأحرى ، أنت لا تعرف القصة كلها،
فلربما كان الرجل وقحا . .

— وقع اها . . ها . . وانفجر في ضحكة شيطانية : يا إلهي العظيم ا
وقع ا وبعد أن هرست ذراعه ! ومع ذلك فقد كان خادماً وديعاً متواضعاً،
ولم يكن في سجله ما يشير إلى وقاحته . .

فقلت في إلحاح :

— ولكن المحاكم ا أكان يمكن لها أن تحكم ضده ، لو لم يكن هناك
أمر غير المسألة التي ذكرتها ؟ .

— إن الكولونيل أنجرام، وهو المستشار الأول للشركة ، محام داهية،
ثم نظر إلى يامعان ، ومضى يقول :

— سأدلك على ما ينبغي أن تفعله يامس كنجهام . لم لا تجرين تحقيقاً
في قضية جا كسون ؟ . .

قلت في برود :

— كنت قد قررت ذلك ، قبل أن تشير إليه . .

فقال وقد أصبح إنساناً دمثاً :

— حسنأ ، وسأخبرك أين تجدينه . ولكنني أرتجف من أجلك، عندما
أفكر في كل ما أنت مقدمة على تحقيقه في قضية ذراع جا كسون . .

وهكذا اتفق أن قبلت أنا والأسقف تحديات إرنست ، لقد انصرفا
معا ، وتركاني أعاني مرارة الإحساس بالظلم الذي حاق بي وبالطبقة التي
أنتمى إليها . كان الرجل وحشاً . وقد كرهته آنذاك . ولكنني أخذت
أعزى نفسي بمخاطر قفز إلى ذهني : ألا وهو أن سلوكه هذا ليس غريباً على
رجل ينتمي إلى الطبقة العاملة ، .

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث

« ذراع جاكسون »

لم أكن أتصور أى دور قدر لذراع جاكسون أن تلعبه فى حياتى . إن جاكسون نفسه ، بعد ما اقتنيت أثره ، لم يترك فى نفسى أيما تأثير حين وجدته . فقد لقينته فى بيت متصدع متداع^(١) قائم قرب الخليج ، عند حافة المستنقع . وكانت تحيط بالبيت برك من الماء الراكد ، تغطى سطحها بزبد أخضر عفن ، بينما انبعث منها رائحة كريهة لا تطاق .

أقيت جاكسون - كما وصفه إرنست - رجلاً وديعاً متواضعاً . كان يقوم ببعض أشغال الخيزران . وقد انكب على عمله فى عناد أثناء حديثى معه . ولكن على الرغم مما يبدو عليه من وداعة وتواضع ، فقد تصورت أنى أمسكت بيادرة أولى تم عن شعور ناشئ بالمرارة ، حين قال :
- « كان فى مقدورهم أن يعينونى فى وظيفة حارس ، على أية حال^(٢) .

(١) نعمت يستخدم فى وصف البيوت الخربة المتهدمة ، التى كان ياوى إليها أعداد كبيرة من العمال فى تلك الأيام . وكانوا يدفعون الى أصحابها الملاك أجوراً تعتبر فاحشة اذا ما قيست بقيمة هذه البيوت .

(٢) كانت اللصوصية ، فى تلك الأيام ، متفشية بشكل لا يصدق . فكل امرئ كان يسرق ممتلكات غيره . وكان سادة المجتمع يسرقون بمقتضى القانون ، أو بالأحرى ، يصفون على سرقاتهم الصبغة الشرعية ، بينما كان أبناء الطبقات الفقيرة يسرقون على نحو غير شرعى . ولم يسلم من السرقة شئ البتة ، سوى ما كان خاضعاً لحراسة قوية . ومن ثم الحق عدد كبير من الرجال فى وظائف حراس ، استخدموا لحماية الممتلكات . وكانت بيوت الأثرياء ، تجمع فى مظهرها بين القلعة ، وسرايب خزائن النقود . ان نزعة أطفالنا اليوم الى وضع اليد على ممتلكات الآخرين انما تعتبر من الرواسب المتخلفة للعهد السالفة ، التى اتسمت بالسرقة ، وتفشت بين الناس كشيء عام .

ولم أستطع أن أفوز منه بالشيء الكثير ، فقد بدا لي رجلاً أبله . ومع ذلك ، فإن المهارة التي كان يزاوُل بها عمله ، بدت وكأنها تكذب بلاهته . وأوحى إلي ذلك بفكرة ، فسألته :

— كيف حدث أن أمسكت الآلة بذراعك ، .

نظر إلي في أناة وتأمل ، وهز رأسه ، وقال :

— لا أعرف . فهذا ما حدث ، .

فسألته وأنا أحاول أن أستفزه .

— أبسبب الإهمال ؟ ،

أجاب :

— كلا ، أنا لا أستطيع أن أسمى ذلك إهمالاً . فقد اشتغلت ساعات إضافية وأحسب أن ذلك أرهقني إلى حد ما . إنني اشتغلت بهذه المصانع سبعة عشر عاماً ، فلاحظت أن معظم الحوادث تقع قبيل إطلاق صفارة انتهاء العمل^(١) . وأنا على استعداد لأن أراهن على أن الحوادث التي تقع في الساعة الأخيرة قبل إطلاق الصفارة ، تفوق بمراحل تلك التي تقع في بقية اليوم . فالإنسان لا يستطيع أن يحتفظ بسرعته بعد عمل متواصل لعدة ساعات . وقد رأيت عدداً كثيراً من العمال ، مزقت الآلات أجسادهم ، ومضغتهم بين أسنانها ، وفقدت عيونهم ، .

فسألته :

— هل رأيت عدداً كثيراً منهم ؟ ،

(١) كان العمال يدعون إلى العمل ، أو يصرفون إلى بيوتهم ، بواسطة صفارات بخارية محطمة للأعصاب ، كانت تصرخ في وحشية .

— د مئات ومئات ، ومن بينهم أطفال كذلك ، .

كانت رواية جاكسون عن الحادث — باستثناء بعض التفاصيل الرهيبة — تطابق ما سمعته من قبل . وحين سألته عما إذا كان قد خالف قواعد تشغيل الآلة ، هز رأسه بالنفي ، وقال :

— « لقد رفعت السير بعيداً بيدي اليمنى ، وبسطت ذراعي لألتقط قطعة الحجر بيدي اليسرى . ولم أتمهل حتى أرى ما إذا كان السير قد أبعاد عن الآلة أم لا . فقد حسبت أن يدي اليمنى ، قد أتت عملها . والواقع أنها لم تكن قد أتت ذلك . ومددت ذراعي بسرعة . ولم يكن السير قد ألقى نهائياً . فهرست ذراعي ، .

قلت له في حنو :

— « كان هذا بلا ريب مؤلماً لك ، .

— « إن سحق العظام ليس شيئاً مستجباً .

كان ذهنه خالياً عن كل ما يختص بدعوى التعويض . شيء واحد فقط كان واضحاً لديه وهو أنه لم يحصل على أي تعويض . كان لديه شعور بأن شهادة ملاحظي العمال ورئيس المصنع تسببت في إصدار هذا الحكم الجائر من المحكمة . لم تكن شهادتهم — على حد قوله — في جانب الحق كما ينبغي أن تكون . وعقدت العزم على الذهاب إليهم .

شيء واحد كان واضحاً لي : إن جاكسون في وضع يرثى له . فزوجته معتلة الصحة . وهو عاجز عن أن يكسب من أشغال الخيزران والتجول في الطرقات ، ما يسد رمق أسرته . وتخاف عن دفع إيجار مسكنه . فشرع ابنه الأكبر ، وهو غلام في الحادية عشرة ، في أن يعمل بالمصانع . « كان في مقدورهم أن يعينوني حارساً ، — تلك كانت آخر كلماته ، عندما انصرفت من بيته .

وأضيت قرة حتى تمكنت من رؤية محامى جاكسون ، وملاحظى العمال ومدير المصنع الذين أدلوا بشهادتهم . وبدأت أشعر خلالها أن هناك بعض الصواب فيما قاله إرنست من قبل .

كان المحامى رجلاً ضعيفاً ، لا تبدو عليه سمات الكفاية . وحين وقع نظرى عليه ، لم يدهشنى أن خسر جاكسون قضيته . وخطر لى فى بادى الأمر أن جاكسون قد نال جزاءه حين اختار مثل هذا المحامى . ولكن فى اللحظة التالية لمعت فى ذهنى فقرتان من عبارات إرنست : « إن الشركة تستخدم محامين أكفاء ، وه الكولونيل أنجرام محام داهية » . وفكرت سريعاً . فخطر لى أن الشركة بالطبع أقدر على أن توكل أصحاب مواهب قانونية أكثر ذكاء مما يستطيع عامل بسيط مثل جاكسون أن يقدهه . ولكن كان هذا مجرد إيضاح قاصر . فقد كنت على يقين من أن هناك سبباً وجيهاً جداً أدى إلى أن يخسر جاكسون قضيته .

وسألته :

« لماذا خسرت القضية ؟ »

فاستولى على المحامى القلق . وأخذته الارتباك لحظة . وألغيت قلبى ينبض بمشاعر الرثاء لهذا المخلوق الضئيل التعس . إذ راح يتظلم ويشكو . وفى اعتقاده أنه ولد بهذه النزعة إلى الشكوى . فقد كان ، منذ ولادته ، إنساناً مغلوباً على أمره . ولم يكن يتظلم من شىء سوى شهادة الشهود . فهم لم يدلوا بغير الشهادة التى تساعد الخصم . ولم يستطع أن ينتزع منهم كلمة واحدة تساعد جاكسون فى موقفه . كانوا يعرفون أى الجانبين يرتزقون من ورائه . وكان جاكسون غيباً حين ارتبك أمام الكولونيل أنجرام ،

واستولى عليه الرعب . وكان الكولونيل ذكياً ، حين جعل جاكسون
يجيب على أسئلة مدمرة ، .

فسأله :

— كيف تكون إجاباته عن هذه الأسئلة مدمرة ، إذا ما كان
الحق في جانبه ؟ ، .
وسألتني بدوره .

— وما علاقة الحق بموضوع القضية ؟ هل ترين هذه الكتب
كلها ؟ ، ومر بيده على صف من المجلدات ، تراصت على جدران حجرة
مكتبه الصغيرة . لقد تعلمت من قراءاتي في هذه الكتب كلها ، ومن دراستي
لها . أن القانون شيء ، والحق شيء آخر . سلى أى محام . إنك تذهبين إلى
مدارس الأحد لتعلمي ما هو حق ، ولكنك تلجئين إلى هذه الكتب إذا
ما أردت أن تتعلمي القانون ، .

فسأله وكأني أمتحنه :

— أتريد أن تقول لي إن الحق كان في جانب جاكسون ، ومع ذلك
خسر دعواه ؟ أتريد أن تقول لي إنه لا توجد عدالة في محكمة القاضى
كالدويل ؟ ، .

وراح المحامى الصغير يحدق النظر إلى لحظة ، ثم تلاشت سمات القتال
من قسما وجهه ، وبدأ يشكو من جديد :

— أنا لم أعط فرصة عادلة . إنهم خدعوا جاكسون وخدعوني أيضا .
أى فرصة أتاحت لي ؟ فالكولونيل أنجرام محام عظيم . وإذا لم يكن محاميا
عظيما ، أكانت توكل إليه الشؤون القانونية الخاصة بمصانع سبيرا ، شركات
بيركلى المتحدة ، سان ليندرو وبليزانتون للأعمال الكهربائية ، إنه محامى .

شركات . والشركات لا تدفع إلى المحامين لبلاتهم (١) . فما الذى يجعل مصانع سيرا وحدها تدفع له عشرين ألف دولار في العام ؟ لأنه يساوى عندهم هذا المبلغ . هذا هو السبب . وأنا لا أساوى هذا الأجر الضخم . فلو كنت أستحقه ، لما بقيت خارج الحلقة أتضور جوعا ، وأتولى الدفاع عن قضايا مثل قضية جاكسون . ولكن ما رأيك فيما ينبغي أن أحصل عليه لو أنى كسبت قضية جاكسون ؟ ،

أجبتة :

— « كان يتعين عليك أن تنبهه إلى الاحتمال الغالب (٢) ، » .

فصاح في غضب :

— « من غير شك . إذ ينبغي أن أعيش . أليس كذلك ؟ ، »

وقلت له مؤذبة إياه :

— « ولكنه يعول زوجة وأولاداً ، »

فرد على :

— « وأنا أيضاً لى زوجة وأولاد . وليس هناك أحد في العالم سواى ، »

يبالى إذا ما كانوا يكابدون الجوع أو لا ، .

(١) كانت مهمة محامى الشركات هى ان يخدم بوسائل ملتوية نزعة الشركات فى ابتزاز الاموال . والامر الذى يستحق الذكر ، ان تيودور روزفلت ، حين كان رئيسا للولايات المتحدة ، قال فى خطاب له عام ١٩٠٥ ، فى حفل توزيع الشهادات بجامعة هارفرد مايلى : « نحن جميعا نعرف من واقع الامور ، ان عددا كبيرا من اقوى المحامين نفوذا ، واعلاهم اجرا ، لا يقومون سوى بمهمة استنباط الخطط الجريئة البارعة التى يتمكن بها موكلوهم ، افرادا كانوا ام شركات من التحايل على القوانين التى ما وضعت الا لتنظيم استخدام الثروات الكبيرة من أجل مصالح الجماهير . »

(٢) هذا مثل نموذجى بوضوح الصراع الضارى الذى ساد المجتمع حينذاك . كان الناس ينهبون بعضهم بعضا كالذئاب الضارية . فالذئاب الكبيرة تلتهم الذئاب الصغيرة . وفى هذا القطيع الاجتماعى ، كان جاكسون واحدا من اصغر الذئاب .

ورقت قسماً وجهه . وفتح ساعته ، وأراني صورة فوتوغرافية صغيرة لامرأة وطفلتين ، كانت ملصقة داخل غطاء الساعة .

— هاهم انظري إليهم . لقد مرت بنا أيام عصيبة . وكنت أومل في إرسالهم إلى الريف إذا ما كسبت القضية ، وعندما نهضت لأنصرف ، عاد إلى نزعتي في التظلم والشكوى :

— لم يكن عندي شبح فرصة . إن بين الكولونيل أنجرام والقاضي كالدويل صداقة حميمة . ولست أعني بذلك أن هذه الصداقة قد قررت مصير القضية ، حتى ولو انتزعت الشهادة العادلة من الشهود . ومع ذلك ، يتحتم علي أن أقول إن القاضي كالدويل بذل كل ما في وسعه ليحول دون أن أفوز بهذه الشهادة . ولم لا ؟ فالقاضي كالدويل والكولونيل أنجرام ينتسبان إلى محفل ماسوني واحد ، ومنضمان إلى ناد واحد ، ويقعان في "حي" واحد ، وهو حي لا أستطيع أن أتحمل نفقات السكنى فيه . كما تتبادل زوجتهما الزيارة باستمرار . ودائماً ما كانتا تقيمان حفلات "الويست" (١) وما شابه ذلك .

وتوقفت لحظة عند عتبة الباب وسألته :

— ومع ذلك ألسنت تعتقد أن الحق في جانب جاكسون ؟ ، .

— أنا لا أعتقد ذلك لحسب ، بل أنا على ثقة من ذلك . وكنت أحسب في بادئ الأمر أن لدى جاكسون بصيصاً من أمل . بيد أني لم أخبر زوجتي . فلم أشأ أن أخيب آمالها . إذ كان هذا صعباً عليها ، وقد مننت نفسها برحلة إلى الريف .

(١) لعبة من ألعاب الكوتشينة .

سألت بيتر دونللي ، أحد ملاحظي العاملين ، اللذين أدليا بالشهادة أمام المحكمة :

- لماذا لم تلفت نظر المحكمة إلى هذه الحقيقة . إن جاكسون كان يحاول دفع الضرر عن الآلة . .

وقبل أن يجيب استغرق في التفكير مدة طويلة . ثم ألقى فيما حوله نظرة قاطعة وقال :

- لأن لي زوجة طيبة وثلاثة أطفال لم تقع عينك علي من هم أجمل منهم . هذا هو السبب . .

قلت :

- لست أفهم . .

- بمعنى آخر ، لأن مثل هذا التصرف يعتبر عملاً طائشاً . .

- وتعني

ولكنه قاطعني في انفعال :

- أعني ما قلته . فقد اشتغلت بهذه المصانع سنوات طويلة . بدأت فيها وأنا غلام صغير أعمل أمام المغازل . ومنذ ذلك الحين ، وأنا أعمل عليها . ووصلت إلى مركزى الحالى المرموق بفضل ما بذلته من جهد شاق . فأنا ملاحظ عمال من فضلك ، إننى لأشك في نفسى إذا وجد فى المصنع رجل واحد يمد لي يداً ينتشلني بها من الغرق . إننى تعودت على الانضمام إلى النقابة . ولسكنى انضمت إلى الشركة فى إضرابين اثنين . وأطلقت على العمال لقب « الأجرى » . ولا يوجد بينهم عامل واحد يقبل أن يشرب معى كأساً ، إذا ما طلبت منه ذلك . هل ترين هذه الندوب على رأسى ؟ إنها آثار الطوب الذى رشقت به . فليس هناك طفل يعمل على المغازل ، إلا ويلعن اسمى . إن الشركة هى صديقى الوحيد .

فليس وقوفى إلى جانبها واجباً علىّ ، بل هو خبزي وزبدي وحياء أطفالي .
ذلك هو السبب ، .

فسألته :

— « هل يقع اللوم على جاكسون ؟ »

— « من حقه أن ينال تعويضا . فقد كان عاملاً ممتازاً ، لم يسبق له
أن سبب أية متاعب ، .

— « إذن ، فأنت لم تكن تملك الحرية في أن تدلى بالحقيقة كلها ،
في حين أنك أقسمت اليمين على الإدلاء بالحقيقة ، .
فهز رأسه .

وقلت في وقار :

— « وأين حلفك اليمين : الحقيقة ، الحقيقة كل الحقيقة ، ولا شيء
سوى الحقيقة ، .

ومن جديد ارتسمت الانفعالات على وجهه . ثم رفع وجهه ، ليس
نحوي ، بل إلى السماء وأجاب :

— « أنا على استعداد لأن يحترق جسدى وروحي في جحيم أبدي
من أجل أولادى ، .

أما هنرى ولاس ، مدير المصنع ، فقد ألقىته مخلوقاً ثعلبي الوجه . نظر
إلىّ باحتقار ، ورفض أن يتكلم . ولم أستطع أن أنتزع منه كلمة واحدة
فيما يتصل بالمحاكمة أو بالشهادة التي أدلى بها . ولكنى كنت أسعد خطأ مع
ملاحظ العمال الآخر . كان رجلاً ذا وجه صارم ، ولقد غاص قلبي حين
واجهته . وهو الآخر قد ترك في نفسي انطباعاً يوحى بأنه لا يملك حرية
التصرف . وفيما كنا نتحدث بدأت أرى أن مستراه العقلي يفوق مستوى
زملائه . فقد اتفق رأيه مع رأى بيتر دونللي في أحقية جاكسون في
الحصول على تعويض ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فاعتبر أن طرد العامل — بعد
أن أحاله الحادث إنساناً عاجزاً — تصرف قاس خال من الشعور . ليس

هذا فحسب ، بل أوضح لي أن هناك حوادث كثيرة في المصنع ، وأن سياسة الشركة تقضى بالاستئمانه في إحباط كل قضايا التعويض ، .
ثم قال .

— ومعنى هذا ، أن مئات الآلاف من الدولارات تعودت عام على حملة الأسمم ،

وفيما كان يتحدث ، تذكرت آخر حصة من الأرباح دفعت إلى أبي ، والفستان الجبل والكتب التي اشتراها أبي من حصيد هذه الأرباح . ثم تذكرت اتهام إرنست بأن فستان ملطخ بالدم . فأخذ جلدي يضطرب تحت ثيابي .

وقلت :

— ألم تشر — حين أدليت بشهادتك في المحكمة — بأن الحادث وقع لجاكسون وهو يحاول إنقاذ الآلة من التدمير ؟ .

فأجابني في مرارة :

— كلا ، لم أذكر ذلك . بل شهدت أن جاكسون قد أصاب نفسه نتيجة الإهمال والتهاون . وأنه لا يوجد أ. نى احتمال في أن يقع اللوم على الشركة ، .

وسألته :

— أكان الحادث نتيجة إهمال ؟ ،

— سميه إهمالا ، أو أى شيء آخر ، فالحقيقة هي أن المرء يناله الإرهاق بعد عدة ساعات متواصلة من العمل ، .

كنت قد بدأت أهتم بهذا الرجل ، فهو من غير شك ، رجل غير
ثابت ، وقلبي :

— أنت تتمتع بثقافة أوسع من ثقافة غالبية العمال .

فأجاب :

— إني اجتزت مرحلة المدرسة الثانوية . وقد وُفقت في إتمام هذه

الدراسة من خلال قيامي بأعمال الفراشين . وكنت أرغب في الالتحاق بالجامعة ، ولكن أبي توفي ، واضطرت أن أعمل بهذه المصانع ، .

ثم أوضح في خجل . وكأنه يعترف بنقطة الضعف فيه :

— « كنت أريد أن أصبح عالماً طبيعياً . فانا أعشق الحيوانات . ولكنني اضطرت إلى العمل بالمصانع . وعندما رقيت إلى رتبة ملاحظ عمال تزوجت ، ثم نمت العائلة و . . . حسناً ، ومنذ ذلك الحين ، لم أعد . . . سيد نفسي . »

— « ماذا تعنى بذلك ؟ » .

— « كنت أوضح لماذا أدليت بالشهادة في المحكمة على النحو الذي شهدت به ، أوضح لماذا اتبعت التعليمات . »

— « تعليمات من ، ؟ » .

— « الكولونيل أنجرام ، فقد رسم حدود الشهادة التي كان علي أن أدلي بها . »

— « والتي أفادته في إحباط قضية جاكسون ؟ »

فمز رأسه ، وبدأ الدم يصعد قائماً إلى وجهه .

— « هذا بينما يعول جاكسون زوجة وولدين . »

فقال في هدوء ، رغم أن وجهه ازداد قتامة .

— « أعلم ذلك . »

— « قل لي ، هل كان من السهل أن ترتفع عن الوضع الذي كنت

عليه ، عن وضعك في أثناء المدرسة الثانوية مثلاً ، وأن تتعالى عن الرجل الذي

كان ينبغي أن تكونه ، حتى تتصرف في المحكمة مثل هذا التصرف ؟ »

فانفجر في ثورة فجائية ، أذهلتني بقدر ما أفرغتني . انفجر (١) مطلقاً
سبباً همجياً ، ولوح بقبضته كأنما ينبغي أن يضربني . وبعد لحظة قال :

— واستمبحك عنراً . كلا ، لم يكن ذلك سهلاً . وأعتقد أنه في
إمكانك الآن أن تنصرفي ، فقد حصلت على كل ما أردتبه مني . ولكن
اسمحي لي أن أقول لك قبل أن تنصرفي : لن يفيدك شيئاً أن ترددي حرفاً
بما قلته ، فأنا سوف أنكره ، ولا يوجد هنا شهود . لسوف أنكر كل
كلمة قلتها ، سوف أنكر حتى ولو اضطررت إلى أن أحلف اليمين أمام
منصة الشهود . .

وبعد انتهاء مقابلي مع سميت ، ذهبت إلى مكتب أبي في مبنى الكيمياء .
وهناك التقيت يارنست ، ولم يكن هذا متوقفاً بالمرّة . ولكنه استقبلني بعينه
الجريئتين ، وبمصاحفته الثابتة ، وبهذا المزيج الغريب من الارتباك والبساطة ،
فبدا وكأن اجتماعنا الأخير العاصف قد محاه النسيان ، ولكنني لم أكن في
في حالة نفسيه تساعد على نسيانه .

وقلت في اقتضاب :

— كنت أحقق في قضية جاكسون ، .

كان يصفى إلى بكل اهتمام ، وظل ينتظرنى حتى أكل حديثي . بيد أنني
استطعت أن أرى في عينيه سمات اليقين بأن معتقداتي قد تزعزعت .

فاعترفت قائلة :

(١) استخدمت أفيس ايفرهارد هنا كلمة انفجر . ومن المهم ان نشير
هنا الى خشونة الحياة آنذاك ، التي تركت طابعها على الفاظ لغة التخاطب
وها هي ذى عبارة توضح ذلك « الحمراء ذات المخب والناب » .

— و يبدو أنه عومل معاملة سيئة . أنا . . أنا أعتقد أن بعضاً من
حمانه تقطر من سقف منزلنا .

وأجاب .

— بالطبع ، فلو أن جاكسون وجميع زملائه عوملوا معاملة رحيمة ،
لما كانت الأرباح بمثل هذه الضخامة .

— ولن أستطيع بعد الآن أن أجد متعة في ارتداء الملابس الجميلة .

وقال في كآبة .

— ولئن تجدى أيضاً أبة متعة في ارتداء ثياب من الجوت ، فكما نعلمين
توجد مصانع للجوت ، وهناك يحدث نفس الشيء . إنه يحدث في كل مكان .
إن حضارتنا التي نفخر بها ، مبنية على الدم ، مخضبة به . وليس في مقدورك
ولا في مقدور أحد منا أن يهرب من الوصمة القرمزية . ولكن من هم
الذين تحدث إليهم ؟ .

ورويت له كل ما حدث .

فقال :

— ولم يكن أحد منهم يملك حرية التصرف . فكلمهم مشدودون إلى
الآلة الصناعية التي لا ترحم . إن ماثير الرثاء ، بل إن المأساة تتمثل في أنهم
مشدودون إلى الآلة بأوتار قلوبهم . فأطفالهم هم دائماً البراعم الجديدة
للحياة ، التي يحمونها بدافع غريزتهم . إن هذه الغريزة أقوى من أي أخلاقية
يملكونها . فإني على سبيل المثال ، سرقت وكذب ، وارتكبت كل التصرفات
الملكينة ، من أجل أن يضع لقمة الخبز في فمي ، وفي أفواه أشقائي وشقيقاتي .
كان عبداً للآلة الصناعية ، فأفسدت حياته ، وسخرته للعمل حتى الموت .

فقاطعته قائلة ..

- « وماذا عنك ؟ . . . أنت بالتأكيـد تملك حرية التصرف ، .
أجاب :

- « ليس تماما . فأنا لست مشدوداً بأوتار قلبي . وكثيراً ما شكرت
الأقدار على أنى لا أعول أولاداً ، بينما أنا أحب الأطفال بإعزاز . ومع
ذلك ، فلو أنى تزوجت ، لما جرؤت على أن أنجب طفلاً واحداً ، .
فصحت :

- « هذا بالتأكيـد مذهب سيء ، .

وقال فى لهجة حزينة :

- « أعرف ذلك ، ولكنه مذهب ينفق مع ظروفى ، فأنا رجل ثورى
ولإنها مهنة خطيرة ، .
فضحكت غير مصدقة كلامه :

- « لو حاولت اقتحام منزل أبيك فى الليل ، لاسرق أرباح أسهمه
فى مصانع سيرا ، فإذا تحسبته أن يفعل ؟ ،
أجبتة :

- « إنه ينام ومسدسه موضوع على الكرسي بجوار السرير . وأغلب
ظنى أنه سوف يطلق عليك النار ، .

- « وإذا ماقدت أنا وبضعة أشخاص آخرين مليوناً ونصف مليون
رجل^(١) نحو بيوت الأثرياء ، فعندئذ سوف ينهر وابل من الرصاص .
أليس كذلك ؟ ، .

(١) هذه إشارة الى مجموعة الأصوات التى نالها الاشتراكيون فى
الولايات المتحدة فى انتخابات عام ١٩١٠ ، وارتفاع هذا الرقم يدل على
النمو السريع الذى حدث لحزب الثورة . ففي عام ١٨٨٨ كانت قوته
الانتخابية ٢٠٦٨ ، وفى عام ١٩٠٢ كانت ١٢٧٧١٣ ، وفى عام ١٩٠٤ كانت
٤٣٥٠٤٠ ، وفى عام ١٩٠٨ كانت ١٠٨٤٢٧ ، وفى عام ١٩١٠ أصبحت
١١٢١٨٨١ صوتاً .

فاعترضت قائلة .

- ، أجل ، ولكنك لا تفعل ذلك الآن ، :-

- ، ذلك ما أفعله على وجه التحديد . نحن لانعزم أن نستولى على مجرد الثروة من البيوت فحسب ، بل على جميع منابع الثروة : على جميع المناجم ووسائل النقل ، والمصانع والتبوك ، والمحال التجارية . تلك هي الثورة وهي حقا مخوفة بالمخاطر . وأخشى أن ينطلق مزيداً من الرصاص بأكثر مما أتصور . ولكن ، كما كنت أقول ، لا يوجد اليوم من يملك حرية التصرف . فنحن جميعاً مشدودون إلى عجلات وتروس الآلة الصناعية . واكتشفت أنت أنك مشدود إليها ، وكذلك من تحدثت إليهم . تحدثني إلى آخرين . اذهبي وقابلي الكولونيل أنجرام . ابحثي عن المندوبين الصحفيين الذين أخفوا قضية جاكسون ومنعوا نشرها في الصحف . ابحثي عن المحررين الذين يشرفون على سياسة هذه الصحف . . . وسوف تجدنيهم جميعاً عبيداً الآلة .

وبعد قليل سألته ، في أثناء حديثنا ، سؤالاً صغيراً بسيطاً ، عن مدى احتمال تعرض العمال للحوادث . فأجابني في محاضرة مدعمة بالإحصاءات . - ، كل ذلك مدون في الكتب . فقد جمعت الإحصاءات . وثبت بالدليل القاطع أن الحوادث نادراً ما تقع في ساعات العمل الصباحية الأولى ، ولكنها تزداد على وجه السرعة في الساعات التالية ، إذ يصبح العمال أكثر إرهاقاً ، وأكثر بطئاً في مجهودهم العضلي والعقلي على السواء .

- ، ولم لا ؟ أتعرفين أن لدى أهلك من فرص التأمين على الحياة وضد إصابات العمل ، ثلاث أضعاف مما لدى العامل ؟ هذا هو الواقع . وهذا ما تعرفه شركات التأمين^(١) . فهي تتقاضى من أهلك أربعة دولارات

(١) في خضم هذا النزاع الضاري الرهيب الذي اتسمت به تلك العصور لم يعرف أيما رجل الطمانينة مهما جمع من ثروة ومال . ومن جراء خوفهم من أن تتعرض أسرهم للفقر ابتدعوا مشروع التأمين . وبالنسبة لنا ، نحن =

وعشرين سننا في العام ، لقاء بوليصة تأمين ضد الحوادث بقيمة ألف دولار .
بينما يتقاضون من العامل ، لقاء نفس البوليصة ، خمسة عشر دولاراً ، .
وسألته :

- ، وأنت ، كم يتقاضون منك ؟ ،
وفي اللحظة التي أقيت عليه سؤالى هذا ، أدركت نوعاً من القلق
ينتابنى على نحو غير هين .
وأجابنى فى غير مبالاة :

- ، أوه . فأنا بوصنى رجلاً ثورياً ، أتعرض للاغتيال أو الإصابة
بثمانية أضعاف الاحتمالات التي يتعرض لها العامل . وشركات التأمين
تتقاضى من الكيمايين المتمرسين ، الذين يسكون بالمنفجرات ، ثمانية
أضعاف ما يتقاضونه من العمال . ومن ثم ، لست أعتقد أنهم يقبلون بالمرّة
التأمين على حياتى . ولكن ، لماذا تسألين ؟ ،

واضطربت عيناى ، وشعرت بالدم يتدفق حاراً إلى وجهى ، لا لأنه
أمسك بى متلبسة به واجسى ، بل لأننى أمسكت نفسى بهذه المشاعر ، وفى وجوده .
وفى تلك اللحظة ، دخل أبى ، وشرع يستعد للانصراف معى . وأعاد
إرنست بضعة كتب كان قد استعارها من أبى ، وانصرف أولاً . ولكن ،
ما إن خطا بضع خطوات ، حتى استدار وقال :

- ، أوه ، بالمناسبة ، بما أنك تقوضين راحة بالك ، وأنا أقوض راحة
بال الأسقف ، فمن الأفضل أن تمرى على مسز ويكسون ، ومسز ديرتون
ويث ، . إن زوجهما - كما تعرفين - من أكبر حملة الأسهم فى المصانع .
وهاتان السيدتان ، كسائر البشر ، مشدودتان إلى الآلة ، ولكن على نحو
تربعان به على قتها ، .

= الذين نعيش فى هذا العصر المتسم بالذكاء ، تبدو هذه البلعة شيئاً سخيلاً
بدائياً ، ومضحكاً . ولكن التأمين فى تلك الأيام ، كانت مسألة فى غاية الأهمية
والعنصر الطريف فيها ، هو أن الموظفين الذين وكل اليهم الاشراف على
أموال شركات التأمين وتديرها ، كثيراً ما كانوا هم أنفسهم ينهبون تلك
الأموال ويبددونها .

الفصل الرابع

« عيد الآلة »

كلما فكرت في ذراع جاكسون تزعزت معتقداتي . فلقد جابهت الواقع ، ولأول مرة رأيت الحياة على حقيقتها . إن حياتي الجامعية ودراسي وثقافتى لم تكن حقيقية . فأنا لم أتعلم شيئاً سوى بعض النظريات عن الحياة والمجتمع ، كانت تبدو رائعة على الصفحة المطبوعة . غير أنى رأيت الآن الحياة على حقيقتها . فإن ذراع جاكسون تمثل إحدى حقائق الحياة . وراحت كلمات إرنست ترن فى أذنى : « الحقيقة يا رجل ، الحقيقة التى لا تدحض » .

هذا مستحيل : إنه لشيء فظيع أن يبدو المجتمع بأكله قائماً على الدم . ومع ذلك ، فإن جاكسون يستقر أمامى . ولا أستطيع أن أنصرف عن التفكير فيه . فدائماً كان تفكيرى يرتد نحوه مثلما تنجذب إبرة البوصلة نحو القطب . إنه عومل معاملة وحشية . ولم يعوض عن دمه المسفوك ، من أجل أن ينال حصة الأسهم - حصيلة أكبر من الأرباح . بينما عرفت عشرين أسرة راضية سعيدة ، إذ تلقت حصيلتها من هذه الأرباح . وهذه الحصيلة الكبيرة إنما ربحتها من دم جاكسون . فلو أن رجلاً واحداً عومل بمثل هذه الوحشية والمجتمع لم يحرك نحوه ساكناً ، أفليس من الجائز أن يلتقى رجال كثيرون مثل هذه المعاملة الوحشية ؟ . وتذكرت نساء شيكاغو اللاتى تحدث إرنست عنهن ، واللاتى يكدحن من أجل تسعين سنتاً فى الأسبوع . وتذكرت الأطفال الذين أشار إليهم ، والذين يعملون كالعبيد فى محالج القطن بالجنوب . واستطعت أن أرى أيديهم الشاحبة ، وقد اعتصر منها

الدم ، تعبل في نسج القماش الذي صنعت منه ملابسى . وعندئذ فكرت في مصانع سيرا ، وفي الأرباح التي دفعت . فرأيت دم جا كسون يطلع فستاني . لم يكن في مقدورى أن أهرب من سيرة جا كسون . فدأما ما كانت تأملاتى تردنى إلى التفكير فيه .

وهناك في أعق أعماق ، اجتاحنى شعور بأنى أقف على حافة هاوية . فقد تصورت وكأننى على وشك أن أرى رؤيا جديدة ومخيفة عن الحياة . ولم أكن وحدى في تصورى ، فقد كان عالمى كله ينقلب رأسا على عقب . كان هناك أبى . واستعطت أن أرى الأثر الذى بدأ إرنست يتركه فيه . وكان هناك الأسقف ، لقد بدا رجلا مريضاً عندما رأته آخر مرة . كانت أعصابه متوترة ، وفي عيذه فزع لا يوصف . ويبدو — في حدود المعلومات الضئيلة التى وصلتني — أن إرنست قد حافظ على وعده فأخذه إلى الجحيم . ولكن أى مشاهد وقعت عليها عينا الأسقف في هذا الجحيم ؟ هذا ما لم أعرفه . ذلك لأنه بدا مذهولا إلى درجة انعقد فيها لسانه عن الكلام عنها .

وذات مرة ، وقد استبدى شعور بأن عالمى الصغير والعالم كله ينقلب رأساً على عقب ، رحى أفكر في إرنست ، وأنسب إليه سبب كل هذا التغيير . وقلت محدثة نفسى : « كنا سعداء جدا قبل أن يأتى وكنا في غاية الطمأنينة ، وفي اللحظة التالية أدركت أن مثل هذا التفكير خيانة للحقيقة . فبرز إرنست أمامى متجلبا كرسل للحقيقة ، بجبين مشرق ، وفي جراءة ملاك من ملائكة الله ، يناضل من أجل الحقيقة والعدالة ، ويكافح من أجل إغاثة الفقراء ، ومن أجل أولئك الذين يعانون الوحدة والاضطهاد . وعندئذ ظهرت أمام عيني صورة أخرى : المسيح ! إنه أيضا ، وقف بجانب الضعفاء والمضطهدين ، وضد سلطان الكهنة والمرائين . ثم تذكرت نهـايته على الصليب ، عندئذ انقبض قلبى في غصة إذ فكرت في إرنست . فهل قدر له هو

أيضا أن يموت على الصليب ؟ هو بصوته الجمهوري وفي نبراته نعمة الحرب، هو بكل ما فيه من همة الرجال الرائعة .

في تلك اللحظة أدركت أنني أحبه . إذ لامت في نفسي مشاعر تتحرق شوقا إلى إسماعه . ورحت أفكر في حياته . لا بد وأنها حياة جافة مضمّنة وغير كريمة . ثم فكرت في أبيه الذي كذب ومرق من أجله وأكره على العمل حتى الموت . بل هو نفسه قد اضطر إلى العمل بالمصانع وهو في سن العاشرة . عندئذ بدأ قلبي ينبض بالرغبة في أن أطوقه بذراعي . وأن أريح رأسه على صدري — رأسه المرهق بأفكار عديدة وأن أمنحه الراحة ، مجرد لحظات رقيقة من الراحة والسوى وهدوء البال .

والتقيت بالكولونيل أنجرام في حفل استقبال الكنيسة . وكيف لا أميزه وقد كنت على معرفة جيدة به منذ بضع سنوات . فقد استطعت أن أنصيده خلف أشجار النخيل والمطاط ، وإن لم يدرب بخلده أنه وقع في الشرك . ولقيني بالكياسة المعهودة فيه ، وبالبهجة التقليدية . فدائما كان يبدو رجلا لطيفا دبلوماسيا ، لبقا له وزنه . وكان من ناحية المظهر يعتبر أبرز رجل في المجتمع . وكان مدير الجامعة — بماله من وقار — يتضاءل أمامه، ويبدو إلى جانبه صغيرا تافها .

ومع ذلك وجدت الكولونيل أنجرام راسفاً في نفس الأغلال التي قيدت الميكانيكيين الأمين . لم يكن يملك حرية التصرف . كان هو أيضا مشدوداً إلى الآلة . وإن أنسى قط كيف تبدلت حاله حين ذكرت له قضية جاكسون ، إذ تلاشت ابتسامته الودودة مثلما يختفي الشبح . وتشوهت قممات وجهه المهدبة بانفعالات فجائية مخيفة . فشمعت بنفس الذعر الذي أحسسته عندما انفجر جيمس سميث ، بالسباب . بيد أن الكولونيل أنجرام لم يلجأ إلى السباب . وكان هذا هو الاختلاف الوحيد بينه وبين هذا العامل . كان مشهورا بالفطنة ولكنه الآن يبدو مجرداً من أية فطنة .

وبلا وعى راح يجول يبصره هنا وهناك . يلتبس منفذا للهرب ولكنه كان قد وقع فى الشرك الذى نصبته له وسط أشجار النخيل والمطاط .

أوه ، كم اشمازت نفسه لدى سماع اسم جاكسون . لم أثرت هذا الموضوع ؟ .
إنه لم يستغ من هذه النكتة لا بد وأن يكون تصرفه فى هذا تهوراً من جانبي وعدم لباقة ، ولكن كيف لي أن أعرف أن أحاسيسه الشخصية لا تقدم ولا تؤخر فى مهنته ؟ . كيف لي أن أعرف أنه كان يترك أحاسيسه الشخصية فى المنزل حين يمضى إلى مكتبه ، فلا تنتابه وهو فى المكتب سوى أحاسيس مهنته ؟ .

وسألته :

— « هل كان من حق جاكسون أن ينال تعويضاً ؟ »

فأجاب ، وقد بدأ يستجمع شتات فكره ويسيطر عليه :

— « بالتأكيد . فانا شخصياً أشعر بحقه فى التعويض . ولكن ليس لهذا الشعور صلة بالنواحي القانونية للقضية ، » .

وسألته :

— « قل لي : أليس للحق أية علاقة بالقانون ؟ » ،

فأجاب مبتسماً :

— « إنك استخدمت كلمة خاطئة فى سؤالك ، » .

— « تقصد أن أقول أليس للقوة ... » ،

فمز رأسه :

— « ومع ذلك ، فنحن نفترض أننا نحصل على العدالة بواسطة القانون » .
وأجاب مخالفاً رأيي :

- « هذا تناقض ظاهري للحقيقة . فنحن بالفعل نحصل على العدالة » .

- « أنت تتحدث الآن بمنطق المهنة . أليس كذلك ؟ »

وتوردت وجنتا الكولونيل خجلا ، توردتا بالخجل حقا ، ومرة أخرى ، نظر فيما حوله بقلق يلتمس منفذاً للهرب . ولكنى سددت عليه الطريق ، وأبديت عدم رغبتى فى الانصراف .

وقلت :

- « قل لى : حين يخضع الإنسان أحاسيسه الشخصية لأحاسيسه المهنية ، الأي يمكن أن يعتبر مثل هذا التصرف عملاً يشوه روح الإنسان ؟ »

ولم أنلق جواباً . فقد ولى الكولونيل أنجرام الأدبار على نحو مخجل . واستطاع بالخدعة أن يهرب منى .

بعد ذلك ، جربت الصحف . فكتبت تقريراً هادئاً بعيداً عن التحيز ومحسوراً فى أضيق نطاق عن قضية جاكسون . ولم أوجه فيه أيما تهمة للأشخاص الذين تحدثت إليهم . بل لأنى - لهذا السبب - أغفلت ذكرهم . فقط ذكرت فيه جقائق القضية المطابقة للواقع ، والسنوات الطويلة التى قضاها جاكسون فى العمل بالمصانع ، ومحاولته إنقاذ الآلة من التدمير ، وماترتب على ذلك من وقوع الحادث . وحالته الحاضرة التى يجاها فى بؤس وجوع ، ولكن الصحف المحلية رفضت نشر مقالى . وحذت حذوها المجلتان الأسبوعيتان .

وأمسكت بتلايب « بيرسى ليتون » . وهو خريج جامعى اقتحم ميدان الصحافة . وكان يمضى آنذاك فترة تدريبه كمراسل لأقوى تلك الصحف الثلاث نفوذاً . وحين سألته عن سبب إخفاء الصحف كل إشارة عن جاكسون أو قضيته ، ابتسم وقال .

- سياسة هيئة التحرير ، ولا شأن لنا بمثل هذه الأمور . فالأمر كله يرجع إلى المحررين ، .

فسأله :

- ولكن ماصلة هذه المسألة بسياسة الصحيفة ؟ ،

أجاب :

- ونحن جميعاً متضامنون مع الشركات . فلو أنك دفعت أجر الإعلانات لما استطعت أن تنشرى شيئاً من هذه الموضوعات في الصحف . ولو حاول أحدنا أن يدس شيئاً منها على إحدى الصفحات لفقد وظيفته . وليس في مقدورك أن تنشرى حرفاً منها ، حتى ولو دفعت عشرة أضعاف الأجر الذي يحصل بانتظام من نشر الإعلانات ، .

وسأله :

- ولكن ماهى سياستك الخاصة ؟ إذ يبدو لي أن وظيفتك هى تحريف الحقيقة بناء على رغبة رؤسائك . وهم بدورهم يمثلون ماشية الشركات ، -

ليس لي شأن بذلك ، .

وفى الحال بدا عليه الضيق . ثم مالبث أن أشرق وجهه حين وجد منفذاً لورطته .

- أنا شخصياً لا أكتب أشياء تتنافى مع الحقيقة . إننى أَرْضِي ضميرى قبل كل شيء . هناك بالطبع أشياء كثيرة كرهية فى العمل اليومى . ولكنها - كما ترين - لا تعدو أن تكون جزءاً لا يتجزأ من العمل اليومى ، .

وعلى هذا النحو الصياني ختم حديثه .

- ومع ذلك ، فأنت تتوقع أن تحتل مقعد رئيس التحرير يوماً ما . وأن تضع وتوجه سياسة الصحيفة ، .

— « حينذاك أكون قد سقيت معدتي » .
— « وما دمت لم تسق معدتك بعد ، هل لك أن تخبرني الآن برأيك
في السياسة العامة لهيئة التحرير ؟ »

وأجاب بسرعة :

— « ليس لي رأي . فإن المرء لا يستطيع أن يلمكم أصحاب النفوذ
ويدفعهم نحو الجبال ، إذا ما كان يطمح إلى النجاح في ميدان الصحافة .
على أية حال ، هذا ما عليّ إيّاه الأيام .

وهز رأسه الصغير وكأنه يحفل بالحكمة :

ولكني قلت في إصرار :

— « ولكن أين الحق ؟ » .

— أنت لا تفهمين اللعبة . فالحق كل الحق هو ما يعود على الإنسان
بنتائج حسنة ألا ترين ؟ »

فغمغمت :

— « تعبير غامض يثير البهجة » .

ولكن قلبي كان يتحسر أسى على هذا الشاب . وشعرت بأنه ينبغي على
إما أن أصرخ وإما أن أنفجر في البكاء .

وبدأت أدرك مظاهر المجتمع الذي عشت فيه على الدوام وأكتشف
الحقائق الرهيبة التي تنستر وراء هذه المظاهر . فقد خيل إلى وكأن هناك
مؤامرة أضمرت ضد جاكسون . وانا بنيت رجفة من مشاعر العطف على
محامي المتظلم الذي دافع عن قضيته بلا جدوى . بيد أن هذه المؤامرة
المبيتة اتسع نطاقها . فلم تكن تستهدف جاكسون وحده ، بل كانت موجهة
ضد كل عامل في المصنع يصاب بالعجز . وإذا ما كانت موجهة ضد كل عامل

في هذا المصنع ، فلم لا يكون نفس الحال بالنسبة للمصانع الأخرى ؟ حقاً ،
ألا ينطبق هذا على الصناعات كلها ؟ .

لو كان الأمر كذلك ، فالمجتمع لا يبدو عندئذ أن يكون أكذوبة ا وفي
وجل ، رحت أنملص من استنتاجاتي الذاتية ، إذ كانت مخيفة وفضيحة إلى
درجة يصعب على المرء أن يصدقها . ولكن كان هناك جاكسون وذراعه .
كان هناك البدم الذي صنع فستاني ، وسالت قطراته من سقف منزلي .
كان هناك الكثيرون من أمثال جاكسون - المئات منهم - في مصانع
سييرا وحدها ، كما قال جاكسون بنفسه . جاكسون ا الذي لم أستطع أن
أهرب منه او أتأساه ا

ورأيت مستر ويكسون ومستر بيرتون ويث . والاثنان يمتلكان
غالبية الأسهم في مصانع سييرا . ولكني لم أستطع أن أوثر فيهما، مثلما أثرت
في الميكانيكيين العاملين في خدمتهما . فقد اكتشفت أن لديهما شعوراً بالأخلاقية
الارستقراطية ، أو بأخلاقية الأسياد^(١) . وتحدث الاثنان في السياسة على
مستوى عال ، وذكرتا تعريفات عديدة عن السياسة والحق . أما بالنسبة
لي ، فقد تحدثا إلى في عاطفة أبوية ، إذ ترققا بشبابي وعدم خبرتي . بيد أنني
لم أفقد الأمل في إقناع أحد من واجهتهم في تحققي ، قدر ما افتقدته في هذين
الرجلين . فقد اعتقدا اعتقاداً جازماً بأن تصرفاتهما على صواب ، وليس
فيها مجال للنسائل أو المناقشة . كان يحدوهما اقتناع جازم بأنهما منقذان
للمجتمع وأنهما يدخلان السعادة إلى بيوت عديدة . فقد رسما صوراً محزنة
عن المآسى التي كان على الطبقة العاملة أن تقاسيها لولا فرص العمل التي

(١) قبل أن تولد انيس ايفرهارد ، كتب جون ستيوارت ميل مقالا
بعنوان « في الحرية » جاء فيه « أينما توجد طبقة سائدة ، فان جانباً
كبيراً من أخلاقياتها ينبع من مصالحها الطبقيّة ، ومن احساسها الطبقيّة
بالسمو والامتياز » .

أُتيحت لها . وهما - هما وحدهما - بفضل حكمتها ، أتاح لهذه الطبقة فرصة العمل .

وما إن انصرفت من عند هذين الاثنين من الأسياد إلى الهواء الطلق ، حتى التقيت بإرنست ، ورويت له نتائج تحقيقي . فنظر إلى بملاح يبدو منها السرور وقال :

- حقا ، إن هذا عمل رائع لقد بدأت تنقبن عن الحقيقة لنفسك وهانت ذى قد توصلت إلى تعميم تجريبي بجهدك الخاص . وهو تعميم صحيح . فليس هناك رجل في عالم الآلة الصناعية ويملك حرية التصرف ، سوى الرأسمالى الكبير . وهو ليس كذلك ، إذا غفرت لى هذا الأسلوب الأيرلندى " في التعبير . فانت قد رأيت أن الأسياد واثقون ثقة تامة بأنهم على حق فيما يفعلون . وتلك هى قمة السخف فى الوضع كله . إنهم مقيدون إلى طبيعتهم البشرية بدرجة لا تسمح لهم بأن يفعلوا شيئا ما لم يعتقدوا أنه على صواب . إنهم دائما ما يحتاجون إلى تصديق على تصرفاتهم .

- وهم إذا ما ابتغوا أن يفعلوا شيئا ، شيئا يتعلق بالطبع بأعمالهم ، تحتم عليهم أن ينتظروا ريثما يتمخض فى أذهانهم - بطريقة ما - مفهوم دينى أو أخلاقى أو فلسفى . يمسور لهم صواب تصرفهم . وعندئذ يرضون فى تحققة ، متناسين أن إحدى مظاهر الضعف للعقل البشرى هى أن الحاجة أم الاختراع . ولا يهم ما يريدون أن يفعلوه . فدائما ما تضعفهم فتوى ما تصدق على تصرفاتهم . إنهم سفسطائيون سطحيون إنهم "جيزويتيون" . بل إنهم يرون أن الحق يمكن أن ينبثق من تصرفاتهم الخاصة . وكانت

(٢) كانت التناقضات اللفظية والتي يدعونها Bulls تمثل أسلوبا ركيكا محببا فى لغة قدماء الأيرلنديين .

إحدى الأوهام السارة التي ابتدعوها بالبداهة هي تفوقهم على سائر الجنس البشري في الحكمة والكفاءة . ومن هنا تنبثق فتوهم التي تصدق على حقهم في الإشراف على زبد الجنس البشري وخبره . بل إنهم بعثوا الحياة في نظرية الحق الإلهي للملوك - ملوك التجارة في هذه الحالة (١) .

وموطن الضعف في وضعهم يكمن في أنهم مجرد رجال أعمال . إنهم ليسوا فلاسفة . ليسوا بيولوجيين ولا علماء اجتماع . ولو كانوا كذلك ، لكان كل شيء على ما يرام . فإذا كان رجل الأعمال عالما بيولوجيا ، أو عالما في الاجتماع ، لعرف على وجه التقريب عين الصواب فيما يعمله من أجل الإنسانية . ولكن هؤلاء الرجال يتسمون بالغباء في كل ما هو خارج عن نطاق الأعمال التجارية ، فهم لا يعرفون سوى الأعمال التجارية . إنهم لا يعرفون شيئا عن الجنس البشري أو عن المجتمع . ومع ذلك ينصون من أنفسهم قضاة يتحكمون في مصائر الملايين الجامعة وكل الملايين الأخرى التي لفظها المجتمع . إن التاريخ لا بد وأن يضحك عليهم يوما ما في سخرية أليمة .

ولم تأخذني الدهشة عندما تحدثت إلى مسز ديكسون ، ومسز بيرتون ويث ، وهما من سيدات المجتمع (٢) . كانتا يوتهما قصورا . إذ كانتا تمتساكان بيوت عديدة في أنحاء متفرقة من البلاد ، منها ما هو مشيد فوق الجبال ، وعند

(١) عزت الصحف الصادرة عام ١٩٠٢ من تلك الحقبة الى رئيس تروست فحم الأثراسيت ، جورج ف . باير ، اعلان المبدأ التالي : « ان حقوق ومصالح العامل سوف يضمنها الرجال المسيحيون ، الذين يمنحهم الله - بحكمته اللانهائية ، حق امتلاك ثروات البلاد » .

(٢) ان كلمة المجتمع هنا مستخدمة في معنى محصور ، فهي كلمة شائعة في تلك الأيام تشير الى ذكور النحل التي تعيش عائلة على غيرها ، التي لا تعمل ، انما فقط تتخيم نفسها بالكميات الضخمة من العسل الذي أنتجته شغالة النحل . فلم يكن رجال الأعمال ولا العمال يجدون متسعا من الوقت ، أو فرصة يلجؤون بها باب المجتمع . « فالمجتمع » انما ابتدعه الاثرياء العاطلون الذين لم يعرفوا الكدح ، والذين أمضوا حياتهم في اللهو .

البحيرات ، ومنها ما يطل على شاطئ البحر . وبسر على راحتيهما جيش من الخدم . وهما تزاولان نشاطا اجتماعيا مدهشا . فقد شملتا الجامعة والكنائس برعايتهما . بينما كان للقساوسة يركعون عند أقدامهما في خضوع ذليل ^(١) . كان لهاتين السيدتين ، بما لديهما من مال ، سطوة قوية . وكان نفوذهما يمتد إلى حد بعيد ، إلى رعاية الفكر بالمنح المالية . هذا ما تعلته من خلال تثقيف إرنست لي .

وحدت هاتان السيدتان حذو زوجيهما . فتحدثتا في السياسة على نطاق واسع ، وعن واجبات الأثرياء ومسئولياتهم . وتسلطت عليهما نفس الأخلاقية التي سيطرت على زوجيهما ، أخلاقية الطبقة التي ينتمون إليها ، فقد تفوهتا بعبارات فصيحجة لم تفهم آدانها معناها . وزادت حدة انفعالتهما عندما رويت لهم الحالة المحزنة التي تعيش فيها عائلة جاكسون . واستبد بهما الغيظ عندما أبديت تعجبي من إحجامهما عن تقديم المساعدة الطوعية إلى هذا الرجل . وقد قيل لي إنهما ما كانتا تثنيان على أحد يلفت نظرهما إلى واجباتهما الاجتماعية . وحين طلبت منهما في صراحة أن يساعدا جاكسون رفضتا طلي في صراحة مماثلة ، وبما يثير الدهول حقا ، أنهما رفضتا عالمي في عبارات تكاد تكون متشابهة ، مع أنني لوجه الحقيقة ، قابلت كلا منهما على انفراد ، ورغم أن إحداهما لم تكن تعرف أنني رأيت أو أنني أعزم أن أرى الأخرى . كان جوابهما المشترك بأنهما سعيدتان بأن تتاح لهما فرصة التصريح في وضوح تام ، بأنهما ان تعظيما قط أي مكافأة على الإهمال وإن تدفعا أي تعويض لحادث ، حتى لا تغريا الفقراء على استخدام

(١) « هاتوا اموالكم المدنسة العار » . هكذا عبرت الكنيسة عن رايها في تلك الايام .

الآلات (١) في إيذاء أنفسهم .

كانت هاتان المرأتان مخلصتين . كانتا مقتنعتين إلى حد التمثالة بسمو طبقتهما وتفوقهما الذاتي . كانت لديهما فتوى تنبثق من أخلاقية طبقتهما الخاصة ، تصدق على كل تصرف تأتيانه . وعندما ابتعدت بي العربة عن منزل مسز دبيرتون ويث، الكبير؛ التفت إلى الورااء وتذكرت ما قاله إرنست: إن هاتين السيدتين مشدودتان إلى الآلة ، ولكن إلى حد تربعان فيه على قنفا .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

(١) في أرشيف « أوت لوك » وهي مجلة أسبوعية تقديمية من صحف تلك الحقبة ، وفي عددها الصادر في ١٨ أغسطس ١٩٠٦ نشرت حالة عامل فقد ذراعه . وتفاصيل هذه الحالة تشابه تمام الشبه قضية جاكسون كما روتها أفيس ايفرهارد .

الفصل الخامس

عشاق الرياضيات

كان إرنست يتردد على منزلنا بين الحين والآخر . ولم يكن مجرد وجود أبي ، أو المآذب الحافلة بالجدل ، هو ما جذب إرنست إلى منزلنا . فحتى آنذاك ، كنت أمتدح نفسي بأني لعبت دوراً في حمله على زيارتنا . ولم تمض فترة طويلة حتى أدركت صدق ظني . لم يكن هناك إطلاقاً عاشق مثل إرنست إيفر هارد . إذ ازدادت نظرتة ثباتاً ، ومصاحفته قوة . ولو كان هذا محتملاً ، فإن التساؤل الذي نشأ في عينيه منذ البداية لم تزده الأيام إلا إلحاحاً .

لم تكن انطباعاتي عنه مستحبة أول مرة رأيته فيها . وبعد ذلك وجدت نفسي أنجذب إليه . ثم شعرت بالنفور منه ، حين هاجمني في ضراوة وهاجم طبقتي الاجتماعية . ثم ألفت نفسي أنجذب نحوه من جديد على نحو أكثر التصاقاً ، حين رأيت أنه لم يطعن في طبقتي على غير وجه حق ، وأن الأشياء الفظيعة القاسية التي قالها عنها ، قد لمست صحتها . ومن ثم أصبح مصدر إلهامي . فقد نزع لي برقع الرياء عن وجه المجتمع . وفتح عيني على لمحات من الحقيقة ، كانت مريّة بقدر ما هي صحيحة لاسبيل إلى إنكارها .

وكما قلت من قبل ، لم يكن هناك عاشق مثله . فما من فتاة عاشت في مدينة جامعية ، وبلغت الرابعة والعشرين من عمرها ، وتخلو من التجارب العاطفية . إذ وقع في عراشي شباب جامعون لم تنبت لحاهم بعد ، وأساتذة وخط الشيب رموسهم ، ورياضيون وعمالقة كرة القدم . ولكن لم يحبني أحد مثلما أحبني إرنست . طوقت ذراعه قبل أن أدري . وأطبقت شفته على شفتي قبل أن أعترض أو أقاوم . وأمام حديثه بدت كرياض العذراء التقليدية شيئاً مضحكاً . هكذا اكتسحتني بانديفاع رائع لا يقهر . فهو لم يتقدم لي

بالزواج . بل أحاطني بذراعيه وقبلني ، واعتبر أن زواجنا أمر مسلم به ،
وما أثرت حول هذا الموضوع أية مناقشة . إن النقاش الوحيد الذي أثير ،
وأثير فيما بعد ، كان حول موعد الزواج .

كان هذا الحب شيئاً لم يسبق له مثيل . كان شيئاً خيالياً . ومع ذلك ،
ووفقاً لمحك الحقيقة الذي عبر عنه إرنست ، كان حباً موقفاً . فربطت
مصيرى به ، وإني لسعيدة الحظ بذلك ، فكثيراً ما راودني الخوف من
المستقبل ، خلال الأيام الأولى من حبنا ، حين فكرت في عنف مغالته .
واندفاعه فيها . ولكن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس من الصحة .
فما من امرأة حظيت بزواج أكثر رقة وأعظم حناناً منه . كان هذا العنف
وهذه الرقة من جانبه يكونان مزيجاً غريباً ، يشابه هذا المزيج الغريب من
السمجة والدمائة في سلوكه . يالهذه السمجة الخفيفة إنه ماتقلب عليها قط
إذ كانت سمجة لطيفة . وقد ذكرني سلوكه في حجرة الاستقبال عندنا ،
ذكرني بمنظر ثور حذر معروض في محل خزف صيني (١) .

وفي هذه الفترة بالذات ، تلاشي آخر ظل لشكوكي حول اكتمال حبي له
(وغالباً ما كانت شكوكاً بلاوعى) . حدث هذا في ليلة رائعة ، خلال
معركة مدهشة دارت في نادي « عشاق الرياضيات » ، حيث واجه إرنست
بشجاعة الأسياد في عربتهم . ولبس هناك ناد على ساحل المحيط الهادى ،
ضم نخبة من أصحاب الامتيازات ، مثل نادي « عشاق الرياضيات » .

(١) كانت عادة الناس لا تزال تقضى فى تلك الأيام بتزيين غرف
الاستقبال بالتحف الثمينة فهم لم يكتشفوا بعد بساطة العيش . وكانت
هذه الحجرات بمثابة متاحف تتطلب عملاً دائماً حتى تحتفظ بنظافتها .
كان « شيطان التراب » سيد البيت . وكانت هناك آلاف الاختراعات
لالتقاط الغبار ، بينما لم يكن هناك سوى بضعة اختراعات قليلة لازالة
الغبار .

وقد أنشأته « مس برينتوود » ، وهي طائفة عجوز وذات ثراء هائل . وكان هذا النادي بالنسبة لها زوجها واطلتها ودميتها . وكان أعضاؤه أغنى أفراد المجتمع ، وأرجح الأثرياء عقلا . بالإضافة — طبعا — إلى قلة نادرة من المفكرين ، لإضفاء الصبغة الفكرية على النادي .

ولم يكن لنادي « عشاق الرياضيات » مقر ثابت . لم يكن من ذلك النوع من النوادي . بل كان أعضاؤه يجتمعون مرة كل شهر ، في بيت أحدهم ، للاستماع إلى إحدى المحاضرات . وكانت المحاضرات عادة ، وليس في جميع الأحوال ، بالأجر . فإذا توصل كيميائي في نيويورك مثلا إلى اكتشاف جديد عن الراديوم ، دفع إليه النادي جميع نفقات انتقاله عبر القارة ، بالإضافة إلى أتعاب سخية تعويضا عن وقته . وكان النادي يتبع نفس الشيء مع مكتشف عاد من البقاع القطبية ، أو مع آخر ألوان النجاح الأدبية والفنية . وكان غير مسموح للزائرين بالحضور ، بينما كانت سياسة النادي تقضي بمنع تسرب أي شيء من مناقشاته إلى الصحف . وهكذا ، كان في مقدور أرباب السياسة — وما أكثر الفرص التي أتاحت لهم — أن يعبروا عن أفكارهم .

وهأنذا أبسط أممي رسالة مثنية ، كتبها إلى إرنست منذ عشرين عاما ، ومنها أنقل ما يلي :

« إن والدك عضو في نادي « عشاق الرياضيات » . ومن ثم يمكنك الحضور . تعالي إذن ليلة الثلاثاء القادم ، وأنا أعدك بليلة العمر . فأنت ، في مقابلاتك الأخيرة ، قد فشلت في زرععة الأسياذ . وإذا جئت ، فأني سوف أهزم من أجلك . سوف أجعلهم يعوون كالذئاب . إنك لم تنشدي سوى مجرد أخلاقياتهم . وحين تستجوبين أخلاقياتهم ، يدون أكثر دماثة وسموا ولكني سوف أهددم في ثرواتهم . وهذا ماسوف يهزم من الأعماق ، من جذور طباعهم البدائية . وإذا كان في مقدورك أن تأتي ، فسوف ترين رجل الكهف في ملابس السهرة ، وهو يكشر عن أنيابه ، وينهش في عظمة

من العظام . إنني اعدك بأن تسمعي مواء كثيراً ، وأن تلمسي ببصيرة نفاذة الطبيعة الوحشية في الإنسان .

« إنهم ماوجهوا إلى الدعوة ، إلا ليمزقوني إرباً إرباً . وهذه هي فكرة مس برينتوود . فكثيراً ماوهت بذلك في سماجة حين دعنتني إلى النادي . وهي قد أتاحت لأعضاء النادي مثل هذه التسلية من قبل . إنهم يبتهجون ، حين يرون دعاة الإصلاح الآمنين ، يمثلون أمامهم في وداعة . وتعتقد مس برينتوود أنني ودبح كقطة صغيرة ، طيب وأبله كبقرة أليفة . ولست أنكر أنني ساعدتها على تكوين تلك الانطباعات عني ؛ إذ ظلت تمتحنني في بادئ الأمر ، ثم مالبتت أن تكلمت بألفتي . ولسوف أنال مكافأة حسنة — مائتين وخمسين دولاراً — وهذه تليق بالرجل الذي رشح نفسه ذات مرة — رغم أنه راديكالي — لمنصب حاكم الولاية . كما ينبغي علي أن أرتدي ثياب أنسرة . وهذا أمر إجباري ، في حين أنني لم أرتد قط مثل هذه الثياب في حياتي . وأحسب أنني سأضطر إلى استئجارها من محل ماء . ولكنني على استعداد أن أفعل أكثر من ذلك ، من أجل أن تتاح لي فرصة التحدث في نادي عشاق الرياضيات .

وفي تلك الليلة ، توافد أعضاء النادي من كل حذب وصوب إلى منزل آل بيرتون ويث . وجيء بكراس إضافية إلى قاعة الاستقبال الكبرى . وجلس عليها ما لا يقل عن مائتين من أعضاء النادي ليستمعوا إلى إرنست . كانوا حقاً سادة المجتمع . ورحت أسلي نفسي بأن أستعرض بسرعة في ذهني مجموع الثروات التي يمثلونها ، فإذا بها تبلغ مئات الملايين . ولم يكن أصحابها من الأغنياء الخاملين . بل كانوا رجال أعمال ، لعبوا أهم الأدوار الفعالة في كل من الحياة الصناعية والسياسية للبلاد .

كنا جميعاً قد اتخذنا مقاعدنا ، حين دخلت مس برينتوود علينا ، وإرنست في صحبتها . واتجها في الحال نحو صدارة القاعة ، حيث يلقى إرنست خطابه .

كان يرتدى ثياب السهرة ، وبدأ في هيئة رائعة بكتفيه العريضتين ، ورأسه المهيّب . ثم كانت هناك مسحة خفيفة واضحة من هذه السهجة التي اتسم بها في حركاته . وغالبا ما اعتقدت ، أنني بسببها ، وبسببها وحدها ، قد أحببته . وحين نظرت إليه شعرت بفرح عظيم . وأحسست من جديد بنبض راحة يده على يدي ، وبلسة شفتيه ، وهذا الكبرياء الذي ملأني . واجتاحني شعور يدعوني بأن أنفض وأصرخ في الجمع المحتشد : هذا رجلي ، فقد ضمني بين ذراعيه ، وإني وحدي شغلت ذهنه حتى أنني صرفته عن أفكاره السامية العديدة . .

وعند صدارة القاعة ، قدمته مس برينتوود إلى الكولونيل فان جلبرت . وقد عرفت أن هذا الأخير سوف يرأس الاجتماع . إنه محام كبير لدى الشركات ، وفوق ذلك . يمتلك ثروة ضخمة . وكان أصغر مبلغ يمكن أن يلتفت إليه كأتعاب محاماة ، هو مائة ألف دولار . كان أستاذا في القانون . فالقانون لديه لم يكن سوى دمية يتلاعب بها ، شكل فيه وكأنما يشكل في قطعة من الطفل . وتوه وحرف فيه وكأنه لعبة ألغاز صيدية يشكها حسبما يختار من تصميم . وكان من حيث المظهر والأسلوب البلاغي من الطراز العتيق . ولكن من حيث الخيال والمعرفة والحيلة . كان شابا في نضارة أحدث تشريع صدر . وبدأت شهرته عندما نقض^(١) وصية «شاردويل» ، وقد تقاضى

(١) كان نقض الوصايا مظهرا فريدا من مظاهر تلك الفترة . فان تجميع الثروات الهائلة جعل مشكلة إعادة توزيع هذه الثروات بعد الوفاة ، مشكلة تقلق راحة بال جامعها . وهكذا أصبح وضع الوصية ونقضها تجاريتين ، تكمل احدهما الأخرى ، مثلما تكمل صناعة البنادق صناعة الدروع . وكان يستدعى أكثر المحامين دهاء لوضع وصايا لا يمكن نقضها . بيد أن هذه الوصايا دائما ما كانت تنقض . وكثيرا ما كان ناقضوها هم أنفسهم الذين صاغوها . ورغم ذلك ، فقد تشبث في أذهان الطبقة الثرية وهم « يوحى بأنه في الامكان صياغة وصية لا يمكن نقضها اطلاقا . وهكذا سعى الموكلون والمحامون في اثر هذا الوهم جيلا بعد جيل ، مثلما سعى سيميائيو القرون الوسطى اثر حجر الفلاسفة .

عن هذا العمل وحده ، خمسمائة ألف دولار . ومنذ ذلك الحين بدأ يرتفع كالضاروخ . فكثيرا ما كان يطلق عليه أعظم المحامين في البلاد ، أعظم المحامين لدى الشركات بالطبع . ولم يكن يستثنى من القائمة التي تضم أعظم ثلاثة محامين في الولايات المتحدة .

ونفض من مقعده . وراح يقدم إرنست للحاضرين في عبارات مقتضبة منتقاة بعناية ، عبارات يتوارى تحتها استهزاء خفيف . وكان الكولونيل فان جليبرت فكها في دهاء ، وهو يقدم المصلح الاجتماعي ، وعضو الطبقة العاملة . فابتسم المستمعون ، بينما استبدى الغضب . ونظرت إلى إرنست ، ولكن منظره ضاعف من غضبي . إذ لم يبد عليه أى استياء من تعريض الكولونيل به . والأسوأ من ذلك ، أنه بدا وكأنه لا يعنى هذا الاستهزاء الخفيف . وهناك ، جلس على مقعده وديعا ، نعسانا وساذجا ، فبدأ غيبا حقا . وقرر إلى ذهني هذا الخاطر : « ماذا لو أنه تهيب هذه الصفوف من أساطين العقل وأصحاب الصولجان ؟ » . وعندئذ ابتسمت ، فهو لا يستطيع أن يخدعني . وإن استطاع أن يخدع الآخرين مثلما خدع مس برينتوود من قبل . وقد احتلت مس برينتوود كرسيا في المقدمة . وفي مرات عديدة ، كانت تلتفت إلى واحد أو آخر من زملائها بابتسامة تبدى بها إعجابها بملاحظاتهم .

وما إن انتهى الكولونيل فان جليبرت ، حتى نهض إرنست يتحدث . واستهل حديثه بصوت خافت ، وفي تردد وتواضع ، وبمظهر يبدو عليه الارتباك الواضح . فتكلم عن ولادته في أحضان الطبقة العاملة ، وعن يؤس بيئته وتعاستها ، حيث كان الجسد والروح يتضوران جوعا ، ويقاسيان للعذاب على حد سواء . وصور آماله ومثله العليا وتخيلاته عن الجنة ، حيث ينعم أبناء الطبقات العليا بالعيش فيها . فقد قال :

« في عالم آخر ، عرفت تجرد الروح عن الانانية ، والتفكير الطاهر النبيل ، والحياة الفكرية الثاقبة . عرفت كل هذه الأشياء ، لأنني كنت أقرأ في روايات « مكتبة شاطئ البحر »^(١) ، وفيها قرأت أن جميع الناس رجالاً ونساء ، الأوغاد والمغامرين ، كانوا يفكرون أفكاراً جميلة ، ويتحدثون بلهجة عذبة ، ويقومون بأعمال مجيدة . وباختصار ، فإني مثلما اقتنعت بإشراق الشمس ، اقتنعت بأن هنالك في هذا العالم الآخر ، كل ما هو خير ونبيل ورائع ، كل ما يمنح الحياة رقياً وكبرياءها كل ما يعطى للحياة قيمتها وكل ما يكفي المرء على عمله ، ويعوضه عن شقائه ، .

واستمر في الحديث ، فتتبع تاريخ حياته منذ أن التحق بالمصانع ، ثم اشتغاله بمهنة حذاء الخيل ، ومقابلاته مع الاشتراكيين . فقد وجد بينهم — كما قال — أصحاب العقول الراجحة ، وذوى الفطنة اللامعة ، ومبشرين بالإنجيل طردوا من الخدمة لأن مسيحيتهم أبت عليهم أن يخضعوا لطائفة تعبد شيطان الجشع ، وأسائذة حطمتهم سياسة الجامعة في خضوعها للطبقات الحاكمة . كان الاشتراكيون — كما قال — ثوريين يناضلون من أجل تقويض كل ما هو غير عقلي في المجتمع الحالي ، لينبؤوا على أنقاضه كل ما هو عقلي في مجتمع المستقبل . وما أكثر ما قاله ، مما لا يتسع المجال لكتابته . ولكنني لن أنسى قط كيف وصف الحياة بين الثوريين فتمد تلاشي تلغمه ، وغدا صوته قوياً مدوياً بالثقة ، وتآلق مثلما تآلقت أفكاره وهي تتدفق على لسانه . إذ قال :

« كذلك وجدت لدى الثوريين الإيمان الحار بالإنسان ، والمثالية الغبورة ، وحلاوة إنكار الذات والتضحية والاستشهاد ، وكل الصفات الرائعة التي

(١) نوع غريب ومذهل من الأدب ، كان يهدف إلى صرف انظار الطبقة العاملة عن طبيعة الطبقة الثرية الخاملة .

تتغنى بها روح الإنسان . هنا كانت الحياة نظيفة نبيلة مفعمة بالحياة .
وكنت على اتصال بنفوس عظيمة مجدت الجسد والروح ، وميزتها عن
الدولارات والسننات . كان الأبن الخافت المنبعث من طفل جامع في حي
فقير ، يعنى لديها شيئاً أهم من عظمة التوسع التجارى وأبهة الإمبراطورية
العالمية . وكان كل ما حولي نبالة الهدف وبطولة الكفاح . وكانت أباى
تستضيء بأشعة الشمس ، وليالى يبريق النجوم . كانت كلها ملتبهة وندية .
وكانت كأس القربان المقدس تتوقد وتوهج دائماً وأبداً أمام عيني ، كأس
قربان المسيح نفسه ، جسد الإنسان الدافئ الذى طالما قاسى العذاب وسوء
المعاملة ، ليجد الخلاص والنجاة آخر الأمر .

وكارأيته من قبل وقد تغيرت هيئته ، رأيت الآن وقد انتصب أماى
متجلباً . فقد تألق بحياه بنور إلهى غمر جوانحه . ولاحظت عيناه أكثر إشراقاً
وسط الإشعاع الذى لفه كمن يلتف بوشاح . ولم يلاحظ الآخرون هذا
الإشعاع . بيد أنى تخيلته ناشئاً عن دموع الفرح والحب التى أغشت
رؤياى . على أية حال ، فإن مستر ويكسون كان جالساً خلفى ويبدو أنه لم
يتأثر البتة ، إذ سمعته يتهمك فى صوت عال ويقول : « طوباوى » .

ومضى إرنست فى كلامه ، فتحدث عن ارتقائه سلم المجتمع ، حتى غدا
- آخر الأمر - على اتصال بأعضاء الطبقات العليا ، واختك بالرجال

(١) كان الناس فى ذلك الوقت عبيداً للالفاظ . وكان اغراقهم فى تلك
العبودية أمراً بعيداً عن فهمنا . كان فى الالفاظ سحر أعظم مما يبدو فى
فن المشعوذ . فقد كانت اذهانهم مشوشة مخدرة . وكان مجرد التفوه
بكلمة واحدة ، كفيلاً بأن ينفى تعميم عام بأكمله من جدية البحث والتفكير .
ومن هذه الالفاظ كلمة « طوباوى » . فقد كان مجرد التفوه بها كفى
بتقويض أى مشروع يستهدف تحسين الوضع الاقتصادى أو تجديده ،
ولا أهمية لدى الحكمة فى تخطيطه . وغدت جماعات ضخمة من الناس
مجنونة بعبارات من أمثال : « الدولار الشريف » و « وجبة غداء كامطة »
وغيرها . وكانت صياغة أمثال هذه العبارات تعتبر لديهم إحدى لمسات
العبقرية .

الذين يتبوءون المراكز العالية . وعندئذ بدأت الغشاوة تنقشع عن عينيه . وصف كل ذلك في عبارات لم يتعلق بها مستمعيه . فلقد أخذته الدهشة من شيوع الطين . وأثبتت الحياة أنها ليست رائحة أو خيرة ، حين روعته الأناية التي واجهها . وما أثار دهشته فوق ذلك ، انعدام الحياة الفكرية . وبينما انتعشت نفسه من حياة رفاقه الثوريين ، اصطدم بالغباء العقلي لدى طبقة السادة . فحينئذ وجد السادة ، رجالا ونساء ، ماديين إلى حد مخجل ، على الرغم من كنائسهم الفخمة ومبشرهم الذين يجزلون لهم العطاء . صحيح ، أنهم كانوا يرثرون عن مثل عليا حلوة ، وعن بعض الأخلاقيات العريضة . ولكن على الرغم من ثروتهم ، كان الطابع السائد للحياة التي يحيونها ، طابعاً مادياً . إنهم بلا أخلاقية حقيقية . فالأخلاقيات التي سبق أن بشر بها المسيح مثلاً ، لم يعد يبشر أحد بها الآن . فقد قال :

« التقيت رجالاً كانوا يبتهلون إلى ملك السلام^(٥) وهم ينددون بالحرب ، بينما وضعوا المسدسات في أيدي عصابة بينكرتون^(١) لتطلق النار على المضربين في عنق مصانعهم . والتقيت رجالاً عبروا عن سخطهم على وحشية المصارعة المحترفة ، بينما هم في الوقت ذاته شركاء في جرائم غش الطعام ، الذي كان يقتل كل عام عدداً من الأطفال يفوق ماقتلته يد هيرودوس الملطخة بالدماء . وهذا السيد ، إنسان رقيق أرسنقراطى السمات ، بينما هو مدير دمى وأداة في يد شركات كانت تسرق خلسة أموال اليتامى والأرامل . وهذا السيد ، راع للأدب وبجمع النسخ الرائعة من الكتب ، بينما كان يدفع رشوة إلى مدير البلدية ، كشيء اللحية أسود الحاجبين . وهذا محرر صحيفة

(*) يسوع المسيح .

(١) كانوا في نشأتهم من رجال المباحث الخصوصيين . ولكن ما لبثوا أن أصبحوا مقاتلين أمجورين في خدمة الراسمالية ، ثم انتهوا في آخر الأمر إلى جنود مرتزقة في خدمة الاحتكارية .

ينشر الإعلانات عن أدوية مركبة^(١) ، بينما كان يدعوني ديماجوجياً لئلا لأنى تحديته بأن ينشر في صحيفته الحقيقة عن هذه الأدوية . وهذا رجل يتحدث في وقار وبحماس عن جمال المثالية ، وعن عظمة الإله ، بينما كان منذ لحظات يخدع رفاقه في صفقة تجارية . وهذا رجل يعد دعامة للكنيسة ، ومتبرع سخى للإرساليات في الخارج ، بينما يستخدم في محله بنات يعملن عشر ساعات يومياً بأجر لا يسد رمق حياتهن ، وبذلك يشجعن تشجيعاً مباشراً على ممارسة البغاء . وهذا رجل أوقف مالا لإنشاء كرسي جديدة في هيئة للتدريس بالجامعة ، واتشيد كنائس نفحة ، بينما حنث في يمينه أمام دور القضاء من أجل بضعة سنتات أو دولارات . وهذا قطب في هيئة السكك الحديدية حنث في وعده كواطن ، وكسيد مهذب ، وكسيجي ، ففتح تخفيضاً سريعاً في الأسعار ، وما أكثر ما منح من هذه التخفيضات السرية . وهذا عضو في الكونجرس هو عبد وأداة ودمية صغيرة في يد جهاز يرأسه مدير همجي غير مثقف^(٢) . وبالمثل كان هذا المحافظ وذاك القاضي في محاكم القضاء الأعلى ، وثلاثهم يتنقلون بالسكك الحديدية بتصريح مجاني ، بينما كان هذا الرأسمالي المنزه يمتلك هذا الجهاز ، وورثاسة هذا الجهاز والسكك الحديدية التي تصدر التصاريح المجانية .

وهكذا بدلا من أن أعيش في الجنة ، وجدت نفسي أحياء في صحراء قاحلة تسودها النزعة التجارية . لم أجسد سوى الغباء في كل شيء ما خلا

(١) كانت الأدوية المركبة أكاذيب مباحة . ولكن الناس انخدعوا بها مثلما انخدعوا بالتعاونيد وصكوك الغفران في العصور الوسطى . ويمكن الاختلاف الوحيد في أن الأدوية المركبة كانت أكثر أذى وأعلى ثمنا .
(٢) حتى في عام ١٩١٢ ، كان ما يزال في اعتقاد الأغلبية الساحقة من الناس أنهم يحكمون البلاد بفاعلية اقتراعهم السري . وفي الحقيقة كانت تحكم البلاد حفنة من المتزعمين الذين يوجهون سياسة الأحزاب ، وكان هؤلاء المتزعمون يتقاضون أموالاً ضخمة من كبار الرأسماليين . ولكن ما لبث أن وجد هؤلاء الرأسماليون أنه من الأرخص لهم أن يمتلكوا الأجهزة الحزبية ، وأن يستاجروا هؤلاء المتزعمين على هذه الأجهزة .

الأعمال التجارية . لم أجد أحداً طاهراً نبيلاً حيويّاً ، على الرغم من أنى وجدت كثيرين مفعمين بالحيوية ، ولكن بحيوية الفساد . كل ما وجدته بالفعل كان أنانية وقسوة في أشنع صورهما ، ومادية جسيمة شرهة ، مادية متمرسة عملية .

وروى لهم إرنست أشياء كثيرة عن أنفسهم ، وكيف انقضت من أمامه غشاوة الوهم . كيف ستم عقلياتهم وكيف اشتماز من أخلاقياتهم . ومن ثم فقد انتهج بالعودة إلى صفوف الثوريين ، الذين تحلوا بالطهر والنبيل والحيوية ، وكل الصفات التي تجرد منها الرأسماليون إذ قال :

« والآن ، اسمحوا لي أن أحدثكم عن الثورة » .

ولكن ينبغي أن أقول أولاً إن هذا الخطاب المرير الذي ندد فيه بأنفسهم ، لم يحرك فيهم ساكناً . إذ نظرت فيما حولى وتطلعت إلى وجوههم . فرأيت أنهم ظلوا على حالهم وتذكرت ما سبق أن قاله إرنست يوماً : « إن أى اتهام يوجه إلى أخلاقياتهم لا يستطيع أن يحرك فيهم ساكناً » . على أية حال استطعت أن أرى أن جرأة خطابه قد مست مشاعر « مس برينتوود » . إذ بدت على محياها أمارات القلق والخوف .

وابتدأ إرنست بوصف جيش الثورة ، وفيما كان يعطى الأرقام التي تعكس قوته (الأصوات التي لم تحنسب في مختلف الدوائر الانتخابية) بدأ القلق يستبد بالمجتمعين . وتجلت أسارير الاهتمام على وجوههم فلم أر سوى شفاء مطبقة . وأخيراً رمى بالقفاز في وجوههم . فقد تحدث عن المنظمة الاشتراكية التي تضم تحت لوائها مليوناً ونصف مليون من الاشتراكيين في الولايات المتحدة ، إلى جانب ثلاثة وعشرين مليوناً من الاشتراكيين في سائر أنحاء العالم . فقد قال :

« ومثل هذا الجيش ، جيش الثورة ، حيث تبلغ قوته خمسة وعشرين

مليون محارب ، أمر بدفع الطبقات الحاكمة إلى التروى والتفكير ، إن صيحة هذا الجيش هي : لا هوادة افنحن نريد كل ما تمتلكونه . نحن نريد أن نقبض بأيدينا على زمام السلطة ، ومصير الجنس البشرى . هذه هي أيدينا ، وهي أيد قوية . وسوف نتزع منكم حكوماتكم ، ونجردكم من قصوركم ورخائكم المتدثر بالأرجوان . ومنذ ذلك اليوم ، يتحتم عليكم أن تعملوا من أجل خبزكم اليومي ، مثلما يعمل الفلاح في حقله ، أو كاتب يعاني مرارة الجوع في عواصمكم التجارية . ها هي ذى أيدينا ، وهي أيد قوية ، .

وبينما كان يتكلم ، امتدت ذراعه الضخمتان وراح ينشب يديه في الهواء . مثل براثن النسر . وفيما كان يقف هناك ، هيمنت عليه الروح العمالية . فامتدت يداه تتوعدان بسحق مستعميه ، وأبصرت المستمعين ينكشون في مقاعدهم بشكل ملوس أمام هذه الصورة التي رسمها عن الثورة ، إذ كانت صورة محددة ، متوقعة ، تهدد مصالحهم . وإنما أعنى أن الخوف لم يرسم إلا على وجوه النساء ، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للرجال ، فقد كانوا أثرياء من ذوى النشاط ، وليسوا أثرياء خاملين . كانوا رجالا محاربين . وارتفعت من الحناجر دهامة خافتة ، رنت في الهواء لحظة ، ثم ما لبثت أن انقطعت . كانت نذير زجرة ، قدر لى أن أسمعها تلك الليلة مرات عديدة ، علامة الوحشية في الإنسان ، ومقدمة عواطفه للبدائية ، ولقد أطلقوا هذا هذا الصوت وهم ليسوا في وعيهم ، إذ كان بمثابة زجرة القطيع انطلقت من أفواهه بلا وعى على الإطلاق . وفي تلك اللحظة ، حين رأيت قسامات القسوة تتشكل على وجوههم ، وحين أبصرت وميض القتال يلعب في عيونهم ، تحققت من أنهم لن يدعوا تلك السيادة التي يسودون بها العالم أن تغتصب منهم في سهولة .

وواصل إرنست هجومه ، فغلل وجود مليون ونصف من الثوريين

في الولايات المتحدة بانهاام وجهه إلى الطبقة الرأسمالية ، بأنها أساءت تنظيم المجتمع ووصف باختصار الظروف الاقتصادية التي عاش فيها إنسان الكهف ، وتلك الظروف المتوحشة التي تعيش فيها شعوب اليوم . فأشار إلى أنهم كانوا لا يملكون أدوات أو ماكينات ، بل كانوا يمتلكون فقط القدرة الطبيعية للفرد على توليد القوى . ثم تتبع تطور الآلات والنظام الاجتماعي ، حتى أن الطاقة المنتجة للإنسان لم تحضر بلغت اليوم أضعاف طاقة الإنسان المتوحش ألف مرة ، فقد قال :

- د في مقدور خمسة رجال أن ينتحوا من الخبز ما يكفي ألف شخص ، وفي استطاعة رجل واحد أن ينتج من الأقمشة القطنية ما يكفي مائتين وخمسين ، ومن المنسوجات الصوفية ما يكفي ثلاثمائة ، ومن الأحذية ما يكفي ألف شخص . وفي وسع المرء أن يستنتج من هذه الإحصائية أن الإنسان المتعدن قادر في ظل تنظيم قدير للمجتمع ، على أن يكون في وضع أفضل بكثير من وضع رجل الكهف . ولكن هل هو كذلك ؟ دعونا نرى .
يوجد في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون^(١) شخص يعيشون في فقر . وأعني بكلمة الفقر ، ذلك الوضع في الحياة الذي لا يمكن فيه - بسبب الافتقار إلى الغذاء والمأوى الملائم - الاحتفاظ بالمستوى الأدنى لكفاة العمل . ففي البلاد اليوم ، على الرغم من كل ما تسمونه بتشريعات العمل ، يوجد ثلاثة ملايين من العمال الأحداث^(٢) . تضاعف عددهم خلال اثني عشرة سنة . وبالمناسبة أود أن أسألكم يا من تنظمون المجتمع : لماذا

(١) أشار « روبرت هانتر » عام ١٩٠٦ ، في كتاب بعنوان « الفقر » ، أشار إلى وجود عشرة ملايين في الولايات المتحدة كانوا يعيشون في تلك الأيام في فقر مدقع .

(٢) جاء في احصاء عام ١٩٠٠ (وهو آخر احصاء أجرى في الولايات المتحدة ونشر علنا) أن عدد الاطفال العمال بلغ ١٨٧ر٧٥٢ر١٧٥٢ طفلا .

لم تنشروا على الملأ أرقام إحصاء السكان عام ١٩١٠ ؟ . وأنا أود أن أجيب بالنيابة عنكم وأقول إنكم خائفون . فإن الأرقام الدالة على البؤس ، كانت من المحتمل أن تعجل بالثورة التي تجمع هذه اللحظات من صفوفها .

- ولكن لنتوجه إلى الاتهام الذي وجهته إليكم . إذا كانت القوة الإنتاجية للإنسان المعاصر أعظم ألف مرة من طاقة إنسان الكهف ، فلماذا إذن نجد في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون شخص لا يجدون طعاماً مناسباً أو مأوى ملائماً ؟ . لماذا يوجد اليوم ثلاثة ملايين من العمال الأحداث ؟ إنه اتهام صحيح . إن الطبقة الرأسمالية قد أساءت تنظيم المجتمع . في مواجهة الحقائق القائلة بأن الإنسان المعاصر يحيا حياة أشد بؤساً من إنسان الكهف ، وأن طاقته الإنتاجية أكبر ألف مرة من طاقة إنسان الكهف ، لن يستطيع المرء أن يستنتج شيئاً سوى أن الطبقة الرأسمالية قد أساءت تدير المجتمع ، سوى أنكم قد أسأتم التنظيم يا سادتي ، أسأتم التنظيم في أنانية وعلى نحو مخجل . ولهذا السبب ، ليس في مقدوركم أن تردوا على الليلة هنا وجمالاً لوجه ، بقدر ما هو ليس في مقدور طبقتكم بأكمالها أن ترد على المليون ونصف مليون ثوري في الولايات المتحدة . أتم لا يستطيعون أن تجيبوني ، وأتممداكم أن تجيبوني . بل إنني أجد في نفسي الجرأة على أن أقول لكم الآن إنكم لن تجيبوني حتى نهاية حديثي . فلسوف ينعقد لسانكم عن الكلام فيما يتعاق بهذه النقطة ، بينما سوف يتحدثون في ثرثرة بالغة عن أشياء أخرى .

• إنكم أخفقت في إدارة المجتمع وأقمتم المجازر على أنقاض الحضارة . فقد أصابكم العمى ، واستبدت بكم الشراعة . ووقفتم (مثلما تقفون اليوم) في ندوانكم التشريعية ، لتعلنوا أن تحقيق الأرباح مستحيل . ألم يكره الأحداث والأطفال على العمل . لا تعتمدوا على كلامي . فكل هذه الحقائق مدونة في محاضر الجلسات ، وهي تدهفكم بالإدانة ، بل إنكم هدأتم

من ضمائرهم وخدرتموها بثرة عن مثل عليا حلوة وأخلاقيات محبوبة .
أنتم مترهلون بالسلطة وبالملكبة وثلون بانجاح . ولكن ليس لديكم أمل
في مواجهتنا بأكثر من الأمل الذي يراود ذكور النحل وهي نحوم حول
خلايا العسل ، بينما تنقض عليها الشغالة لتضع حداً لحياتها المنخمة . إنكم
فشلتم في إدارة المجتمع . فلا مفر من أن تنزع هذه الإدارة منكم . إن مليوناً
ونصف مليون عامل يقولون إنهم سوف يحثون سائر أبناء الطبقة العاملة
على الانضمام إلى صفوفهم ، وانزع إدارة المجتمع من أيديكم . هذه هي الثورة
ياسادتي أوقفوها إذا استطعتم ،

وطوال فترة ليست بالقصيرة ظل صوت إرنست برن في أرجاء القاعة
الكبيرة . وبعدئذ ارتفعت من الحناجر نفس الدممة التي سمعتها من قبل
ووقف عشرات الرجال على أقدامهم يصرخون في وجه الكولونيل فان
جلبرت ويطلبون أن يمنحهم حق الرد عليه . ولاحظت أن كتي مس برينتوود
تتحركان في صورة أشنجية واستبدت الغضب في بادئ الأمر . فقد حسبت
أنها تضحك ساخرة من إرنست . ولكنني اكتشفت بعد ذلك أن هذه
الحركة لم تكن ضحكة سخريه ، بل كانت حالة هستيرية . إذ روعها ما فعلته
في إحضار هذا الثوري المشاغب إلى ناديها المبارك !

ولم يلاحظ الكولونيل فان جلبرت انفعالات الغضب على وجوه
عشرات الرجال وقد حاولوا جاهدين أن ينالوا حق الكلام . فقد اكتفى
وجهه بانفعالات غاضبة ونهض على قدميه ملوحاً بذراعيه . ولم يستطع
طوال لحظات أن يتفوه بشيء ، سوى بضعة أصوات متقطعة . وبعدئذ
تدفقت الكلمات على لسانه . ولكن خطابه لم يكن خطاب محام يتقاضى
مائة ألف دولار ، بل خلا من الفصاحة التي عرف بها المحامون من الطراز
القديم . فقد صاح قائلاً :

— مغالطة في مغالطة ! فلم أسمع قط في حياتي كلها أن يتفوه إنسان

بهذا القدر الكبير من المغالطات خلال ساعة واحدة فحسب . ومع هذا ينبغي أن أقول لك أيها الشاب ، إنك لم تقل شيئاً جديداً . فقد درست كل هذا في الجامعة قبل أن تولد أنت إذ أعلن جان جاك روسو نظريتك الاشتراكية منذ قرنين تقريباً في : « عودة إلى الأرض » . حقاً ، إنه ارتداد إلى الوراء ، وعلم البيولوجيا يعلمنا سنخف هذه المزاعم . فقد قبل ، وحقاً ما قيل : إن أنصاف المتعلمين شيء خطير . وهأنت قد ضربت اللبلة خير مثل على هذا بنظرياتك الطائشة . مغالطة في مغالطة فلم أشمئز في حياتي من شيء بقدر ما اشمازت نفسي من هذا القدر الزائد من المغالطات . كل هذا بسبب تعميمائك القاصرة ، وأفكارك الصبائية .

وطقطق أصابعه في استخفاف ، وتقدم للجلوس . وانطلقت من شفاه النساء هتافات الاستحسان . بينما خرجت من حناجر الرجال عبارات تأييد مبسوطة . أما بالنسبة لعشرات الرجال الذين كانوا يتصايحون من أجر أخذ الكلمة ، فإن نصفهم راح يتكلم على الفور وعمت الفوضى والبلبلة بشكل لا يمكن وصفه . فلم تشهد قعة قاعات مس برينتوود الرحبة مثل هذا المشهد من قبل . هؤلاء إذ هم أقطاب الصناعة وسادة المجتمع ، أولئك المتوحشون الذين يزجرون ويكشرون عن أنيابهم ، وهم رافلون في ثياب السهرة . حقاً لقد زلزل إرنست نفوسهم ، حين بسط يديه يترعدهم في ثرواتهم ، بينما لاحت في أعينهم ، وكأنهما أيدى مليون ونصف مليون ثوري .

بيد أن إرنست ما كان يفقد صوابه في موقف من المواقف . فقبل أن يوفق الكولونيل فان جلبرت في الجلوس ، كان إرنست قد نهض على قدميه ، وقفز إلى الإمام . وصاح فيهم كالمدير :

تكلموا واحداً فواحداً .

وتخرج الصوت من رثنيه الضخمين ، فسيطر به على العاصفة البشرية .

هكذا ، فرض عليهم الصمت بقوة شخصيته . ثم عاد يقول في رقة :

« تكلموا واحدا فواحدا . اسمحو الى أن أرد أولا على الكولونيل فان جلبرت . وبعدها تستطيع بقيتكم أن تنصدي لي . ولكن تذكروا ، واحدا بعد واحد . فلا مجال هنا للألعاب الجماعية . وليست هذه القاعة ملعباً لكرة القدم ، .

ومضى يقول ، وقد التفت إلى الكولونيل فان جلبرت :

« أما فيما يتصل بك ، فأنت لم تجب عن أي شيء مما قلته . أنت لم تزد على إصدار بضعة أحكام استفزازية وتعسفية حول مقدرتي العقلية . إن هذا الأسلوب قد يساعدك في مهنتك ولكنك لا تستطيع أن تتحدث إلا على هذا النحو ، فأنا لست عاملاً عندك ، يتقدم إليك متذلاً ليسألك أن ترفع من أجره ، أو أن تحميه من الآلة التي يشتغل عليها . أنت لا تستطيع أن تقف من الحقيقة موقفاً مجحفاً حين تتعامل معي . وفر على نفسك مثل هذه المواقف ، حتى تتبعها مع عبيد أجورك . فهم لن يجرؤوا على الرد عليك ، لأنك تمتلك خبزهم وزبدتهم ، بل وحياتهم بين يديك .

« أما فيما يتصل بمسألة العودة إلى الطبيعة ، التي تزعم أنك تعلمتها في الجامعة قبل أن أولد ، فأسمح لي أن أوضح أنه ، حسبما يبدو ، لم يكن في مقدورك أن تتعلم شيئاً حينذاك . فالاشتراكية ليس لها علاقة بحالة الطبيعة ، إلا إذا صح وكان لحساب التفاضل علاقة بتدريس التوراة . إنني سبق أن رميت طبقتكم بالغباء في كل ما هو خارج عن نطاق العمل التجاري . وهأنت ذا ياسيدي تضرب مثلاً رائعاً يثبت صحة رأيي ، .

ولم تستطع أعصاب مس برنتوود أن تتحمل هذا التقرير العنيف لمحاميها ، الذي يرفع أجره في القضية إلى مائة ألف دولار . فاشتدت عليها

حالتها المستيرية ، واضطر الناس إلى إخراجها من القاعة وهي تبكي وتضحك في آن واحد . وقد أحسنوا صنعا ، إذ ما لبثت أن أعقبت ذلك أحداث أكثر سوءاً .

وواصل إرنست كلامه بعد انقطاعه لحظات قائلاً :

— لا تعتمد على رأيي . فلسوف يثبت سادتكم من ذوى السلطة بإجماع الأصوات أنكم أغبياء . وسوف يقول لكم متعهدوكم المأجورون ، الذين يقدمون إليكم متونة المعرفة ، إنكم مخطئون . اذهب إلى أصغر مساعد أساذ من أساذة الاجتماع ، وسله ما الفرق بين نظرية روسو عن العودة إلى الطبيعة وبين نظرية الاشتراكية . سلوا أعظم علمائكم البورجوازيين ، ومن عرفوا باستقامة الرأي في علوم الاقتصاد السياسى والاجتماع . قلبوا صفحات أى كتاب كتب عن هذا الموضوع من مجموعة المراجع المخزونة على رفوف مكباتكم ، والتي تتلقى الإعانات المألية . سلوا كل هذه المصادر فلن تجدوا سوى جواب واحد : هو أنه لا يوجد هناك أى تجانس بين العودة إلى الطبيعة وبين الاشتراكية . ومن جانب آخر ، سوف يثبت الجواب الإيجابى بإجماع الآراء أن الاشتراكية والعودة إلى الطبيعة نظريتان على طرفى نقيض . وكما قلت من قبل ، لا تعتمدوا على وجهة نظرى . فالشهادة على غبائكم مدونة هنا فى الكتب ، فى كتبكم التى لم تظالموا فيها قط . أما فيما يتعلق بغبائك الشخصى ، فليس سوى مثال لغباء الطبقة التى تنتمى إليها .

• إنك لم بالقانون والاعمال التجارية ياسيدى الكولونيل ، أنت تعرف كيف تخدم الشركات وتزيد من حصيلة الأرباح بتحريفك فى القانون . حسن جداً ، الزم هذه المهنة . فأنت شخصية تليق بها . أنت محام قدير ، ولكنك مؤرخ غير متمكن ، ولا تعرف شيئاً فى علم الاجتماع . ومعلوماتك عن علم البيولوجيا لا ترتقى عن عصر بلينى .

وهنا تلوى الكولونيل فان جلبرت على كرسيه . وساد القاعة سكون عميق . وجلسنا جميعاً مأخوذين ، أو على الأصح مشلولين . فهذا التصرف الرهيب مع الكولونيل فان جلبرت العظيم ، كان حدثاً لم يسمع به من قبل ، حدثاً ما كان يمكن تصوره ، وما كان يمكن تصديقه . ومع من؟ مع الكولونيل فان جلبرت العظيم ! الذي كان القضاة يرتعدون أمامه كلما ترفع في قاعة المحكمة . ولكن إرنست لم يتهاون قط مع عدو له . فانبرى قائلاً :

« وهذا بالطبع لا ينتقص من قدرك ، فكل إنسان له حرفته . فقط الزم أنت مهنتك ، وسوف أزم أنا مهنتي . أنت اخترت لنفسك مهنة تخصصت فيها . فحين يقتضى الأمر دراية بالقانون ، ومعرفة بأحسن طرق التهرب من القانون ، أو بكيفية سن قانون جديد لصالح الشركات القائمة على النهب والسلب ، تجدني متمرغاً في التراب عند قدميك . ولكن حين يتعلق الأمر بعلم الاجتماع ، أى بحرقى أنا ، عليك أنت أن تتمرع في التراب عند قدمي . تذكر ذلك ، وتذكر أيضاً أن قانونك هو مادة يوم واحد ، ودائرة حياته لا تتعدى نطاق هذا اليوم الواحد . لذلك فإن أحكامك الجامدة ، وتعميماتك الطائشة في القضايا التاريخية والاجتماعية لا تستحق أن تضيع عليها الأنفاس التي فقدتها على تفوهك بها ، .

وتوقف إرنست لحظة ، ونظر إلى الكولونيل فى إمعان . فلاحظ وجهه وقد اكفر بالغضب ، وصدره اللاهث ، وجسده يتلوى ألماً ، وبديه النحيلتين البيضاويتين تنقبضان وتنبسطان فى عصبية وقال :

« ولكن يبدو أنه مازالت فيك أنفاس تود استخدامها . وسوف أعطيك فرصة لاستخدامها . فإنا قد وجهت الاتهام إلى طبقتك الرأسمالية . أرنى أن اتهمى هذا خاطيء . وكشفت لك عن شقاء الإنسان المعاصر - ثلاثة ملايين من الأطفال الأرقاء فى الولايات المتحدة ، ولولا عملهم ما كانت

تجنّي الأرباح . كشفت لك عن خمسة عشر مليوناً يفتقرون إلى الغذاء الصحيح ، والملبس اللائم ، والمأوى الصحي . وأوضحت لك أن الطاقة المنتجة للإنسان المعاصر ، في ظل تنظيم اجتماعي ، وبفضل استخدام الآلات تفوق ألف مرة القوة الإنتاجية لإنسان الكهف . وذكرت أن من هاتين الحقيقتين لا نستطيع أن نستخلص سوى استنتاج واحد : هو أن الطبقة الرأسمالية قد أساءت التصرف . كان هذا انهامي ، وقد تحديتك آخر الأمر بصفة خاصة أن ترد علي . كلا ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتنبأت بأنك سوف تحجم عن الرد . وهأنت ذا لديك بقية أنفاس تستطيع بها أن تسحق نبوءتي . إنك تزعم أن خطابي مغالطة . أرني ياسيدي الكولونيل وجه المغالطة . أجب عن الاتهام الذي وجهته أنا - ومعى مليون ونصف مليون من رفاقي - إليك ، وإلى طبقتك الرأسمالية .

ونسي الكولونيل فان جلبت تماماً أنه يترأس الاجتماع ، وأن اللياقة تقتضيه بأن يفسح المجال لطالبي الكلام ، فقد نهض على قدميه ، وطوح بذراعيه في الهواء ، وطوح فصاحته جانباً وتخلّى عن سيطرته ، وراح يعير إرنست بحداثته وديمما جوجيته ، ويهاجم الطبقة العاملة في وحشية ، ويتفنن في إبراز تفاهتها وعدم فاعليتها .

ورد إرنست على هذه الحملة ، فقال :

- ، أنت بوصفك محامياً ، أكبر مراوغ رأيت في حياتي . فليس لحداثتي أية علاقة بما صرحت به . كذلك ليس لتفاهة الطبقة العاملة شأن بحديثي . إنني اتهمت الطبقة الرأسمالية بسوء إدارتها للجمع ، فلم ترد علي هذا الاتهام . بل أنت لم تبذل أية محاولة للرد ، لماذا ؟ ، لأنك لا تملك جواباً ، وأنت بطل هذا الحشد من المستمعين ؟ إن كل امرئ هنا ، ماعدائى ، يتطلع إلى شفيتك ، يلتمس منها الإجابة ، لأنهم هم أنفسهم ، لا يمكن

جوابا . أما أنا، كما قلت من قبل ، فكنت أعرف أنك لن تحاول الإجابة.

فصاح الكولونيل فان جلبرت قائلا :

— هذا أمر لا يطاق .. هذه إهانة ، .

وأجابه إرنست في وقار :

— بل إن إحجامك عن الإجابة أمر لا يطاق . فما من رجل يمكن أن يهان فكريا . إن الإهانة في طبيعة ذاتها ، انفعالية . استعداد سيطرتك على نفسك ، وأعطى جوابا فكريا عن اتهامى الفكرى الذى قلت فيه إن الطبقة الرأسمالية قد أساءت تنظيم المجتمع ، .

واعترض الكولونيل بالصمت ، وعلى وجهه ملامح مكتئبة متعالية ، كتلك الملاح التى ترسم على وجهه من يأنف أن يتبادل الكلام مع أحد الأوغاد.

وقال إرنست :

— لا يأخذك الغم . حسبك عزاء أن أحداً من أبناء طبقتك لم يتمكن حتى الآن من الرد على هذا الاتهام ، .

ثم التفت إلى أولئك الذين يتحرقون للكلام :

— والآن سنحت فرصتكم . أطلقوا ما عندكم ، ولا تنسوا أنى أتحدواكم هنا على أن تقدموا إلى الجواب الذى أخفق الكولونيل فان جلبرت فى تقديمه ، .

يستحيل على أن أكتب كل ما قيل فى تلك المناقشة . فما كنت أدري من قبل ، أى قدر من الكلمات يمكن أن يقال فى ثلاث ساعات فقط . وعلى أية حال ، كان ذلك شيئا رائعا . وكلما ازداد هياج خصومه ، عمد إرنست إلى إثارتهم . فقد كانت لديه قدرة موسوعية فى مجال المعرفة .

وبكلمة أو بعبارة أو بطعنات سيف خفيفة ، استطاع أن يدحرمهم . ودائماً ما حدد لهم النقاط التي توضح تفكيرهم غير المنطقي : فهذا قياس منطقي زائف ، وذلك استنتاج لا صلة له بالمقدمة المنطقية ، بينما المقدمة المنطقية التالية خادعة ، لأنها تسترت بنجبت على الاستنتاج المطروح للإثبات ، وهذا خطأ ، وذلك ادعاء ، وذلك توكيد يتنافى مع الحقيقة المؤكدة والمدونة في جميع المراجع .

وعلى هذه الحال ، مضي إرنست ، وإن استبدل أحياناً سيف المبارزة بهراوة انقض بها يحطم أفكارهم ذات اليمين وذات اليسار . ودائماً ما كان يطلب الحقائق ، ويرفض أن يناقش النظريات . فمزمتهم حقائقه هزيمة ساحقة . وكان دائماً ، كلما هاجموا الطبقة العاملة ، يرد الإهانة بقوله : « أنتم كمثل القدر حين يعير الغلاية ويقول لها أنت سوداء ! وليس هناك رد على هجومكم سوى أن وجوهكم قدرة ، كان يقول لهم ، حين يخاطب أحدهم « لماذا لا تجيبوني عن اتهامى لطبقتكم بأنها أساءت تنظيم المجتمع ؟ فأنتم قد تحدثتم عن أشياء أخرى ، وعن أشياء تتصل بأشياء أخرى ، ولكنكم لم تجيبوني . أياكون ذلك لأنه ليس لديكم جواب ؟ ، ، .

ولم يتكلم مستر ويكسون إلا حين آذنت المناقشة على أن تنتهي ، فهو الإنسان الوحيد الذي احتفظ ببرود أعصابه . وعامله إرنست باحترام لم يسبغه على أحد من الآخرين .

قال مستر ويكسون في روية وأناة :

— « ليس هناك ثمة ضرورة لأي جواب . فقد تابعت المناقشة كلها في دهشة واثمزاز . إنني مستاء من حضراتكم أيها السادة أعضاء طبقتي الاجتماعية . فقد أصرفتم مثل تلاميذ صغار أغرار ، حين أقدمتم الأخلاقيات وجعجعة السياسى العادى فى هذه المناقشة . إنه تفوق عليكم ، وانتزع

حنكم شرف سبق . فما أكثر ما كان لغوكم . ولم يكن كل هذا سوى طنين ،
لأنكم طنتم كالبعوض حول دب . وها هو ذا الدب مائلا أمامكم أيها السادة
(وأشار إلى إرنست) ، وما زاد طنينكم على أن داعب أذنيه .

« صدقوني ، إن الوضع خطير . فقد بسط ذلك الدب مخالبه الليلة
ليسحقنا . إذ قال : إنه يوجد في الولايات المتحدة مليون ونصف مليون ثوري .
وتلك حقيقة . وقال إن هؤلاء يهدفون إلى انتزاع حكوماتنا وقصورنا وكل
رفاهيتنا الأرجوانية ، وتلك حقيقة أخرى . إن تغييراً كبيراً ينتاب المجتمع
اليوم . ولكن ربما تشاء المصادفة ألا يكون التغيير حسبما يتوقعه الدب .
لقد قال : إنه سوف يسحقنا ، ولكن ما قولكم إذا ما سحقنا نحن الدب ؟ » .

وارتفعت الأصوات من حناجرهم تدوى في القاعة . وهز كل واحد
رأسه للآخر بالاستحسان والتأييد . بينما ارتسمت الصرامة على وجوههم
فهم قوم مقاتلون ، وهذا أمر لا جدال فيه .

وتابع مستر ويكسون حديثه في برود ودون انفعال :

— « ولكن الطين لا يجدي في سحق الدب . فنحن سوف نقضى على
الدب . وإن نجيب عليه بالألفاظ ، ولكن جوابنا سوف يدوى في لغة
الرصاص . نحن أصحاب السلطة ، وليس في مقدور أحد أن ينكر ذلك
وبقوة هذه السلطة سوف نحفظ بالسلطة ، » .

والتفت فجأة نحو إرنست ، وكانت اللحظة درامتيكية :

— « هذا إذن هو جوابنا . ليس لدينا كلمات نضيق بها وقتنا . وحين
تمتد أيديكم القوية في تباه إلى قصورنا وإلى رفاهيتنا الرافلة في الأرجوان ،
حينئذ سوف نريكم ماهي القوة . وسوف نعبر عن جوابنا في دوى القنابل

وفي قصف المدافع الرشاشة^(١) . سوف نسحقكم أيها الثوريون تحت أقدامنا .
ولسوف ندوس على وجوهكم . فنحن نمتلك العالم ، ونحن سادته ، ولسوف
يبقى عالماً . أما جماهير العمال فقد تمزقت في التراب منذ فجر التاريخ ، وأنا
أقرأ التاريخ بدقة . ولسوف يظل هؤلاء يتمرغون في التراب طالما أنا
وطبقتي ومن سوف يخلفنا نمتلك السلطة . هذه هي الكلمة ، وهي ملكة
الكلمات . السلطة ليست الآلة وليست الثروة ، ولكنها السلطة ! فليردها
لسانك حتى يتخدر بها . السلطة ! .

وقال إرنست في هدوء :

- « هأنذا قد فزت بجواب . وهو الجواب الوحيد الذي يمكن أن
يقال : السلطة ! وذلك ما ندعو إليه نحن أبناء الطبقة العاملة فنحن نعرف ،
ونعرف تماماً ، ومن واقع الخبرة المريرة ، أنه مامن دعوة إلى الحق ، إلى
العدالة ، إلى الإنسانية يمكن أن تحرك فيكم ساكناً . إن قلوبكم قاسية
بمثل القسوة التي تدوسون بها بأقدامكم على وجوه الفقراء . ومن ثم نادينا
نحن الثوريين بضرورة الاستيلاء على السلطة . ولسوف تنتزع منكم
حكومتكم بسلطة الأصوات التي نحوزها يوم الانتخاب . » .

وقاطعه مستر ويكسون لیسأله :

- « وماذا يجدي لو حصلتم على الأغلبية الساحقة يوم الانتخاب ؟
لنفرض أننا رفضنا أن نسلم لكم مقاليد الحكم بعد ما آلت إليكم بالانتخاب ؟ » .

١) لتوضيح طبيعة هذا التفكير ، نقبس التعريف التالي من قاموس
كلمات « سينيك » (عام ١٩٠٦) كتبه رجل يدعى « امبروزبيرس » ، وهو
أحد الذين أثبتوا علناً حقدهم على البشر في تلك الفترة . إذ جاء في هذا
القاموس أن كلمة رش المدفع تعني : حجة يهيئها المستقبل للرد على
مطالب الاشتراكية الأمريكية .

وأجاب إرنست :

— ، وهذا الاقتراض أخذناه في الحسبان ، عندئذ سوف نعطيكم جواباً في لغة الرصاص . فأنت قد أعلنت عن كلمة السلطة بأنها ملكة الملكات . حسن جداً ، فسوف ، تكون السلطة هدفتنا . ويوم نحصد النصر في الانتخابات ، وترفضون أن تسلبوا إلينا مقاليد الحكم التي آلت إلينا بطريقة دستورية وسلبية ، وتسألون عما سنفعله إزاء هذا — أقول سوف نجيبكم في ذلك اليوم . وسوف نعبر عن جوابنا في دوى القنابل وقصف المدافع الرشاشة .

ليس في مقدوركم الإفلات من قبضتنا . صحيح أنك قرأت التاريخ بدقة وصحيح أن جماهير العمال قد تمرغت ، وما تزال تتمرغ في التراب منذ فجر التاريخ . وصحيح أيضاً أنها سوف تظل تتمرغ في التراب ، طالما أنت وطبقتك ومن سيخلفكم يمتلكون السلطة أنا أتفق معك ، وأقرك على كل كلمة قلتها . إن الاستيلاء على السلطة سوف يكون الفيصل مثلما كان الحال دائماً . إنه صراع الطبقات . فثلما أسقطت طبقتك طبقة النبلاء الإقطاعيين عن عرش السلطة ، فإن طبقتي ، الطبقة العاملة ، سوف تسقط بدورها طبقتكم الرأسمالية . ولو كنت تقرأ علم البيولوجيا وعلم الاجتماع بمثل الوضوح الذي تقرأ به التاريخ ، لرأيت أن هذه النهاية التي وصفتها ، أمر حتمي . وسواء تحقق هذا في عام ، أو في عشرة أعوام أم في ألف عام فإن طبقتكم سوف تسقط عن عرشها ، وسوف تسقط بالقوة . فنحن معشر العمال ، تأملنا هذه الحكمة حتى تخدرت بها عقولنا . السلطة ! إنها كلمة سامية ، .

وهكذا انقضت الليلة التي قضيناها في نادي « عشاق الرياضيات » .

* * *

الفصل السادس

بوادر أحداث

حوالى هذه الفترة بالذات ، بدأت تتزاحم علينا تحذيرات الأحداث القادمة . فقد سبق أن أبدى إرنست مخاوفه من سوء مغبة السياسة التي درج عليها أبى في استقبال الاشتراكيين وقادة العمال في بيته ، وفي حضور الاجتماعات الاشتراكية جهاراً . ولكن أبى لم يزد على أن صحك على مخاوفه . أما من ناحيتى فقد كنت أعلم أشياء كثيرة من الاحتكاك بزعماء الطبقة العاملة ومفكرها . وبدأت أرى الوجه الآخر لقطعة النقود . فسرنى مالمسته من إنكار الذات والمثالية العالية ، بينما هالنى ضخامة المؤلفات العلية والفلسفية في الاشتراكية التي قرأتها . كنت أعلم بسرعة ، ولكن بسرعة قاصرة لا تجعلى أدرك آنذاك خطورة وضعنا .

كانت هناك ثمة تحذيرات بالخطر ، ولكنى لم أعرها التفاتاً . وعلى سبيل المثال . كانت السيدة بيرتون ويك والسيدة ويكسون تمارسان نفوذاً اجتماعياً هائلاً في المدينة الجامعية . ومن هاتين السيدتين فاحت هذه السمعة في الوسط الجامعى ، تروى عنى أنى شابة تقدمية ، ومعتدة بنفسى أكثر مما ينبغى ، وأننى ذات نزعة خبيثة إلى الفضول والتدخل في شئون الآخرين . وقد حسبت أن كل هذا لا يعدو عن أن يكون أمراً طبيعياً ، خاصة وأننى وضعت في اعتبارى الدور الذى لعبته في تحقيق قضية ذراع جاكسون . ولكنى لم أقدر الأثر الذى يمكن أن تتركه هذه السمعة وقد صدرت عن هاتين السيدتين اللتين تتمتعان بنفوذ اجتماعى قوى .

حقيقة أن أصدقائى العاديين بدءوا يتعدون عنى على نحو مدين . ولكنى

كنت أعزو هذا التصرف إلى الاستهجان الذي ساد محيط دائرتي ، بسبب موقفى وقد قررت أن أتزوج إرنست . ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى كشف لى إرنست بوضوح هذا الموقف العام الذى تقفه منى طبقتى الاجتماعية . فهو أبعد من أن يكون موقفاً تلقائياً . بل تحتجب من ورائه دوافع خفية لتصرف منظم . إذ قال : « إنك منحت الماوى لعدو من أعداء طبقتك . وليس الماوى لحسب ، بل منحتك حبك ، منحتك نفسك . وهذه خيانة لطبقتك فلا تحسبى أنك ستفلتين من عقابهم ، » .

ولكن حدث من قبل ، أن عاد أبى ذات يوم إلى البيت قبل المساء . وكان إرنست معى ، واستطعنا أن نرى ملاح الغضب تكسو وجه أبى . فقد كان غاضباً على وجه فلسفى ! ولكن نادراً ما كان يستبد بأبى غضب جامح ، بل كان يسمح لنفسه منفصلاً بعينه لغضبه المكبوت . وكان يدعو هذا الأسلوب علاجاً مقوياً . ويبدو أنه استخدم هذا العلاج المقوى حين دخل الغرفة .

فقد قال : « نسائلا :

— « ما رأيكما ا كنت أتناول الغذاء مع ويلكوكس ، » .

كان ويلكوكس هذا الطاعن فى السن ، مديراً للجامعة . وقد اختزن عقله الواهن تعميمات عتيقة بالية ، كانت تعتبر حديثة لعام ١٨٧٠ . ولكنه منذ ذلك الحين ، أخفق فى أن يعيد النظر فيها .

وقال أبى ينبئنا بما حدث .

— « إنه وجه إلى الدعوة . فقد أرسل فى طلبى ، » .

ثم تمهل قليلا ، وانتظرنا :

— « أوه . . إن ذلك قد تم على نحو لطيف للغاية . أنا أقر بذلك ، »

ولكنى وبخت . أنا يوجه إلى التوبيخ ؟ ومن ؟ من هذه الحصرية العتيقة ؟ .

وقال إرنست :

— أراهنك أنى أعرف علام وجه إليك التوبيخ .

فضحك أبى وقال :

— ان تعرف ، حتى ولو أعطيت ثلاث فرص للنخمين .

فأجابه إرنست :

— حسي فرصة واحدة . وان يكون ذلك تخميناً ، بل هو استنتاج

فلم يوجه إليك التوبيخ سوى على حياتك الخاصة .

فصاح أبى :

— هذا ما حدث بالضبط ! ولكن كيف خمنت ذلك ؟

— كنت أدرك أن ذلك سوف يحدث . فأنا قد حذرتك من قبل .

وتروى أبى ثم قال :

— نعم ، إنك حذرتنى . ولكن ما كنت أستطيع أن أصدق ذلك .

على أية حال إن هذه الواقعة قد زودتنى بإثبات أكثر إقناعاً أضيفها إلى

موضوع كتابى .

وتابع إرنست كلامه :

— ليس هذا شيئاً ذا أهمية بالنسبة إلى ما سوف يحدث آجلاً ، إذا

ما أصررت على اتباع سياستك فى استقبال هؤلاء الاشتراكيين والراديكاليين

على اختلاف أنواعهم ، وفى استقبالى أنا ضمناً .

— هذا ما قاله ويلكوكس العجوز بالحرف الواحد . بل تفوه

بما لا يليق أن يتحدث فيه . فقد قال إن تصرفى ينم عن ذوق سقيم ،

ولا يجدى نفعاً على الإطلاق ، ولا يتفق مع تقاليد الجامعة وسياستها ،

وأفاض في الحديث عن أشياء كثيرة على هذا النحو الغامض . ولم أستطع أن أحصر كلامه في مسألة بعينها ، مما سبب له حرجاً بالغاً . فلم يجد مفراً من أن يجتر حديثه ، ويعيد على مسامعي مدى ما يمكنه لي من احترام ، ومدى احترام العالم كله لي بوصفي عالماً . والحق أنه لم يستغ هذه المهمة . ويبدو أنه لم يجب أن يقوم بها . .

فقال إرنست :

— « لم يكن يملك هو الآخر ، حرية التصرف . ومن ترسف قدماء في الأغلal (١) لا يستطيع أن يتشج بمسوح الرقة والسكياسة . »

— « نعم هذا ما استطعت أن أفهمه منه . فقد قال إن الجامعة احتاجت هذا العام أموالاً تفوق كثيراً ما تنوى الولاية أن تقدمه . وإن هذه الأموال لا بد وأن تأتي من شخصيات قوية . وهم لا بد وأن يستاءوا من انحراف الجامعة ، عن مثلها الأعلى في التزامها الحياد الفكري . وحين حاولت أن أتزع منه إجابة عن علاقة حياتي المنزلية بانحراف الجامعة عن مثلها الأعلى ، اقترح علي منحى إجازة سنتين بمرتب كامل أقضيهما في أوروبا للاستجمام والقيام ببعض الأبحاث ، ولكنني بالطبع لم أستطع — في ظل هذه الظروف والملابسات — أن أقبل عرضه . »

فقال إرنست في كتابة :

— « كان خيراً لك بكثير أن تقبل . »

فاحتج أبي قائلاً :

— « ولكن هذه رشوة ! » .

(١) كانت أقدام العبيد الأفريقيين تصفد بالأغلal على هذا النحو ، مشما تصفد أقدام المجرمين . وظلت هذه العادة حتى أشرق عصر الأخاء الإنساني .

فاوما إرنست برأسه ، وتابع أب كلامه :

- « وبالمثل ، قال هذا المتسول : إن ثمة أحاديث تدور حول موائد الشاي وثرثرة تلوكمها الألسنة حول سيرة ابنتي ، وإلى غير ذلك . ولخواها أن ابنتي ترى علانية وهي في رفقة شخصية سيئة السمعة إلى أبعد الحدود . ويقصدونك أنت - وهذا لا يتفق مع روح الجامعة وكرامتها . وليس معنى هذا أنه يعترض شخصياً . أوه ، كلا ، بل هي أحاديث تلوكمها الألسنة ، وينبغي لي أن أفهم ، . »

أخذ إرنست يفكر في هذه الأنباء لحظة ، ثم قال وقد ارتسمت على وجهه كتابة عميقة يشوبها غبظ قائم :

- « إن وراء هذا الكلام أمراً أبعد عن مجرد المثل الأعلى للجامعة . فلا بد وأن أحداً قد مارس الضغط على الرئيس ويلكوكس ، . »

فسأله أبي ، وقد بدا على وجهه ما يوضح أن كلام إرنست قد أثار اهتمامه أكثر مما أثار روعه :

- « هل تظن ذلك ، ؟ »

قال إرنست :

- « أود لو أستطيع أن أنقل إليك الفكرة التي تشكلت في ذهني على نحو غامض . فما عرف تاريخ العالم قط فترة تعرض فيها المجتمع لسلسلة من التغيرات الرهيبة ، مثلاً يحدث الآن . وهذه التغيرات السريعة التي تطرأ على نظامنا الصناعي ، إنما ينشأ عنها بنفس السرعة تغير في البناء العقائدي والسياسي والاجتماعي للمجتمع . »

« إن ثورة رهيبة وغير محسوسة تحدث اليوم في نسيج المجتمع وبنياته . وهذه أمور لا يستطيع أحد أن يشعر بها إلا على نحو مبهم . فهي اليوم فوق

مستوى إدراكنا . ولا نستطيع أن نلمح سوى ظلالها ، ظلال أحداث ضخمة ورهيبية . إن عقلي ليرتد إلى الوراء ، حين أفكر فيما ستبلور إليه الظلال من أحداث . ألم تسمع ويكسون وهو يتحدث في تلك الليلة ؟ إن وراء كلماته تكن نفس هذه الأشياء التي أشعر بها ، والتي لا أستطيع أن أتبين لها شكلا واضحا ، أو أطلق عليها اسما محدودا ، إنه جاهر في حديثه بما ينم عن إدراكه لهذه الأشياء ، في وعي أكثر مما يكون عليه الوعي ، فانبرى أبي قائلا :

- د أنت تعنى - ، . ثم توقف .

- د أعنى أن هناك شيئا لشيء ما ، شبح شيء ضخم يتوعد بالإرهاب بدأ يخيم على البلاد . ادعه شبح احتكارية^(*) إذا شئت ، شبح سيطرة لأقلية مالية . تلك أقرب حقيقة أجروا على إدراكها بتفكيرى . أما طبيعة ما ستكون عليه هذه الحقيقة ، فهذا ما أرفض أن أتصوره⁽¹⁾ . ولكن

(*) استخدم المؤلف في سياق روايته كلمة « الأوليجاركية » . وهي تعنى مظهرا خاصا للاحتكارية . وهو اندماج رأس المال المصرفي مع رأس المال انصاعى ، ونشوء أقلية مالية تهيمن على اقتصاد البلاد . ومن هنا فالمقصود من كلمة الأوليجاركية هو الاحتكارية في قمة نموها وفي أشجع صورها . وقد فضلنا استخدام كلمة الاحتكارية كتعريف لكلمة الأوليجاركية وذلك لشيوع معناها بالنسبة للقارئ العربى . (المترجم)

(1) رغم أن الجميع لم يتصوروا - مثل ايفرهارد - طبيعة هذا الشبح فقد استطاع بعض الأفراد ، حتى قبل هذا الوقت ، أن يدركوا لمحات من حقيقة هذا الشبح . إذ قال جون كالهون : « نشأت في الحكومة قسوة أعظم مما لدى الشعب نفسه ، تتألف من مصالح قومية عديدة ومتباينة اتحدت في كتلة واحدة ، وتماسكت تماسكا قويا بفعل فائض القيمة للرأسمال المصرفى » . وقال الانسانى الكبير ، ابراهام لنكولن ، قبيل مصرعه مباشرة : « اننى المح فى المستقبل القريب أزمة تقترب ، أزمة يرتعد لها قلبى وترتجف لها أوصالى ، قلقا على سلامة بلادى . فقد تربعت الشركات على عرش السلطة ، وسوف يعقب ذلك عهد من الرشوة والفساد فى الدوائر العليا ، وسوف تحاول سلطة المال ان تطيل من امد حكمها عن طريق استغلال الاحقاد بين الناس ، حتى تتجمع الثروة فى يدي حفنة ضئيلة ، وتنهار عندئذ الجمهورية » .

ما أردت أن أقوله : إنك في وسع محفوف بالأخطار ، أخطار تنميتها
مخاوفي لأنني عاجز عن تقديرها . اعمل بنصحتي واقبل الأجازة .

فاحتج قائلاً :

- وهذا تصرف لا يليق إلا بالجناب ، .

- وكلا على الإطلاق . أنت رجل عجز ، وقد أدبت رسالتك في
هذا العالم . وإنها لرسالة عظيمة . دع المعركة الحالية للشباب والقوة .
فنحن الشباب لم نؤدر رسالتنا بعد ، إن دافيس ، مستقف إلى جانبي في مواجهة
أحداث الغد . وسوف تكون ابنتك ممثلك في جبهة النضال ، .

واعترض أبي :

- ولكنهم لا يستطيعون إيذائي . فإنني أحمد الله على أنني لست
مقيديهم . أوه ، أنا أؤكد لك أنني أدرك فظاعة الاضطهاد الذي يمكن
أن يمارسوه ضد أي أستاذ يعتمد على الجامعة في رزقه . ولكنني في غنى
عني . أنا لم أعمل أستاذاً في الجامعة طمعاً في المرتب الذي تدفعه لي .
فأنا أستطيع أن أعيش حياة مريحة اعتماداً على دخلي الخاص . والمرتب
هو كل ما في وسعهم أن ينتزعوه مني ، .

فأجابه أرنتست :

- ولكنك لا تدرك حقيقة الموقف . فلو حدث وتحقق كل
ما أخشاه ، فإن في مقدورهم أن يجردوك من دخلك الخاص ، ورأس مالك
الخاص بمثل السهولة التي يسلبونك بها مرتبك ، .

ولاذ أبي بالصمت بضع دقائق . فقد كان مستغرقاً في التفكير .
واستطعت أن أرى أسارير العزم ترسم على وجهه . وأخيراً تكلم فقال :

- ولن أقبل الأجازة ، .

وتوقف من جديد ، ثم أضاف :

— « ولسوف أو اصل العمل في تأليف كتابي⁽¹⁾ . ربما تكون على خطأ ولكن سواء أ كنت مصيباً أم مخطئاً ، فإنني سأقف بجانب أفكارى أدافع عنها . »

فقال إرنست :

— « حسن جداً . فأنت تسلك نفس الطريق الذى يسلكه الأسقف مور هاوس اليوم ، وتوجه نحو كارثة مماثلة . ولسوف يغدو كل منكما بروليتارياً قبل أن تصلا إلى نهاية المطاف . »

واتجه الحديث حول الأسقف . فطلبنا من إرنست أن يشرح لنا ما كان يفعله مع الأسقف .

— « ولقد جاشت نفس الأسقف من الرحلة التى صاحبتها فيها عبر الجحيم . فقد أخذته إلى بضعة بيوت يقطنها عمال مصانعنا . وأريته الحطام البشرى الذى ألقته به الآلة الصناعية جانباً . واستمع إلى قصص حياتهم ، ثم أخذته عبر الأحياء القذرة فى سان فرانسكو . وفى هذا العالم ، عالم العريضة والبغاء والإجرام . اكتشف دافعاً على الفجور أعمق من الدوافع الغريزية . فاشمأزت نفسه غاية الاشمئزاز ، ولكن الأسوأ من ذلك ، أنه

(1) نشر هذا الكتاب بعنوان « فى الاقتصاد والتعليم » فى تلك السنة ولا تزال توجد منه ثلاث نسخ اثنان فى « آرديس » والثالثة فى « أزجارد » وقد تناول هذا الكتاب ، بالبحث فى تفصيلات دقيقة ، أحد عوامل التشبث بمظهر قائم ، الا وهو محاباة الجامعات والمدارس العامة للراسماليين . وكان الكتاب وثيقة اتهام منطقية ساحقة لنظام التعليم بأكمله ، الذى لم ينم فى أذهان الطلبة سوى الأفكار التى تؤيد النظام الراسمالي بينما لفظ بجميع الأفكار المعادية الهادمة . وقد أحدث هذا الكتاب هياجاً بالغاً وصادته الاحتكارية على الفور .

فقد السيطرة على نفسه . فهو أخلاقى أكثر مما ينبغي ، بينما استثيرت
عواطفه بقسوة بالغة . وهو ، كشأنه دائماً ، إنسان غير عملي . إذ راح
يخلق في الهواء متخيلاً أنواعاً من الأوهام ، ويرسم خطأً أخلاقية تستهدف
شن حملة تبشيرية بين المثقفين . إنه يشعر أن واجبه يحتم عليه أن يعمل
على بعث الروح القديمة للكنيسة . وأن يحمل رسالتها إلى سادة المجتمع .
إنه منهوك بالعمل ، واسوف ينفجر إن عاجلاً أو آجلاً ، وعندئذ سوف
تحدث كارثة . ولا أستطيع أن أتكهن بالكيفية التي ستحدث بها هذه
الكارثة . إن الأسقف روح عظيمة طاهرة ، ولاكنه غير عملي إلى أبعد
الحدود . وقد استعصى على أمره . ولم يعد في مقدورى أن أحفظ بقدميه
على الأرض : فهو بتخيلاته يندفع حيثياً نحو « جثمانيته » ، وبعد ذلك
يتم صلبه ، فمثل هذه النفوس السامية « إنما خلقت لتصلب » .

وسألته ، وقد اخفت تحت ابتسامتي جدية القلق الذى يساور المحبين .

— « وأنت ؟ » .

فأجابني وهو يضحك بدوره :

— « كلا ، أنا ربما أعدم أو أغتال ، ولكنى لن أصلب . فإن
جذورى تضرب فى أعماق الأرض ، بينما تقف قدماى راسخة على الأرض » .

وسألته :

— « ولكن لماذا مهدت فى حديثك عن صلب الأسقف . لست
تنكر أنك سبب كل هذا » .

فسألنى بدوره :

* الجثمانية هو المكان الذى اعتقل فيه المسيح خارج بيت المقدس
(المترجم) .

— ولماذا ينبغي أن أدع نفساً مطمئنة تنعم براحة البال ، بينما تقامى
الملايين الضنك والبؤس ؟ .

— وإذن فلماذا تنصح أبي بأن يقبل الأجازة ؟ .

— ، لأنى لست روحاً طاهرة سامية . لأنى إنسان صلب عنيد وأناى .
لأنى أحبك . وكما قالت « راعوث » ، فى العهد القديم ، فإن أهلك هم أهلى .
أما الأسقف فليس لديه ابنة ، وإلى جانب هذا ، لا يهم أن تكون
الحسنات ضئيلة ، مع أن نواحه القاصر سوف يفيد الثورة بطريقة ما .
فكل شىء ، مهما كان ضئيلاً ، له قيمته .

ولم أستطع أن أقر إرنست على ماذهب إليه . فقد كنت أعرف طبيعة
الأسقف النبيلة معرفة جيدة . لم يكن فى مقدورى أن أتصور أن صوته
إذا ما ارتفع ينادى بالعدالة ، فلن يعدو عن أن يكون أكثر من نواح
قاصر لا يجدى نفعاً . ولكن لم يكن لى حينذاك إلمام عميق بحقائق الحياة
القاسية ، مثلما كان إرنست يلم بهم — . فقد رأى بوضوح أن نفسية
الأسقف العظيمة لا تجدى نفعاً . وهذه الحقيقة ما لبثت الأحداث التى
تلت أن كشفتها لى بوضوح .

ولم تكد تمضى أيام قليلة ، حتى أنبأنى إرنست — وكأنه يروى قصة
طريفة — العرض الذى تلقاه من الحكومة ، بتعيينه مبعوثاً للشئون العمالية
عن الولايات المتحدة . وقد غمرنى الابتهاج . فقد كان المرتب ضخماً نسبياً
ويمكن أن يوفر لزواجنا الاستقرار . ثم إن هذا العمل بالتأكيد يتلاءم
مع طبيعة إرنست ، فضلاً عن افتخارى الغيور بشخصه جماعى أرحب
بالمصعب كاعتراف من جانب الحكومة بكفاءته .

وعندئذ لاحظت عينية تومضان . فقد كان يسخر مني . وقلت له
وأنا أرتجف :

- إنك لن ... ترفض ؟ ، .

قال :

- إنهارشوة ، من ورائها يد ويكسون المدبر ، ومن ورائه أبدى
رجال أعظم منه شأناً . إنها حيلة قديمة قدم الصراع الطبقي نفسه ، وتستهدف
اختطاف القادة من جيش العمال . مسكينة الطابوقة العاملة الكما دبرت لها من
خبائات ! ليتك تعرفين كم من القادة اشتريتهم الهيئات الحاكمة في الماضي
بأساليب مشابهة . إذا ما رخص عليها أن تشتري جنرالاً من أن تحاربه
وتحارب جيشه برمته . هذا ما حدث بالفعل ، واسكني لن أذكر أية أسماء
ويكفيني ما تعانيه نفسي من مرارة ، فأنا يا حبيبتى قائد عمالي . ولا أستطيع
أن أبيع قضيتي وأكف عن النضال . وإذا لم يوجد سبب يمنعني عن ذلك ،
فتكفيني ذكرى أبي العجوز ، أبي المسكين والطريقة التي أكره بها على
العمل حتى الموت ، .

وترقق الدمع في عينيه ، في عيني بطلي القوي العظيم . إنه لم يستطع
أن يغفر قط الكيفية التي شوهدت بها روح أبيه . فقد أجبر على الأكاذيب
الدينية والسرقات البهيمية ، من أجل أن يضع لقمة الخبز في أفواه أطفاله .
فقد قال لي إنست ذات مرة : « كان أبي رجلاً طيباً ، . كان ذا روح
خيرة ، ومع ذلك ، فإن حياته الوحشية التي عاشها قد شوهدت هذه الروح
الخيرة . فإن أسباده ، أولئك الوحوش الكبار ، قد خلقوا منه وحشاً
محطماً ، كان من حقه أن يكون اليوم - مثل أبيك - على قيد الحياة ،
فقد كانت لديه بنية قوية . ولكنه ارتبط بالآلة . فعمل عليها حتى الموت
من أجل لقمة العيش . تصوري ! من أجل لقمة العيش تحول دم حياته إلى
عشاء مخمور ، أو إلى حلية مرصعة بالجواهر ، أو إلى طهو خلبع يرتع فيه أسباده
الوحوش الكبار ، أولئك الأثرياء العاطلون ، أولئك الطفيليون ، .

الفصل السابع

رؤيا الأسقف

كتب إرنست إلى يقول : « لقد خرج أمر الأسقف من يدي ، وراح يخلق عالماً في سماء الخيال . فهو يعتزم الليلة أن يستهل إصلاح عالمنا ، هذا العالم الغارق في البؤس — إنه مقدم على تبليغ رسالته . ذلك ما أخبرني به . ولم أستطع أن أثنيه عن عزمه . فهو سيرأس الليلة اجتماع منظمة I. P. H.⁽¹⁾ ، وسوف يبلغ رسالته في أثناء إلقائه الملاحظات التمهيدية .

هل لي أن أدعوك إلى سماعه ؟ إنه بالطبع مقدر له أن يواجه عبء عمله ، وهذا ما سوف يحطم قلبك ، وقلبه . ولكنه سيكون درساً عملياً ممتازاً بالنسبة له . أنت تعرفين يا حبيبتى كم أنا نفور بحبك . ومن أجل هذا ، أريدك أن تعرفي قيمتي على أكمل حقيقتها . أريد أن أزيل من أمام عينيك قدراً ضئيلاً من الشعور بتفاهتي . ومن ثم تحذوني الرغبة — بمالي من عزة النفس — في أن تدركي أن تفكيري حق وصائب . إن آرائى قاسية . ولكنك سوف تلمسين ضرورة هذه القهوة ، حين ترين أن روحاً نبيلة ، كتلك التي يحظى بها الأسقف ، لا تجدى نفعاً . لذلك تعالي الليلة . وإن كانت أحداث الليلة سوف توقع في نفسك الحزن ، إلا أنني أشعر بأنها سوف تزيدك قرباً مني .

وعقدت منظمة I. P. H. مؤتمرها في تلك الليلة في سان

(1) لا يوجد دليل يوضح اسم المنظمة التي ترمز إليها هذه الحروف

الأولى .

فرنسيسكو^(١) . وقد دعى هذا المؤتمر للنظر في الفساد الأخلاقي العام ،
وكيفية علاجه . ورأس الأسقف مورهاوس الجلسة . وكان يبدو في غاية
العصية وهو جالس أمام المنصة ، واستطعت أن أرى ما يعانیه من توتر
شديد . وجلس إلى جانبه الأسقف ديكنسون و ه . ه . جونز رئيس قسم
الأخلاق بجامعة كاليفورنيا والسيدة و . و . هيرد المنظمة الكبيرة لمشروعات
البر والأخلاق ونهض الأسقف مورهاوس ، واستهل فجأة كلامه بقوله :

- د كنت في عربتي المقفلة أطوف الشوارع . وكان الوقت ليلاً .
وكنت بين فينة وأخرى أنظر من خلال نوافذ العربى ، وفجأة لاح لى وكان
عينيّ تفتحان على أشياء أراها لأول مرة على حقيقتها . وفي بادى الأمر
أخفيت عينيّ يدي ، حتى لا يقع بصرى على هذا المنظر الرهيب . وفي غمار
الظلمة راودنى هذا السؤال : ما العمل ؟ ما الذى ينبغى أن أفعله ؟ . وبعد
برهة راودنى السؤال بطريقة أخرى : ما الذى كان يفعله السيد المسيح فى
هذا الموقف ؟ ومع السؤال لاح لى نور عظيم يملأ المكان ، ورأيت واجبي
واضحاً وضوح الشمس ، تماماً مثلما عرف شاول واجبه وهو فى الطريق
إلى دمشق .

د وأوقفت العربى ونزلت منها . وبعد محادثة لم تستغرق سوى بضع
دقائق ، أقنعت اثنتين من العاهرات أن تركبا العربى معى . وإذا كان يسوع
على صواب ، فلاريب أن هاتين التعبستين هما بمثابة أختين لى ، وإن أملهما
الوحيد فى التوبة كان رهنا بمحبتى وحنانى .

(٢) لم يكن يستغرق سوى بضعة دقائق للانتقال بالمعدية من بيركلى
الى سان فرانسيسكو . ومن الناحية العملية ، كانت هاتان المدينتان
وغيرها من المدن الواقعة على الخليج تؤلف مجتمعا واحدا .

، إننى أقطن فى حى من أجمل أحياء سان فرانسيسكو . وأعيش فى منزل
كثيف بناؤه مائة ألف دولار . وكلف ما فيه من أثاث وكتب وأعمال فنية
مثل هذا المبلغ أو يزيد . فالمنزل سراى كبيرة . كلا ، بل هو قصر يضم
هدداً كبيراً من الخدم . وما كنت أعرف إطلاقاً علام بنيت القصور ا
كنت أحسب أنها بنيت كى يحيا الإنسان فيها . ولكنى الآن أعرف جدوى
بنائها . فقد أخذت هاتين المرأتين من بنات الهوى إلى قصرى ، وسوف
يقيان معى . إننى لأتمنى أن أملاكل غرفة فى قصرى بأمثال أولئك الشقيقات .

وبدأ التبرم يستولى على جمهور المستمعين ، ويستبد بهم القلق شيئاً
فشيئاً . وتكشفت على وجوه الجالسين فوق المنصة علامات الدهشة ،
وتعاطفت أكثر فأكثر علامات الفزع ، بينما نهض الأسقف ديكنسون
عند هذه النقطة ونزل من فوق المنصة وغادر القاعة وعلى وجهه أمارات
الاشمزاز . بيد أن الأسقف مورهاوس استمر فى كلامه ، غير ملق بالا
إلى أحد ، وعيناه لا تبصران سوى رؤياه :

— د أوه ، أيها الإخوة والأخوات . إننى وجدت فى تصرفى ذلك
حلال لكل ما يواجهنى من مصاعب . فأنالم أعرف من قبل لآى غرض
صنعت العربات المقفلة . ولكنى الآن أعرف . إنها صنعت من أجل أن
تحمل الضعيف والمريض والطاعن فى السن ، صنعت من أجل أن تحمي
العزة فى نفوس أولئك الذين فقدوا حتى الإحساس بالحجل . ولم أكن
أعرف علام بنيت القصور . ولكنى الآن اكتشفت لها غرضاً تستخدم
من أجله . فإن قصور الكنيسة ينبغى أن تكون مستشفيات ومصحات
لأولئك الذين سقطوا على جوانب الطريق وفسدت حياتهم .

وتوقف لحظات طويلة . فقد بدا واضحاً أن خواطره قد استحوذت
عليه . فحاول فى عصبية أن يتلمس أفضل وسيلة يعبر عنها :

- « لست أهلاً يا إخواني الأعزاء لأن أحدثكم بأى شيء عن الأخلاق . فقد عشت فترة في غمار العار والرياء ، فترة طويلة أقعدتني عن مساعدة الآخرين . بيد أن تصرفي نحو هاتين المرأتين - وهما بمثابة أختين لي - قد وضع لي أنه من السهل أن يهتدى المرء إلى سبيل أفضل . فبالنسبة إلى أولئك الذين يؤمنون بالمسيح وإنجيله ، لا يمكن أن توجد علاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان سوى علاقة المحبة . إن المحبة وحدها أقوى من الخطيئة ، أقوى من الموت . ولذلك فأنا أقول الأغنياء منكم إن واجبهم يقتضى أن يفعلوا مثلما قد فعلت ، ومثلما أنا فاعله . ليفتح كل غنى فيكم بيته لياوى لصاً من اللصوص ويعامله كأخيه ، أو ليستضيف عاهرة منكودة ويعاملها كأخته وحينئذ لن تكون - سان فرانسيسكو في حاجة إلى قوة بوليسية أو إلى هيئات قضائية . وسوف تحول السجون عندئذ إلى مستشفيات ، وسوف تزول الجريمة ويضمحل الإجرام .

- « ينبغي أن نجود بنفوسنا وليس بأموالنا فحسب . علينا أن نفعل كما فعل المسيح . تلك هي رسالة الكنيسة اليوم . إننا تمنا بعيداً عن تعاليم المسيح . فنحن غارقون في ملذاتنا . ووضعنا شيطان الجشع مكان المسيح . وهامى ذى قصيدة شعرية بين يدي تروى القصة كلها . وأود أن أتلوها على مسامعكم . فقد نظمتها نفس ضالة ، استطاعت رغم ضلالها أن ترى في وضوح (١) . وأرجو ألا يخطئ أحد منكم ، فيحسبها هجوماً على الكنيسة الكاثوليكية . إنها تهاجم جميع الكنائس بلا استثناء ، تهاجم مظاهر الآبهة والفخفة التي تبدو عليها جميع الكنائس ، وضلت بها عن سبيل المسيح ، وأقامت بينها وبين حملانه سوراً فاصلاً . وإليك نص القصيدة :

(١) اوسكار وايلد : أحد فطاحل اللغة في القرن التاسع عشر الميلادى

ورنت الأبواق الفضية عبر القبة .
فرقع الناس على الأرض في رهبة .
وعلى أعناق الرجال رأيت سيد روما المقدس .
محمولا مثل إله مبجل

وكالكهان ارتدى رداء أشد بياضاً من الزبد
وكالملوك النف في وشاح أرجواني يهر النظر
وفي أبهة وضياء سار البابا نحو مقرة في موكب
وعلى رأسه تلمع ثلاثة تيجان من ذهب

وأسرع قلبي خطاه نحو الورا ، عبر قفار السنين
إلى رجل هام على شاطئ بحر موحش كئيب
عبثا يبحث عن مكان فيه يستريح
وسمعتة يقول : للثعلب جحره ، ولكل طير عشه

أما أنا فينبغي أن أهتم منكما ولا أحد برفقتي .
وأن أدمي قدمي وأشرب الخمر مزوجاً بدمعتي .

وعصف الهياج بالحاضرين ، ولكن دون استجابة . غير أن الأسقف
لم يع ما حدث ، بل التزم خطته بثبات ومضى يقول :

— وهكذا فأنا أقول للأغنياء منكم وجميع الأغنياء قاطبة ، إنكم
تقهرون حملان المسيح بقسوة . فقد قست قلوبكم ، وصمتم آذانكم عن
صرخات المعذبين في الأرض ، صرخات الألم والأسى ، ورغم أنكم
لم تسمعوها ، فسترن في الأذان يوماً ما . وهكذا فأنا أقول ، .

واسكن عند هذه النقطة ، سارع ه . ه . جونز وفيليب وارد ، وقد
سبق أن نهضا من كرسيهما من قبل ، إلى إنزال الأسقف من فوق المنصة .

بينما لزم المستمعون مقاعدكم وقد أخذتهم الصعقة وحبست أنفاسهم .

وحين بلغنا الشارع ، ضحك إرنست بفضاعة ووحشية . فهزني ضحكه ،
وبدا قلبي وكأنه يوشك أن ينفجر بدهوع حبيسة .

وصاح إرنست :

— « لقد أباح الأسقف رسالته . فقد ثارت رجولته ، وانفجرت من
أعماقه طبيعته الحنون ، فما استنتج مستمعوه المسيحيون الذين يكونون له
الحب ، سوى أن مسأ من الجنون قد أصابه ، هل رأيت كيف أنزلوه من
فوق المنصة وهم في جزع بالغ ؟ لا بد وأن الحاضرين قد انفجروا في قهقهة
شيطانية على هذا المشهد ، .

فقلت :

— « ومع ذلك ، فإن ما قام به الأسقف ، وما قاله الليلة ، سوف
يترك تأثيراً عظيماً .

وتساءل إرنست في سخرية :

— « أتظنين ذلك ؟ ، .

فقلت له مؤكدة :

— سوف تحدث كلماته إحساساً حماسياً . ألم تر مراسلي الصحف وهم
يسرعون كالمجانين في تدوين كلماته ؟ ، .

— « لن ينشر سطر واحد من حديثه في صحف الغد ، .

فصحت :

— « لا أستطيع أن أصدق ذلك ، .

وكان جوابه :

- « ما عليك سوى الانتظار حتى ترين بنفسك . فلن ينشر سطر واحد ، ولا فكرة واحدة من كل ماتفوه به . . . الصحافة اليومية ألبست هي التي تخفي الحقائق اليومية ؟ » .

فاعترضت قائلة :

- « ولكن المرسلون لقد رأيتهم بعيني ، » .

- « لن تطبع كلمة واحدة مما قاله الأسقف . فقد نسيت المحررين . إنهم ينالون مرتباتهم ثمناً للسياسة التي يحافظون عليها . وسياستهم هي ألا ينشروا شيئاً يهدد النظام القائم تهديداً حيوياً ، وكلمات الأسقف هجوم عنيف على الأخلاقيات القائمة ، بل هي بدعة دينية ، ومن ثم أنزله من فوق المنصة حتى يحولوا بينه وبين المضي في هرطقته . أما الصحافة اليومية ، فإنها سوف تدفن هرطقته في غياب الصمت والنسيان . أليست هي صحافة الولايات المتحدة ؟ إنها نمو طفيلي يسمن على هبات الطبقة الرأسمالية . ووظيفتها هي خدمة النظام الاجتماعي القائم ، وذلك بتوجيه الرأي العام ، وتحديد اتجاهه في قالب خاص . وإنما لتقوم بتلك المهمة على خير وجه ، » .

- « دعيني أتنبأ . إن صحف الغد إن تذكر سوى الأسقف يشكو اعتلالاً في صحته ، وأنه أرهق نفسه بعمل شاق ، فخارت قواه اللبلة الماضية . ولن تمضي بضعة أيام حتى تشير الصحف إلى أن الأسقف يعاني انهياراً عصبياً . وإن رعيته التي تعترف له بالجليل قد منحته أجازة . أما فيما بعد ، فلسوف يحدث أحد أمرين : إما أن يدرك الأسقف خطأ مسلكه ، ويعود من أجازته رجلاً معافى ليس في عينيه رؤيا جديدة ، وإما أن يصر على حماقته ، وعندئذ توقعي أن ترى في الصحف نبأ إعلان جنونه ، في كلمات

رقيقة مثيرة للأحزان. ثم يترك بعد ذلك يهذى برؤياه ما يشاء لجدران صماء.

فصحت فيه :

- « أنت تذهب الآن إلى أبعد مما ينبغي » .

وأجاب :

- « ولسوف يبدو ذلك جنوناً في عيني المجتمع . فأى رجل شريف ، رجل لم يفقد قواه العقلية بعد ، ويؤوى الساقطات واللصوص ، ويعيش معهم كأخوة له ؟ حقيقة أن المسيح مات بين لصين ، ولكن هذه قصة أخرى ، إذ ما هو الجنون ؟ . إن العمليات العقلية لرجل لا نقره على آرائه ، إنما نقول عنها دائماً آراء خاطئة . فعقل هذا الرجل إذن مخطيء . أين الخط الفاصل بين العقل المخطيء والعقل المجنون ؟ . إن المجتمع لا يمكن أن يتصور أن في مقدور أى رجل عاقل أن يختلف جذرياً مع استنتاجاتهم العاقلة إلى أبعد حدود التعقل .

« وهناك في صحيفة المساء مثال واضح على هذه الحقيقة . فإن « ماري ماكينا » تقطن في الجنوب من شارع « ماركيت » . وهي امرأة فقيرة ولكنها شريفة . وهي كذلك امرأة ودانية ، ولكنها تؤمن بآراء خاطئة تنصل بالعلم الأمريكي ، باعتباره رمزاً للحماية ، وإليك ما حدث لهذه المرأة . فقد وقع لزوجها حادث ، رقد على إثره ثلاثة أشهر في المستشفى . وراحت تتعشى من غسل الملابس ، ومع ذلك ، تأخرت في دفع إيجار مسكنها . وبالأمس طردوها منه . ولكنها في بادئ الأمر ، رفعت علماء أمريكياً ، وتحت ثناباه أعلنت أنهم لا يستطيعون بحق الحماية التي يفرضها العلم ، أن يطردوها إلى قارعة الطريق . فماذا حدث ؟ قبضوا عليها واتهموها بالجنون ، واليوم أجرى عليها فحص طبي تحت إشراف إخصائين رسميين

في الأمراض العقلية ، فوجد أنها مصابة بالجنون ، واودعت في مصحة
و نابا ، للأمراض العقلية ، .

فاعترضته قائلة :

- « ولكن هذا مثل خارج عن الموضوع ، فلنفرض أنني لم أتفق مع
رأى أحد حول الأسلوب الأدبي لكتاب ما ، فهل يعني ذلك إيداعى
في مصحة الأمراض العقلية ، بسبب اختلاف الرأى ؟ بالطبع لا ، .

وأجاب :

- « هذا صحيح . ولكن مثل هذا الاختلاف فى الرأى لا يشكل
خطراً يهدد المجتمع . هنا يكمن الفرق ، واختلاف الرأى من جانب
« مارى ماكيننا ، أو الأسقف بشكل بالفعل خطراً على المجتمع ، إذ ماذا
يحدث لو رفض جميع الفقراء أن يدفعوا أجور مساكنهم ، واعتصموا
بجهاية العلم الأمريكى ؟ سوف تتقوض عندئذ الملكية العقارية ، ولا تقل
آراء الأسقف خطورة على المجتمع ، إذن فليودع فى مصحة الأمراض
العقلية ، .

ومع ذلك ، أبيت أن أصدق .

فقال إرنست :

- « انتظرى وسوف ترين بنفسك ، .

وانتظرت .

وفى صباح اليوم التالى ، أرسلت فى طلب جميع الصحف ، وكم كان
إرنست على صواب ، إذ لم تنشر الصحف أية كلمة مما قاله الأسقف
مورهاوس . واكتفت صحيفة أو صيفتان بإشارة ذكرت فيها أن

عواطف الأسقف قد ملكت عليه . ومع ذلك أوردت الصحف جميع الخطب المبتذلة التي تعاقب الخطباء من بعده على إلقائها بنصها الكامل .

وبعد ذلك بعدة أيام ، أعلنت الصحف في إيجاز أن الأسقف قد غادر المدينة في أجازة الاستشفاء من آثار الإرهاق . كان كل شيء على ما يرام حتى الآن . فلم يكن هناك أي تلميح يشير إلى الجنون أو حتى إلى الانهيار العصبي . لم يكن في استطاعتي - سوى في حدود ضئيلة - أن أتصور أي طريق قدر للأسقف أن يسير فيه - الطريق إلى الجثمانية ، إلى نهايته على الصليب ، الطريق الذي تنبأ به إرنست بناقب فكره .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثامن

محطمو الآلات

قبيل ترشيح إرنست لعضوية الكونغرس : ضمن القائمة الاشتراكية، أقام أبي مادبة العشاء التي دعاها فيما بيننا ، بمادبة المكسب والخسارة، بينما أطلق إرنست عليها مادبة ، محطمي الآلات ، . وفي الحقيقة كانت هذه المادبة تضم مجموعة من رجال الأعمال، صغار رجال الأعمال بالطبع ، وإني لأشك أن يساهم أحد منهم في صناعة أو عمل تجاري، ويزيد رأسماله الإجمالي على مائتي ألف دولار . فهم بحق يمثلون رجال الأعمال من الطبقة المتوسطة .

كان هناك أوين صاحب مؤسسة سيلفريبرج ، وأوين وشركاؤهما ، وهي شركة بقالة ضخمة ذات فروع عديدة ، وكنا نشترى منها تمويننا من مواد البقالة وكان هناك أيضاً صاحباً شركة كيوالت ووشبورن للعقاقير ، ومستر أسمونين، صاحب محجر ضخمة للجرايت في مقاطعة كوترا كوستا ، وكان هناك أيضاً عدد كبير من أمثال هؤلاء ، من أبواب الأعمال أو المساهمين في مصانع صغيرة أو أعمال تجارية صغيرة أو صناعات صغيرة وباختصار من صغار الرأسماليين .

كانو رجالاً يثيرون الاهتمام ، وتم وجوههم عن الدهاء . وكانوا يتحدثون في بساطة ووضوح . وانحصرت شكواهم بإجماع الآراء ضد الشركات والتروستات الاحتكارية . أما مذهبهم الذي آمنوا به فهو أن التروستات قد أفشلت أعمالهم ، . إذ إن كل مضايقاتهم كانت تأتي من جانب التروستات . وروى كل واحد منهم نفس الحكاية عن مصائبه . ومن ثم دافعوا عن حق ملكية الحكومة لهذه التروستات ، من أمثال تروست السكك الحديدية . وتروست المواصلات السلكية . كما طالبوا

بفرض ضرائب تصاعدية باهظة على الدخل ، لتفتيت التراكمات الضخمة للثروة . وبالمثل طالبوا . كعلاج للأمراض المحلية ، أن تستولى البلدية على ملكية المرافق العامة ، أمثال مرافق المياه - الغاز - التليفونات - المترو وغيرها .

ومستر أسمونسين صاحب محجر للجرانيت . وكانت روايته عن مصائبه طريفة بشكل خاص . فقد اعترف بأنه لم يجن قط أية أرباح من محجره ، رغم ضخامة الطلبات على الجرانيت بعد الدمار الذي أنزله الزلزال الكبير بمدينة سان فرانسيسكو ، فنذست سنوات وإعادة تعمير سان فرانسيسكو قائمة على قدم وساق . وانشع نطاق أعماله حتى بلغ أربعة ثم ثمانية أضعاف ما كانت عليه من قبل . ومع ذلك لم يطرأ على وضعه المالى تحسن ما .

فقد قال :

- إن السكك الحديدية تعرف أعمالى أحسن مما أعرفها أنا . فهى تعرف نفقات العمل بالسنت الواحد . وتعرف نصوص العقود التى أتعاقد عليها . أما كيف تعرف هذه الأشياء ، فهذا ما لا أستطيع سوى أن أخمنه ؟ فلا بد وأن لديها جواسيسا بين المستخدمين عندى ، وأنها على اتصال بكل من له ضلع فى العقود التى أوقعها . فانظروا مثلا : ما إن أوقع عقداً ضخماً يعود على بربج وفير ، حتى تزداد على الفور أجور النقل من محجرى إلى السوق . ولا تقدم لى الشركة أى تفسير . وهكذا كانت السكك الحديدية تستولى على أرباحى . وفى مثل تلك الأحوال . لم أوفق قط إلى حمل السكك الحديدية على إعادة النظر فى قرار رفع أجور النقل . ومن ناحية أخرى ، كنت أوفق إلى إقناعها بخفض أجورها كلما كثرت حوادث العمل ، أو زادت نفقات الإنتاج ، أو انطوت نصوص العقود على ربح أقل . فماذا تكون النتيجة ؟ . أن تفوز السكك الحديدية بأرباحى ، سواء كانت وفرة أم ضئيلة .

فقاطعه إرنست إيساله :

- « وما يتبقى لك بعد هذا كله ، ألا يكاد يعادل راتبك كمدير ، فيما
للو أن السكك الحديدية امتلكت محجرك ؟ » .

وأجابه مستر اسمونسين :

- « تماماً . فمذ فترة قصيرة أقيمت نظرة على دفاتري عن عشر
سنوات مضت . واكتشفت أن ماريحتة خلال هذه السنوات العشر يعادل
مرتب مدير . وكان في مقدور السكك الحديدية أن تمتلك محجري وأن
تستأجرني لإدارته » .

فضحك إرنست وقال :

- « لكن مع فارق بسيط . هو أنه يتعين عليها أن تنحمل جميع
المسئوليات التي تلتزم أنت بها » .

وأجاب مستر اسمونسين في نبرة حزينة .

- « هذا صحيح ،

وتركهم إرنست يبدون أقوالهم حتى إذا ما انتهوا من أحاديثهم ، راح
يلقي بالأسئلة يمناً ويسرة . وبدأ بالمستر أوين :

- « ألم تفتح فرعاً لبقالتك هنا في بيركلى منذ ستة أشهر » .

- « نعم » .

- « إنني لاحظت منذ ذلك الحين أن ثلاثة من محال البقالة الصغيرة
على الناصية قد أغلقت أبوابها . فهل كان فردك الجديد سبباً في ذلك ؟ » .

فأقره مستر أوين في ابتسامة راضية .:

- ولم تكن لديها أية فرصة في أن تصمد أمامنا .

- ولماذا ؟

- ونحن نملك رأسمالا أكبر . وهناك في الأعمال الكبيرة قدر أعظم من الكفاية وقدر أقل من الفضلات البائرة .

- وأفهم من ذلك أن فرعك الجديد قد امتص أرباح المحال الصغيرة الثلاثة . ولكن ما الذي حل بأصحاب تلك المحال الثلاثة ؟

- إن أحدهم يسوق لحسابنا إحدى عربات التوزيع . ولكني لا أعرف ما حدث للآخرين .

وبجأة التفت إرنست إلى مستر كيوالت :

- أنت تبيع مقادير كبيرة بأسعار منخفضة^(١) فإذا حل بأصحاب مخازن العقاقير الصغيرة الذين أجبرتهم على الانسحاب من أمامك .

فأجاب :

- إن واحدا منهم ، وهو مستر «هاسفيرذر» ، مشغول عن قسم الوصفات الطبية عندنا .

- وأنت ، ألم تمتص الأرباح التي يجنونها ؟

- بالتأكيد . فما الذي يدفعنا إلى الاشتغال بالتجارة ؟

والتفت إرنست فجأة إلى مستر اسمونسين وسأله :

(١) Cut-rates . . . وهي تخفيض الأسعار الى حد سعر التكلفة ، والى أقل من سعر التكلفة أيضا . وهكذا فان الشركة الكبيرة تستطيع أن تباع بخسارة مدة أطول مما في استطاعة شركة صغيرة . ومن ثم تستطيع أن تدفع الشركة الصغيرة خارج حلبة الأعمال التجارية . وكانت هذه الطريقة وسيلة شائعة من وسائل المنافسة .

- « وأنت . . ألسنت مستاء لأن السكك الحديدية قد امتصت أرباحك؟ » .

فهز مستراسمونسين رأسه علامة الموافقة .

- « أليس كل ماتريده هو أن تجني أنت الأرباح؟ » .

ومرة أخرى هز مستراسمونسين رأسه .

- « من الآخرين؟ » .

ولم يكن هناك أى جواب . فأعاد إرنست سؤاله :

- « من الآخرين؟ » .

وأجاب مستراسمونسين فى اقتضاب :

- « تلك هى الوسيلة التى تجنى بها الأرباح » .

- « إذن فاللعبة التجارية هى أن تجنى الأرباح من الآخرين ، وأن

تحول الآخرين من أن يجنوا الأرباح منك . أليس كذلك؟ » .

وتعين على إرنست أن يكرر سؤاله قبل أن يجيبه مستراسمونسين قائلاً :

- « أجل ، هكذا الوضع . غير أننا لانعترض على الآخرين بأن يجنوا

الأرباح طالما هم يجنونها دون اغتصاب أو تعسف » .

- « ماذا تقصد بدون اغتصاب؟ أتغنى أنها مدامت غير ضخمة؟ » .

ومع ذلك فأنت لاترى مانعا فى أن تجنى هذه الأرباح الضخمة . أليس

كذلك؟ » .

فاعترف مستراسمونسين فى وداعة بهذا الضعف . وكان هناك رجل

آخر ناله إرنست بالتمك عند هذه النقطة الحرجة . ذلك هو مستر كالفين

الذى كان يمتلك مصنعا كبيرا للألبان .

فقد قال إرنست له :

— د كنت منذ فترة خلت تحارب تروست الألبان . وأنت اليوم تزاوّل نشاطا سياسيا من أجل إنشاء حزب جرانج^(١) .

فكيف حدث هذا ؟ .

أجاب مستر كالفن وقد بدا في هيئة محارب :

— د أوه ، أنا لم أقلع عن القتال بعد . إنما أحارب التروست في الميدان الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يحارب فيه — أعني الميدان السياسي . دعني أوضح لك . فمئذ بضع سنوات ، كنا نحن أصحاب صناعات الألبان نصنع كل شيء بطريقتنا الخاصة .

وقاطعه إرنست :

— د ولكنكم كنتم تتنافسون فيما بينكم .

— د نعم ، وذلك ما أبقى الأرباح على مستوى منخفض . وبالفعل حاولنا أن ننظم أنفسنا . ولكن أصحاب مصانع الألبان المستقلة كانوا يقتحمون تنظيماتنا . ثم جاء تروست الألبان .

فقال إرنست :

— د بمولا بفائض رأسمال تروست د ستاندرد أويل^(٢) .

فأقره مستر كالفن قائلا :

— أجل ، ولكننا لم نكن نعرف هذه الحقيقة حينذاك . فقد جاءنا

(١) بدلت خلال تلك الفترة جهود كثيرة لتنظيم طبقة المزارعين الآخذة في الانهيار في حزب سياسي ، هدفه القضاء على التروستات والشركات الكبرى عن طريق إصدار تشريعات فعالة . ولكن هذه المحاولات جميعها بذت بالفشل .

(٢) أول تروست كبير ناجح — فقد كان يتقدم سائر التروستات جيلا كاملا تقريبا .

عملاء التروست يتوعدونا . واقترحوا علينا قائلين : « انضموا إلى التروست وأنتم تترهلون بالريح ، أو ابقوا خارجا وتضوروا جوعا ، وانضم معظمنا إلى التروست . أما الذين لم ينضموا فقد تضوروا جوعا . أوه ، لقد دفع إلينا في بادئ الأمر ، إذا ارتفع سعر اللبن سنتا واحداً عن كل ربع لتر . وعاد ربع هذا السن علىنا . وعادت الثلاثة أرباع الباقية على التروست . ثم ارتفع سعر اللبن سنتا آخر ، ولكننا لم نحصل من ورائه على أى شيء . وذهبت شكوانا أدراج الرياح . فقد كان للتروست الساطة الفعلية . واكتشفنا أننا لم نكن سوى مجرد قطع صغيرة تحرك على رقعة الشطرنج . وأخيراً ، أنكروا علينا حقنا في الربع سنت الذى أضيف من قبل . ثم أخذ التروست يضغط علينا ويعتصرنا . فما الذى كان يمكن أن نفعله ؟ إن التروست قد اعتصرنا وابتز أموالنا . ولم يعد هناك أصحاب مصانع الألبان . لم يبق سوى تروست الألبان ، .

فاقترح عليه انست فى خبث : —

— « ولكنى أعتقد أنه كان فى استطاعتكم أن تنافسوا التروست حين رفع سعر اللبن سنتين اثنين ، .

— « هذا مجال بخاطرنا . وحاولنا ذلك بالفعل ، . وتوقف مستر كالفين لحظة ثم قال :

— « غير أن هذه المحاولة قصمت ظهورنا . فقد كان فى مقدور التروست أن يفتح السوق بسعر أرخص عما كنا نستطيع أن نبيع به . كان فى وسعه أن يبيع بسعر يجنى من ورائه ربحاً ضئيلاً ، بينما يعود علينا بخسارة حقيقية . إننى خسرت فى هذه المغامرة خمسين ألف دولار .

وأشهر غالبيتنا إفلاسها^(١) . وهكذا يحى أصحاب مصانع الألبان من الوجود . .

وقال إرنست :

وهكذا سلبك التروست أرباحك . ومن ثم انصرفت إلى السياسة .
كما تدفع الدولة إلى سن تشريع يحى التروست من الوجود وتسترد بذلك أرباحك . .

وأشرق وجه مستر كالفين وقال :

- « هذا بالضبط ما أقوله في خطبي التي أوجهها إلى المزارعين .

وتلك هي جل فكرتنا في إيجاز بسيط . .

فسأله إرنست :

- « ومع ذلك ، ألا ينتج تروست الألبان بتكاليف أرخص مما يستطيع أصحاب مصانع الألبان ، كل على حدة ؟ . .

- « كيف لا ، ورأسماله الضخم يبيء تنظيمها رائعاً وآلات حديثة ؟ .

فأجابه إرنست :

- « هذه مسألة لا تحتل المناقشة . فإن إمكانياته الضخمة تيسر له بالتأكيد تخفيض تكاليف الإنتاج . وهو بالفعل يبيع بسعر أرخص .

وهنا شرع مستر كالفين يلقي خطاباً سياسياً يعرض فيه آراءه . وأعقبه عدد من زملائه تحدثوا في حرارة بالغة . وانبعثت من الجميع صيحة تدعو إلى تحطيم التروستات .

ومس إرنست في أذني :

(١) Bankruptcy : مؤسسة عجيبة كانت تمكن كل فرد اخفق

في « صناعة قديمة على التناقض من الامتناع عن تسديد ديونه . ولم يكن من اثارها غير تحسين الاحوال الوحشية التي اكتنفت الصراع الاجتماعي ، صراع الظفر والناص .

— يا لهم من أناس مساكين وبسطاء . إنهم يرون في وضوح بقدر ما تمتد أبصارهم . ولكنهم لا يرون أبعد من أنوفهم .

وبعد برهة نهض إرنست للتحدث مرة أخرى . وتمكن بطريقة الميزة أن يسيطر على دقة الحديث حتى نهاية الصهرة واستهل حديثه قائلاً :

— لقد أصغيت في اهتمام إليكم جميعاً . وإنى لأرى بوضوح أنكم تلعبون اللعبة التجارية على الطريقة الأرثوذكسية . فالحياة لاتعدو عنكم سوى جنى الأرباح . أتم تؤمنون إيماناً راسخاً ثابتاً بأنكم ما خلقتم إلا لغرض واحد، هو جنى الأرباح . بيد أن هناك عقبة تعترض سبيلكم . فبينما أتم تسيرون قدما في تحقيق الربح ، تنشأ التروستات الاحتكارية وتتنزع منكم أرباحكم . وتلك عقبة تتعارض مع رغبات الخليقة . وكما يترأى لكم . ليس هناك خلاص منها إلا بتحطيم هذه التروستات التي تسلب أرباحكم .

— وإنى أصغيت إليكم في اهتمام . وليس هناك سوى لقب واحد يستطيع أن يلخص دوركم في المجتمع . ولسوف أطلق عليكم هذا اللقب أتم محطمو الآلات . أتعرفون من يكون محطم الآلات ! دعوني أقول لكم . في القرن الثامن عشر كان الرجال والنساء في إنجلترا ينسجون القماش في أكواخهم على أنوال يدوية . وكانت هذه الطريقة في نسج القماش ، هذه الصناعة المنزلية ، بطيئة غير متقنة وبتكلفة مرتفعة . ثم جاءت الآلة التجارية ونشأ النظام الآلي الذي يقتصد من قوة العمل . فإن ألفاً من الأنوال متجمعة في مصنع كبير وتدار بآلة مركزية ، تستطيع أن تنسج القماش بتكاليف أقل بكثير عما في مقدور النساجين المنزليين أن ينسجوه على أنوالهم اليدوية . وهنا حيث المصنع . نشأ تضامن العمال . وفي مواجهته تلاشت المنافسة . فإن الرجال والنساء الذين كانوا يشغلون الأنوال اليدوية لحسابهم ،

انجهوا الآن إلى المصانع وشغلوا الأنوال الآلية ، لا لحسابهم وإنما لحساب
الرأسماليين أصحاب المصانع . وعلاوة على ذلك ، التحق الأولاد الصغار
بالعمل على هذه الأنوال الآلية ، وزاحوا الرجال على اللقمة اليومية . وترتب
على ذلك أن شاهد الرجال أوقانا عصبية . فقد هبط مستوى معيشتهم ،
وذاقوا مرارة الجوع . وقالوا إن الآلات هي المسئولة عن بلائهم .
ومن ثم مضوا يحطمون الآلات . ولكنهم لم يفلحوا ألبتة فقد كانوا أغبياء
حقاً . ،

و مع ذلك ، فأنتم لم تعظوا من الدرس الذي تلقنتموه . فها أنتم هؤلاء ، بعد
مضى قرن ونصف من الزمان ، تحاولون تدمير الآلات . إن آلات التروستات ،
باعترافكم ، تقوم بالعمل على نحو أكثر فاعلية وأقل تكلفة عما في مقدوركم
أن تقوموا به . وهذا هو السبب الذي من أجله تعجزون عن منافستها .
ومع ذلك ، فأنتم لا تخفون رغبتكم في تحطيم هذه الآلات . أنتم أكثر بلاهة
من عمال إنجلترا الأغبياء ، وبينما تهذون حول إحياء مبدأ المنافسة الحرة ،
تمضي التروستات في تحطيمكم والقضاء عليكم .

« لقد روى كل واحد منكم القصة نفسها — زوال عهد المنافسة ونشوء
الاتحادات ، فأنت بامستر أوين قضيت هنا في بيركلى على المنافسة ، عندما
دفع فرعك الجديد ثلاثة محال بقالة صغيرة على أن ترحب من ميدان العمل
التجاري ، كان اتحادك الرأسمالي أكثر فاعلية . ومع ذلك فأنت تشعر بوطأة
الاتحادات الأخرى عليك ، بوطأة التروستات الاحتكارية . فترفع عقيرتك
بالشكوى . ولا ترتفع عقيرتك بالصياح ، إلا لأنك لا تملك تروستا
من التروستات . فلو كنت أحد أصحاب تروست للبقالة يهمن على أسواق
الولايات المتحدة كلها ، لتغيت حينئذ بأغنية أخرى ، ولأنشدت هذه الأغنية
فتقول . « مباركة أنت أيتها التروستات ، . ثم إن اتحادك الرأسمالي الصغير
ليس تروستا بالمعنى الصحيح . ومع ذلك فأنت تعي بنفسك افتقاره إلى

القوة . وبدأت تتمكهن بالنهاية التي سوف تؤول إليها . وهانت ذا تشعر بأنك بفروع بقالتك لا تعدو أن تكون سوى قطعة صغيرة تحرك على رقعة الشطرنج . بل هانت ذا ترى نشوء الأعمال القوية التي تزداد يوماً بعد يوم ، وتحس بأيديها المدرعة تسقط على أرباحك وتختطف منها قبضة من هنا وقبضة من هناك : تروست السكك الحديدية ، تروست البترول ، تروست الصلب ، تروست الفحم فانت تعرف أنها سوف تقضى عليك في نهاية الأمر ، وتسلبك آخر نسبة مئوية من أرباحك الهزيلة .

د أنت ياسيدي لست سوى مقامر مسكين . فماذا حدث حين اعتصرت ثلاثة محال بقالة صغيرة هنا في بيركلي نتيجة تفوق اتحادك الرأسمالي عليها ؟ لقد انفجحت تها ، ورحت تتحدث عن الفاعلية وروح الإقدام . وأرسلت زوجتك في رحلة إلى أوروبا على حساب الأرباح التي اغتنمتها من التهامك لمحال البقالة الثلاثة . كان هناك كلاب يأكل بعضها بعضاً . وجئت أنت فالتهمتها جميعاً ولكن هاهي ذى كلاب أقوى منك قد راحت بدورها تنمشك . وهذا ما دفعك إلى أن تصرخ وتناووه . وما أقوله لك هو حقيقة تنطبق عليكم جميعاً : على كل الجالسين إلى المائدة فأنتم جميعاً تصرخون وتناووهون . أنتم جميعاً تلعبون لعبة خاسرة ثم تندبون حظكم فيها .

د ولكنكم حين ترفعون صوتكم بالصراخ لا تشرحون الوضع في صراحة مثلما فعلت . فأنتم لا تذكرون شيئاً عن رغبتكم في اعتصار الأرباح من الآخرين . وما هذه الضجة التي تثيرونها إلا لأن الآخرين يبتزون منكم الأرباح . كلا ، أنتم أدهى من أن تفعلوا ذلك . فعليكم أن تقولوا شيئاً آخر . إنكم تلقون خطاباً سياسية تمثل وجهة نظر صغار الرأسماليين ، مثلما فعل مستر كالفين ، فما الذي قاله ؟ إليكم بعضاً من عباراته التي أمسكت بها :
د إن مبادئنا سليمة لا غبار عليها ، و إن ما نحتاج إليه هذه البلاد هو العودة

إلى الأساليب الأمريكية الأساسية، و «إتاحة الفرص الحرة لجميع المواطنين، و «روح الحرية التي ولدت عليها هذه الأمة ، و «فلنعد إلى مبادئ آباءنا وأجدادنا .»

وهو حين يطالب بإتاحة الفرص الحرة للمواطنين ، إنما يقصد إتاحة الفرص الحرة لا بتزاح الأرباح وهي حرية تنكرها عليكم الآن التروستات الكبرى . ووجه السخف في المسألة أنكم كررت هذه العبارات ، وغلبت على حديثكم حتى غدوتم تؤمنون بها . أتم تطالبون بإتاحة الفرصة لنهب إخوانكم على طريقتكم الخاصة المحدودة ، ولكنكم تخدرون أنفسكم حتى تتوهموا أنكم لا تبغون سوى الحرية ، أتم ساعون للكسب شرهون ، لكن سحر عبارتكم يقودكم إلى الاعتقاد بأنكم وطنيون ، بل إنكم تصورتم رغبتكم في الربح - وهذه أنانية خالصة - وكأنها قلق غيور على الإنسانية المعذبة ، تعالوا الآن ، وهنا بالذات حيث لا يوجد سوانا ، وكونوا صادقين مرة في حياتكم ، تعالوا وانظروا إلى المسألة، في وجهها ، وعبروا عنها بعبارات صريحة ودون مواربة ،

وسرى الدم في وجوه الجالسين حول المائدة وارتسمت عليها علامات الغضب ، وإن داخلها قدر من الرعب أيضا ، فقد راعهم إلى حد ما هذا الشاب بهدوء وجهه ، ووقع كلماته التي أدارت رؤوسهم ، وبهذه القدرة الرهيبة على تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية .

وانبرى مستر كافين يجيب على الفور وهو يتساءل :

- « ولم لا ؟ لم لا نستطيع أن نعود إلى أساليب آباءنا عندما أنشئت هذه الجمهورية ؟ لقد ذكرت حقائق كثيرة يا مستر ليفر هارد ، رغم أنها حقائق مستساغة ، ولكن دعونا هنا نجاهر برأينا فيما بيننا ، فلنطرح أقنعة التنكر

وكل ما ننتز وراهه، ولتقبل الحقيقة كما فسر هاسترايفر هارد دون موارد
حقيقة أننا نحن صغار الرأسماليين نسعى وراء الربح .

وصحيح أننا نريد تحطيم التروستات ، كي نحفظ بأرباحنا ، فلم
لا نستطيع تحقيق ذلك ؟ لم لا ؟ أقول لم لا ؟ ، .

فقال إرنست ، وعلى وجه سمات الارتياح :

- « آه لقد أتينا إلى بيت القصيد . وسوف أحاول أن أشرح لك
لم لا ، وإن كان هناك صعوبة إلى حد ما في تفهم تفسيري . فأنتم أيها
الزملاء ، كما ترون - قد درست الأعمال التجارية دراسة محدودة ، ولكنكم
لم تدرسوا البنية النطور الاجتماعي . أنتم الآن تمرون في غمرة مرحلة
انتقالية من مراحل التطور الاقتصادي ، بيد أنكم لا تفهمونها ، وهذا
ما يسبب كل هذه البلبلة ، لماذا لا تستطيعون العودة إلى طرق آبائكم ؟
لأنكم لا تستطيعون ذلك . فأنتم لا تستطيعون وقف تيار التطور
الاقتصادي وإرجاعه إلى الوراء ، اللهم إلا إذا استطعتم إكراه الماء على
التدفق إلى أعلى الهضبة . لقد أوقف يوشع الشمس فوق « جعبون » .
أما أنتم فتريدون أن تتفوقوا على « يوشع » .

أنتم تودون لو أكرهتم الشمس على أن ترتد في سماءها إلى الوراء .
وتتمنون لو ارتدت عقارب الساعة إلى الوراء ، من الظهيرة إلى الصباح .

« وفي مواجهة الآلية التي تقتصد من جهد العمل ، وفي مواجهة الإنتاج
المنظم وفعالية الانحادات الاحتكارية المتزايدة ، تودون لو أرجعتم الحياة
الاقتصادية إلى الوراء جيلاً بأكمله ، أو إلى العصر الذي لم يكن به رأسماليون
كبار ، أو آلية ضخمة ، أو سكك حديدية ، يوم كان جماعة من صغار
الرأسماليين يقاتل بعضهم بعضاً في فوضى اقتصادية ، حين كان الإنتاج
بدائياً مبدداً للجهد ، غير منظم ، وباهظ التكلفة .

« صدقوني ، إن مهمة يوشع كانت أسهل ، وكان الرب من ورائه يساعده ،
ولكن الله تخلى عنكم أتم يا صغار الرأسماليين . إن شمس صغار الرأسماليين
أخذة في الأفول ، ولن تشرق مرة أخرى أبد الدهر . كلا ، ليست لديكم
السلطة في أن توقفوها .

فأتم ماضون في سبيلكم نحو الفناء . لقد حكم عليكم أن تتلاشوا
نهائياً عن وجه المجتمع .

« هذا هو حكم التطور ، إنها كلمة الله . والاندماج أقوى من المنافسة ،
فقد كان الإنسان البدائي مخلوقاً ناقص النمو ، يخبئ في فجوات الصخور ،
ثم اتحد في جماعة ، وشن الحرب على أعدائه من أكلة اللحوم ، إذ كان
أعداؤه حيوانات متنافسة ، أما هو فقد كان حيواناً مندجماً في جماعة ،
ومن أجل ذلك تفوق على جميع الحيوانات . ومنذ ذلك الحين ، والإنسان
يحقق أشكالاً من الاندماج ، أكبر وأعظم ، إنه الاندماج ضد المنافسة ،
وهو صراع يمتد إلى ألف قرن مضت ، ودائماً ما كانت الهزيمة تلحق
بالمنافسة . فكل من ينجاز إلى جانب المنافسة محكوم عليه بالهلاك .

فاعترضه مستر كالفين :

- « ولكن التروستات نفسها ثمرة المنافسة ، .

وأجاب إرنست :

- « صحيح تماماً . والتروستات هي نفسها التي قضت على المنافسة .

وهذا ما دفعك - كما قلت بنفسك ، إلى الانسحاب من صناعة الألبان .»

ودوت الضحكة الأولى في السهرة ، وحتى مستر كالفين انضم إلى المائدة

في موجة الضحك على نفسه .

وتابع إرنست حديثه :

— والآن ، ما دمننا بصدد الحديث عن التروستات ، اسمحو الى أن أقرر بضعة أمور . فأنا سوف أدلى ببيانات بعينها ، وإذا ما خالفتموني فيها ، أعلنوا رأيكم ، فالصمت يعنى الموافقة ، أليس صحيحاً أن النول الآلى قادر على أن ينسج مقداراً أعظم من القماش ، وبتكاليف أرخص عما ينسجه النول اليدوى ؟ وتمهل قليلاً ، ولكن أحداً منهم لم ينطق بكلمة واحدة ، إذن ، فمن غير المعقول أن نحطم الأنوال الآلية . ونعود القهقرى إلى طريقة النسيج بالنول اليدوى ، إلى هذه الطريقة غير المتقنة والأكثر تكلفة . أليس كذلك ؟ .

وهز الجميع رؤوسهم بالموافقة . « أليس صحيحاً أن ذلك الاندماج المعروف بالتروست ينتج على نحو أكثر فاعلية ، وبنفقات أقل ، ما تستطيع أن تنتجه ألف من المؤسسات الصغيرة المتنافسة ؟ » .

وحتى الآن لم يعترض أحد منهم ، « أليس من الحماقة إذن ، أن نقوض هذا الاندماج ، وهو الأكثر فاعلية فى الإنتاج ، والأقل تكلفة ، . واعتصموا بالصمت فترة طويلة ، ثم انبرى مستر كووالت متسائلاً : — « ما الذى ينبغى أن نفعله إذن ؟ إن تحطيم التروستات هو السبيل الوحيد الذى نراه للتخلص من سيطرتها ، .

وفى الحال ، اتقد إرنست ناراً وحيوية ، وصرخ : — « سوف أدلك على سبيل آخر ، فلنقلع عن التفكير فى تحطيم هذه الآلات الرائعة التى تنتج على نحو فعال ورخيص ، ولنضمها تحت إشرافنا . لنستفد من فاعليتها ورخيصها ، ولنديرها لأنفسنا . فلنطرد المالكين الحاليين لهذه الآلات الرائعة ، ولنمتلك نحن هذه الآلات . تلك هى الاشتراكية ، يا حضرات السادة . إنها اندماج أعظم من تجمعات التروستات . اندماج اقتصادى واجتماعى أعظم من أى اندماج ظهر حتى الآن على سطح الكوكب . إنها اندماج يتمشى مع مجرى التطور . فنحن نواجه الاندماج

باندماج أعظم . وهو الجانب الرابع ، تعالوا إذن ، وانضموا إلينا نحن
الاشتراكيين ، وراهنوا على الجانب الرابع . .

وهنا ثار خلاف ، إذ هز الحاضرون رهوسهم ، وأخذوا يتمتمون .
فضحك إرنست وقال :

- « حسن جداً ، إذن فأنتم تفضلون أن تغالطوا منطق التاريخ . أنتم
تؤثرون أن تلعبوا أدواراً ارتدادية إلى الوراء . ولكنكم محكوم عليكم
بالفناء ، مثلها هو محكوم على كل نزعة تريد بعث الماضي ، هل خطر لكم
 يوماً أن تتساءلوا عما سوف يحل بكم ، حين تنشأ تجمعات تضامنية أعظم
من التروستات الحالية ؟ هل وضعتم في اعتباركم المآل الذي سوف تنتهون
إليه حين تندمج التروستات الكبرى في تجمع التجمعات ، في تروست
اجتماعي واقتصادي وسياسي ؟ ، .

والتفت فجأة إلى مستر كالفين وقال :

- « قل لي إذا لم يكن هذا صحيحاً : أأستم مضطرين إلى تشكيل حزب
سياسي جديد ، بسبب وقوع الأحزاب القديمة تحت سيطرة التروستات ؟
إن العقبة الرئيسية التي تعترض دعايتكم السياسية «الجرابية» هي التروستات .
فإن يد التروستات وراء كل عقبة تلاقونها ، وراء كل ضربة تبثليكم ،
وكل هزيمة تمنون بها ، أليس هذا صحيحاً ؟ قل لي ، .

ولزم مستر كالفين الصمت في ضيق ، فشجعه إرنست قائلاً :

- « هيا تكلم ، .

فاعترف مستر كالفين :

- « هذا صحيح . فنحن قد استولينا على المجلس التشريعي لولاية
«أوريجون» ، وأصدرنا تشريعاً وقائماً رائعاً ، ولكن حاكم الولاية الذي

كان صنعة التروستات استخدم حق الفيتو . وانتخبنا حاكما لولاية
«كلورادو» ، ولكن المجلس التشريعي رفض أن يجيز له تولى هذا المنصب
وأقررنا مرتين مشروعا بفرض ضريبة الدخل العام ، ولكن المحكمة العليا
قضت على المشروع في كلتا المرتين ، بدعوى أنه غير دستوري . إن المحاكم
في يد التروستات . ونحن أبناء الشعب لا ندفع لقضائنا بما يكفي ، ولكن
سوف يجيء وقت

وقاطعه إرنست قائلا :

— « وقت يسيطر فيه اتحاد التروستات على جميع السلطات التشريعية ،
وقت يغدو فيه اتحاد التروستات هو الحكومة نفسها » :

فارتفعت الصيحات :

— « لن يحدث . . . لن يحدث . . . »

وعصف الهياج بهم ، وبدأت على جميع الوجوه سمات القتال . وسألهم
إرنست :

— « أخبروني ما الذي ستفعلونه عندما يأتي هذا الوقت » :

فصاح مستر اسمونسين :

— « سوف نهب للقتال بكل قوتنا » .

ورددت أصوات عديدة هذا القرار الذي أعلنه مستر اسمونسين .
ولكن إرنست حذرهم :

— « ولكن هذا يعني حرباً أهلية » .

فأجابه مستر اسمونسين ، ومن ورائه صيحات كل الرجال على المائدة .

— « إذن فلنتمكن حرباً أهلية . نحن لم ننس أجداد آبائنا . فنحن في سبيل حريتنا ، على استعداد لأن نحارب حتى الموت ، .

وابتسم إرنست وقال :

— « لاتنسوا أننا اتفقنا ضمناً على أن الحرية عندهم باحضرات السادة، تعنى حرية استنزاف الأرباح من الآخرين ، .

واستشاطت المائدة كلما غضباً ، غضباً مشوباً بالقتال هذه المرة . ولكن إرنست سيطر على الجلبة ، وأجبرهم على أن يسمعوه .

— « سؤال آخر . حين تهبون للقتال بكل قوتكم تذكروا أن سبب انتفاضكم هو خضوع — الحكومة تحت سيطرة التروستات . ولذلك ، ففي مواجهة قوتكم . سوف تجرد عليكم الحكومة الجيش النظامي والاسطول ، والميليشيا والبوليس . وباختصار ، كل الجواز الحربى المنظم للولايات المتحدة ، فأين تكون قوتكم حينئذ ؟ ، .

وتربع الزعر على وجوههم . وقبل أن يفيقوا إلى رشدهم عاجلهم إرنست بضربة جديدة .

— « هل تذكرون منذ عهد ليس ببعيد ، حين كان جيشنا النظامي يتألف من خمسين ألف مقاتل فقط ؟ لقد تزايد هذا العدد عاما بعد عام ، حتى بلغ اليوم ثلاثمائة ألف مقاتل ، .

ومرة أخرى ضرب ضربته :

— « وليس هذا كل ما فى الامر . ففما كنتم تجدون وراء طيفكم المفضل ، ذلك الذى تدعونه بالأرباح . . . وفيما كنتم تبدعون قبا أخلاقياً عن معبودكم المفضل ، ذلك الذى تسمونه المنافسة ، أنجز الاندماج الاحتكارى أشياء أعظم شأنًا وأشد فظاعة فقد أنشأ الميليشيا ، .

وصاح مستر كيو والت :

— «ولكن الميليشيا هي قوتنا . وسوف نهد بها هجوم الجيش النظامي» .

فأجاب إرنست :

— « أتم بأنفسكم سوف تلاحقون بالميليشيا : وسوف ترسلون إلى « ما بين ، أو فلوريدا ، أو الفيليبين ، أو إلى أي مكان آخر ، لتغرقوا في الدماء رفاقكم المدنيين الذين يقاتلون دفاعاً عن حرياتهم . بينما سيلاحق رفاقكم بالذات في « كانساس ، أو « ويسكونسنين ، أو أي ولاية أخرى بالميليشيا وسوف يأتون إلى كاليفورنيا ليغرقوا في الدماء رفاقكم المدنيين» .

وأخذتهم صدمة حقيقية الآن . وظلوا لا ينسون بينت شفة ، حتى غمغم مستر أوين :

— « لن ننضم إلى الميليشيا . وهذا ما سوف يحسم الأمر . فنحن لن نكون على هذه الدرجة من الغباء» .

وضحك إرنست على الفور وقال :

— « أتم لا تفهمون حقيقة الاندماج الذي تم . فلسوف تساقون إلى الميليشيا ، ولن يكون في مقدوركم أن تفادوا هذا المصير» .

وقال مستر أوين في إصرار :

— « هناك شيء اسمه القانون المدني» .

— «وماذا يفيد القانون المدني حين تعطله الحكومة ، فيوم تتحدثون عن انتفاضتكم بالقوة ، فإن قوتكم هذه سوف تنقلب عليكم . وسوف تلاحقون بالميليشيا سواء رضيتم أو كرهتم . وقد سمعت لتوى أحدكم يتمم « أليست هناك عدالة ، ؟ ولكن بدلا من أن تنادوا بالعدالة ، سوف تناديكم المشرحة . فإذا ما رفضتم الانتحاق بالميليشيا ، أو عصيت الأوامر

بعد انضمامكم إليها ، فإنكم سوف تكون أمام مجلس عسكري يعقد على الفور ، وتعدمون كالكلاب رمياً بالرصاص هذا هو القانون ، .

فأكد مستر كالفين على نحو حتمي :

- « ليس هذا هو القانون ، وليس هناك ثمة قانون كهذا . بل أنت قد تخيلت كل هذا أيها الفتى . ولم لا ، وقد تحدثت عن إرسال الميليشيا إلى الفلبين ، بينما هم — ذا إجراء غير دستوري ؟ فالدستور ينص بصفة خاصة على أنه لا يجوز أن توجه الميليشيا إلى خارج البلاد ، .

وسأله إرنست :

- « وما صلة الدستور بهذه المسألة ؟ فالمحاكم تفسر الدستور كما يحلو لها . وهي كما أقر مستر اسمونسين — صنيعه التروستات فضلاً عن أن هذا هو القانون ، كما سبق أن قلت . هذا هو القانون النافذ منذ سنوات ، منذ تسع سنوات يا حضرات السادة ، .

وتساءل مستر كالفين :

- « هل ينص القانون على أن نساق إلى الميليشيا ؟ هل ينص على محاكتنا أمام مجلس عسكري يعقد فوراً إذا ما عصينا الأوامر ؟ ، .

وأجاب إرنست ،

- نعم . القانون ينص على ذلك بالتحديد ، .

فتساءل أبى ، وقد استطعت أن أدرك من تساؤله أن هذا الأمر كان جديداً على مسامعه أيضاً :

- « ولكن كيف لم نسمع بهذا القانون من قبل ؟ ، .

فقال إرنست :

- « لسببين - أولاً لأنه لم تنشأ بعد الحاجة إلى وضعه موضع التنفيذ .
فلو كان هناك حاجة إليه لسمعتم به على الفور . وثانياً : لأنه فرض على
الكونجرس ومجلس الشيوخ سراً ، ودون مناقشة في الواقع . وبالطبع لم
تشر الصحف إلى شيء من ذلك . ولكننا نحن الاشتراكيين عرفنا بما حدث
ونشرناه في صحفنا ولكنكم لا تقرءون صحفنا على الإطلاق ، .

وقال مستر كالفين في عناد :

- « ما زلت أصر على أنك تحلم ، فالبلاد لا يمكن أن تجيز هذا
القانون ، .

فأجابه إرنست :

- « ولكن البلاد قد أجازته بالفعل . أما فيما يتعلق بقولك إنى
أحلم ، »

ووضع يده في جيبه ، وأخرج منه كتيباً صغيراً ولوح به للجميع
وقال . « قل لى : هل هذا أضغاث أحلام ؟ ، . . . »

وفتح الكتيب وبدأ يقرأ :

- « المادة الأولى : وقد صدق على التالي وهلم جرا : إن الميليشيا ، سوف
تؤلف من كل مواطن ذكر سليم البنية ، من مواطنى الولايات الخاصة
والمقاطعات وإقليم كولومبيا ، ولا تقل سنه عن الثامنة عشر ولا يتجاوز
الخامسة والأربعين ، .

- « المادة السابعة : إن كل ضابط أو مجند ، تذكروا المادة الأولى .
فأتم جميعاً باحضرات السادة مجندون ، كل ضابط أو مجندنى الميليشيا يرفض
أو يهمل فى المثول أمام ضابط التجنيد عند استدعائه ، وفقاً لأحكام القانون
المنصوص عليها هنا ، يحال إلى المحاكمة أمام محكمة عسكرية ، ويعاقب بالعقوبات
التي تقررها المحكمة ، .

— المادة الثامنة : تشكل المحاكم العسكرية الخاصة بمحاكمة ضباط وجنود الميليشيا من ضباط الميليشيا فقط .

— المادة التاسعة : عند استدعاء الميليشيا للخدمة الفعلية من الولايات المتحدة ، تخضع لنفس قواعد الحرب وأحكامها التي تخضع لها قوات الولايات المتحدة النظامية .

— وألم أقل لكم ياسادتي، يامعشر المواطنين الأمريكيين، ويا حضرات الزملاء أعضاء الميليشيا؟ فندتسع سنوات ، اعتقدنا نحن الاشتراكيين أن القانون موجه ضد العمال ، ولكن يبدو أنه موجه ضدكم أيضا . فقد قال عضو الكونجرس « ويلي » ، في أثناء المناقشة المختصرة التي سمح بها : إن مشروع القانون يقضى بإنشاء قوة احتياطية تأخذ بخناق الدهماء — وأتم من الدهماء يا حضرات السادة — وتحمي حياة الناس وحررياتهم وممتلكاتهم من جميع الأخطار . وفي الأيام المقبلة ، حين تهبون بقوتكم ، تذكروا أنكم تهبون ضد ممتلكات التروستات ، وضد حرّياتها — وفقا للقانون — في استنزاف الأرباح منكم . إن أنيابكم مخلوعة يا حضرات السادة ، وإن برائتكم مقلبة . ويوم تهبون للقتال بلا أنياب أو برائن ، لن يكون لكم أدنى أذى ، كما لو كنتم جيشا من الأسماك الصدفة .

وصاح مستر كروالت :

« لا أصدق ذلك ؟ فليس هناك ثمة قانون مثل هذا ، بل هي إشاعة ابتدعتموها أتم يا معشر الاشتراكيين بغرض الإثارة . »

— فأجاب إرنست :

— « إن مشروع هذا القانون قدم إلى الكونجرس في ٣٠ يوليو ١٩٠٢

وقدمه النائب د. ديك ، نائب د. أو. هيو ، ، وتم طبخه بسرعة . وأقره مجلس الشيوخ بالإجماع في ١٤ يناير ١٩٠٣ ولم تمض عليه سوى ساعة أيام حتى صدق عليه رئيس الولايات المتحدة (١) .

(١) كان ايفر هارد على صواب في الوقائع الأساسية على الرغم من انه اخطأ في تحديد التاريخ الذي قدم لديه مشروع القانون . فقد قام مشروع القانون في ٣٠ يونيو وليس في ٣٠ يوليو . ولد لنا محاضر جلسات الكونجرس هنا في أريديس ومراجعة هذه المحاضر تبين أن الإشارة الى ذلك وردت في ٣٠ يونيو و ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ديسمبر ١٩٠٢ و ٧ ، ١٤ يناير ١٩٠٣ أما الجهل الذي تكشف عنه رجال الأعمال في ذلك الأدبة ، فقد كان شيئاً عادياً . فلم يعرف بوجود هذا القانون سوى نفر قليل من الناس . إذ نشر اونترمان وهو توري في يوليو ١٩٠٣ كتيباً صغيراً في جيرارد كانساس « عن قانون الميليشيا » وكان لهذا الكتيب رواج محدود بين العمال ولكن عملية عزل الطبقات بعضها عن بعض بلغت حداً ترتب عليه أن لا يسمع أبناء الطبقة المتوسطة إطلاقاً بهذا الكتيب . ومن ثم ظلوا في جهل من هذا القانون .

الفصل التاسع

رياضيات حلم

وفي غمرة الذعر الذي استبد بالحاضرين ، حين كاشفهم إرنست بالحقائق
استأنف حديثه من جديد :

لقد تحدث الكثيرون هذه الليلة ، وقلتم إن الاشتراكية مستحيلة ،
أما وقد أكدتم استحالتها ، فدعوني الآن أوضح حتميتها . فلا مفر من
فنائكم ، أنتم يا صغار الرأسماليين ، وليس هذا لحسب ، بل لا مفر من
فناء كبار الرأسماليين ، وزوال التروستات من الوجود . تذكروا أن مجرى
التطور لا يمكن أن يتدفق إلى الوراء . بل يتدفق إلى الأمام ، ويجرى من
المنافسة إلى الاندماج ، ومن الاندماج الصغير إلى الاندماج الكبير ، إلى
الاندماج الضخم ، ومن ثم يتدفق إلى الاشتراكية ، وهي أضخم أشكال
الاندماج على الإطلاق .

تقولون إنني أحلم . حسن جداً ، سوف أعطيك رياضيات حلبي .
وهنا أتحداكم مقدماً ، أن تبنوا لي أن رياضياتي خاطئة ، سوف أوضح
حتمية انهيار النظام الرأسمالي وسوف أبين بالمعادلات الرياضية لماذا
يجب أن ينهار؟ ، وإليكم التفاصيل . وإني أرجوكم أن تتحملوني إذا ما بدا
كلامي لأول وهلة في غير محله .

« دعونا قبل كل شيء ، نستقصي عملية بعينها من العمليات الصناعية .
وإذا ما ذكرت رأياً تخالفوني فيه أرجوكم أن تقاطعوني . لنفرض أن
لدينا هنا مصنعاً للأحذية . هذا المصنع يأخذ الجلد ويصنع منه أحذية .

ولنفرض أن لدينا مقداراً من الجلد قيمته مائة دولار. إنه يدخل إلى المصنع، ويخرج منه في صورة أحذية. ولنفرض أن قيمتها مائتي دولار. ما الذي حدث؟ لقد أضيفت مائة دولار إلى قيمة الجلد. كيف أضيفت هذه المائة؟ دعونا نرى.

إن رأس المال والعمال قد أضافا هذه الدولارات المائة إلى قيمة الجلد. أما رأس المال فقد قدم المصنع والآلات، ودفع جميع النفقات. أما العمال فقد قدموا العمل. وبفضل الجهد المشترك الذي بذله رأس المال والعمال، أضيفت على قيمة الجلد مائة دولار. هل تقرونني على ما قلته حتى الآن؟

فهز الجميع رءوسهم علامة الموافقة.

- وحتى إذا ما أنتج رأس المال والعمال هذه الدولارات المائة، شرعا في تقسيمها فيما بينهما. وبما أن إحصائيات هذه القسمة أرقام كمرية، إذن فلنجعلها - بفرض الإقناع - أرقاما تقريبية. فياخذ رأس المال حصة مقدارها خمسون دولاراً، بينما يعود على العمال خمسون دولاراً في صورة أجور. ولن نعرض للنشاحن الذي يحدث من وراء هذه القسمة^(١). ففهما حدث من نشاحن، فإن القسمة تجري على أساس هذه النسبة المثوية أو تلك. وإني ألفت نظركم هنا إلى أن ما يصح على هذه العملية الصناعية ينطبق أيضاً على جميع العمليات الصناعية. ألسنت على صواب؟

(١) يوضح إيفر هارد هنا سبب جميع المشاكل العمالية في ذلك الوقت. ففي قسمة الإنتاج المشترك يريد رأس المال كل ما يستطيع أن يحصل عليه. بينما يريد العمل كل ما يستطيع أن يحصل عليه. وكان هذا النزاع على القسمة أمراً لا يقبل المصالحة. واستمر النزاع بين العمل ورأس المال على قسمة الناتج المشترك ما بقي نظام الإنتاج الرأسمالي. ويبدو ذلك أمام أعيننا مشهداً مضحكاً. ولكن ينبغي ألا ننسى أننا نتفوق بسبعة قرون على أولئك الذين عاشوا في ذلك العصر.

ومرة أخرى وافقت المائدة كلها على ما قاله إرنست .

- « والآن لنفرض أن العمل وقد تلقى دولاراته الخمسين ، أراد أن يشتري بها الأحذية التي سبق أن صنعها . إنه لا يستطيع أن يشتري منها سوى ما قيمته خمسون دولاراً . وهذا واضح ، أليس كذلك ؟ .

- « والآن ننتقل من هذه العملية الخاصة إلى مجموع العمليات الصناعية في الولايات المتحدة برمتها ، والتي تشمل الجلد نفسه ، والمادة الخام ، والشحن والبيع وكل شيء . . وسوف نقول ، إذا ما استخدمنا أرقاماً تقريبية ، إن إنتاج الثروة الإجمالي في الولايات المتحدة يبلغ أربعة مليارات دولار في العام . إذن ، فقد حصل العمال على ملياري دولار في صورة أجور خلال الفترة نفسها . أي أننا لدينا الآن إنتاج بما قيمته أربعة مليارات دولار . فكم تبلغ القدرة الشرائية للعمال ؟ . لا يستطيع العمال أن يشتروا من هذه المليارات الأربعة سوى ما قيمته ملياري دولار . وأنا واثق من أن هذه المسألة لا تحتمل المناقشة . فليس هناك مبالغة في النسب المئوية التي ذكرتها . ولا يستطيع العمال - من جراء ألف حيلة رأسمالية ، أن يشتروا حتى نصف الإنتاج الإجمالي .

- « ولكن لنعد إلى الموضوع ، سوف نقول إن العمل يشتري ما قيمته ملياري دولار . إذن ، ما يتفق والمنطق السليم أن نقول إن العمال لا يستطيعون أن يستهلكوا سوى ملياري دولار . ومعنى هذا ، لا يزال يوجد ملياران آخران لا يستطيع العمل أن يشتريهما أو يستهلكهما .

وهنا قال مستر كيو والت :

- « إن العمل لا يستطيع أن يستهلك حتى ملياريه نفسيهما . فلو كان يستهلكهما ، لما كان له أية ودیعة في بنوك الادخار ، .

- « إن ودائع العمال في بنوك الادخار ليست سوى رصيد احتياطي

من المال ، يستهلك بمثل السرعة التي يتراكم بها . فهذه الودائع إنما تدخر للمرض وللحوادث للعمل ولوقت الشيخوخة ولنفقات تشييع الجنازة . إن الوديعة التي يودعها العاهل في بنك ادخار ، ليست سوى كسرة خبز تحفظ على الرف لتؤكل في اليوم التالي . كلا ، إن العمل يستهلك كل ما تسمح به الأجور أن تشتريه من الإنتاج الإجمالي .

• ويتبقى ملياران لرأس المال . وبعدهما يدفع نفقاته ، هل يستهلك ما تبقى لديه ؟ هل يستهلك رأس المال كل ملياريه الاثنين ؟ .

وتوقف إرنست ، وطرح بوضوح تلامذة الاستفهام على عدد من الرجال . ولكنهم هزوا رؤوسهم . ثم قال أحدهم في صراحة :

- لا أعرف ، .

- بالطبع أنت تعرف . قف وفكر لحظة . فلو أن رأس المال استهلك نصيبه ، لما زادت القيمة الإجمالية لرأس المال ، ولظلت ثابتة بلا تغيير . ولو أقيمت نظرية على التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة ، لرأيت أن القيمة الإجمالية لرأس المال في ازدياد مستمر . ومن ثم فإن رأس المال لا يستهلك نصيبه . هل تذكرون يوم أن كانت إنجلترا تملك حصة كبيرة من سندات السكك الحديدية في بلادنا ؟ . بمرور الأعوام استطعنا أن نسترد هذه السندات ونشترها منها . فإذا يعني ذلك ؟ . يعني أن حصة رأس المال غير المستهلك هي التي اشترت هذه السندات . فما معنى هذه الحقيقة ، حقيقة إن رأسماني الولايات المتحدة يمتلكون اليوم ما قيمته ملايين وملايين الدولارات من سندات مكسيكية ، وروسية ، وإيطالية ، ويونانية ؟ . معناها أن هذه الملايين كانت جزءاً من حصة رأس المال التي لم تستهلك . فنذ فجر النظام الرأسمالي ، لم يستهلك رأس المال قط كل حصته .

• والآن ، نصل إلى بيت القصيد : تنتج الولايات المتحدة أربعة مليارات دولار من الثروة في عام واحد . ويشتري العمل ويستهلك مليارين اثنين .

بينما لا يستهلك رأس المال المليارين الباقين ، هكذا يتبقى رصيد ضخيم بلا استهلاك ، فما مصير هذا الرصيد ؟ ما الذي يمكن أن يعمل به ؟ إن العمل لا يستطيع أن يستهلك منه شيئاً ، لأنه سبق أن أنفق كل ما تحصل عليه من أجور . ولن يستهلك رأس المال هذا الرصيد ، لأنه استهلك - حسبما يتفق وطبيعته - كل ما يستطيع أن يستهلكه . ومن ثم يظل الرصيد متبقياً ، فإذا يمكن أن يعمل به ؟ ما مصيره ؟

وتطوع مستر كروالت بالإجابة :

- « يباع خارج الولايات المتحدة ، » .

فأقره إرنست قائلاً :

- « دة ما . فبسبب هذا الرصيد تنشأ حاجتنا إلى سوق أجنبية . إنه يباع في الخارج . ونحن مضطرون إلى تصديره إلى الخارج ، فليس هناك طريقة أخرى للتخلص منه ، وهذا الفائض غير المستهلك حين يصدر إلى الخارج ، يصبح ما ندعوه بأن ميزاننا التجاري في صالحنا . هل تفقون معنى في كل ما قلته ؟ »

فقال مستر كالفين في حدة :

- « إنه من العبث بالتأكيد أن نضيع وقتنا في شرح ألف باء التجارة ، فنحن جميعاً نعرفها ، » .

ورد عليه إرنست :

- « وبهذه الألف باء التي عنيت بشرحها فسوف أسبب لك الحيرة . وهنا يمكن سر جمالها ، وسوف أوقع في نفسك الحيرة في أمرها الآن وعلى الفور . اسمع :

- « إن الولايات المتحدة بلد رأسمالي طور موارده . ولديها بحكم نظامها الرأسمالي في الصناعة فائض غير مستهلك ، يتعين عليها أن تتخلص

منه ، ولن نتخلص منه إلا بتصديره إلى الخارج^(١) . وما يصح على الولايات المتحدة يصح على كل بلد رأسالي آخر نمت موارده ، فإن لدى كل بلد من هذه البلدان فائضاً غير مستهلك ، ولا تنسوا أن هذه البلدان قد تبادلت التجارة فيما بينها من قبل ، ومع ذلك يتبقى لدى كل منها فائض ، فإن العمال في جميع هذه البلدان قد أنفقوا كل أجورهم ، ولا يستطيعون أن يشتروا أى فائض . كذلك استهلك رأس المال في هذه البلدان كل ما يستطيع أن يستهلكه وفقاً لطبيعته . وما زال هذا الفائض يتبقى من كل بلد من هذه البلدان . ولا يستطيع أى منها أن يتخلص من فائضه بتصديره إلى بلد آخر من هذه البلدان . فكيف يتخلص من هذا الفائض ؟ .

واقترح مستر كيوالت :

- د بتصديره إلى بلدان مختلفة لم تتم مواردها بعد .
- د تماما . وها تم هؤلاء ترون أن حجتي من الوضوح والبساطة لدرجة أنكم تتبعونها في أذهانكم وتكملوها نيابة عني . ولنتقل الآن إلى الخطوة التالية . لنفرض أن الولايات المتحدة سمعت إلى التخلص من فائضها بتصديره إلى بلد متخلف ، وليكن البرازيل مثلا ، تذكروا أن هذا الفائض يصدر بعد ما استكفّت بلادنا باحتياجاتها التجارية . فما الذى تحصل عليه الولايات المتحدة حينئذ من البرازيل مقابل هذا الفائض ؟ .

(١) ادلى ثيودور روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة بسنوات قليلة قبل ذلك الوقت ، بالتصريح التالى : « نحن في حاجة الى توسيع نطاق تبادل التجارى ، حتى نستطيع أن نتخلص من فائض انتاج الولايات المتحدة بتصديره الى البلدان الأجنبية » . ولا ريب ان هذا الفائض الذى يشير اليه ، انما هو ارباح النظام الراسمالي التى عجزت طاقة الراسماليين عن استهلاكها . وقد قال السناتور « مارك حنا » فى ذلك الوقت : « ان انتاج الثروة فى الولايات المتحدة يفوق استهلاكها سنويا بنسبة الثلث » . وصرح زميل آخر له ، السناتور « تشونسى دييوا » : « ان الشعب الأمريكى ينتج كل عام مليارى دولار من الثروة فوق طاقته الاستهلاكية »

فقال مستر كيوالت :

- ذهب ، ، .

واعترض إرنست :

- صحيح أن في العالم ذهباً كثيراً . ولكن ليس كثيراً إلى هذه الدرجة .

فعدل مستر كيوالت من إجابته :

- ذهب في صورة سندات ووثائق دين وهم جراً ، .

- أنت الآن أصبت الهدف . يتعين على الولايات المتحدة أن تحصل

من البرازيل مقابل فائضها على سندات ووثائق دين . فماذا يعني ذلك ؟ . يعني أن الولايات المتحدة في سبيل أن تمتلك سبك حديدية ومصانع ومناجم وأراضي في البرازيل . وهذا بدوره ، ماذا يعني ؟ ، .

واستغرق مستر كيوالت في التفكير وهز رأسه .

وتابع إرنست كلامه :

-- سأقول لك . إنه يعني أن البرازيل في سبيل أن تطور مواردها .

ولنتقل الآن إلى النقطة التالية . حين تطور البرازيل مواردها في ظل النظام الرأسمالي ، يتولد لديها ، هي نفسها ، فائض غير مستهلك . فهل تستطيع أن تتخلص من هذا الفائض بتصديره إلى الولايات المتحدة ؟ كلا ، فلدى الولايات المتحدة نفسها فائض . وهل تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ما فعلته من قبل - أن تتخلص من فائضها بتصديره إلى البرازيل ؟ . كلا ، فالبرازيل أصبح لديها الآن فائض أيضاً .

د ماذا يحدث إذن ؟ يتحتم على الولايات المتحدة والبرازيل معاً أن تبحثا عن بلدان أخرى لم تتم مواردها بعد ، حتى تزججا عن اكتافهما أثقال الفائض لديهما إلى هذه البلدان المتخلفة . ولكن عملياً التخلص من

الفائض نفسها ، لا بد وأن تؤدي في النهاية إلى تطهير موارد تلك البلدان . ولن تمضي فترة ، حتى يتكون لديها هي الأخرى فائض ، تسعى إلى التخلص منه بالبحث عن بلدان أخرى ، والآن يا سادتي انتبهوا إلى : إن كوكبنا ضخم ، ولكنه ضخم في حدود . ولا تنتظم فيه سوى بلدان معدودة مهما كانت كثيرة . فما الذي يحدث ، حين ينهض كل بلد من بلدان العالم ، من أدناها حتى آخرها ، وبين يديه فائض يواجه به بلداً آخر تنوء أيديه بثقل الفائض لديه ؟

وتوقف إرنست وراح يتأمل مستمعياً . وكانت الحيرة التي رانت على وجوههم تنم عن الذعر . فإن إرنست ، من قبيل التجريد ، قد استحضر أمامهم رؤيا المستقبل وجعلهم يرونها . وقد تأملوها آنذاك وهم جالسون هناك واسترلى عليهم الرعب .

وقال إرنست في خبث :

— ولنا بدأنا بألف باء التجارة يا مستر كالفين . وهأنذا قد أعطيت لك الآن بقية الأبجدية . إنها سهلة جداً . وهذا هو سر جمالها . وهاكم جوراً على وشك أن يبدو ليكم . ماذا يحدث إذن ، عندما يصبح لدى كل بلد من بلدان العالم فائض غير مستهلك ؟ ما مال نظامكم الرأسمالي عندئذ؟ .

ولكن مستر كالفين هز رأسه على نحو مضطرب . فقد كان يستعيد في ذهنه حجج إرنست لعله يكتشف بها خطأ ما .

وقال إرنست :

— دعوني أراجع معكم ، في إيجاز ، الخطرات التي سرناها حتى الآن فقد بدأنا بعملية صناعية بعينها . لصناعة الأخرية . ووجدنا أن قسمة الناتج المشترك بين رأس المال والعمل في هذه الصناعة تماثل القسمة التي تمت في جميع العمليات الصناعية الأخرى . ووجدنا أن العامل لا يستطيع أن يشتري

بأجوره سوى قدر معين من الإنتاج ، وأن رأس المال لم يستهلك كل ما تبقى من الإنتاج . ووجدنا أنه بعد ما استهلك العمال كل أجورهم ، وبعد ما استهلك رأس المال كل ما أراد أن يستهلكه ، تبقى مع ذلك فائض لم يستهلك بعد . واتفقنا على أنه لا سبيل إلى التخلص من هذا الفائض إلا بتصديره إلى الخارج . واتفقنا أيضاً على أن إلقاء عبء هذا الفائض على عاتق بلد آخر لن يؤدي إلا إلى تطوير موارد ذلك البلد . وإن تمضي سوى فترة قصيرة حتى يجد هذا البلد نفسه في مواجهة فائض غير مستهلك . ثم وسعنا نطاق هذه العملية حتى شملت جميع البلدان على هذا الكوكب ، وحتى عدا كل بلد ينتج كل عام ، وكل يوم فائضاً غير مستهلك ، ولا يستطيع أن يتخلص منه بتصديره إلى بلد آخر . والآن أسألكم من جديد . ما الذي سنفعله بكل هذا الفائض ؟ .

ولم يجب أحد بكلمة .

وتساءل إرنست :

— « مستر كافين ؟ » .

— « إنه شيء يعقد لسانى » .

وقال مستر اسمونسين :

— « أنا لم أحلم قط بشيء من هذا القبيل . ومع ذلك يبدو أمامى واضح كبحرف مطبوع » .

كانت هذه أول مرة أسمع فيها شرحاً لنظرية كارل ماركس^(١) عن «فائض

(١) كارل ماركس ، بطل الفكر الاشتراكي العظيم . وهو الماني الأصل من أهل القرن التاسع عشر ، ومعاصر للمفكر جون ستيوارت ميل . وبصعب علينا اليوم أن نصدق أن أجيالاً بأكملها قد مرت على إعلان اكتشافات ماركس الاقتصادية ، وكان مفكرو العالم وعلمائوه خلالها يسخرون منه ويهزأون بأفكاره . وبسبب هذه الاكتشافات أبعده عن وطنه أقمات منفيًا في إنجلترا .

القيمة ، . وقد شرحها إرنست في بساطة بالغة أذهلتني وهقدت لساني .

وقال إرنست :

- « سوف أدلكم على طريقة تتخلصون بها من الفائض . ألقوا به في البحر . ألقوا كل عام في البحر بما قيمته مئات الملايين من الدولارات من الأحذية والقمح والملابس وكل السلع التجارية . ألا يوجد في هذا حل للمشكلة ؟ ، .

وأجاب مستر كالفين :

« إنه بلا ريب حل للمشكلة . ولكن من السخف أن نتحدث على هذا النحو ، .

وانقض عليه إرنست انقضا الصاعقة قائلا :

« هل هناك شيء أكثر سخفاً عما تدعون إليه بالمحطى الآلات ؟ ..
عما تتادون به في العودة إلى أساليب أجدادكم في عصر ما قبل الطرفان ؟
ما الذي تقترحونه للتخلص من الفائض ؟ . أتم تودون أن تتلافوا
مشكلة الفائض بتجنب إنتاج أي فائض . وما الكيفية التي تقترحونها
لتجنب إنتاج فائض ما ؟ .. بالعودة إلى أسلوب بدائي في الإنتاج ،
إلى أسلوب يشوبه الاضطراب والفوضى ، أسلوب لا يوفر الوقت
ولا يقتصد في التكاليف ، أسلوب يستحيل عليكم أن تنتجوا به
أي فائض ، .

وبلع مستر كالفين ريقه . فقد أصاب إرنست الهدف . وابتلع
ريقه من جديد ، ثم تنحى وقال :

« أنت على حق . وأنا أقف مدانا . فمن السخف أن نعود إلى أساليب

أجدادنا . . ولكن علينا أن نفعل شيئاً . إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا نحن أبناء الطبقة المتوسطة . نحن نرفض الفناء ، وتوثر أن نكون مخفاه ونعود إلى أساليب أجدادنا البدائية . فنحن سنعود إلى مرحلة ما قبل التروستات . سوف نحطم الآلات . فإذا تنوون عمله في هذا الصدد ؟ .

وأجاب إرنست :

• ولكنكم إن تستطيعوا تحطيم الآلات . لن تستطيعوا وقف مجرى التطور وإعادةه إلى الوراثة . ففي مواجهة تقف قوتان ، وكل منهما أقوى من الطبقة المتوسطة . إن كبار الرأسماليين ، وباختصار التروستات ، لن يسمحوا لكم بالعودة إلى الوراثة . فهم لا يريدون تحطيم الآلات . وهناك الطبقة العاملة من ناحية أخرى ، أعظم من التروستات وأكثر قوة . وهي لن تدعم تحطيم الآلات . إن ملكية العالم ، بما فيه من آلات ، محصورة بين التروستات وبين الطبقة العاملة . ذلك هو تخطيط المعركة . إن أيام الفريدين لا يريد تحطيم الآلات . ولكنه يريد امتلاكها . ولا مكان في هذه المعركة للطبقة المتوسطة . إن الطبقة الوسطى قزم بين عملاقين . الأتروون يا أبناء الطبقة المتوسطة المسكينة . . الأتروون أنكم قد علقتم بين حجري الرحي ، لتبدأ عملية طحنكم ؟ .

• لقد وضحت لكم بالمعادلات الرياضية حتمية انهيار النظام الرأسمالي . فحين ينهض كل بلد وبين يديه فائض لا يستطيع استهلاكه في الداخل أو تصديره إلى الخارج . عندئذ ، ينهار النظام الرأسمالي تحت صرح الأرباح الهائلة الذي أقامه النظام لنفسه . وفي ذلك اليوم ، إن يكون هناك أي تدمير للآلات . وسوف يدور الصراع آنذاك حول ملكية الآلات . وإذا حالف النصر العمال ، فإن سبيلكم سوف يكون سهلاً .

وعندئذ تدخل الولايات المتحدة ، ويدخل العالم كله عصرأ جديدا هائلا .
فبدلا من أن تسحق الآلات الحياة ، سوف تحيلها إلى حياة أكثر عدلا
وسعادة ونبلا . وأتم يا أبنا. الطبقة المتوسطة المحتضرة ، سوف تشاركون
العمال إذ لن يكون هناك حينئذ سوى عمال ، عمال تشاركونهم في التوزيع
العادل لمنتجات تنتجها الآلات الرائعة. وسوف يبتدع جميعنا آلات جديدة
أكثر روعة . ولن يكون هناك أى فائض غير مستهلك . لأنه لن يكون
هناك ثمة أرباح .

وسأله مستر كيوالت :

« ولكن لنفرض أن التروستات هي التي انتصرت في هذه المعركة
الدائرة حول ملكية الآلات وامتلاك العالم ؟ » .

فأجابه إرنست :

« عندئذ تسحقون أنتم والعمال ونحن جميعا تحت القدم الحديدية لاستبداد
الأيقل وحشية وفظاعة عن أى استبداد سود صفحات تاريخ الإنسان .
ولسوف تكون القدم الحديدية^(١) اسما ملأنا للتعبير عن ذلك الاستبداد .

وسأله صمت طويل . واستغرقت المائدة كلها في تفكير عميق غير
عادي . ثم قال مستر كالفين :

« - ولكن اشتراكيتك هذه ليست سوى حلم من الأحلام .
ليست إلا مجرد حلم . » .

« - إذن ، سيف أوضح لك شيئا ليس حلاماً . وهذا الشيء . سأدعوه

(١) أول استخدام معروف لهذا الاسم للدلالة على الأولوية ركية .

« الأوليجاركية » . أما أتم فتدعونه « البلوتوقراطية » . وكلانا يعنى نفس الشيء : كبار الرأسماليين أو التروستات ، فلنحاول أن نرى من يمتلك القوة اليوم ؟ . وحتى نصل إلى رأى سليم ، دعونا نستعرض أقسام المجتمع الطبقي .

« توجد في المجتمع ثلاث طبقات كبيرة . فهناك أولا البلوتوقراطية التي تتألف من أصحاب البنوك الأثرياء ، وأقطاب السكك الحديدية ، ومديري الشركات ، وأقطاب التروستات . وهناك ثانيا ، الطبقة المتوسطة ، الطبقة التي تنتمون إليها يا سادتي ، والتي تتألف من المزارعين والتجار وصغار الصناعيين وأصحاب المهن . وهناك ، ثالثا وأخيراً ، البروليتاريا ، الطبقة التي أنتمى إليها . والتي تتألف من عمال يعملون بالأجر (١) .

« أتم لا تستطيعون سوى أن تقرروا بأن ملكية الثروة تشكل اليوم قوة أساسية في الولايات المتحدة . فما نصيب كل من هذه الطبقات الثلاث في ملكية هذه الثروة ؟ هاكم الأرقام . تمتلك البلوتوقراطية من الثروة سبعة وستين مليار دولار . وتمثل البلوتوقراطية ٩٪ من مجموع المشتغلين في الولايات المتحدة ، ومع ذلك تمتلك ٧٠٪ من الثروة القومية . وتمتلك الطبقة المتوسطة أربعة وعشرين مليار دولار . وتمثل ٢٩٪ من مجموع المشتغلين ، بينما تمتلك ٢٥٪ من الثروة القومية . بقيت البروليتاريا . لأنها تمتلك أربعة مليارات . وتمثل ٧٪ من مجموع المشتغلين ، بينما تمتلك ٤٪ من الثروة القومية . ففي أيدي من يا سادتي تتركز القوة ؟ ، .

(١) ان تقسيم ايفرهارد للمجتمع يتفق مع ذلك التقسيم الذي وضعه « لوسين سونيال » ، أحد ثقات علم الاحصاء في ذلك العصر . واستقصى تقديره لأفراد كل هذه الطبقات من احصاء سكان الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، الذي كان كما يلي : الطبقة البلوتوقراطية ٢٥٠.٢٥١ ، الطبقة المتوسطة ٨٤٥.٢٩٨ ، طبقة البروليتاريا ٣٩٣.١٣٧ ، ٢٠٠ .

فأبدى مستر اسمونسين ملاحظته قائلاً :

« من أرقامك نفسها ، تبين أننا معشر أبناء الطبقة المتوسطة أقوى من العمال ، .

ورد عليه إرنست :

« إن دعوتكم لنا بالضعفاء لا تزيدكم قوة في مواجهة قوة البلوتوقراطية.. وفوق ذلك ، أنا لم أنه منكم بعد . فمناك ثمة قوة أعظم من الثورة . وهي أعظم لأنها لا يمكن أن تنتزع . إنها قوتنا ، قوة البروليتاريا . القوة التي تمثل في عضلاتنا ، في أيدينا وهي تدلى بصوتها في الانتخابات أو في أصابعنا وهي تضغط على الزناد . وهذه القوة لا يمكن انتزاعها منا . فهي القوة للبدائية ، وهي قوة وثيقة الصلة بالحياة . إنها القوة التي تتفوق على الثورة ، والتي تعجز الثورة عن انتزاعها .

ولكن قوتكم ليست متماسكة ، ومن السهل أن تنتزع منكم . حتى في هذه الأيام ، شرعت البلوتوقراطية في انتزاعها منكم . وسوف تنتزعها منكم كلية في نهاية الأمر . وعندئذ لن تعودوا أفراداً من الطبقة المتوسطة بل سوف تنحدرون إلينا . سوف تصبحون من البروليتاريا . وأجمل ما في الأمر ، إنكم سوف تزيدون ، حينئذ ، من قوتنا . وسوف تنادى بكم إخوانا . وسنقاتل كنفاً إلى كنف من أجل قضية الإنسانية .

وكما ترون ليس لدى العمال شيء ملوس يجردون منه . فإن نصيبهم من ثروة البلاد تتألف من ملابسهم وأثاث منازلهم ، وفي أحيان نادرة جداً من بيت خال من الأعباء . أما أتم فتمتلكون الثروة الملوسة . تمتلكون أربعة وعشرين ملياراً منها ، وسوف تنتزعها البلوتوقراطية منكم . وهناك بالطبع احتمال كبير في أن تنتزعها البروليتاريا أولاً . الأترون

وضعكم أيها السادة ؟ . إن الطبقة المتوسطة ليست سوى حمل صغير يترنح بين أسد ونمر . فإن لم يفرسكم أحدهما افرسكم الآخر . وإذا ما قضت البلوتوقراطية أولاً . فلن تضى فترة طويلة حتى تكون البروليتاريا قد أجهزت على البلوتوقراطية .

بل إن ثورتكم الحالية ليست مقياساً حقيقياً لقوتكم . إن قوة ثورتكم في هذه اللحظة لا تعدو أن تكون قبلة فارغة . وهذا هو السبب الذي من أجله تطلقون صيحة الحرب ، صيحتكم الواهنة : ولنعمد إلى أساليب آبائنا . فأنتم تدركون ضعف قوتكم . أنتم تعرفون أن قوتكم ليست سوى قبلة فارغة ، وسوف أريكم مدى ضعفها .

أى قوة يملكها المزارعون ؟ . إن أكثر من نصفهم عبيد بموجب هذه الحقيقة ، حقيقة أنهم ليسوا سوى مستأجرين ، أو أفراد رهنوا أرضهم . بل إن جميعهم يرسفون في أغلال العبودية بمقتضى تلك الحقيقة ، حقيقة أن التروستات أصبحت تملك أو تسيطر (فهذا نفس الشيء) على جميع وسائل تسويق المحاصيل ، مثل صوامع التبريد ، والسكك الحديدية ، والروافع الآلية ، وخطوط النقل البحري . وفوق هذا ، تسيطر التروستات على الأسواق . ومن ثم يقف المزارعون بدون قوة . أما بالنسبة لقوتهم في الميدان السيامي وفي أجهزة الحكم ، فسوف أتحدث عنها فيما بعد ، عند الكلام عن قوة الطبقة المتوسطة بجميع فئاتها .

إن التروستات تعنصر المزارعين يوماً بعد يوم ، مثلما اعتصرت مسر كالفين وسائر المشتغلين في صناعة الألبان . يوماً بعد يوم تبتز أرباح التجار بالطريقة نفسها . هل تذكرون كيف استطاع تروست التبغ في ستة شهور أن يعنصر ويبتز أرباح أربعمائة متاجر للتبغ في مدينة نيويورك وحدها ؟ . أين هم مالكو مناجم الفحم السابقون ؟ . أنتم تعرفون اليزم

ولستم في حاجة إلى إجابتي . إن تروست السكك الحديدية يملك أو يسيطر على جميع مناجم فحم الانثراسيت وفحم البيتومين . ألا يملك تروست ستاندرد أويل ،^(١) عشرين من خطوط النقل البحري عبر المحيطات ؟ ألا يسيطر كذلك على منجم النحاس ؟ هذا ، إذا لم نقل شيئاً عن إشرافه على تروست اصهر المعادن ، كمشروع جانبي صغير ؟ . إن هناك في الولايات المتحدة اليلة عشرة آلاف مدينة تضيقها شركات يملكها أو يسيطر عليها تروست ستاندرد أويل . وفي عدد مماثل من المدن ، يهيمن ستاندرد أويل على جميع وسائل المواصلات الكهربائية وسواء ما كان منها يعمل بالمدن ، أو في الضواحي أو ما بين مدينة وأخرى ، فإن جميعها في أيدي ستاندرد أويل . وهكذا انتهى صفار الرأسماليين من هذه الآلاف من المشروعات . أنتم تعرفون ذلك . فقد اتموا بنفس الطريقة التي تتلاشون بها الآن .

وما أشبه حال الصناعات الصغيرة بحال المزارع . فإن صفار الرأسماليين والمزارعين قد جردوا ، سواء بهذه الطريقة أو بتلك ، من حيازتهم الإقطاعية . ومن ثم فإن أصحاب الحرف والفنانين ليسوا في اللحظة الحاضرة سوى أقنان مستعبدين في كل شيء ما خلا الاسم . بينما السياسيون ليسوا سوى خدم وأذئاب . لماذا تعمل يامستر كالفين كل أيامك ولياليك من أجل تنظيم المزارعين مع سائر فئات الطبقة المتوسطة في حزب سياسي جديد ؟ . لأن السياسيين في الأحزاب القديمة لن تكون لهم علاقة بأفكارك الارتدادية . وهم لن يقروك عليها ، لأنهم — كما قلت — خدم وأذئاب للبلوتوقراطية .

تحدثت عن أصحاب الحرف وأهل الفن فقلت عنهم أرقاه وماذا يكونون إذن غير ذلك ؟ فجميع الأساتذة والمبشرين والمحربين ، إنما يحتفظون

(١) ستاندرد أويل وروكفلر — راجع الهامش ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

بوظائفهم لأنهم في خدمة البلوتوقراطية . وتنضمن خدمتهم ترويج آراء ،
لما أنها لا تسيء إلى البلوتوقراطية ، وإما تمتدح تصرفاتها . أما إذا سولت
لهم أنفسهم أن يروجوا آراء تهدد البلوتوقراطية ، لفقدوا وظائفهم . وفي
هذه الحالة — إذا لم يكونوا قد ادخروا قرشهم الأبيض ليومهم الأسود
سوف ينحدرون إلى صفوف البروليتاريا — فإما أن ينتهي أمرهم ، وإما
ينغدوا مثيرين للعمال . ولا تنسوا أن الصحافة ، ومنبر الوعظ والجامعة
تقود الرأي العام في قالب خاص ، وتحدد الاتجاه الفكري للأمة . أما
أهل الفن فليست مهمتهم سوى تسهيل اللذة والرذيلة للبلوتوقراطية ،
وإرضاء أذواقها الخسيسة .

ولكن الثروة في حد ذاتها السلطة الحقيقية . إنها وسيلة إلى السلطة ،
إلى السلطة الحكومية . فن الذي يهيمن اليوم على الحكومة ؟ . هل هي
البروليتاريا بملايينها العشرين في مختلف الصناعات ؟ . حتى أنتم تضحكون
على هذا الرأي . أي الطبقة المتوسطة بملايينها الثمانية في مختلف الأعمال ؟ .
إنها لا تزدد على البروليتاريا . من الذي يهيمن إذن على الحكومة ؟ إنها
البلوتوقراطية بأعضائها القلائل البالغ عددهم ربع مليون فقط . ولكن هذا
الربع مليون من الأفراد لا يسيطرون على الحكومة ، رغم أنهم يسدون
إليها خدمات جليلة . إن ما يسيطر على الحكومة هو عقل البلوتوقراطية .
ويتألف هذا العقل من سبع^(١) مجموعات صغيرة وقوية من الرجال .
ولا تنسوا أن هذه المجموعات تعمل اليوم عمليا في وحدة مؤتلفة .

(١) كان الناس حتى عام ١٩٠٧ ، يعتبرون أن السيطرة على البلاد
تتمثل في إحدى عشرة مجموعة . ولكن هذا الرقم تناقص باتحاد مجموعات
السكك الحديدية الخمس في اندماج ضخم لجميع السكك الحديدية .
وكانت هذه المجموعات الخمس بحلفائها الماليين والسياسيين كالاتي :
(١) مجموعة جيمس ج . هيل التي تسيطر على الشمال الغربي (٢) مجموعة =

دعوني أوضح لكم مدى قوة واحدة من هذه المجموعات ، مجموعة السكك الحديدية ، إنها تستخدم أربعين ألف محام لتقهر كل من يتقدم من الشعب إلى المحاكم . إنها تصدر آلافا لاتحصى من التصريحات المجانية للقضاة ، ولأصحاب البنوك ، والمحربين ، ورجال الدين ، وأساتذة الجامعات ، وأعضاء المجالس التشريعية ، وأعضاء الكونجرس ، إنها تحتفظ باستراحات ضخمة (١) في عاصمة كل ولاية ، وفي العاصمة الاتحادية . وهي تستخدم في جميع المدن جيشاً ضخماً من المحامين المشاغبين وصغار السياسيين . وتتنحصر مهمتهم في حضور اجتماعات الناخبين ، وانتخاب المندوبين والاتصال بالمخلفين ورشوة القضاة . والعمل بكل وسيلة لخدمة مصالح هذه المجموعة (٢) .

« إنني لم أقم أيها السادة ، إلا برسم الخطوط الأساسية لقوة مجموعة

== سكك حديد بنسلفانيا ، ومديرها المالى « شيف » ومعها مؤسسات مصرفية ضخمة في فيلاديلفيا ونيويورك . (٣) مجموعة هاريمان ، ومستشارها « فريك » وموجهها السياسى « اوديل » ، والتي تسيطر على خطوط النقل لوسط القارة ، والجنوب الغربى وجنوب المحيط الهادى . (٤) أسرة جولد لخدمات السكك الحديدية . (٥) مجموعة مور « وزايد » وليدز المعروفة باسم « جماعة روك ايلاند » . وقد نشأت هذه الأوليجاركيات الخمس القوية نتيجة المنافسة وما ترتب عليها من تصادم المصالح واجتازت الطريق المحتوم نحو الاندماج .

(١) كانت الاستراحة منشأة غريبة لرشوة اعضاء المجالس التشريعية وازهابهم وفسادهم ، أولئك الذين يفترض فيهم ان يمثلوا مصالح الشعب .

١٢. قبل خطاب ايفرهارد بعشر سنوات نشرت لجنة الشئون التجارية في نيويورك تقريراً ، نقتطف منه ما يلى : « ان السكك الحديدية تسيطر سيطرة تامة على المجالس التشريعية في معظم ولايات الاتحاد . فهم ينصبون ويعزلون اعضاء مجلس الشيوخ واهضاء الكونجرس وحكام الولايات . وهم في الواقع دكتاتوريو السياسة الحكومية في الولايات المتحدة » .

واحدة من المجموعات السبع ، التي تولف عقل البلوتوقراطية (١) . إن ثروتكم البالغة أربعة وعشرين مليار دولار ، لا تعطىكم سوى ما قيمته خمسة

(١) استهل روكفلر حياته كأحد أبناء البروليتاريا . وعن طريق الخداع والتقتير نجح في انشاء أول تروست كامل ، والذي يعرف باسم ستانلرد أويل . ولسنا نجد هنا مفرا من أن نعطي هذه الصفحة البارزة من تاريخ هذه الأيام ، حتى نوضح كيف استطاعت الحاجة الى إعادة استثمار فائض أموال ستانلرد أويل ، أن تسحق صفار الرأسماليين ، وكيف عجلت من انهيار النظام الرأسمالي . فقد كان « دافيد جراهام فيليبس » كاتباً راديكالياً من كتاب العصر . فنشر في صحيفة ساترداي إيفنينج بوست بعدها الصادر في ٤ أكتوبر ١٩٠٢ ، مقالا نقتطف منه بضع فقرات . ولم تصلنا من الصحيفة سوى هذه النسخة الفريدة ، ومع ذلك يبدو من مظهرها ومضمونها أنها صحيفة شعبية واسعة الانتشار . وفيما يلي فقرات المقال :

« منذ عشر سنوات تقريبا قدر احد الثقات البارزين دخل روكفلر بثلاثين مليون دولار . فقد بلغ أقصى حدود الربح في صناعة البترول . وكانت مبالغ ضخمة ، أكثر من مليوني دولار - تندفق شهريا على جون دايفسون روكفلر وحده . وهكذا تفاقمت مشكلة إعادة استثمار الأموال وغدت كابوساً لآل روكفلر . فقد كان دخل البترول يتضخم ويتضخم ، بينما كان مجال الاستثمارات الضخمة محدوداً ، أكثر مما هو محدود اليوم . ومن ثم شرع آل روكفلر يتفرعون من صناعة البترول الى مجالات أخرى ، دون أن تحفزهم الى ذلك شهوة خاصة الى مزيد من الأرباح . بل هم مضطرون الى ذلك . فقد جرفتهم هذه الموجة العارمة من الثروة التي اجتذبوا اليها بما لدى احتكارهم من قوة جاذبية لا تقاوم . فانشأوا هيئة من الباحثين عن افضل السبل لاستثمار فائض أموالهم . وقد قيل ان رئيس هذه الهيئة كان يتقاضى راتباً قدره ١٢٥ ألف دولار في العام . وشن آل روكفلر أول غارة ضخمة من غاراتهم على حقل السكك الحديدية . فما ان اشرف عام ١٨٩٥ ، حتى كانوا قد سيطروا على خمس خطوط السكك الحديدية كلها في الولايات المتحدة . فما الذي يمتلكونه اليوم او يسيطرون عليه ؛ انهم يسيطرون على جميع السكك الحديدية الكبرى في نيويورك في الشمال والشرق والغرب ، ما عدا واحدة فقط ، يساهمون فيها ببضعة ملايين ويساهمون في معظم السكك الحديدية المتفرعة من شيكاغو . ويسيظرون على عدد من الأجهزة الممتدة الى المحيط الهادى . ان أصواتهم هي التي تضىء على « مستر مورجان » هذه السلطة ، رغم اننا نستطيع ان نضيف انهم اُحوج الى عقله منه الى =

وعشرون سنتا من السلطة الحكومية إنها قبلة جوفاء وسوف تنزع منكم في الأيام القريبة . فالبلوتوقراطية اليوم تمتلك السلطة كلها بين أيديها . إنها اليوم تسن القوانين لأنها تملك مجلس الشيوخ ، والكونغرس والمحاكم

= اصواتهم فان تضامن الاثنيين يؤلف اليوم « وحدة المصالح » على نطاق واسع .

« ولكن السكك الحديدية لم تكن بقادرة وحدها على ان تمتص سيول ذهبهم العارمة . وسرعان ما تصاعد دخل جون د . روكفلر من مليون ونصف مليون دولار في الشهر الى اربعة ثم خمسة ثم الى ستة ملايين في الشهر ، ثم الى خمسة وسبعين مليون دولار في العام . وبلغ غاز الاضاءة اقصى حدود الربح . وكانت اعادة استثمار الدخل تضيف الى ثروة روكفلر حفنة مالية ضئيلة مؤلفة من عدة ملايين دولار سنويا . واقتحم آل روكفلر ميدان غاز الاستصباح والكهرباء ، حين نمت هاتان الصناعتان وبلغتا المرحلة الآمنة في الاستثمار . واليوم يتحتم على جزء كبير من الشعب الأمريكي ان يشرع في مضاعفة ثروة آل روكفلر ، كلما جنحت الشمس نحو الغروب ، بصرف النظر عن وسيلة الاضاءة التي يستخدمونها كذلك انطلقوا الى مضمار رهن المزارع . وقد قيل ، انه حين ادى الازدهار الذي عرفته البلاد منذ بضع سنوات الى تمكين المزارعين من تحرير مزارعهم المرهونة ، طفرت الدموع من عيني جون د . روكفلر . فان الثمانية ملايين دولار التي اعتقد أنه اعتنى بها طوال سنوات كي تعود عليه بمقدار ضخم من الربا ، ما لبثت ان طرحت فجأة على عتبة بابه ، تستصرخه ان يبحث عن مأموى جديد لها . واضيفت الى حصيلة همومه هم جديد ، في محاولة البحث عن أماكن يستثمر فيه ذرية ارباحه عن البترول ، وذرية هذه الذرية ، وذرية ذرية هذه الذرية ، وكانت هذه الهموم الجديدة اكثر من ان تحتملها رباطة جأش رجل يعاني سوء الهضم .

ومضى آل روكفلر الى المناجم - مناجم الحديد والفحم الحجري والنحاس والرصاص ، الى شركات صناعية اخرى ، الى خطوط المترو الى السندات الوطنية وسندات الولايات والبلديات ، الى البواخر والزوارق البخارية ووسائل البرق ، الى العقارات وناطحات السحاب والقصور والفنادق ومجمعات الأعمال التجارية ، الى شركات التأمين على الحياة ، الى البنوك . وما هي الا فترة قصيرة ، حتى لم يبق مجال من مجالات الصناعة الا وتستثمر فيه ملايينهم .

والمجالس التشريعية في الولايات المتحدة . ليس هذا حُجُب ، بل لا بد من وجود قوة وراء كل قانون لتنفيذه . إن البلوتوقراطية اليوم تسن القانون ، وتنفذه وتحت إمرتها البوليس والجيش والأسطول وأخيراً للشييا التي هي أتم وأنا وكل واحد منا .

ولم يحدث بعد ذلك سوى مناقشة صغيرة وانفض على إثرها العشاء . كانوا جميعهم هادئين مغلوبين على أمرهم . ودعوا بعضهم بعضاً بصوت خفيض . فقد بدوا وكأنهم مذعورين من رؤيا المستقبل التي رأوها .

وقال مستر كالفين :

« إن الوضع خطير حقاً وليس لي سوى اعتراض طفيف على الطريقة التي صورت بها الوضع . فقط أنا لا أقرك على رأيك حول مصير الطبقة المتوسطة فنحن سوف نعيش ، وسوف نقهر التروستات ونقضي عليها . »

وينك روكفلر ، بنك « ذي ناشيونال سيتي » ، هو في حد ذاته أكبر البنوك في الولايات المتحدة . ولا يزه في العالم كله أي بنك آخر سوى بنك انجلترا وبنك فرنسا . ان متوسط الودائع فيه يزيد على مائة مليون دولار في اليوم الواحد . وهو يهيمن على سوق القروض في « وول ستريت » وعلى سوق الأسهم . ولكن ليس هذا البنك هو البنك الوحيد . بل هو رأس سلسلة من بنوك آل روكفلر . وهذه السلسلة تتضمن أربعة عشر بنكاً وتروستا في مدينة نيويورك ، وبنوك على درجة كبيرة من القوة والنفوذ في جميع المراكز المالية في البلاد .

ان جون د . روكفلر يملك من أسهم ستاندرد أويل ما تتراوح قيمته حسب أسعار السوق المالية بين أربعمئة وخمسمئة مليون دولار . ويملك ما قيمته مائة مليون دولار في تروست ، الصلب ، ومثل تلك القيمة في مؤسسة بمفردها من مؤسسات السكك الحديدية القريبة ، ونصف هذه القيمة في مؤسسة أخرى . وهكذا وهكذا وهلم جرا ، حتى يتعب العقل من الاحصاء والتعداد . فقد كان دخله في العام الماضي نحو مائة مليون دولار . وهناك شك في ان تصل دخول آل روتشيلد مجتمعين الى مثل هذا الرقم . انه رقم يتصاعد في سرعة خاطفة .

وأكمل إرنست كلامه :

« ونعود إلى أساليب آبائنا ،

فأجابه مستر كالفين في كآبة :

« أجل ، وأنا أعرف أن هذا نوع من تدمير الآلات وأنه تصرف
سخيف . ولكن الحياة تبدو اليوم سخيقة بما تدبره البلوتوقراطية من
مكائد . وعلى أية حال فإن أسلوبنا الذي يتصف بمشابهته لتعطيم الآلات
أسلوب عملي ويمكن تحقيقه ، بعكس الحلم الذي تحكم به . إن حلمك
الاشتراكي . . . حسنا ، إنه مجرد حلم ولا تستطيع أن تتبعك فيه .

وقال إرنست في كآبة وهو يضافحه مودعا :

« كم كنت أود أيها الزملاء لو أنكم تعرفون شيئا عن التطور ، وعن
علم الاجتماع . فلو كنتم تعرفون شيئا ، لو فرنا على أنفسنا كل هذا العناء ،

الفصل العاشر

الدوامة

وبعد مأدبة رجال الأعمال ، تعاقبت الأحداث المروعة مثل قصف الرعد ،
حادثا تلو حادث : فأنا ، أنا التي عشت طوال أيام حياتي وادعة
مسألة في المدينة الجامعية الهادئة ، أجد نفسي بكل شئوني الشخصية منجرفة
نحو دوامة الشئون العالمية الهائلة . ليست أدري ما الذي أحالني إلى ثورية .
هل هو حبي لإرنست ، أم هي النظرة الواضحة التي أكسبني إياها للمجتمع
الذي عشت فيه ؟ لا أدري ، ولكن كل ما أعرفه أنني أصبحت ثورية .
وقاصت نفسي في دوامة من الأحداث كان من المستحيل أن أتصورها
متذ ثلاثة أشهر فقط

إن الأزمة التي ألمت بمصائري ، حدثت في نفس الوقت الذي ألمت
بالمجتمع أزمات ضخام : فأولا ، وقبل كل شيء ، طرد أبي من الجامعة : أوه
إنه لم يطرد بمعنى الكلمة ، بل طلب منه أن يستقيل . هذا كل ما في
الامر ، ولم يكن هذا في حد ذاته أمراً ذا بال ، فإن أبي ، في الواقع ، قد تلقى
هذا النبأ بالابتهاج . وابتهج بصفة خاصة ، لأن نشر كتابه في الاقتصاد
والتعليم ، قد عجل بطرده من الجامعة . فإن طرده من الجامعة قد أثبت
بالبرهان وجهة نظره التي ناضل من أجلها . وهل هناك دليل أفضل من
ذلك يمكن أن يقدم لإثبات أن الطبقة الرأسمالية تسيطر على التعليم ؟ .

ولكن هذا البرهان لم يأت قط بنتيجة ما . فما عرف أحد أن أبي
قد أجبر على الاستقالة . إذ كان عالماً بارزاً . وإعلان مثل هذا النبأ ، مضافاً
إليه السبب الذي أكرهه من أجله على الاستقالة ، كان لا بد وأن يحدث .

موجة هياج تجتاح العالم كله . ولكن الصحف أغدقت عليه بالثناء والتكريم ، وامتدحته ، إذ أزاح عن نفسه عناء المحاضرات ليكرس كل وقته للبحث العلمي .

وضحك أبي في بادئ الأمر . ثم استبد به الغضب ، غضب استخدم له علاجاً مقويًا ، ثم أتت عملية خنق كتابه . وتمت هذه العملية في الخفاء ، وبشكل لم نستطع معه في بادئ الأمر أن ندرك شيئًا . فإن نشر الكتاب قد أحدث على الفور بعض الضجة في البلاد . وحملت الصحافة الرأسمالية على أبي في عبارات مهذبة ، وفخاها أنه بما يدعو إلى الرثاء أن يعمد عالم عظيم إلى هجرة حقل اختصاصه ، ويقترح ملكة علم الاجتماع ، ملكة لا يعرف عنها شيئًا ، لم يلبث أن تاه في مجاهلها . واستمرت هذا الحملة أسبوعًا ، بينما كان أبي يضحك في فتور ، ويقول إن الكتاب قد مس موضعاً مؤلماً في جسد الرأسمالية . وبقية الصحف اليومية والمجلات النقدية عن أن تشير إلى الكتاب مجرد إشارة واحدة . كذلك وفي جناية مماثلة ، اختفى الكتاب من الأسواق ، فلم يعد في الإمكان الحصول على نسخة واحدة من المكتبات . وكتب أبي إلى الناشرين يسألهم ، فأجابوه بأن أكليشيات وأصول الكتاب قد أتلفت دون قصد . وأعقب ذلك مراسلة غير مقنعة . حتى إذا ما دفع الناشرين على اتخاذ موقف صريح ، قرروا أنهم لا يجدون سبيلاً إلى تجميع حروف الكتاب من جديد ، ولكنهم على استعداد للتنازل عن حقوقهم في الكتاب .

وقال إرنست :

« وإن تجد في البلاد داراً أخرى للنشر تجرؤ على لمسه . ولو كنت مكانك لتواريت عن الأنظار الآن وعلى الفور . فأنت لم تصل بعد إلا إلى تذوق طعم القدم الحديدية ، » .

ولكن أبي لم يكن سوى عالم ، ومن ثم لم يؤمن بسرعة الوثوب إلى الاستنتاجات . فالتجربة العملية التي يجربها في العمل لم يكن يعتبرها تجربة إذا لم تجر بكامل تفاصيلها . وهكذا طرق في صبر بالغ أبواب دور النشر جميعها ، ولكنه لم ينل منها سوى جملة أعذار ، ولم تنظر أي منها في الكتاب .

وحين اقتنع والدي بأن الكتاب قد صدر عمليا ، حاول أن ينشر هذه الواقعة في الصحف ، ولكنها تجاهلت رسائله . ووجد أبي فرصة في اجتماع سياسي عقده الاشتراكيون ، وشهده عدد كبير من المراسلين ، فقد نهض وروى قصة مصادرة الكتاب . وفي اليوم التالي ، ضحك أبي عندما طالع الصحف ، ثم استبد به الغضب إلى درجة استنفد فيها جميع وسائل العلاج المقوى ، . فإن الصحف لم تذكر الكتاب بإشارة واحدة ، ولكننا روت ما قاله علي نحو مشوه ، إذ حرفت كلماته وعباراته من سياق الكلام ، وأحالت خطابه الذي أبدى فيه ملاحظات متحفظة موزونة إلى نباح موضوعي . وفعلت ذلك علي نحو بارع . وما زلت أذكر بسفاه خاصة مثلا من هذا التحريف ، فقد استخدم أبي عبارة « الثورة الاجتماعية » ، وما كان من المراسل سوى أن اكتفى بحذف كلمة « الاجتماعية » ، وضمير هذه العبارات عبر البلاد في برقية « للاسوشيتدبريس » . ومن جميع أنحاء البلاد انبعثت صيحة دعر . فقد دهغ أبي بالنهيلية والفوضوية . وفي إحدى الصور الكاريكاتورية التي تناقلتها الصحف على نطاق واسع ، ظهر أبي وهو حراة حمراء على رأس حشد من الدهماء ، من رجال ذوى شعور مسترسلة ، وعيون ضارية ويحملون في أيديهم مشاعل وخناجر وقتابل من الديناميت .

لقد حملت عليه الصحف واتهمته بالفوضوية . وشنت عليه هجوما رهيباً في مقالات رئيسية طويلة سفينة . وبدأت تلح إلى إصابته بانهيار

عقلي . وقد قال إرنست إن هذا السلوك الذي تتبعه الصحافة الرأسمالية ليس شيئاً جديداً . فقد جرت العادة ، كما قال ، بتوجيه المراسلين إلى جميع الاجتماعات الاشتراكية ، لمجرد تحريف ما يقال فيها ، وتشويه ما يحدث فيها ، بغرض بث الرعب في صفوف الطبقة المتوسطة ، وصرف أنظارها عن أية إمكانية للتحالف مع البروليتاريا . وفي مرات عديدة ، حذر إرنست أبي ودعاها أن يكف عن القتال ، ويتوارى عن الأنظار .

وعلى أية حال ؛ واصلت الصحافة الاشتراكية القتال . فأصبح معروفاً لدى قراء الأوساط العمالية بأن الكتاب قد صودر . ولكن هذه المعرفة لم تتمدد حدود الطبقة العاملة . ثم إن دار دعوة إلى العقل ، وهي دار نشر اشتراكية اتفقت مع أبي على إصدار الكتاب . وتهلكت أساير أبي . بينما استبد بإرنست الذعر ، وقال في إصرار :

نحن نقف على شفا المجهول . إن أشياء ضخمة تحدث في الخفاء حولنا ، ولكن نستطيع أن نشعر بها . فنحن لا نعرف ماهية هذه الأشياء ، ولكنها تحدث على أية حال . إن كيان المجتمع ليرتعد أمامها . لا تسلى ، فأنا نفسى لا أدري شيئاً . ولكن لا بد أن يتبلور من تدفق هذه الأحداث في المجتمع شيء ما . بل هو يتبلور الآن . فإن مصادرة كتابك ليست سوى مقدمة ، سوف تتبلور منها الأحداث القادمة . إذ ما عدد الكتب التي صودرت حتى الآن ؟ ليست لدينا أية فكرة . فنحن نحى في الظلام ، ولا نملك وسيلة إلا معرفة الأمور . نرقب الخطوة التالية ، وانتظر خنق الصحف الاشتراكية وإغلاق دور نشرها . وأخشى أن أقول إنها على وشك الحدوث . فنحن مقبلون على إخماد أنفسنا .

كان إرنست قد جس نبض الأحداث عن قرب ، وعلى نحو أكثر دقة من سائر الاشتراكيين . فلم يمض يومان ، حتى سُددت الضربة الأولى .

إذ كانت مجلة « دعوة إلى العقل » تصدر أسبوعية . وكان متوسط توزيعها يصل في أوساط البروليتاريا إلى سبعمائة وخمسين ألف نسخة . بل كثيراً ما كانت تصدر طبعات خاصة ، يتراوح عددها ما بين مليونين وخمسة ملايين نسخة . وكان يقوم بنفقات هذه الطبعات الضخمة ، ويتولى توزيعها جيش صغير من العمال المتطوعين ، انضوى تحت لواء « الدعوة » . فإذا بالضربة الأولى توجه إلى هذه الطبعات الخاصة . وكانت ضربة ساحقة ، فقد أصدرت هيئة البريد قراراً تعسفياً أعلنت فيه أن هذه الطبعات الخاصة غير دورية . ولهذا السبب امتنعت عن توزيعها بالبريد .

وبعد مضي أسبوع ، حكمت هيئة البريد على المجلة بأنها مشاغبة ومثيرة للفتنة . وقررت حظر توزيعها بتاتاً بالبريد . وكانت هذه الخطوة ضربة رهيبية للدعاية الاشتراكية . واستماتت مجلة « الدعوة » ، فرسمت خطة للوصول إلى المشتركين فيها عن طريق شركات النقل السريع ، ولكن هذه الشركات رفضت توصيلها . وكانت هذه هي نهاية « الدعوة » ، وإن لم تكن نهايتها الأخيرة . فقد أعدت عدتها لمواصلة نشر الكتب . وبالفعل كانت هناك عشرون ألف نسخة من كتاب أبي رهن التجليد ، بينما كانت المطابع تطبع نسخاً إضافية . وجفأة ، ودون سابق إنذار ، قامت جماعة من الغوغاء ، تنشدهم أناشيد وطنية تحت علم أمريكي خفاق ، وأضرمت النار في دار « الدعوة » ، فأنت على آخرها .

وكانت مدينة « جيرارد » ، في ذلك الوقت ، مدينة آمنة هادئة في ولاية « كنساس » . فلم تحدث البتة أية اضطرابات عمالية . وكانت « الدعوة » تدفع أجور عمالها حسبما قرر اتحاد العمال . وكانت في الحقيقة العمود الفقري للمدينة ، إذ أتاحت فرص العمل لمئات الرجال والنساء . ومن ثم لم تشكل جماعة الغوغاء من أبناء مدينة جيرارد ، ولكن هذه الجماعة خرجت — فيما يبدو — من تحت الأرض . حتى إذا ما أنجزت مهمتها — طبقاً لما هو

حرسوم لها ، عادت إلى مكانها تحت الأرض . وقد رأى إرنست في هذا الحدث مضموناً يندر بأوخم العواقب لأحداث مشنومة .

فقد قال :

« إن جماعات « المئات السود »^(١) يجرى تنظيمها اليوم في الولايات المتحدة . وليست هذه سوى البداية . فلسوف نرى من أمثالها جماعات عديدة . إذ بدأ القوم الحديدية يتسم بالجسارة . »

وهكذا انتهى كتاب أبي إلى هذا المصير . وفي الأيام التي تلت ، قدر لنا أن نرى جماعات « المئات السود » مرات كثيرة . وأسبوعاً بعد أسبوع ، كنا نسمع عن حجز مزيد من الصحف الاشتراكية ومنع إرسالها بالبريد . وفي مناسبات عدة ، حطمت جماعات « المئات السود » المطابع الاشتراكية . وبالطبع ، التزمت صحف البلاد بالسياسة الرجعية للطبقة الحاكمة . فإذا بها تشهر بالصحف الاشتراكية التي حطمت دورها ، وتشوه موقفها . بينما قدمت « المئات السود » بوصفهم وطنيين حقيقيين ، ومنقذين للجمع . وكان كل هذا التشويه مقنعاً ، حتى إن بعض القساوسة المخلصين أثنوا على « المئات السود » من فوق منابر الوعظ . وفي الوقت نفسه أبدوا أسفهم على ضرورة الالتجاء إلى العنف .

كان التاريخ يسرع خطاه . واقترب موعد الانتخابات . وورشح الحزب الاشتراكي إرنست لعضوية الكونغرس . وكانت فرصة نجاحه

(١) كانت المئات السود "Black Hundreds" جماعات رجعية من الغوغاء نظمتها الأوتوقراطية المحتضرة في أثناء الثورة الروسية . وقد هاجمت هذه العصابات الرجعية الجماعات الثورية . بل كانت تلجأ إذا ما اقتضت الضرورة - إلى الإخلال بالأمن العام وتحطيم الممتلكات ، حتى تعطى للأوتوقراطية ذريعة تتلذع بها في استدعاء القوازيق .

مواتية للغاية . فقد تم من قبل سحق إضراب عمال الأتوبيس في سانت فرانسيسكو . وأعقب ذلك سحق إضراب سائقي العربات كذلك . وكانت هاتان المرئيتان كارثة ضخمة على الحركة العمالية المنظمة . فإن اتحاد عمال المرافئ ، متضامناً مع حلفائه ، عمال صناعات البناء ، قد أيد إضراب سائقي العربات . ولكن تم سحق جميع هؤلاء العمال على نحو شائن . كان إضراباً دائماً . وحطم رجال الشرطة بهراواتهم رهوساً لا تحصى . وتضمنت قائمة القتلى عدداً متزايداً حين فتحت إحدى المدافع الرشاشة نيرانها على المضربين ، من مستودعات شركة « مارسيدن ديلفرى » .

وترتب على ذلك أن ارتسمت على وجوه الرجال أمارات الكآبة ، واستبدت شهوة الانتقام ، فقد تعطشوا إلى سفك الدماء وسعوا إلى النار . وأصبحوا على أتم استعداد للسعى وراء النار عن طريق العمل السياسى ، بعد ما لاقوا الهزيمة فى ميدانهم المختار . فهم ما زالوا محتفظين بتنظيمهم العمالى . وهذا ما منحهم قوة متزايدة فى الصراع السياسى الدائر . وهكذا تعاضم حظ إرنست فى نجاحه فى الانتخابات أكثر فأكثر . ويوما بعد يوم ، تعاقبت الاتحادات فى إعلان تأييدها للاشتراكيين . حتى إن إرنست قد ضحك ، حين انحاز إلى صفهم مساعدو متعدي الجنائز ، وعمال تنظيف الدجاج المذبوح . واتسم العمال بالعناد . فبينما توافدوا على الاجتماعات الاشتراكية بحماس مجنون ، صهوا آذانهم عن المكائد التى دبرها سياسيو الأحزاب البالية . وعادة ما كان يستقبل خطباء هذا الإضراب فى قاعات خالية من المستمعين . وفى أحيان نادرة كانوا يجدون فى انتظارهم حشوداً تملأ هذه القاعات وتتصرف بخشونة ، حتى اضطروا أكثر من مرة إلى استدعاء قوات احتياطية من رجال البوليس .

كان التاريخ يسرع خطاه . واهتز الهواء بوقع أشياء تحدث وتوعد .

فقد أشرفت البلاد على حافة أزمة^(١) نشأت عن تعاقب سنوات مزدهرة ، حيث أصبح تصدير الفائض غير المستهلك إلى الخارج أمراً صعباً على نحو متزايد . واختصرت الصناعات من ساعات العمل . في عدد كبير من المصانع ريثما يتم تصريف الفائض ، بينما اقتطعت من الأجور ذات اليمين وذات اليسار .

وبالمثل ، تم سحق الإضراب العظيم لليبكانيكين . فقهزم متناً ألف ميكانيكي متحالفين مع نصف مليون عامل في صناعات الأشغال المعدنية ، في إضراب دام ، أنزل بالولايات المتحدة تخريباً لم تره من قبل . إذ نشبت معارك محتدمة مع جيوش صغيرة من محطمي الإضرابات^(٢) المسلحين ، والتي أنزلتها منظمات المهنيين إلى الميدان . وظهرت جماعات «المئات السود» في عشرات الأماكن المتفرقة تحطم في الممتلكات . وترتب على ذلك ، استدعاء قوة مؤلفة من مائة ألف جندي من القوات النظامية للولايات المتحدة لتضع نهاية مخيفة للوضع كله . فقد أعدم عدد من قادة العمال . وحكم

(١) كانت فترات الأزمة هذه ، في ظل النظام الرأسمالي ، محتومة بقدر ما كانت سخيفة . فدائماً ما كان الازدهار يعود على البلاد بكارثة . ويرجع هذا - بالطبع - إلى تكديس الأرباح غير المستهلكة .

(٢) محطمو الإضرابات : كان هؤلاء ، من ناحية الهدف والتطبيق العملي ، وكل شيء ما عدا الاسم ، فئة خاصة من جنود الرأسماليين . كانوا منظمين تنظيمياً دقيقاً ، ومسلحين تسليحاً كافياً ، وعلى أهبة دائمة للانتقال في قطارات خاصة إلى أية بقعة من البلاد ، لضرب فيها الأعمال أو إغلاق الرأسماليين أبواب المصانع في وجوههم . وقد ساعدت هذه الفترات الغريبة على خلق هذا المشهد المذهل الذي يرى فيه « فارلي » وهو قائد مشهور من قادة محطمي الإضرابات ، يطوف في الولايات المتحدة عام ١٩٠٦ على متن قطارات خاصة من نيويورك شرقاً إلى سان فرانسيسكو غرباً ، على رأس جيش مؤلف من ألفين وخمسمائة رجل كامل العدة والسلاح ، لقمع إضراب سائقي السيارات في سان فرانسيسكو . ومثل هذا العمل خرق صريح لقوانين البلاد . ولكن هذا التصرف ، وآلاف من التشرفات المشابهة ، دون أن يعاقب المسؤولين عنها يوضح كيف كان القضاء في تلك الأيام صنيعة للبلوتوقراطية .

بالسجن على كثيرين منهم ، بينما حشر آلاف من المضربين في صفوف داخل حظائر الثيران^(١) وهناك أساء الجنود معاملتهم على نحو بغيض .

كان لابد الآن من دفع ثمن سنوات الازدهار . فقد كانت الأسواق كلها متخمة . وعانت جميعها هبوطا في الأسعار . وفي خضم الانهيار العام للأسعار هبط سعر العمل على نحو أسرع من جميع الأسعار . وعمت البلاد النزاعات في مجال الصناعة . وإضراب العمال هنا وهناك ، وفي كل مكان . وحيثما خلى مجال مامن لإضراب ، فلا يعنى هذا سوى أن الرأسماليين قد سبق لهم أن طردوا العمال من هذا المجال . وامتلات الصحف بقصص العنف والدم . ولعبت جماعات «المئات السود» دورها في كل تلك الأحداث . فقد وكلت إليها مهمة إحداث الشغب وإشعال الحرائق وإتلاف الممتلكات ، بلا حساب وأحسن أداء مهمتها . ونزل الجيش النظامى برمته إلى الميدان ، فقد اقتضت أعمال «المئات السود»^(٢) نزوله . وتحولت جميع المدن إلى

(١) حين اضرب عمال المناجم في « ايداهو » في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، شاءت المصادفة أن تجس قوات الجيش عددا كبيرا من المضربين في حظيرة ثيران . ومنذ ذلك الحين استمر هذا العمل مقرونا باسمه خلال القرن العشرين .

(٢) لم تستورد الفكرة من روسيا بل استوردنا الاسم فقط . فقد نشأت جماعات « المئات السود » كامتداد للعملاء السريين العاملين في خدمة الرأسماليين ، ونبتت فكرة استخدامها من خلال نضالات العمال في القرن التاسع عشر . وهذه حقيقة لا تحتمل المناقشة . ونحن نستند في ذلك الى مصدر موثوق به هو : كارول د . دوايت « مفوض العمل في الولايات المتحدة » . فقد أعلن في كتاب له بعنوان « معارك العمال » هذه الفقرة : « في بعض الاضرابات التاريخية الكبرى ، عمد أصحاب المصانع أنفسهم الى التحريض على أعمال العنف » . وكثيرا ما كان أصحاب المصانع يحضون العمال على الاضراب حتى يتخلصوا من فائض السلع المتراكم لديهم . ولم يتورع عملاؤهم عن احراق عربات الشحن خلال اضرابات عمال السكك الحديدية بهدف تعميم الفوضى . ونشأت جماعات « المئات السود » من هؤلاء العملاء السريين . وأصبحت هذه الجماعات بدورها . وفيما بعد ، سلاح الاحتكارية الرهيبة ، ألا وهو العملاء المحرضون .

معسكرات شائكة . وصرعوا العمال بالرصاص كالكلاب . وعزز محطمو الإضرابات صفوفهم بأفراد جديدة من جيش العاطلين . وما إن انهزم محطمو الإضرابات أمام اتحاد العمال ، حتى تحركت القوات النظامية وسحقت هذه الاتحادات . ثم كانت هناك الميليشيا . وحتى هذه اللحظة لم تكن هناك ضرورة للاتجاه إلى القانون السرى للميليشيا . إنما أنزلت الميليشيا النظامية فحسب إلى الميدان ، وأطلقت في كل مكان . وفي هذه الفترة من الإرهاب عززت الحكومة جيشها بزيادة بلغت مائة ألف جندي .

لم يتلق العمال قط مثل هذه الضربة الماحقة ، فلأول مرة ، ألقي أقطاب الصناعة الاحتكاريون بكل ثقلهم ، في مواجهة الإخلال الذي أحدثته منظمات المهنيين . وهي تناضل من أجل بقائها . فقد كانت هذه المنظمات خاصة بالطبقة المتوسطة . ولكنها الآن ، بعد أن اضطرتها الأزمة وكساد الأسواق ، وبعد أن أيدها أقطاب الصناعة ، أنزلت بالحركة العمالية المنظمة هزيمة رهيبة وحاسمة . كان تحالفا بالغ القوة ولكن سرعان ما أدركت الطبقة المتوسطة أن هذا التحالف ليس سوى تحالف بين أسد وحمل .

وباتت الحركة العمالية منجهمه الوجه ، مضرجة في الدماء ، ولكنها كانت تعاني مرارة الهزيمة . ومع ذلك ، لم تضع هزيمتها نهاية للأزمة . فإن البنوك ، وهي تؤلف أم قوة من قوى الاحتكارية ، استمرت في تضيق حجم الائتمان . وأشاعت زمرة وول ستريت^(١) دوامة من الاضطراب في سوق الأوراق المالية ، أدت إلى تقلص جميع القيم في البلاد إلى لا شيء . ونشأت ، من خلال الدمار والحراب ، احتكارية مختلفة ، احتكارية رابطة الجأش واثقة من نفسها . وكان هذا الهدوء ، وهذه الثقة ، شيئاً يبعث على الرعب . فهي لم تكف باستخدام قوتها الهائلة فحسب ، بل استخدمت

(١) Wall Street وهو اسم شارع في نيويورك القديمة ، حيث كانت سوق الأوراق المالية ، وحيث سمح تنظيم المجتمع بالتلاعب في أسعار جميع الأسهم الصناعية للبلاد .

كل مالبة الولايات المتحدة وميزانيتها في تنفيذ خططها .

وتحول أقطاب الصناعة إلى الطبقة المتوسطة وانقضوا عليها . فإن منظمات المهنيين التي سبق أن ساعدت أقطاب الصناعة على تمزيق الحركة العمالية ، قد تمزقت الآن ، تمزقت هي نفسها على يد حلفائها السابقين . وفي خضم عمليات الإبادة لرجال الطبقة المتوسطة ، وسحق أصحاب الأعمال الصغيرة وصغار الصناعيين ، وقفت التروستات صامدة . ولم تكتف بمجرد الصمود ، بل دبت فيها حمية من نشاط . وأثارت الريح ، زوبعة ، إثر زوبعة . فهي وحدها قد عرفت كيف تحصد الزوبعة ، وتجنّب منها الأرباح . وأى أرباح أرباح هائلة فقد كانت التروستات من القوة ما جعلها تغلب على العاصفة ، التي هي من تديرها إلى حد كبير . وانطلقت في أثر الحطام الطافي من حولها ، تسلب منه ما تشاء . وتقاصت القيم على نحو فاجع وبشكل لا يمكن تصوره . وأضافت التروستات إلى ممتلكاتها ثروات ضخمة ، وامتدت رقعة مشاريعها فشملت حقولا جديدة عديدة . ودأبما ما تحقق كل ذلك على حساب الطبقة المتوسطة .

وهكذا شهد صيف عام ١٩١٢ الطعنة الفعالة المميتة للطبقة المتوسطة . حتى إن إرنست اندهش من السرعة التي وجهت بها هذه الطعنة . فقد هز رأسه على نحو منذر بالسوء ، وتطلع في غيب ما أمل إلى انتخابات الخريف . وقال :

« لافائدة ترجى . لقد هزمتنا . فالقدم الحديدية هنا . وكنت أوّمل أن نحرز انتصارا سلبيا أمام صناديق الانتخابات . ولكني كنت على خطأ ، بينما كان ويكسون على صواب . فهم سوف ينتزعون ماتبقى لنا من حريات ضئيلة . وسوف تطأ القدم الحديدية على وجوهنا . ولم يعد هناك من سبيل سوى ثورة دامية تقوم بها الطبقة العاملة . فنحن حتما سوف نتصر ، ولكن جسمي يقشعر كلما فكرت فيها ، » .

ومنذ ذلك الحين ، وضع إرنست كل ثقته في الثورة . وكان ، فيما يختص بهذه النقطة ، يتقدم في تفكيره عن أعضاء حزبه . فقد أبى زملاؤه الاشتراكيون أن يقروه على رأيه . وأصرروا على قدرتهم في إحراز النصر بوسائل الانتخابات . وليس معنى هذا أنهم تقدموا صوابهم . ذلك أنهم كانوا على درجة بالغة من الشجاعة وهدوء الطبع . ولكنهم كانوا غير مؤمنين بهذه الفكرة . كل ما هنالك . فقد عجز إرنست عن أن يثير فيهم على نحو جدى مشاعر الخوف من نشوء الأوليغاركية . حقيقة أن آراءه قد استثارتهم ، بيد أنهم بالغوا في الشقة بأنفسهم . لم يكن في مفهومهم النظرى متسع لفكرة الأوليغاركية . إذن فلن تكون الأوليغاركية قائمة في البلاد .

فقد قالوا له في أحد اجتماعاتنا السرية : « سوف نأتى لك بعضوية الكونجرس ، وسوف يكون كل شيء على مايرام » .

وأجابهم إرنست في برود :

« وماذا يحدث بعد أن ينتزعوني من الكونجرس ، ويدفعونى نحو الحائط ، ثم يفرغون رصاصهم فى رأسى حتى تتناثر أجزاء مخى ؟ » .

فأجابته على الفور عشرة أصوات :

« حينئذ سوف نشور بكل قوانا » .

وأجابهم :

« حينئذ سوف تتمرغون فى دمائكم . فقد سمعت هذه الأغنية من قبل ، تنشدها الطبقة المتوسطة . ولكن أين هى وأين قواها . الآن ؟ » :

* * *

الفصل الحادى عشر

المغامرة الكبرى.

لم يرسل مستر ويكسون فى طلب أبى ، لكنه التقى به مصادفة على ظهر
المعدية ، المتجهة إلى سان فرانسكو . ويؤكد ذلك أن الإنذار الذى وجهه
ويكسون إلى أبى لم يأت نتاج إعداد سابق . فلو أن طريق الصدفة لم يجمع
بينهما ، لما كان هناك أى إنذار . وعلى أية حال فلم يكن ذلك ليغير من
النتيجة . فقد انحدر أبى من سلالة أولئك الرجال الأشداء الذين حملتهم
زهرة مايو ،⁽¹⁾ وجرت دماؤهم فى عروقه .

وقال أبى بعد عودته إلى المنزل مباشرة :

« إن إرنست على حق . . وهو قى رائع للغاية . وإنى لأفضل أن
أراك زوجة له عن أن تصبحى زوجة لروكفلر . أو زوجة لملك إنجلترا . . »

فسأله بانزعاج :

« ماذا حدث ، ؟ »

فأجاب قائلاً :

(1) زهرة مايو . . إحدى السفن الأولى التى حملت المستوطنين إلى
أمريكا عقب اكتشاف العالم الجديد . وقد ظل المنحدرون من هؤلاء
المستعمرين الأوائل لفترة يبالفون فى الفخر بأصولهم . غير أن دماءهم
ما لبثت أن انتشرت على مرور الزمن حتى أنها أصبحت تجزى على وجه
التقريب فى عروق جميع الأمريكيين .

، إن الاحتكارية توشك أن تطأ بأقدامها على وجوهنا . . . وجوهنا أنت وأنا. أخبرني ويكسون بذلك كثيراً . ولكنه كفرد من الاحتكاريين كان لطيفا معي للغاية ، فقد عرض على إعادتي إلى الجامعة . . . مارأيك في ذلك ؟ . . . إنه ويكسون ، معتصب المال الدنيء ، لديه السلطة كي يقرر ما إذا كنت أمارس مهنة التدريس في جامعة الولاية أم لا . . . بل لقد عرض على ما هو أفضل من ذلك ، أن يجعل مني رئيسا لكلية كبيرة من كليات العلوم الطبيعية التي يجرى إنشاؤها . هل ترين ؟ إن الاحتكارية يجب أن تتخلص من فائض إنتاجها بطريقة ما . . .

وقال لي ويكسون : . . . هل تذكر ما أخبرته لذلك الاشتراكي الذي أحب ابنتك ؟ . لقد أخبرته أننا سوف ندوس على وجوه الطبقة العاملة . وهذا ما سوف نفعله . أما بالنسبة إليك ، فإني أكن إليك احتراما عميقا بوصفك عالما . ولكنك إذ ربطت مقدراتك بمصير الطبقة العاملة حسنا . . . عليك أن تتحسس وجهك . . . هذا هو كل مافي الأمر . . . وعندئذ استدار ثم غادرني ، .

وعندما أخبرنا إرنست ذلك الحديث قال :

« هذا يعني أننا يجب أن نعجل بالموعد الذي حددته للزواج ، .

ولم أستطع في البداية أن أفهم منطقته . ولكن سرعان ما فعلت . ففي ذلك الوقت دفعت أرباح أسهم مصانع سيرا ، أو بصورة أدق كان يجب أن تدفع . ذلك أن أبي لم يتسلم نصيبه . بل انتظر عدة أيام ، ثم كتب إلى السكرتير . وجاءه الرد دون أي تأخير يقول بأنه ليس هناك في سجلات الشركة ما يدل على أن أبي يملك شيئا من الأسهم ، ويرجوه في لطف أن يتقدم بمعلومات أكثر وضوحا .

وأعلن أبي :

• عليه اللعنة . . سأجعلها واضحة بما فيه الكفاية ، .

ومضى إلى البنك كي يحصل على الأسهم المطلوبة من صندوق
ودائمه الخاص .

وعندما عاد قال، بينما رحمت أساعده في خلع معطفه :

« إن إرنست قى رائع للغاية . . إننى أكرر لك ذلك يا ابنتى . إن فتاك
هذا رائع للغاية ، .

وكنت قد تعلمت أن أتوقع حلول كارثة ، كلما امتدح أبى إرنست بهذه
الطريقة . وقال أبى موضحا :

« لقد داسوا على وجهى بالفعل . فليس هناك أسهم . وجدت الصندوق
فارغا يجب أن تزوجا بسرعة أنت وإرنست ، .

وأصر أبى على اتباع الأساليب التجريبية ، فساق مصانع سيرا إلى ساحة
القضاء . ولكنه لم يستطع أن يسوق إليها سجلاتها . لم تكن له السيطرة
على المحاكم ، بل كانت لمصانع سيرا . . وذلك يفسر كل شيء . فلقد خذله
القانون تماما . . وانتصرت السرقة السافرة .

والآن عندما أعود بالذاكرة إلى الطريقة التى خذل بها أبى ، فإن ذلك
يكاد يثير فى نفس الضحك . فلقد التقى بويكسون مصادفة فى أحد شوارع
سان فرانسكو وقال له إنه وغد لعين . عندئذ قبض على أبى بتهمة الشروع
فى الاعتداء ، وغرم فى ساحة البوليس . وأخذ عليه تعهد بالانزمام الهدوء .
كان كل ذلك مثيرا للسخرية لدرجة أن أبى نفسه أخذ يضحك عندما عاد
إلى المنزل . ولكن أى ضجة أثيرت فى الصحف المحلية ! كان هناك كلام
خطير عن جرثومة العنف التى أصابت جميع الرجال الذين اعتنقوا

الاشتراكية . وراحوا يتخذون ، من أبي بجهاته الطويلة والهادئة ، مثلا ساطعا على الطريقة التي تعمل بها تلك الجرثومة . وأكدت أكثر من صحيفة أن عقل أبي قد اعتراه الضعف تحت وطأة الدراسة العلمية ، واقترحت حجزه في إحدى مصحات الأمراض العقلية بالولاية . ولم يكن هذا مجرد كلام . كان خطرا وشيكا . ولكن أبي كان من الحكمة بحيث رأى هذا الخطر . كانت له من تجربة الأسقف عبرة ، وقد تعلم منها جيدا . فالتزم بالهدوء مهما بلغ الظلم الذي أنزلوه به . والحق أنه ، كما اعتقد ، أثار بذلك دهشة أعدائه .

وكان هناك موضوع البيت - ما وانا . لقد نزعوا منا ملكيته بدعوى استحقاق الرهن . وبالطبع لم يكن هناك أى رهن لا فى ذلك الوقت أو حتى فيما مضى ، فقد اشترينا الأرض نقدا ودفعنا ثمن البيت عند بنائه . وهكذا كان البيت وقطعة الأرض لا تثقلها الديون على الدوام . ومع ذلك كان هناك الرهن ، وقد تمت صياغته والتوقيع عليه بصورة صحيحة وقانونية ، مع تسجيل مدفوعات الفائدة خلال عدد من الأعوام . ولم يصرخ أبى ، فمما سرقت أمواله من قبل كذلك تجرى الآن سرقة منزله . ولم يكن هناك ما يلجأ إليه . فعلى أجهزة المجتمع كانت تقبض أيدى أولئك الذين عكفوا على تحطيمه . وكان أبى فيلسوفا فى أعماقه . وهكذا فتحى الغضب لم يعد يملكه .

وقال أبى :

« لقد كتب على أن أسحق . ولكن هذا لا يمكن أن يكون سببا يدفعنى إلى عدم محاولة التخفيف من ذلك بقدر الإمكان . فهذه عظامى العجوزة ضعيفة هشة . ولقد أخذت درسا ، والله يعلم أنى لا أريد أن أقضى أيامى الأخيرة فى مصحة للأمراض العقلية ، .

وبذكرنى هذا بالأسقف مورهاوس الذى أهملته صفحات كثيرة .

ولكن دعوني أولاً أحدثكم عن زواجي . ففي غمرة الأحداث تنضال
أهميته . إنني أعلم هذا . وهو ما سيجعلني أكتفي بمجرد الإشارة إليه .

وعندما طردنا من بيتنا قال أبي :

« والآن سنصبح عمالاً حقيقيين . ولطالما حسدت فتاك على معرفته
الحقيقية بالطبقة العاملة . أما الآن فإنني سأرى، وأتعلم بنفسى ، »

لا شك أن حب المغامرة لدى أبي كان قويا . لقد نظر إلى كارثتنا
وكانها إحدى المغامرات ولم يمتلكه الغضب ، ولم تستحوذ عليه المرارة .
كان حكيماً وبسيطاً لدرجة جعلته يسمو على مشاعر الحقد والانتقام .
لقد عاش أبي كثيراً في عالم العقل بحيث لم يفقد وسائل الراحة التي تخليقنا
عنها . هكذا كان عندما انتقلنا إلى سان فرانسيسكو لنقطن أربع حجرات
بأثمنة في الحي الجنوبي القذر بشارع ماركت . وأقبل على المغامرة بفرح
الطفل وحماسه مع الرؤيا الواضحة وقوة الذهن لعقل غير عادي . والحق
أن عقله لم يتحجر أبداً . فلم يكن لديه إدراك زائف بالقيم . ولم تكن
القيم التقليدية أو العادية تعنى شيئاً بالنسبة إليه . كانت الحقائق الرياضية
والعلمية هي القيم الوحيدة التي يعترف بها . لقد كان أبي رجلاً عظيماً ،
امتلك ذلك العقل وتلك الروح اللذين لم يوجد إلا عند عظماء الرجال ،
وكان أبي من بعض الوجوه أعظم من إرنست نفسه . . إرنست الذي
لم أعرف قط من هو أعظم منه .

وحتى أنا وجدت نوعاً من الراحة في التغير الذي طرأ على حياتنا .
يكفيني أنني هربت من الطرد المنظم الذي أصبح نصيبنا المتزايد في المدينة
الجامعية ، منذ أن تعرضنا لعداء الاحتكارية الناشئة . وكان التغير بالنسبة
لي مغامرة ، بل أعظم المغامرات لأنها كانت مغامرة الحب . فقد عمل
التغير في مصائرنا بزواجي . وهكذا كانت تلك التي راحت تسكن أربع

حجرات تسكن أربع حجرات في شارع عيل في الحى القدر بسان فرانسيسكو
إنسانه متزوجة .

ومن كل هذا يتبقى أنى جعلت إرنست سعيدا . فلم أدخل حياته
كقوة جديدة مثيرة للقلق ، ولكن كقوة تسمى للسلام والطمانينية .
ومنحته الراحة . وكانت هذه هدية حبي له ، والعلامة الوحيدة التى لا تخطئ
على أنى لم أفشل . فأى فرح يمكن أن يغمرنى أكثر من أن أحمل إليه
السوان ، أو أبعث شعاعا من السعادة فى عينيه التعبتين البائستين . . ؟ .

يا لهاتين العينين التعبتين الحبيبتين . لقد كدح كما لم يكدح إلا القليل
من الرجال . ولقد كدح طيلة حياته فى سبيل الآخرين . كان ذلك هو
مقياس رجولته . كان إنسانا ومجبا . وكان ، بروح المعركة المتجسدة
فيه ، وجسده المقاتل وروحه الجسورة كروح النسر لطيفا ، رقيقا معنى
كشاعر . كان شاعرا . أنشد بالأمثال ، أنشد طيلة عمره أنشودة الإنسان ،
وفعل ذلك مدفوعا بحبه للناس . وفى سبيل الإنسان وهب حياته ومات
على الصليب .

فعل إرنست كل هذا دون أمل فى مكافأة يتلقاها فى المستقبل .
فتبعنا لمفهومه للأشياء لم تكن هناك حياة أخرى بعد الموت . لقد أنكر
على نفسه الخلود ، هو الذى احتزقت نفسه تماما بالخلود . ذلك هو
التناقض الكامن فيه . لقد سيطرت عليه بروحه المتوجهة تلك الفلسفة
الباردة والمقوتة ، المادية الوجدانية . واعتدت تفنيد آرائه بإخباره
أنى أقبس خلوده بأجنحة روحه ، وأنه يجب على أن أعيش دهورا لانهاية
لها حتى أتوصل إلى القياس الكامل . وعندئذ كان إرنست يضحك وتمتد
يده نحوى وينادى بحبيته الميتافيزيقية ، وينزاح الإرهاق من عينيه وينساب
فيهما شعاع الحب السعيد الذى كان فى حد ذاته عنوانا جديدا وكافيا
على خلوده .

كذلك اعتاد إرنست أن يدعو تى « بالثنائية » ، ويشرح لى كيف قام « كانت » ، بإلغاء العقل عن طريق المنطق المجرد حتى يعبد الله . وأخذ يبين أوجه التشابه بينى وبينه . واعتبرنى مذبذبة فى عمل مماثل . وعندما أقررت التهمة ، بل دافعت عنها كسلوك عقلى إلى حد كبير ، ضمنى بقوة إليه وضحك كما لا يستطيع أن يضحك سوى واحد من محبى الله أنفسهم . وقد تعودت على إنكار قدرة الوراثة وظروف البيئة على تفسير أصالته وعبقريته ، وأنهما لا تستطيعان أن تفعل ذلك بأكثر مما يستطيع أصبع العلم الباردة والساعية النقاط ذلك الجوهر المراوغ الذى يختفى فى تركيب الحياة نفسها وإلى تحليله وتصنيفه .

وقلت له إن المكان « هو مظهر من مظاهر الله » ، وإن الروح امتداد لشخصيته ، وعندما دعانى إرنست بحبيته المتفايزيقية ، دعوته « بفيلسوفى المادى ، الخالد ، وهكذا تبادلنا الحب وكنا سعداء . ولقد غفرت له ماديته بسبب عمله الهائل فى العالم ، العمل الذى أداه دون أى تفكيره فى ربح لروحه ، وبسبب تواضعه الفائق الذى جنبه الغرور والاعتداد الأجوف بنفسه وروحه .

ولكن إرنست كانت له كبرياؤه . فكيف يكون نسرأ بلا كبرياء ؟ كان يناضل ليبين أنه لىء أروع لذرة الحياة الفانية أن تشعر بالوهيتها ، من أن يفعل الإله ذلك . ومن هنا راح يمجده ما تصوره فناءه . وكان إرنست مغرما بالاستشهاد بجزء من قصيدة شعر معينة . ولم يكن قد رأى القصيدة كلها أبداً . وقد حاول أن يعرف مؤلفها دون جدوى . وإننى أكتب هنا هذا الجزء من القصيدة ، لى فقط لأننى أحببتها ، بل لأنها تلخص التناقض الذى كان كامنا فى روحه وتصوره لها . فكيف أصبح بوسع إنسان يمثل هذا الحماس ، وهذه الروح الملتزمة ، والشعور بالعظمة أن ينشد الآيات التالية ويظل مجرد تراب فان وجزءاً من قوة زائلة وصورة فانية .

وهذه هي :

فرح على فرح وانصر على نصر
ذلك هو قدرى الذى ولد معى .
وحافة الأرض تردد أصداى صوتى الذى يرتفع
مجددا أياى اللانهاية
ورغم أنى أعانى ضروب الموت التى تصيب الإنسان
حتى نهاية الزمن القصوى
فقد أفرغت كأس السعادة حتى الثمالة
فى كل مكان وكل عصر . . .

قه الكبرياء وصليل القوة
وحلاوة الأنوثة . . .

إنى أشرب الخمالة راكما على الأرض
فكم هو لذيد ذلك الشراب
إنى أشرب ملء الحياة .. وأشرب حتى الموت
وتردد شفتاى الأغانى
فعند ما أموت
ستمضى الكأس إلى د نفس ، أخرى

إن الإنسان الذى طردته من جنة عدن
كان أنا يا إلهى - كان أنا
وسوف أكون هناك عندما تنفجر الأرض والهواء
من البحر حتى السماء
ذلك أنه عالمى ، عالمى الرائع

عالم همومي المحببة
من آلام الولادة وعذابها
حتى يصرخ الطفل الوليد صرخته الأولى الخافتة
إن دماي الحارة الفتية
وقد أثقلتها نبضات سلالة لم تولد
وتمزقت بالرغبة في الحياة
سوف تندفق لتطفىء نار الدينونة
إنني إنسان ، إنسان ، إنسان
من الجسد الخدر حتى تراب القبر
من ظلم الرحم الحامل
إلى بهاء روحى العارية

عظام كعظامي ، وأجساد كجسدي
العالم كله يهب لمشيئتي
والظما الذي لا ينطفىء
للإنسان الذي حلت عليه لعنة جنة عدن
سوف يمهّد الأرض حتى تشبع
أيها الإله القادر على كل شيء
عندما أفرغ كأس الحياة
من جميع ألوان قوس قزح
فسوف تتحول أحلامي إلى العدم
طويلا في ظل كآبة الليل السرمدى

إن الإنسان الذي طردته من جنة عدن .

كان أنا يا إلهي - كان أنا
وسوف أكون هناك عندما تنفجر الأرض والهواء .
من البحر حتى السماء .
ذلك أنه عالمي ، عالمي الرائع .
عالم متعني المحببة .
من ومضة الضوء المشرق فوق مياه القطب الشمالي .
حتى الفسق في ليلة حبي .

وأرهب إرنست نفسه في العمل دائما . ولم يحافظ عليه سوى تكوين
جسمه الرائع . ولكن هذا التكوين الرائع لم يستطع أن يبعد النظرة
المتعبة عن عينيه ، عينيه المتعبتين الحبيبتين ، ولم يكن ينام أبدا
أكثر من أربع ساعات ونصف في كل ليلة . ومع ذلك لم يجد أبدا متسما
من الوقت كي ينجز كل العمل الذي كان يريد إنجازه . ولم يتوقف مطلقا
عن نشاطه كدأعية ، وكان اسمه يوضع على الدوام مقدما لفترة طويلة
في قوائم المحاضرين في منظمات العمال . ثم كانت الحملة الانتخابية . وفي
هذا الميدان قام إرنست وحده بأداء العمل الكامل الذي يستطيع الإنسان
القيام به . وعندما واجهت دور النشر الاضطهاد ، انقطع دخله الضئيل
وواجه موقفا صعبا في تحصيل عيشه حيث تهمين عليه أن يفعل ذلك بالإضافة
إلى كل أعماله الأخرى . راح إرنست يترجم كثيرا من الموضوعات العلمية
والفلسفية للمجلات . وكان يعود إلى البيت متأخرا بالليل ، مرهقا من
وطأة الحملة الانتخابية ، فيكب على ترجمته ويواصل الكدح حتى ساعات
الصباح . وإلى جانب ذلك كانت هناك دراساته الهائلة التي حافظ على القيام
بها حتى مماته .

ومع ذلك فقد وجد إرنست الوقت كي يمنحني حبه ويجعلني سعيدة .

غير أن هذا تحقق فقط من خلال امتزاج حياتي كلها بحياته . وتعلبت
الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة . وأصبحت سكرتيرته . وكان
يصر على أنني نجحت في توفير نصف وقته . وعلى هذا دربت نفسي على
فهم عمله . وأصبحت أهدافنا مشتركة وعملنا معا ولهو ناسويا .

ثم كانت هناك تلك اللحظات الحلوة التي نختلسها من وسط عملنا ،
مجرد كلة أو لمسة حنان ، أو ومضة من ضياء الحب . وقد كانت تلك
اللحظات أثمر عذوبة لأننا نختلسها . ذلك أننا عشنا في العلاء ، هناك
حيث كان الهواء منعشا ومشوقا ، هناك حيث السكح من أجل الإنسانية ،
حيث لم تعرف الأنانية أو الدناءة طريقا لهما . ويبقى من كل هذا ، أنني لم
أفشل . لقد منحته الراحة هو الذي تعب في العل من أجل الآخرين . .
حبي الراحل بعينه المتعبين

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثامن عشر

الأسقف

كان ذلك عقب زواجى عندما التقيت بطريق الصدفة مع الأسقف مورهاوس . ولكنى أجد لزاما على أن أسرد الحوادث وفقا لترتيبها الصحيح . فبعد أن انفجر الأسقف فى مؤتمر منظمة I.P.H. ، نزل وهو ذو النفس الرقيقة - على ضغط أصدقائه ، وذهب فى أجازة . غير أنه عاد أشد تصميما من أى وقت مضى على التبشير برسالة الكنيسة . وكم كانت دهشة رعيته ، فقد جاءت موعظته الأولى تشابه الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر تماما . وأعاد الأسقف القول فى إسهاب وتفصيل يدعو للأسى بأن الكنيسة قد انحرفت عن تعاليم السيد المسيح ووضعت مكانه شيطان الجشع .

وسواء رضى الأسقف أو لم يرض ، انتهى الأمر باقتياده إلى مصحة خاصة للأمراض العقلية . وظهرت فى الصحف أحاديث مؤسفة عن انهياره العصبى وعن قدسية شخصيته . واحتجز مورهاوس سجيناً بالمصحة . وهناك ذهبت عدة مرات لزيارته ، ولكنهم لم يسمحوا لنا بالاجتماع . وهزتنى هذه المأساة بصورة مروعة ، فى مأساة إنسان عاقل ، سوى مثل القديسين ، راحت إرادة المجتمع الوحشية تسحقه . ذلك أن الأسقف كان عاقلا ونقيا ونبيلا . وكما قال إرنست ، لم يكن به شئ سوى أن لديه أفكارا خاطئة فى علمى الاجتماع والأحياء . وبسبب هذه الآراء الخاطئة لم يسلك الأسقف الطريق السليم فى سبيل تصحيح الأوضاع .

كان عجز الأسقف هو ما أثار الرعب فى نفسى . فإذا ما أصر على

الحقيقة كما بدت له ، فقد حكم عليه بأن يلتقي في غرفة المجانين ، ولن يستطيع أن يفعل شيئا . ولن يجدى ماله أو مركزه أو ثقافته شيئا في سبيل إنقاذه ، فإن آراءه تمثل خطرا على المجتمع ، وليس في وسع ذلك المجتمع أن يتصور خروج تلك الأفكار عن عقل سليم . ذلك ما بدا على الأقل أنه مسلك المجتمع .

لكن الأسقف رغم لطفه ونقاء روحه ، كان رجلا ماكرا . لقد أدرك في وضوح الخطر المحدق به ، ووجد نفسه واقعا في الشرك وحاول الهرب منه . لقد ترك في المعركة وحيدا عندما حرم المساعدة التي كان يستطيع أن يقدمها إليه أصدقاؤه مثل أبي وإرنست وأنا . وفي العزلة الإجبارية بالمصحة تم شفاؤه . ومرة أخرى أصبح الأسقف عاقلا ، وكفت عيناه عن أن تشاهد الرؤى . وتخلص عقله من الوم القائل بأن واجب المجتمع إطعام « خراف السيد » .

لقد شفى . وكما أقول ، شفى تماما . ورحبت الصحف في ابتهاج ، كما رحب شعب الكنيسة بعودته . وذات مرة ذهبت إلى الكنيسة . فكانت الموعدة من نفس تلك المواعظ التي يشربها منذ زمن بعيد ، قبل أن تشاهد عيناه الرؤى . وخاب أملى وأصبحت بصدمة . هل هزة المجتمع ودفعه إلى الاستسلام ، هل كان جباناً ؟ هل أجبر على إنكار آرائه ؟ أم هل كانت المحنة أكبر من أن يحتملها فاستسلم في تخازل أمام القوة الهائلة للنظام القائم والتي تحطم كل من يعترض سبيلها ؟ .

وذهبت لزيارته في بيته الجميل . لقد تغير الأسقف بصورة محزنة . أصبح أكثر هزالا ، وعلت وجهه تجاعيد لم أرها من قبل . وبدا من الجلي أنه تضايق من زيارتي وأخذ يجذب كفه بطريقة عصبية . ولم تمكن عيناه مستقرتين ، بل راحتا تدوران هنا وهناك في كل مكان تاييان الالتقاء

بعيني ، وبدا وكان تفكيره مشغول بشيء ما ، فأخذ يقطع حديثه بين فترة وأخرى ، وينتقل فجأة ودون اتساق من موضوع لآخر مما أذهلني . هل يمكن أن يكون ذلك الإنسان هو نفس الرجل الرابط الجأش الذي يشبه المسيح . الرجل الذي عرفته من قبل بعينيه الصافيتين الشفافيتين ونظرته الثابتة غير المضطربة كروحه ؟ لقد عاملوه بقسوة ، وأرهبوه كي يخضع . وكانت روحه غاية في الرقة ، فلم تقو على الصمود بما فيه الكفاية أمام هجوم قطيع من الذئاب نظمه المجتمع .

وشعرت بأسى لا سبيل إلى وصفه . لقد راح لاسقف يتحدث في غموض ، وجلس مترقبا لكل كلمة قد أقولها ، حتى إنني لم أجد الجرأة لاستجوابه . وتكلم بصورة غير مباشرة عن مرضه . وتحدثنا في غير توافق عن الكنيسة . وعن التغيرات التي طرأت على الأرغن ، وعن الصدقات البسيطة . وعندما رأني راحلة غلب عليه الارتياح ، حتى إنني كدت أنفجر في الضحك لولا أن الدموع كانت تفيض في قلبي .

بالبطل الصغير المسكين لو أنني فقط . عرفت ا كان يناضل مثل عملاق ولكنني لم أدرك ذلك . راح يخوض معركة وحيداً . وحيداً تماماً وسط الملايين من زملائه من الناس ، لقد تمزق بين رعبه من مصحة الأمراض العقلية وبين إخلاصه للحقيقة والصواب ، فتشبث بهما في حزم ولكنه كان وحيداً حتى إنه لم يجرؤ على الثقة حتى بي . لقد تعلم درسه جيداً ، تعلمه على خير وجه . ولكنني سرعان ما عرفت . ففي أحد الأيام اختفى الأسقف ، ولم يخبر أحداً أنه سيرحل بعيداً . ومرت الأيام ولم يعاود الظهور . وتزايد اللغط ، وذهب البعض إلى القول بأنه انتحر في أثناء إصابته بنوبة من نوبات الجنون . غير أن هذه الفكرة انهارت عندما عرف أن الأسقف باع كل ممتلكاته - منزله بالمدينة ، ومنزله في الريف في مينلو بارك ، ولوحاته المصورة ، ومقتنياته الفنية ، وحتى مكتبته المفضلة لديه . كان من الجلي أنه تخلص من كل شيء في سرية قبل أن يخفى عن الأنظار .

حدث هذا في ذلك الوقت الذي فاجأتنا فيه الكارثة ، فشفغلتنا عن
شئوننا الخاصة ، والحق أنه لم تكن لدينا الفرصة كي نتأمل في أعمال
الأسقف ، حتى تم لنا الاستقرار بالفعل في بيتنا الجديد . وهناك وعلى
حين لجأة أصبح كل شيء واضحاً . ففي ساعة مبكرة بإحدى الأمسيات ،
قبل أن يتبدد نور الفسق ، عبرت الشارع إلى محل الجزارة لأشترى بعض
الشراخ لعشاء إرنست ، ذلك أننا نسمى الوجبة اليومية الأخيرة في مقامنا
الجديد « بالعشاء » .

وفي اللحظة التي غادرت فيها محل الجزارة ، خرج رجل من البقالة
القائمة على الناصية بجانب المحل . ودفعتني إحساس عجيب بالألفة إلى
معاودة النظر . غير أن الرجل كان قد استدار وابتعد مسرعاً . كان
هناك شيء ما في انحدار كتفيه ، وفي أهداب شعره الفضى الذي ظهر
بين ياقة سترته وقبعته المتهدلة ، شيء أثار في نفسي ذكريات مبهمة .
وبدلاً من عبور الشارع أسرعرت خلف الرجل . ووسعت من خطواتي
وأنا أحاول أن أبعاد عن عقلي تلك الأفكار التي تشكلت بلا وعي . لا، إن
هذا مستحيل . لا يمكن أن يكون هو . ليس في ذلك الأوفول الباهت
ذي الساقين الطويلين والمتهرى* عند الكفل .

وتوقفت قليلاً ، وضحكت من نفسي . وأوشكت أن أكف عن
المطاردة . لكن الألفة بهاتين الكتفين وذلك الشعر الفضى سيطرت على ،
فأسرعت مرة أخرى . وعندما مررت بجانبه ، أقيت نظرة متفحصة على
وجهه . وعندئذ استدرت بسرعة بصورة مفاجئة وواجهت الأسقف .

وتوقف الأسقف بطريقة مماثلة ، وأخذ يلهث . ومن يده اليمنى سقط
كيس كبير من الورق على الرصيف فتمزق . وتدافع سيل من حبات
البطاطس تحت أقدامنا . ونظر الأسقف إلى في دهشة وجزع . ثم بدأ

وكانه يتهاوى . وسقط كتفاه في انكسار ، وأطلق آهة عميقة .

وقدمت له يدي فصالحها ، لكن يده كانت مبتلة بالعرق . وتنحى الأسقف في ارتباك . ورأيت حبات العرق تتجمع على جبهته . كان من الواضح أن لقائي أرهبه بصورة مروعة . وغمغم بصوت خافت البطاطس . . . إنها غالية . .

واشتركتنا سويا في جمع البطاطس ووضعناها في الكيس الممزق الذي حمه الأسقف عندئذ تحت إبطه في عناية . وحاولت أن أخبره عن سرورى ببقائه . وأزه يجب أن يعود معى إلى المنزل على الفور .

وقلت له :

« إن أبى سوف يسعد برؤيتك . ونحن نسكن على مرمى حجر فقط من هنا . »

ولكنه قال :

« لا أستطيع - يجب أن أذهب - إلى اللقاء . »

ونظر فيما حوله بخوف وكأنه يخشى اكتشافه . وحاول أن يستأنف التسير . وعندما رأى أسير إلى جانبه ، وأتى أنوى ألا أتركه بعد أن وجدته قال :

« أخبرينى - أين تسكنين وسوف أزورك فيما بعد ؟ » .

وأجبتة بحزم :

« لا . . . يجب أن تاتى الآن . »

ونظر إلى البطاطس وهي تنزلق على ذراعاه ، وإلى اللف الصغيرة
على ذراعاه الأخرى وقال :

« هذا مستحيل حقا .. أعذريني لو قاحتى . لو أنك فقط عرفت ، .
وبدا وكأنه على وشك الانهيار . غير أنه سرعان ما تمالك نفسه ،
وواصل كلامه قائلاً :

« وإلى جانب ذلك ، فهناك هذا الطعام ، إنها حالة مؤسفة .. شئ
مريع . فهى امرأة عجوز ، ويجب أن آخذه إليها فى الحال . إنها فى أشد
الحاجة إليه . يجب أن أذهب فوراً .. أنت تفهمين .. وعندئذ سوف أعود ..
لأنى أعدك بذلك ، .

فتطوعت قائلة :

« دعنى أذهب معك . هل يبعد المكان كثيراً ؟ ، .

وتهد الأسقف مرة أخرى وقال فى استسلام :

« على بعد عدة بنايات . دعينا نسرع ، .

وهكذا و بإرشاد من الأسقف عرفت شيئاً عما يوجد بجوارنا . لم
أكن أتصور وجود مثل هذه التعاسة وهذا البؤس . وبالطبع يرجع هذا إلى
أنى لم أعد أهتم بالصدقات . ذلك أنى اقتنعت بأن إرنست على صواب عند
ما كان يسخر من الصدقات ، ويصفها بأنها ابخة توضع على القرحة ،
أما العلاج الذى وصفه إرنست فهو استئصال القرحة ، إعطاء العامل
إنتاج عمله ، ومعاشا مثل الجنود لأولئك الذين يواجهون فى كدحهم شيخوخة
كريمة . هناك لن تكون أى حاجة إلى الصدقات . وإذا اقتنعت بذلك ، شاركت
إرنست كفاحه من أجل الثورة . ولم أبدد طاقتى فى تسكين الأمراض
الإجتماعية التى كانت تنشأ دون توقف عن الظلم الكامن فى النظام .

وتبعت الأسقف إلى حجرة صغيرة طولها اثنتا عشرة قدماً وعرضها عشر أقدام في أحد المنازل الخلفية . هناك وجدنا عجوزاً ألمانية ضئيلة الجسم ، قال الأسقف إنها تبلغ من العمر أربعة وستين عاماً . ودهشت المرأة عند رؤيتي ، لكنها حينئذ تحية طيبة ، وواصلت خياطة البنطلون رجالي كان في حجرها . وعلى الأرض بجانبها كان يوجد كوم من البنطلونات . وتبين الأسقف أنه لا يوجد فحم أو وقود فخرج ليشتري بعضاً منها .

والتقطت زوجاً من البنطلونات وفحصت عمل المرأة العجوز . فقالت وهي تمز رأسها في لطف ، بينما راحت تواصل الخياطة :

« ستة بنسات ياسيدتي ، » .

وأخذت تخطيط بيطة ، لكنها لم تتوقف أبداً . كانت تبدو وكأنها واقعة تحت سلطان عملية الخياطة . وسألتها :

« أكل هذا العمل ؟ .. هل هذا هو ما يدفعونه ؟ كم من الوقت يستغرق منك هذا العمل ؟ » .

وأجابت :

« نعم . . هذا هو ما يدفعونه . . ستة بنسات لقاء كل واحد . أما خياطة البنطلون فتستغرق ساعتين ، وأضافت بسرعة ، وقد كشفت عن الخوف من أن يسبب كلامها المتعاب لسيد العمل :

« ولكن السيد لا يعرف ذلك . . فأنا بطيئة لأن يدي أصبحتا بالروماتيزم . أما الفتيات فيعملن أسرع من ذلك بكثير ، فينتهين من البنطلون في ساعة واحدة . إن السيد رجل شفيق ، فهو يدعني آخذ عملي إلى المنزل ، لأنني تقدمت في السن وأصبحت ضوضاء الآلة تصدع رأسي ، ولولا شفقتي لهلك من الجوع . »

• صحيح أن اللواتي يعملن في المحل يحصلن على ثمانية سنتات . ولكن ماذا بوسعك أن تفعل ؟ ليس هناك عمل كافٍ للفتيات الصغيرات . أما العجائز فليس لديهن أى فرصة . وغالباً ما أستطيع الحصول على بنطلون واحد . وأحياناً - مثلما حدث اليوم - أعطيت ثمانية بنطلونات ، يجب أن أتى منهم قبل الليل ، .

وسألتهن عن عدد الساعات التى تنفقها فى العمل . وأجابتنى بأن ذلك يتوقف على المواسم :

• فى الصيف ، عندما يكون هناك طلب كثير ، أعمل من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة التاسعة مساءً . ولكن فى الشتاء يصبح الجو بارداً للغاية . وتظل اليدين متصلبتان لفترة طويلة فى الصباح . وعندئذ يجب على أن أعمل حتى وقت متأخر ، وأحياناً إلى ما بعد منتصف الليل ، .

• نعم لقد كان هذا الصيف سيئاً . . إنها الأزمة . لاشك أن الله غاضب على . فهذا هو أول عمل يعهد به السيد إلى خلال أسبوع . صحيح أن الإنسان لا يستطيع أن يأكل كثيراً عندما لا يكون هناك عمل . . لقد اعتدت ذلك فقد أمضيت عمري فى هذا العمل ، هناك فى موطنى القديم ، وهنا فى سان فرانسيسكو ثلاثة وثلاثين عاماً .

• وإذا ما حصلت على إيجار الغرفة . فهذا حسن جداً . إن صاحب المنزل رجل شفوق جداً . ولكنه يجب أن يحصل على أجرته . هذا عدل . إنه لا يطالبنى إلا بثلاثة دولارات لإيجار هذه الغرفة . إنها رخيصة ، ولكن ليس من السهل أن تجدى ثلاث دولارات كل شهر ، .

وتوقفت عن الكلام ، ومضت تواصل الخياطة وهى تهز رأسها وقالت لها :

« يجب أن تكونى حريصة فى الطريقة التى تصرفين بهاماتك سيئه » .

فهزت رأسها مؤكدة :

« بعد دفع الأجرة ، لا يصبح الموقف سيئا للغاية . بالطبع أنا لا أستطيع شراء اللحم . وليس هناك لبن للقهوة ، ولكنى أحصل دائما على وجبة واحدة فى اليوم . وأحيانا كثيرة أحصل على وجبتين » .

ونظقت كلماتها الأخيرة فى نخر . كان هناك طعم النصر فى كلماتها ، ولكنى لاحظت عليها وهى تواصل الخياطة فى سكون ، الحزن الدفين فى عينيها الباسمتين ، والألم باد على فمها . وغابت نظراتها ، فسارعت بيديها إلى جلاء الغشاوة التى عاقتها عن مواصلة الخياطة .

وقالت المرأة موضحة :

« لا ، ليس الجوع هو الذى يبعث بالألم فى القلب ، فالمرء يعتاد الجوع . ولكنى أبكى على ابنتى . لقد قتلتها الآلة . صحيح أنها اشتغلت حتى الإرهاق ولكنى لا أستطيع أن أفهم . كانت قوية وصغيرة ، فى الأربعين من عمرها فحسب . وقد عملت لمدة ثلاثين عاما فقط . هذا صحيح ولكن زوجى مات . فقد انفجر الرجل فى المصانع . وماذا كان يمكن أن نفعل ؟ . كانت فى العاشرة . كانت قوية للغاية ، ومع ذلك قتلها الآلة . نعم قتلها . هى التى كانت أسرع عاملة فى المحل . وطالما فكرت فى ذلك . وأنا أعرف ، لهذا السبب لا أستطيع العمل فى المحل . فالآلة تصدع رأسى دائما ما أسمعها تقول « لقد قتلها » . أنا قتلها » . وهى تقول ذلك طوال اليوم . وعندئذ أفكر فى ابنتى ولا أستطيع العمل » .

وتجمعت الغشاوة مرة أخرى فى عينيها المكدودتين . وكان عليها أن تمسحها قبل أن تستأنف عملها . وسمعت الأسقف وهو يتعثر على

السلام ففتحت الباب . أى مشهدا ، كان الأسقف يحمل على ظهره نصف كيس من الفحم وفوقه الوقود ، وقد كسا تراب الفحم وجهه ، والعرق يسيل بغزارة نتيجة إجهاده . وألقى الأسقف بحمله في الركن بجانب الموقد ومسح وجهه بمنديل خشن مزين بالرسوم . ولم أستطع تصديق حواسي إلا بصعوبة . فهذا هو الأسقف أسود مثل حمال الفحم يرتدى قميصا قطنيا رخيصا من قصان العمال (يفتقد زراراً عند الرقبة) وه أوفرول ، . وذلك كان أغرب الأشياء جميعها . . إنه الأوفرول وقد تهرأ عند الكتف وتدلى حتى الكعبين وقد رفعه الأسقف بحزام جلدى ضيق حول الخصر مثلما يفعل العمال .

ورغم أن الأسقف كان يغمره الدفء ، كانت يدا العجوز البائستان المتورمتان قد تشنجتا بانفعال من البرد . وقبل أن يغادرها أشعل الأسقف النار ، بينما قشرت أنا البطاطس ووضعتها عليها حتى تستوى . وبمرور الأيام أخذت أتعلم أن هناك كثيرا من الحالات المشابهة ، بل أكثر سوءا تختفي بعيدا في الأعماق الرهيبة للبيوت المجاورة لنا .

وعدنا لنجد إرنست قلقا لغيباني . وبعد أن انتهت مفاجأة اللقاء ، استرخى الأسقف في مقعده ومدد رجله المكسوتين بالأوفرول وتهدى في ارتياح حقيقى . لقد كنا أول أصدقائه القدامى الذين قابلهم منذ اختفائه . . هكذا أخبرنا . ولا شك أنه قاسى كثيرا من الوحدة خلال الأسابيع المنصرمة . وحدثنا بأشياء كثيرة ، رغم أن أكثر ما حدثنا عنه كان هو الفرح الذى عرفه فى تنفيذ وصايا المسيح .

وقال الأسقف :

« الحق أننى أطعم الآن خرافه - واقدمت على درسها مثلا . لا يمكننا أن نساعد الروح دون أن نشبع المعدة . يجب إطعام خراف المسيح

بالخبز والزبد والبطاطس واللحم . وبعد ذلك - بعد ذلك فقط - تصبح
الأرواح على استعداد لتقبل الغذاء الأكثر سمواً .

وأكل الأسقف العشاء الذي طهوته بكل شهية . ولم يحدث أن وافته
مثل هذه الشهية على مائدتنا في الأيام المنصرمة . وتحدثنا في ذلك فقال
إنه لم يتمتع بمثل هذه الصحة في حياته . وقال عندما صعد الدم إلى وجنتيه
عندما تذكر الأيام التي كان يركب فيها عربته ، وكأنها خطيئة لا سبيل
إلى محوها :

« أنا أمشي الآن على قدمي دائماً ، . إن صحتي تتحسن على ذلك . وأنا
سعيد للغاية ، في الواقع أقصى ما تكون السعادة ، وأخيراً أصبحت رוחي
مكرسة في سبيل خدمة الناس . »

ومع ذلك كان بلوح على وجهه فيض لا ينقطع من الألم . ألم العالم
الذي اتخذته لنفسه . لقد أصبح يشاهد الحياة على حقيقتها . وهي حياة
تختلف عن تلك التي عرفها من خلال الكتب المطبوعة في مكتبته .

وقال الأسقف مخاطباً إرنست مباشرة :

« أنت أيها الفتى مستول عن كل هذا ، . »

واضطرب إرنست وأصابه الارتباك وتلعثم قائلاً :

« أنا . . . لقد حذرتك ، . »

فأجابه الأسقف :

« لا - إنك تسيء فهمي . فأنا لا أتحدث باللوم . ولكن عرفانا
منى بالجميل . إنني أريد أن أقدم لك شكراً لأنك بينت لي طريق .
لقد قدتني من النظريات حول الحياة إلى الحياة نفسها . ونزعت الأقنعة

عن الرياء الاجتماعى . كنت الضوء فى ظلمتى ، ولكننى أرى الضوء أيضا .
وأنا سعيد للغاية .. ولكن ... ، .

وتردد فى جزع ، واتسع الخوف المرتمى فى عينيه .

« ولكن هذا الاضطهاد .. أنا لا أودى أحدا . لماذا لا يدعونى وشانى ؟
ولكن ليس الاضطهاد هو ما يقلقنى . إنها طبيعة ذلك الاضطهاد . فأنا
لا أبالى إذا مزقوا جسدى بالسياط ، أو أحرقونى على الموقد ، أو صلبونى
منكس الرأس ، ولكنها مستشفى الأمراض العقلية التى تخيفنى . تصور
ذلك . تصوروا .. أنا فى مصحة للجانين . إنه شىء يثير السخط . لقد
رأيت بعض الحالات فى المستشفى ، كانت عنيفة . إن جسمى يقشع
عندما أمكر فيها . . أن أسجن بقية حياتى وسط مشاهد الجنون الصارخ .
لا لا لا .. هذا كثير . هذا كثير . »

كانت حالته تدعو للثناء ، لقد ارتعشت يداه ، وارتعد جسمه كله ،
وانعكش على نفسه من الصورة التى تخيلها . ولكنه ما لبث أن عاد
إلى الهدوء .

وقال فى بساطة :

« أعذرونى .. إنها أعصابى المتعبة . وإذا كان العمل فى سبيل المسيح
يؤدى إلى هناك فليكن ذلك .. من أنا حتى أشكو ؟ ، .

وشعرت وكأننى أصبح بصوت عال كلما نظرت إليه :

« أيها الأسقف العظيم ! أيها البطل ! يا بطل الله ! ،

ومع مضى المساء عرفنا أشياء كثيرة عن أعماله :

وذكر الأسقف :

« لقد بعث منزلى ، أو على وجه الدقة منازلى - وكل من ملكاتى

الأخرى . وقد أدركت أنه يجب على أن أمضى في ذلك سرأ ، وإلا أخذوا مني كل شيء . ولم كان هذا فظيماً لو أنه حدث . وكثيراً ما أتعجب من تلك الأيام كلما فكرت فيما كان المرء يشتريه من كميات هائلة من البطاطس أو الخبز أو اللحم أو الفحم أو الوقود بمائتين أو ثلاثمائة ألف دولار .

والتفت نحو إرنست قائلاً :

« أنت على صواب أيها الفتى إن العمال يتلقون أجوراً منخفضة إلى حد مروع ، إنني لم أقم بأى عمل فى حيائى غير انتزاع إعجاب الفريسين - اعتقدت أنتى أبشر بالرسالة . ومع ذلك كنت أكسب نصف مليون دولار حتى أدركت كم من البطاطس والخبز والزبد واللحم أستطيع أن أشتريها بها . وعندئذ أدركت شيئاً آخر . أدركت أن كل تلك البطاطس وذلك الخبز والزبد واللحم ملك لى . وأننى لم أعمل شيئاً من أجل الحصول عليها . وعندئذ أصبح كل شيء واضحاً أمامى . فهناك شخص آخر قد اشتغل وصنعها ولمكنها سلبت منه . وعند ما نزلت وسط الفقراء ، وجدت أولئك الذين سرقوا ، الذين أصبحوا جوعى وبؤساء لأنهم سُرقوا . »

وعدنا به إلى حكايته فقال :

« المال ؟ لقد أودعته فى عدة بنوك بأسماء مختلفة . لا يمكن سلبه منى لأنه لا يمكن العثور عليه . وما أحسن ذلك المال ، إنه يشتري كثيراً من الطعام . . لم أعرف من قبل على الإطلاق فى أى شيء يفيد المال . »

وقال إرنست فى كآبة :

« كم أود أن نحصل على جزء منه ، من أجل أعمال الدعابة . . . إن هذا سيؤدى خدمة كبيرة . »

وقال الأسقف :

« هل تعتقد هذا ؟ ليس لي ثقة كبيرة في السياسة . بل أخشى في الحقيقة أنني لا أفهم السياسة ، . »

وكان إرنست دقيقاً في مثل هذه الأمور . فلم يكرر اقتراحه على الرغم من أنه كان يعرف جيداً أن الحزب الاشتراكي يواجه مأزقاً حرجياً بسبب حاجته الشديدة إلى المال .

ومضى الأسقف قائلاً :

« إنني أنام في الفنادق الرخيصة . ولكنني أخاف فلا أمكث كثيراً في مكان واحد . وقد استأجرت أيضاً غرفتين في منازل العمال بأحياء مختلفة من المدينة . إنني أدرك أن هذا إسراف كبير ولكنه ضروري ، وأنا أعوض جزءاً منه بقيامتي بالطهي لنفسي ، على الرغم من أنني أحياناً أشتري شيئاً لأكله من المقاهي الرخيصة . ولقد توصلت إلى اكتشاف ، فأطباق « التامال »^(١) حسنة للغاية ، عندما تزيد برودة الجو في ساعات متأخرة من الليل . وليس هناك ما يعيبها سوى أنها غالية . ولكنني اكتشفت مكاناً أستطيع فيه أن أحصل على ثلاثة أطباق منها بعشرة سنتات . صحيح أنها ليست جيدة مثل الأخرى ، ولكنها تبعث في الجسم كثيراً من الدفء . وهكذا وجدت أخيراً عملي في هذا العالم . . فشكراً لك أيها الفتى . . لأنه عمل السيد المسيح ، . »

ونظر إلى وتألقت عيناه :

« لقد أمسكت بي وأنا أطمع خرافه . . أنت تعرفين . وبالطبع سوف تحفظون جميعكم سرى ، . »

(١) طبق مكسيكي يشار إليه كثيراً في آداب هذا العصر . ومن المفروض أن كثيراً من التوابل تدخل في أعداده . ولم تصلنا أي وصفة لصنع هذا الطبق .

لقد تكلم بلا مبالاة إلى حد بعيد، ولكن خوفاً حقيقياً توأرى خلف كلماته . ووعده الأسقف بزيارتنا مرة أخرى . وابتكنا قرأنا في الصحيفة بعد أسبوع عن الحالة المحزنة للأسقف مورهاوس الذي اقتيد إلى مصحة « نابا » للأمراض العقلية والذي مازال هناك أمل لشفائه . وحاولنا دون جدوى أن نراه وأن نطلب إعادة النظر في قضيته أو إعادة دراستها . ولم نستطع أن نعرف شيئاً عنه سوى البيانات المتكررة بأن هناك آمالاً خفيفة مازالت معقودة لشفائه .

وقال إرنست في مرارة :

« لقد طلب المسيح إلى الغنى أن يبيع كل ما يملك . وأطاع ما أمره به المسيح ، فاحتجز في مستشفى المجانين . لقد تغير العالم منذ أيام المسيح . فالرجل الغنى الذي يعطى لليوم كل ما يملك إلى الفقراء إنما هو مجنون . وليس هناك مجال للنقاش - لقد أصدر المجتمع قراره . . . »

الفصل الثالث عشر

الإضراب العام

كان من الطبيعي أن ينتخب إرنست عضوا في الكونجرس في أثناء التحول الكبير الذي طرأ على الجماهير لمصلحة الاشتراكية في نهاية عام ١٩١٢ . وبينما لم يكن القضاء على هيرست ^(١) مهمة صعبة أمام البلوتوقراطية ، فقد كان أحد العوامل القوية التي ساعدت على تضخم التصويت لصالح الاشتراكيين . كان هيرست ينفق ثمانية عشر مليون دولار كل عام في سبيل إصدار صحفه . غير أنه كان يستعيد ذلك المبلغ وأكثر منه من إعلانات الطبقة المتوسطة . وهكذا شككت تلك الطبقة المصدر الأساسي لقوته المالية . أما التروستات فلم تلجأ إلى الإعلان ^(٢) . ومن هنا كان لا بد لها من أجل القضاء على هيرست أن تحرره من مورد إعلاناته .

(١) وليم راندولف هيرست - مليونير شاب من كاليفورنيا أصبح أقوى مالك للصحف في البلاد . وكانت صحفه تصدر في جميع المدن الكبرى ، وتحوز اعجاب الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة التي اخذت تنحدر نحو نهايتها . وازداد انصار هيرست حتى تمكن من احتلال مكان الحزب الديمقراطي القديم . وشغل هيرست وضعا شاذا ومتناقضا ، فكان يدعو الى اشتراكية عاجزة ممتزجة بنوع غريب من رأسمالية البورجوازية الصغيرة ، وكانها دعوة الى مزج الماء بالزيت . ولم يكن امامه ثمة أمل رغم انه أصبح لفترة قصيرة مصدر خوف عظيم بالنسبة للبلوتوقراطيين .

(٢) كانت تكاليف الاعلان مذهلة في تلك الايام التي اختلط فيها النابل بالنابل . لم يكن يدخل المنافسة سوى الرأسماليين الصغار . لذلك لجئوا الى الاعلان . اما في حالة التروستات فلم تكن هناك منافسة . لذلك لم تكن لديهم حاجة الى الاعلان .

ولم تكن الطبقة المتوسطة كلها قد قضى عليها بعد . لقد استمر هيكها القوي ، ولكنها كانت مجردة من السادة . وأصبح رجال الصناعة والأعمال الصغار الذين واصلوا البقاء ، خاضعين للبلوتوقراطية كلبية . فلم تعد لديهم شخصية سياسية واقتصادية مستقلة . وعندما أصدرت البلوتوقراطية قرارها ، سرعان ما حجبوا إعلاناتهم عن صحف هيرست .

وقاوم هيرست مقاومة جيدة ، فأصدر صحفه متحملا خسارة بلغت مليوناً ونصف مليون من الدولارات كل شهر . وواصل هيرست نشر الإعلانات التي لم يعد يتسلم ثمنها . ومرة أخرى أصدرت البلوتوقراطية أمرها . وسرعان ما أغرق رجال الصناعة والأعمال الصغار هيرست بسيل من الإنذارات يطالبونه بالكف عن نشر إعلاناتهم القديمة . غير أنه أصر على نشرها فتوالى عليه الإنذارات واستمر هو على إصراره . وحكم على هيرست بالسجن ستة شهور لآذرائه المحكمة وعصيان إنذاراتها . ودفع إلى هاوية الإفلاس عن طريق رفع عدد لا يحصى من دعاوى التسيب في الإضرار . ولم يعد أمام هيرست أى خيار . لقد حكمت عليه البلوتوقراطية . وكانت المحاكم مستعدة لتنفيذ الحكم لأنها العوبة في أيديها . وبالقضاء على هيرست قضى كذلك على الحزب الديمقراطي الذي كان قد سيطر عليه منذ أمد قريب .

هكذا قضى على هيرست والحزب الديمقراطي . ولم يعد أمام أنصاره غير سبيلين فحسب . فإما أن ينضموا إلى الحزب الاشتراكي ، وإما أن ينضموا إلى الحزب الجمهوري . وهكذا جنينا نحن الاشتراكيين ثمرة دعوة هيرست إلى الاشتراكية الزائفة . ذلك لأن الغالبية الساحقة من أنصاره انضمت إلى صفوفنا .

كذلك كان من الممكن أن يؤدي نزع ملكيات المزارعين ، الذي تم

في ذلك الوقت ، إلى زيادة أصواتنا لولا ظهور حزب جرانج الذي أمضى حياة قصيرة وعقيمة . وناضل إرنست والقادة الاشتراكيون ببسالة لكسب المزارعين ، ولكن تحطيم دور النشر والصحافة الاشتراكية عطلت جهودهم إلى حد كبير ، في الوقت الذي لم تكن دعايتنا غير المكتوبة قد أجيدت بعد . ومن هنا تمكن سياسيون مثل السيد كالفين عن كانوا هم أنفسهم مزارعين ، نزعت عنهم ملكية الأرض منذ زمن طويل ، من السيطرة على المزارعين والنطويج بقوتهم السياسية في حملة غير مجدبة

المزارعون المساكين ! إن التروستات تسيرهم جيئة . وذهابا .

هكذا قال إرنست ذات يوم وهو يضحك بوحشية .

كان ذلك هو الموقف حقا . لقد اشتركت التروستات السبعة الكبرى في العمل ، واتفقت على توحيد الفائض الهائل لديها ، وأنشأت تروستا زراعية . منذ زمن طويل أوقع أصحاب السكك الحديدية الذين يسيطرون على أسعار النقل ، وأصحاب البنوك ومقامرو البورصة الذين يتحكمون في الأسعار المزارعين في الديون . وتولى أصحاب البنوك والتروستات المشابهة إقراض المزارعين مبالغ هائلة من النقود . ووقع المزارعون في الشرك . ولم يعد أمام التروستات غير جذب خيوط الشبكة . وهذا هو ما بدأ التروست الزراعي في إنجازه .

وأدت أزمة عام ١٩١٢ بالفعل إلى ركود رهيب في أسواق المنتجات الزراعية . وعن عمد أجبرت الأسعار على الهبوط إلى حد الإفلاس . بينما حطم أصحاب السكك الحديدية بأسعارهم الباهظة ظهر المزارع . هكذا اضطر المزارعون إلى اقراض المزيد والمزيد ، بينما منعوا من تسديد قروضهم القديمة . وتبع ذلك وعلى نطاق واسع عمليات نزع ملكية الأراضي المرهونة وإكراه المزارعين على دفع كيبالاتهم . وفي بساطة سلم المزارعون

الأرض للتروست الزراعى ، فلم يكن أمامهم شيء آخر يفعلونه . وبالتخلى عن الأراضى راح المزارعون يعملون فى خدمة التروست الزراعى كمديرين ومراقبين وملاحظى عمال وعمال عاديين مقابل الأجور . لقد أصبحوا أرقاء ، وباختصار أقنانا مقيدين إلى الأرض بأجور يعيشون منها . ولم يعد فى وسعهم مغادرة أسياهم . لأن هؤلاء الأسياد كانوا يؤلفون البلوتوقراطية . ولم يكن فى وسعهم أن يذهبوا إلى المدن لأن البلوتوقراطية كانت تتحكم هناك أيضا . ولم يعد أمامهم غير بديل واحد ، أن يغادروا الأرض ويتشردوا ، وبتعبير موجز أن يتضوروا جوعا . وقد خابت آمالهم حتى فى هذا المجال عندما صدرت قوانين التشرد الصارمة وفرضت فى قسوة .

وكان من الطبيعى أن ينجح بعض الفلاحين ، بل جماعات كاملة منهم هنا وهناك فى تجنب انتزاع ملكيتهم بفضل ظروف استثنائية ، ولكنهم كانوا مجرد قلة لم تؤثر فى الأمر ، لم يعض عليهم دام واحد حتى انتزعت أراضهم (١) .

(١) فى عهد الرومان لم يتم القضاء على طبقة الملاك الصغار بمثل هذه السرعة التى قضى بها على المزارعين الأمريكيين وصغار الراسماليين ، وفى القرن العشرين كانت هناك قوة دفع بينما لم يكن هناك شيء من هذا القبيل من الناحية العملية فى روما القديمة . وقد حاول عدد من المزارعين الذين تملكتهم الرغبة المسعورة فى تملك الأرض ، والذين اظهروا كيف يمكن للإنسان أن ينقلب إلى وحش ، حاولوا تجنب انتزاع ملكيتهم وذلك عن طريق الامتناع عن كل تعامل مع السوق . فلم يبيعوا شيئا أو يشتروا شيئا . وبدأوا ينشئون فيما بينهم نظاما للمقايضة البدائية . وتحملوا فى سبيل ذلك الحرمان والمصاعب الرهيبة ، غير أنهم أصروا على المضى فى طريقهم . وتحول كل هذا إلى حركة لها وزنها . ولكن الطريقة التى هزموا بها كانت فريدة ومنطقية وبسيطة . لقد رفعت البلوتوقراطية بفضل سيطرتها على الحكومة الضرائب . وكانت تلك نقطة الضعف فى استحكاماتهم ، فحيث لا يمارسون الشراء أو البيع لم تكن لديهم نفود . وفى النهاية بيعت أراضهم من أجل دفع الضرائب .

وهكذا في نهاية عام ١٩١٢ قرر الزعماء الاشتراكيون فيما عدا إرنست أن نهاية الرأسمالية قد اقتربت . والحق أنه كانت لهم مبرراتهم . فالأزمة الحادة وما أدت إليه من اتساع جيش العاطلين والقضاء على الفلاحين والطبقة المتوسطة، والهزيمة الساحقة التي منيت بها الاتحادات العمالية في كافة الميادين - كل ذلك دفع الاشتراكيين إلى الاعتقاد بأن نهاية الرأسمالية قد حلت ، وإلى الإلقاء بقفاز التحدي في وجه البلوتوقراطية .

كم كان مؤسفاً استخفافنا بقوة العدو . لقد أعلن الاشتراكيون في كل مكان أنهم سوف ينتصرون في الانتخابات . وعبروا عن الموقف في كلمات لا تقبل الخطأ . وقبلت البلوتوقراطية التحدي . وكانت البلوتوقراطية هي التي أحسنت وزن الأمور وتقديرها ، فهزمتنا عن طريق تقسيم قواها . لقد كانت البلوتوقراطية هي التي أطلقت عن طريق عملائها السريين صيحة استنكار الاشتراكية بوصفها ملحدة مدنسة . وسأقت الكنائس وخاصة الكنيسة الكاثوليكية إلى هذا السبيل وسلبتنا جانباً من أصوات العمال الانتخابية . كما كانت البلوتوقراطية هي التي شجعت عن طريق عملائها السريين بطبيعة الحال على إنشاء حزب جرانج ، بل والعمل على امتداد نفوذه إلى المدن في صفوف الطبقة المتوسطة الأخذة في الانهيار .

ورغم كل ذلك ، حدث تحول الرأي العام نحو الاشتراكية . غير أنه بدلا من الاكتساح في المناصب التنفيذية الرئيسية وفي كل المجالس التشريعية، وجدنا أنفسنا نعيش في الأقلية . حقا انتخب لنا خمسون نائبا في الكونغرس ، لكنهم وجدوا أنفسهم دون أي سلطة عندما احتلوا مقاعدهم في ربيع عام ١٩١٣ . ومع ذلك فقد كانوا أكثر حظا من نواب حزب جرانج الذين سيطروا على اثنتي عشرة حكومة من حكومات الولايات ، غير أنه لم يسمح لهم بتولي مقاليد المناصب التي كسبوها عندما حل الربيع . وقد رفض محتلو هذه المناصب التخلي عنها . بينما كانت المحاكم في يد الاحتكارية . غير أن كل

هذا سابق لأوانه ، إذ يجب على أن أتحدث قبل ذلك عن الأيام المثيرة التي عاصرناها في شتاء عام ١٩١٢ .

لقد سببت الأزمة الداخلية نقصاً هائلاً في الاستهلاك ، فالعمال وقد أصبحوا بلا عمل لم يعودوا يتلقون الأجور التي يشترون بها المنتجات . ونتاج عن ذلك أن وجدت البلوتوقراطية في حوزتها فائضاً أكبر من أى وقت مضى ، فاضطرت إلى تصريفه في الخارج ، وبسبب خطتها الضخمة احتاجت البلوتوقراطية إلى النقود . ونتيجة لجمودها الجبارة لتصرف الفائض في السوق العالمى ، اصطدمت مصالح البلوتوقراطية مع ألمانيا . ودائماً ما أعقبت الحرب الاصطدامات الاقتصادية . ولم يكن ذلك الاصطدام المحدد مع ألمانيا استثناء عن تلك القاعدة . لقد أخذ سيد الحرب الألمانى الكبير في الاستعداد ، كذلك فعلت الولايات المتحدة .

وخيمت سحابة الحرب المشؤومة والقائمة ، وتم إعداد المسرح من أجل كارثة عالمية . ذلك أن العالم كان مليئاً بالأزمات ، واضطرابات العمال واحتضار الطبقات المتوسطة ، وجيوش المتعطلين واصطدام المصالح الاقتصادية في السوق العالمى ، وقعقة ودمدمة الثورة الاشتراكية^(١) .

(١) استمرت هذه القمعات والدمدمات تسمع لزمان طويل . فمنذ عام ١٩٠٦ ميلادياً قال اللورد الانجليزى آفيبورى ما يلى في مجلس اللوردات : « ان الاضطرابات في أوروبا وانتشار الاشتراكية والنشأة المشؤومة للفوضوية انما هي انذارات للحكومات والطبقات الحاكمة بأن حالة الطبقات العاملة في أوروبا لم تعد محتملة ، وأنه اذا أريد تجنب الثورة يجب اتخاذ بعض الخطوات لزيادة الأجور وانقاص ساعات العمل وتخفيض أسعار السلع الضرورية للمعيشة » .

وقد علقت صحيفة « وول ستريت جورنال » وهي صحيفة يصدرها بعض المضاربين في الأسهم المالية ، على خطاب اللورد آفيبورى بقولها : « ان هذه الكلمات قد نطق بها رجل ارستقراطى وعضو في اكثر الاجهزة المحافظة في أوروبا كلها . وهذا ما يعطيها دلالة اكبر . انها تشتمل على

لقد أرادت الاحتكارية الحرب مع ألمانيا لعشرات الأسباب . فهناك تجد الاحتكارية وسط خداع الاحداث الذي تخلقه الحرب ، ومن خلال عملية إعادة توزيع أوراق اللعب الدولية ، وعقد التحالفات والمعاهدات الجديدة مجالا أوسع للربح . وبالإضافة إلى هذا فإن الحرب سوف تستهلك كثيراً من فائض الإنتاج القومي . وتخفض من جيوش العاطلين الذين كانوا يشكلون خطراً في جميع البلدان . وسوف تهيب الحرب للاحتكارية فرصة تتنفس من خلالها حتى تكمل مشاريعها وتضعها موضع التنفيذ . مثل هذه الحرب سوف تمكن الاحتكارية من إخضاع السوق العالمي لسيطرتها بالفعل . كذلك سوف تخلق حرب كهذه جيشاً نظامياً كبيراً لا حاجة إلى تسريحه ، بينما تسبب في أذهان الناس بشعار (الاشتراكية ضد الاحتكارية) شعاراً آخر هو « أمريكا ضد ألمانيا » .

والحق أن الحرب كان بوسعها أن تفعل كل هذه الأشياء لولا وجود الاشتراكيين . فقد عقد في بيتنا الذي يتألف من أربع غرف صغيرة في شارع بيل اجتماع سرى للقادة الغربيين . ودار بحثهم أساساً حول الموقف الذي يتعين على الاشتراكيين اتخاذه . لم تكن هذه هي المرة الأولى التي

== اقتصاد سياسي أكثر قيمة من ذلك الذي يوجد في معظم الكتب . انها تبدو وكأنها علامة انذار . فخذوا حذرکم ايها السادة في كل من وزارة الحرب ووزارة البحرية ! » .

وفي الوقت ذاته كتب سيدني بروكس في أمريكا بمجلة « هاربرزويكلي » قائلاً « انكم في واشنطن لن تسمعوا ما ذكر عن الاشتراكيين . ولماذا تفعلون ذلك » ؟

« ان السياسيين في هذا البلد هم دائماً آخر الناس الذين يرون ما يجري تحت انوفهم . ولسوف يهزاون بي عندما اتنبأ بكل ثقة بان الاشتراكيين سوف يفوزون بأكثر من مليون صوت في انتخابات الرئاسة القادمة » .

يقف الاشتراكيون فيها ضد الحرب^(١) . ولكنها كانت أول مرة نفعل فيها ذلك في الولايات المتحدة . وبعد أن انتهى اجتماعنا السري اتصلنا بالمنظمة الوطنية . وسرعان ما كانت برقياتنا السرية تغدو جيئة وذهاباً ، بنا وبين المكتب الدولي عبر المحيط الأطلنطي .

واستعد الاشتراكيون الألمان للعمل معنا . وكانوا يبلغون أكثر من خمسة ملايين من الأعضاء انضوى أكثرهم في صفوف الجيش النظامي ، بالإضافة إلى علاقات الصداقة التي كانت تربطهم باتحادات العمال . وتقدم الاشتراكيون في كل من البلدين ليعلنوا في جرأة معارضتهم للحرب وتهديدهم بالإضراب العام . وبدأوا في الوقت نفسه إعدادهم لذلك الإضراب . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد أعلنت الأحزاب الثورية في جميع البلدان مساندة المبدأ الاشتراكي الداعي إلى السلام العالمي والذي يجب صيانتها في مواجهة جميع الأخطار ، حتى ولو أدى الأمر إلى التمرد والثورة داخل أي بلد .

وكان الإضراب العام هو الانتصار الكبير الوحيد الذي أحرزناه نحن الاشتراكيين الأمريكيين . ففي الرابع من ديسمبر سحب السفير الأمريكي من العاصمة الألمانية . وفي تلك الليلة هاجم أسطول بحري ألماني هونولولو وأغرق ثلاثة طرادات أمريكية وأحد الزوارق المسلحة وأطلق قذائفه على المدينة .

(١) له تنته منظمة الاشتراكيين الدولية من صياغة سياستهم حول الحرب إلا في بداية القرن العشرين بعد اختصار طويل . وفي كلمات موجزة كان مبدأ الاشتراكيين ، « لماذا يحارب عمال أي بلد عمال بلد آخر لمصلحة السادة الرأسماليين ؟ » .

وفي ٢١ مايو عام ١٩٠٥ ميلاديا ، عندما حدثت أخطار الحرب بين النمسا وإيطاليا ، عقد الاشتراكيون الإيطاليون والنمساويون والهنجارويون مؤتمراً في تريستا ، وهددوا بالإضراب العام لعمال كل من البلدين في حالة إعلان الحرب . وقد تكرر هذا العمل في العام التالي عندما هددت « المسألة المراكشية » بإعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا وانجلترا .

وفي اليوم التالي أعلنت كل من ألمانيا والولايات المتحدة الحرب . ولم تـمض ساعة واحدة حتى دعا الاشتراكيون إلى الإضراب العام في كل من البلدين .

وللرة الأولى واجه سيد الحرب الألماني رجال إمبراطوريته . أولئك الرجال الذين كانوا القوة المسيرة لتلك الإمبراطورية ، فبدونهم لم يكن يستطيع الاحتفاظ بها . وكان الجديد في الموقف أن ثورتهم كانت ثورة سلبية . إنهم لم يحاربوا ، إنهم لم يفعلوا شيئاً . وبذلك قيدوا سيد الحرب الذي وجد في ذلك أفضل الفرص كي يطلق كلاب حربيه على طبقته العاملة الثائرة . غير أن سيد الحرب حرم من هذه الفرصة ، فلم يتمكن من إطلاق تلك الكلاب ، كما عجز عن تعبئة جيشه لخوض غمار الحرب ، بل عجز أيضاً عن إنزال العقاب برعاياه المتمردين . ولم تدر عجلة واحدة في الإمبراطورية ، ولم يجر أى قطار ، ولم تنتقل أى رسالة تلغرافية عبر الأسلاك . ذلك أن رجال التلغراف والسكك الحديدية توقفوا عن العمل تضامناً مع سائر أفراد الشعب .

وكما في ألمانيا ، حدث ذلك في الولايات المتحدة . وأخيراً استوعب العمال المنظمون درسهم . لقد هجروا الميدان الذي اختاروه بعد أن هزموا فيه هزيمة ساحقة ، وجاءوا إلى ميدان الاشتراكيين السياسى . ذلك أن الإضراب العام كان إضراباً سياسياً . وبالإضافة إلى ذلك كانت هزيمة العمال المنظمين قاسية حتى إنهم تخلوا عن الحذر وانضموا إلى الإضراب العام بدافع من اليأس الخالص . وألقى ملايين العمال بأدوات العمل وتركوا أعمالهم . وبرز موقف الميكانيكيين بصفة خاصة ، فقد كان رؤسائهم متعاطفين إلى الدماء . أما منظماتهم فقد سحقت بصورة واضحة . ومع ذلك جاءوا إلينا مع حلفائهم من عمال الصناعات المعدنية .

وحتى العمال العاديون والعمال غير المنظمين توقفوا عن العمل . لقد أحكم الإضراب خيوطه فمعجز كل إنسان عن العمل . وإلى جانب ذلك برهنت النساء على أنهن أقوى المثيرين للإضراب . لقد وقفن ضد الحرب حيث لم يرغبن في ذهاب رجالهن إلى ساحة الموت . واستحوذت فكرة الإضراب العام على عواطف الشعب ، ومست روح الدعاية لديه . وسرعان ما انتشرت الفكرة فأضرب الأولاد في جميع المدارس . ولم يجد المدرسون الذين أرادوا مواصلة العمل غير العودة إلى بيوتهم مرة أخرى عندما كانوا يجدون فصول الدراسة وقد هجرها التلاميذ . وأخذ الإضراب مظهر نزهة خلوية كبيرة على النطاق القومي ، وراقت فكرة تضامن العمال لخيال الجميع بعد أن برهنت على صحتها . وأخيراً لم يكن هناك ثمة خطر من المشاركة في ذلك المرح الجماعي الواسع ، فكيف يمكن إنزال العقاب بأى نسان إذا كان الجميع مذنبين ؟ .

وأصيبت الولايات المتحدة بالشلل . ولم يدرك أى إنسان ماذا يحدث . لم تكن هناك صحف أو خطابات أو مراسلات . وأصبحت كل جماعة من الناس معزولة تماماً وكان آلاف الأميال من المجاهل البدائية قد امتدت بينها وبين سائر أنحاء العالم . فمن هذه الناحية لم يعد للعالم وجود ، واستمرت هذه الحال مدة أسبوع كامل .

ولم نعرف في سان فرانسيسكو ماذا يحدث ، ولو كان ذلك فيما وراء الخليج في أوكلاند أو في بيركلى . وبعث ذلك في النفوس شعوراً غريباً ومقبضاً . لقد بدا وكأن هناك شيئاً كونياً هائلاً يرقد ميتاً . وتوقفت نبضات البلاد عن الخفقان . والحق أن الأمة كلها قد ماتت . لم تعد هناك عربات تدمدم في الطرق ولا صفارات أو أزيز الكهرباء في الجو ولم تعد السيارات تمر في الشوارع . ولم تعد تسمع صيحات باعة الصحف - لاشيء غير أشخاص كانوا يجتازون الشارع على قرات متباعدة وفي خلسة مثل الأشباح ، وقد فهرم الصمت وأحالهم إلى شخصيات غير حقيقية .

وخلال ذلك الأسبوع من الصمت تعلمت الاحتكارية درسها ، واستوعبته جيداً . كان الإضراب العام إنذاراً لها ، يجب ألا يحدث مرة أخرى . ذلك هو ماستهم به الاحتكارية . وفي نهاية الأسبوع ، ووفقاً لما تم إعداده من قبل ، عاد عمال التلغراف إلى مراكز عملهم في كل من ألمانيا والولايات المتحدة . وعن طريقهم قدم الاشتراكيون في البلدين إنذارهم إلى الحكام . . يجب إخماد الحرب، وإلا فإن الإضراب سوف يستمر . ولم يمض وقت طويل حتى تم الاتفاق . لقد انتهت الحرب واستأنف الشعبان أعمالهما .

وأدى استناب السلام إلى عقد التحالف بين ألمانيا والولايات المتحدة . والحق أنه كان تحالفاً بين الإمبراطور وبين الاحتكاريين، بغرض مواجهة عدوم المشترك وهو الطبقة العاملة الثورية في كل من البلدين . وهذا هو التحالف الذي نقضته الاحتكارية فيما بعد في خسة عندما ثار الاشتراكيون الألمان وأسقطوا الإمبراطور عن عرشه . وكان هذا هو نفس الشيء الذي تسعى إليه الاحتكارية - ألا وهو تحطيم منافسها العظيم في السوق العالمية . ويزاحة الإمبراطور من الطريق ، فإن ألمانيا لن تجد فائضاً من الإنتاج تبعه في الخارج . ومن واقع طبيعة الدولة الاشتراكية ، فإن الشعب الألماني سوف يستهلك كل ما يقوم بإنتاجه . وبالطبع سوف تسوق ألمانيا في الخارج بعض السلع التي تنتجها حتى تحصل على البضائع التي لا تقوم بإنتاجها . غير أن هذا يختلف تمام الاختلاف عن تسويق فائض الإنتاج غير المستهلك .

وعندما ظهرت خيانة الاحتكارية للإمبراطور الألماني . قال إرنست :

« إنني أراهن على أن الاحتكارية لن تدمر مبرراً ، فسوف تعتقد كالمعتاد أنها قد فعلت الصواب ، .

وصح مقاله إرنست . . دافعت الاحتكارية عن نفسها أمام الرأي .

العام ، بأنها إنما فعلت ذلك من أجل الشعب الأمريكي الذي تقوم على رعاية مصالحه . لقد طردت الاحتكارية منافسها البغيض من السوق العالمية ، ومكنتنا من تهريف فائض إنتاجنا في ذلك السوق .
وعلق إرنست على ذلك بقوله :

« ووجه الحماقة في ذلك هو أن نصبح على هذه الدرجة من العجز حتى يتولى أمثال هؤلاء البلهاء السهر على مصالحنا . لقد مكنونا من أن نبيع كمية أكبر من المنتجات في الخارج . ولا يعني ذلك سوى أننا سنضطر إلى التقليل من الاستهلاك داخل البلاد . »

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الرابع عشر

بداية النهاية

تبين إرنست في وقت مبكر منذ يناير عام ١٩١٣ الاتجاه الحقيقي لسير الأحداث، غير أنه لم يستطع أن يحمل إخوانه من القادة الاشتراكيين على رؤية ضرورة القدم الحديدية كما تشكلت في ذهنه . لقد غالوا في الثقة بأنفسهم ، وتابعت الأحداث في سرعة بالغة حتى وصلت إلى ذروتها . فالأزمة تواجه العالم . أما الاحتكارية العالمية فكانت تبسط سيطرتها على السوق العالمية من الناحية العملية ، بينما أخرجت منها عشرات البلدان مثقلة بفائض من المنتجات لا تجد له مستهلكا أو مشتريا . ولم يعد أمام مثل هذه البلدان سوى إعادة تنظيم اقتصادها . لقد عجزت عن مواصلة طريقها القديمة في إنتاج الفائض من السلع ، وانهار فيها النظام الرأسمالي دون أدنى أمل .

واتخذت عملية إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية في هذه البلدان طابع الثورة . كانت فترة من الاضطراب والعنف . وأخذت المؤسسات والحكومات تنهار في كل مكان . وفي جميع البلدان باستثناء بلدين أو ثلاثة بلدان ، ناضل السادة الرأسماليون المخلوعون نضالا مريراً من أجل الاحتفاظ بملكياتهم . ولكن الطبقة العاملة المكافحة انتزعت مقاليد الحكم منهم ، وهكذا تحقق قول كارل ماركس المأثور : « إن الأجراس تدق لتعلن فناء الملكية الرأسمالية الخاصة ، وأولئك الذين نزعوا الملكية من قبل سوف تنزع ملكيتهم ، . وبالسرية التي تماوت بها الحكومات الرأسمالية نشأت مكانها حكومات تعاونية .

وأرسل لنا رفاقنا المنتصرون في البلدان الأخرى بالبرقيات متسائلين: «لماذا تخلف الولايات المتحدة؟»... «هبوا للعمل أيها الثوريون الأمريكيون».. ماذا حدث لأمريكا؟».

ولكننا لم نستطع اللحاق بهم . . لقد اعترضتنا الاحتكارية، وسدت طريقنا بجسمها مثل وحش هائل .
وأجبنا على رفاقنا بقولنا:

«انتظروا حتى نتولى مراكزنا في الربيع - وعندئذ سوف ترون...»
وخلف هذا كان يختنق سرنا . لقد كسبنا الجرانجيين إلى صفنا . وفي الربيع سوف يستولى هؤلاء على اثنتي عشرة ولاية بفضل الانتخابات التي سبق إجراؤها في الخريف . وفي الحال سوف نقيم منها ولايات اشتراكية .
تعاونية . وبعد ذلك يصبح الأمر سهلاً .

وتساءل إرنست:

«ولكن ماذا لو أخفق الجرانجيون في الاستيلاء على السلطة؟»

لكن رفاق إرنست سموه «بغراب النحاس» .

ولم يكن فشل الجرانجيين في الاستيلاء على السلطة الخطر الرئيسي الذي تخيله إرنست . فلقد ذهب إلى التنبؤ بارتداد الاتحادات العمالية الكبرى ونشوء النظام الطائفي في صفوف الحركة العمالية .

وقال إرنست:

لقد علم جنت Ghent الاحتكاريين كيف يفعلوها . إنني أراهن على أنهم صنعوا من كتابه «الإقطاعية المحسنة»^(١) ، مرجعاً لهم .

(١) هو كتاب «إقطاعيتنا المحسنة» الذي كتبه و . ج . جنت ونشره عام ١٩٠٢ ولطالما أصر النقاد على أن جنت قد أدخل فكرة الاحتكارية في أذهان كبار الراسماليين . ويستمر هذا الاعتقاد راسخاً في المصادر الأدبية خلال القرون الثلاثة من عهد القدم الحديدية ، بل وفي آداب القرن الأول من عهد «الإخاء الإنساني» . واليوم فإن معرفتنا أصبحت أفضل من ذي قبل ولكن هذه المعرفة لم تدحر الحقيقة القائلة بأن جنت هو الرجل الذي أسبغت معاملته أكثر من أي إنسان آخر في التاريخ كله .

ولن أنسى ما حيدت تلك اللبلة التي التفت فيها إرنست نحوى بعد
مناقشة حامية مع ستة من القادة العماليين وقال بهدوء :

« هذا يضع نهاية لكل شيء . لقد انتهت القدم الحديدية وبدأت ملاح
النهاية » .

ولم يكن ذلك المؤتمر الذى عقد فى بيتنا مؤتمراً رسمياً . ذلك أن إرنست
مثله مثل سائر رفاقه كان يعمل لحمل القادة العماليين على التأكيد بأنهم
سيبتولون دعوة رجالهم إلى الإضراب العام القادم . وكان أوكونور
رئيس اتحاد الميكانيكيين هو أشد القادة الستة الحاضرين إصراراً على الرفض
فى منح مثل هذه التوكيدات .

وقال إرنست بإلحاح :

« لقد رأيتم كيف هزمت هزيمة قاسية عندما اتبعتم خططكم القديمة
فى الإضراب والمقاطعة » .

وهز أوكونور والآخرين رهوسهم . وواصل إرنست حديثه :

« كذلك رأيتم ماذا يفعل الإضراب العام . لقد وضعنا نهاية للحرب
مع ألمانيا . ولم يحدث من قبل مثل هذا العرض الرائع لتضامن العمال وقوتهم .
يستطيع العمال أن يحكموا العمال وسوف يفعلون . فإذا واصلتم الوقوف
إلى جانبنا سوف نضع نهاية لعهد الرأسمالية . إنه أملمكم الوحيد . وأكثر
من ذلك أنتم تعرفون ذلك ، ليس هناك سبيل آخر للإفلاص . ومهما
تفعلون فى ظل خططكم القديمة فقد حكتم على أنفسكم بالهزيمة ، ليس
لسبب آخر سوى أن السادة الرأسماليين يسيطرون على المحاكم (١) .

(١) يمكن تقديم نموذج لقرارات المحاكم المتعارضة مع مصالح العمال
فى الحالات الآتية :

وأجاب أوكونور :

« إنك تسبق الأحداث أكثر مما ينبغي . وأنت لاتعرف كل طرق الخلاص ، فثمة هناك طريق آخر . إننا نعرف ما نحن بصدده . لقد سئمتنا الإضرابات بعد أن هزمونا فيها هزيمة ساحقة . ولكنني أعتقد أننا نلجأ نحتاج مطلقا إلى أن ندعو رجالنا للإضراب مرة أخرى . »

وسأله إرنست في خشونة :

« وما هو سبيلكم للخلاص ؟ ، » .

وضحك أوكونور وهو يهز رأسه قائلا :

« أستطيع أن أخبرك عن ذلك بالقدر الآتي . . إننا لم نكن بنائمين ..
ولسنا الآن بحالين ، » .

وتحداه إرنست :

= ففي مناطق تعدين الفحم يتمتع تشغيل الأطفال بسمعة سيئة . وفي عام ١٩٠٥ ميلاديا نجح العمال بولاية بنسلفانيا في اجازة قانون يقضي بتقديم ما يثبت عمر الطفل وحصوله على بعض المؤهلات الثقافية بالإضافة إلى حلفان الأب لليمين . وعلى الفور أعلنت محكمة مقاطعة لوزرن عدم دستورية ذلك القانون بدعوى انتهاكه للمادة الرابعة عشرة المعدلة حيث ميزت بين الأفراد من نفس الطبقة وهم الأطفال الذين تجاوزوا سن الرابعة عشرة والأطفال الذين لم يبلغوا هذه السن . وقد ساندت محكمة الولاية هذا القرار . وفي عام ١٩٠٥ أيضا ، أعلنت محكمة نيويورك عدم دستورية القانون الذي يمنع النساء القصر من العمل في المصانع بعد الساعة التاسعة مساء ، بدعوى أن مثل هذا القانون كان «تشريعا طبقيًا» .
ومرة أخرى كان الخبازون في تلك الأيام يعملون حتى الإرهاق . فأصدر المجلس التشريعي بولاية نيويورك قانونا بتحديد ساعات العمل في المخازن بعشر ساعات في اليوم الواحد . وفي عام ١٩٠٦ أعلنت المحكمة العليا للولايات المتحدة قرارها بعدم دستورية ذلك القانون وجاء في جزء من القرار : « ليس هناك أي أساس منطقي للتدخل في حرية الأشخاص أو في حق التعاقد الاختياري وذلك بتحديد ساعات العمل لعمال المخازن » .

« ليس شيئاً تخشاه أو تخجل منه . . ذلك ما أرجوه . » .

وجاءه الرد :

« أعتقد أننا أفضل من يعرف مهامنا . » .

وقال إرنست وغضبه يتزايد :

« إنها مهمة مجللة بالسواد . يبدو ذلك من أسلوبك في إخفائها . » .

وأجابه أوكونور :

« لقد دفعنا ثمن خبرتنا عرقاً ودماً . ونحن نستحق كل ما سيثول لنا . »

إن الإحسان يبدأ بأهل البيت . » .

وغلى الدم في عروق إرنست وهو يقول :

« إذا كنت تخشى أن تخبرني عن سبيلك للخلاص ، فسوف أخبرك أنا . »

إنكم تعتزمون المشاركة في عملية السلب . لقد عقدتم الاتفاق مع العدو . »

هنا هو ما فعلتموه . بعمق قضية العمال . . العمال جميعهم . إنكم تهجرون

ميدان المعركة مثل الجبناء . » .

وأجاب أوكونور في اقتضاب :

« أنا لا أقول شيئاً . وكل ما أعتقده أننا نعرف أكثر منك قليلاً . »

ما هو أفضل شيء لنا . » .

وقال إرنست :

« وانت لا تبالي بأي شيء مما هو أفضل لسائر العمال . إنك ترمى

بمصلحتهم في الهاوية . » .

وأجاب أوكونور :

« إننى لا أقول شيئاً سوى أنى رئيس اتحاد الميكانيكيين ، وأن عملى
يوجب على السهر على مصالح الرجال الذين أمثلهم . هذا هو كل ما فى الأمر . »

وعندما خرج القادة العماليون صورلى إرنست فى هدوء الرجل الذى
تمت هزيمته مجرى الأحداث القادمة ، وقال :

« اعتاد الاشتراكيون أن يتنبأوا فى ابتهاج بحلول اليوم الذى ينتقل
فيه العمال المنظمون إلى ميدان العمل السياسى ، بعد هزيمتهم فى الميدان
الصناعى . حسنا لقد هزمت القدم الحديدية اتحادات العمال فى ذلك الميدان
ودفعتم إلى الميدان السياسى . وبدلاً من أن يكون ذلك باعثاً للبهجة لدينا ،
سوف يصبح مصدراً للأسى . لقد استوعبت القدم الحديدية درسها عندما
بدأت لها قوتنا فى الإضراب العام . ومن ثم بدأت فى اتخاذ الخطوات
التي تحول بها دون قيام إضراب عام آخر . »

وسأله :

« ولكن كيف ذلك ؟ »

وأجابنى إرنست :

« ببساطة عن طريق تقديم المعونات المالية للاتحادات العمالية الكبرى .
وعندئذ سوف لا تنضم هذه الاتحادات إلى الإضراب العام القادم ،
وهكذا لن يصبح إضراباً عاماً . »

واعترضت على كلام إرنست بقولى :

« ولكن . . ليس بوسع القدم الحديدية القيام بمثل هذا المشروع
باهظ التكاليف إلى الأبد . »

فقال إرنست :

« آه . ولكنها لم تقدم المعونة المالية لجميع الاتحادات . ليس ذلك ضرورياً . وهذا هو ما سيحدث ، سوف تزيد الأجور وتخفض ساعات العمل في اتحادات عمال السكك الحديدية ، واتحادات عمال الصلب والحديد ، واتحادات الميكانيكيين والمهندسين . في هذه الاتحادات ، متسود ظروف أفضل ، وتصبح المضوية مثل مقاعد الجئة ، .

ومرة أخرى اعترضت على قوله :

« لأنني ما أزال عاجزة عن الفهم . . ماذا سيكون مصير الاتحادات الأخرى؟ سوف تكون هناك اتحادات خارج هذا التجمع أكثر مما بداخله .

وقال إرنست :

« إن الاتحادات الأخرى سوف تزال من الوجود جميعها . الأتريين رجال السكك الحديدية والميكانيكيين والمهندسين وعمال الحديد والصلب يقومون بجميع الأعمال الحيوية والأساسية في حضارتنا القائمة على الآلة . وعندما تضمن القدم الحديدية إخلاص تلك الاتحادات وولاءها لها فسوف تتحكم في تسخير سائر العمال وإخضاعهم . إن الحديد والصلب والفحم والمواصلات تشكل العمود الفقري للبناء الصناعي في مجمله ، .

وتساءلت :

« ولكن الفحم ! هنالك ما يقرب من مليون عامل يعملون في مناجم الفحم ، .

وأجاب إرنست :

« إنهم عمال غير مهرة من الناحية العملية . لذلك فهم لن يقدموا أو يؤخروا وستنخفض أجورهم بينما تزيد ساعات عملهم . إنهم سيصبحون عبيداً مثلنا جميعاً . وسوف يكون وضعهم أكثر الأوضاع حيوانية .

سوف يضطرون للعمل . مثل ما يفعل المزارعون الآن من أجل أسياهم الذين سلبهم أرضهم . هذا هو نفس ما سيحدث للاتحادات الأخرى خارج ذلك التجمع . راقبها وهي تمايل وتمزق ، ويصبح أعضاؤها عبيداً يساقون إلى الكدح تحت سطوة قوانين البلاد ولذع بطونهم الخاوية .

« هل تعرفين ماذا حدث لفارلى (١) ورجاله من محطى الإضراب؟ ..
« سأخبرك . إن مهنة تحطيم الإضرابات سوف تتوقف . فلن تحدث إضرابات أخرى ، وبدلاً منها ستنشأ ثورات العبيد . وسوف يرقى فارلى وعصابته لمهمة سوق العبيد . ولكنها لن تدعى كذلك . بل سيدعونها بمهمة تنفيذ قوانين البلاد التي ترغم العمال على العمل . إن خيانة الاتحادات العمالية الكبرى هذه لن تطيل إلا من أمد الصراع . والله وحده يعلم أين ومتى ستنتصر الثورة ، ؟ .

فسألته :

« ولكن هل هناك أى سبب يبعث على الاعتقاد بأن الثورة سوف تنصر في يوم من الأيام في مواجهة مثل هذا التعاون الراسخ بين الاحتكاريين والاتحادات العمالية الكبرى ؟ . . ألا يمكن لهذا التعاون أن يستمر إلى الأبد ؟ . »

وهز إرنست رأسه قائلاً :

« إننا نرى أن كل نظام يقوم على أساس طبق وطائفي ، إنما يضم بداخله

(١) جيمس فارلى . محطم إضرابات رديء السمعة ظهر في تلك الفترة . وكان رجل جسارة أكثر منه رجل أخلاق . وقد تمتع بمقدرة لا يمكن إنكارها ، وارتفع عالياً في ظل سيطرة القدم الحديدية . وأخيراً أصبح واحداً من الطبقة الاحتكارية . وفي عام ١٩٣٢ قامت سارة جينكينز باغتياله . وكان زوجها قد قتل قبل ذلك بثلاثين عاماً على أيدي رجال فارلى من محطى الإضراب .

بذور تحمله . فعندما يؤسس النظام الاجتماعي على أساس طبقي ، كيف يمكن منع ظهور الطائفية ؟ إن القدم الحديدية متعجز عن ذلك . وفي النهاية سوف تحطم الطائفية القدم الحديدية . لقد خلق الاحتكاريون طائفة فيما بينهم بالفعل . ولكن انتظري حتى تنشأ الاتحادات المميزة طوائفها ، وسوف تستخدم القدم الحديدية كل قواها كي تحول دون ذلك بغير طائل .

« وفي داخل الاتحادات التي يميزها الاحتكاريون توجد زهرة العمال الأمريكيين . إنهم رجال أقوياء لهم فاعليتهم . ولقد وصلوا إلى عضوية تلك الاتحادات من خلال المنافسة . وعندئذ ستتملك كل عامل مقتدر في الولايات المتحدة الرغبة الطموحة في الفوز بتلك العضوية . وسوف تقوم الاحتكارية بتشجيع مثل هذا الطموح والمنافسة التي تتولد عنه . وهكذا يتخلى هؤلاء الرجال الأقوياء عن طريق الثورة ويسخرون قواهم في مساندة الاحتكارية . »

« ومن جانب آخر سوف تناضل التنظيمات العمالية الطائفية وأعضاء الاتحادات التي يميزها الاحتكاريون كي يجعلوا من منظماتهم مجموعات مغلقة عليهم وسوف ينجحون . وعندئذ تصبح العضوية في تلك التنظيمات الطائفية للعمال وراثية ، الأبناء يعقبون الآباء . لن يكون هناك قوى جديدة تدفق من ذلك المنبع الأبدي للقوة ، وهو عامة الشعب . ولا يعني هذا في آخر الأمر سوى تحلل التنظيمات العمالية الطائفية وتزايد ضعفها أكثر فأكثر . وفي الوقت ذاته تصبح هذه التنظيمات الطائفية بوصفها نوعاً من المؤسسات ذات سلطة شاملة ولكنها سلطة مؤقتة ، مثل حراس القصر في روما القديمة . أما داخل القصر فستحدث الثورات التي تستولي بها التنظيمات الطائفية للعمال على مقاليد السلطة . وفي مواجهتها ستقوم الاحتكارية بالثورات المضادة ، وهكذا يتبادل الفريقان السلطة بين حين

وآخر . وخلال ذلك سوف تتقدم عوامل الضعف المحتوم في التنظيمات الطائفية للعمال ، حتى يفوز الشعب بحقوقه .

وهكذا تكهن إرنست بهذا التطور الاجتماعي عند ما أصابته خيبة الأمل إزاء ارتداد الاتحادات العمالية الكبرى . ولم أتفق معه على ذلك مطلقاً . أما الآن وبينما أتولى كتابة هذه السطور ، فإنني أخالفه في ذلك الرأي بإيمان متدفق أكثر من أي وقت مضى . ذلك أنه على الرغم من أن الموت قد اختطف إرنست ، فإننا نعيش اليوم على شفا ثورة سوف تكتسح الاحتكارية كلها . ومع ذلك فقد سجلت نبوءة إرنست على هذه الصفحات لأنها نبوءته ، وعلى الرغم من إيمان إرنست بهذه النبوءة فقد قاومها مقاومة المارد ، وراح يهد الطريق أكثر من أي رجل آخر للثورة التي باتت اليوم تنتظر الإشارة حتى تنفجر^(١) .

وفي ذلك المساء سأله :

« ولكن إذا ما أصرت الاحتكارية .. ماذا سيصبح مصير الفائض الإنتاج الكبير الذي سيكون من نصيبها كل عام ؟ »

فأجابني :

« سوف يتعين على الاحتكارية أن تصرف هذا الفائض بطريقة ما . ووثق بأن الاحتكارية ستجد سبيلها إلى ذلك . سوف تبني طرقاً رائعة . وسوف تم إنجازات عظيمة في العلوم وبصورة خاصة في مجال الفنون . وعندما تتولى الاحتكارية إخضاع الشعب تماماً ، فسوف تجد متسعاً

(١) كانت بصيرة ايفرهارد الاجتماعية ثابتة . لقد رأى في وضوح تام على ضوء الأحداث الماضية ارتداد الاتحادات العمالية التي يميزها الاحتكاريون ، ونشأة التنظيمات الطائفية للعمال وتحللها البطيء . والصراع فيما بين الاحتكارية المنهارة وبين تلك التنظيمات الطائفية . في سبيل السيطرة على جهاز الحكم الهائل .

من الوقت تنفقه على أمور أخرى . عندئذ سيصبح الاحتكاريون من متعبدى الجمال ومحبي الفنون . وسوف يكدح الفنانون تحت إرادتهم وفي ظل مكافآتهم السخية . ونتيجة لذلك سيخرج فن عظيم . ذلك أن الفنانين لن يصبحوا كما كانوا حتى الأمس أذبالا للطبقة المتوسطة يماثلون ذوقها . إننى أقول لك إنه سيكون فناً عظيماً وسوف تقام مدينة عجيبة تبدو أمامها مدن العهود القديمة مبهرجة وزائفة . هناك سوف يقيم الاحتكاريون ويتعبدون للجمال^(١) .

هكذا يتم تصريف فائض الإنتاج في انتظام ، بينما يقوم العمال بعبء العمل ولن تقدم إقامة هذه المدن والمنجزات الضخمة للملايين العمال العاديين سوى أجور لا تكاد تسد رمقهم ، ذلك أن ضخامة الفائض من الإنتاج سوف تفرض حجماً مساوياً في الإنفاق . وسينى الاحتكاريون من أجل ألف عام - بل من أجل عشرة آلاف عام . سينون مالم يحلم به المصريون والبابليون . وعندما يتلاشى الاحتكاريون ، ستبقى مدن العجائب وطرقهم العظيمة للعمال المتأخين يمضون عليها ويقيمون فيها^(٢) .

وسوف يفعل الاحتكاريون هذه الأشياء لأنه ما من سبيل آخر أمامهم . وستصبح هذه المنجزات الكبرى الصورة التي يتم بها تصريف فائض الإنتاج ، مثلما فعلت الطبقة الحاكمة في مصر منذ زمن بعيد، عندما صرفت الفائض الذي سلبته من الشعب في بناء المعابد والأهرامات . غير أنه في ظل

(١) ليس بوسعنا سوى أن نتعجب من بصيرة ايفرهارد . فقبل أن يفكر الاحتكاريون في مدن العجائب مثل آرديس وآسجارد ، رأى ارنست تلك المدن كما أدرك الضرورة الحتمية لانشائها .

(٢) مضت على نبوءة ذلك اليوم ثلاثة قرون من عهد «القدم الحديدية» وأربعة قرون من عهد « الإخاء الانساني » واليوم فاننا نسير على الطرقات ونقيم في المدن التي بنتها الاحتكارية . صحيح أننا نبني اليوم مدناً أكثر روعة ، ولكن مدن العجائب التي بناها الاحتكاريون تظل صامدة . واننى أكتب هذه السطور في مدينة آرديس وهي واحدة من أروع تلك المدن وأكثرها بهاء .

الاحتكارية لن تزدهر طبقة من الكهنة بل طبقة من الفنانين — وسنحل
التنظيمات الطائفية للعمال محل الطبقة البورجوازية التجارية . أما في القاع
فسيكون الحضيض حيث تحيا عامة الشعب وتتبع وتجموع وتبلى وتجدد
نفسها على الدوام . هؤلاء هم الغالبية الساحقة من السكان . وفي النهاية
— في يوم ما — من يدري ! ستنهض عامة الشعب من الحضيض وتنهز
الاحتكارية والتنظيمات الطائفية للعمال . وعندئذ وبعد عناء القرون يشرق
عصر الناس البسطاء . لقد كنت أعتقد أنني سأشهد ذلك اليوم ، ولكنني
أعرف الآن أنني لن أراه أبداً ، .

وسكت إرنست لحظات ثم نظر إلى وأضاف :
« التطور الاجتماعي بطيء لدرجة تثير السخط . . أليس كذلك
يا حبيبتى ، ؟ كانت ذراعى تطوقانه ، بينما رأسه يستند على صدرى ، .

وغمغم إرنست :
« غنى لي حتى أنام — لقد كنت أحلم ، وإننى أرغب فى النسيان ، .

* * *

الفصل الخامس عشر

الأيام الأخيرة

حدث ذلك في الآخر من يناير عام ١٩١٣ ، عندما كشفت الاحتكارية عن سياستها الجديدة تجاه الاتحادات العمالية المميزة . ونشرت الصحف الأنباء عن زيادة في الأجور وتخفيض ساعات العمل لمستخدمي السكك الحديدية وعمال الصلب والحديد والمهندسين والميكانيكيين بصورة لم يسبق لها مثيل . غير أن الحقيقة لم تنشر كاملة ، فلم يجرؤ الاحتكاريون على السماح بنشرها . فالحقيقة أن الأجور رفعت أكثر من ذلك بكثير ، بينما كانت الامتيازات التي حصلت عليها تلك الاتحادات العمالية أكبر بصورة ملحوظة ، وأحيط كل ذلك بالسرية ، ولكن الأسرار لا بد وأن تنكشف . لقد أخبر أعضاء الاتحادات العمالية المميزة زوجاتهم اللاتي أخذن في الثروة . وسرعان ما عرف العمال جميعهم ما حدث .

لقد كان ذلك مجرد تطور منطقي لما عُرف في القرن التاسع عشر بتقاسم الأسلاب . ففي ظل الحرب الصناعية لذلك العهد ، حاول الرأسماليون تقاسم الأرباح مع العمال . ولا يعني هذا سوى أن الرأسماليين سعوا إلى نسكين العمال عن طريق خلق مصالح مالية لهم في منشآتهم . غير أن نظام تقاسم الأرباح كان مستحيلاً ومثيراً للسخرية . فمثل هذا النظام لا يمكن أن يتوافر له النجاح في ظل نظام قائم على الصراع الصناعي إلا في حالات مستقلة بذاتها . فإذا ما تقاسم كل العمال وكل الرأسماليين الأرباح ، فعندئذ لن يحدث غير سيادة نفس الظروف التي كانت قائمة ، عند ما لم يكن هناك تقاسم للأرباح .

وهكذا تولدت عن الفكرة غير العملية بتقاسم الأرباح ، فكرة عملية تتمثل في توزيع الأسلاب . وأصبح شعار الاتحادات العمالية القوية : « ارفعوا الأجور ودعوا الجمهور يتحمل هذه الزيادة ، ونالنا هذه السياسة الأنايية النجاح هنا وهناك . وعندما يتحمل الجمهور تلك الزيادة في الأجور فإن العبء يقع على كاهل تلك الجماهير العريضة من العمال غير المنظمين أو ذوى التنظيم الضعيف . والحق أن هؤلاء العمال هم الذين يدفعون لزيادة أجور إخوانهم الذين يفوقونهم قوة ، والذين انتظموا كأعضاء في اتحادات تحتكر العمل . وكما قلت ، فإن النهاية المنطقية لهذه الفكرة أدت إلى تضامن الاحتكاريين والاتحادات العمالية المميزة على نطاق واسع " .

وسرعان ما انتشر وذاع سر ارتداد الاتحادات العمالية المميزة . وتعالى المهمات في صفوف العمال ثم جاءت الخطوة التالية ، فانسحبت تلك الاتحادات من التنظيمات الدولية ، ومزقت جميع ارتباطاتها . وحل الاضطراب والعنف . ودُمغ أعضاء الاتحادات المميزة بالخيانة . وفي كل مكان فى الصالونات وبيوت الدعارة ، فى الشوارع وفى المصانع حمل عليهم الرفاق بعد أن تخلوا عنهم بكل غدر .

(١) دخلت جميع اتحادات السكك الحديدية فى هذا التضامن مع الاحتكاريين . ومن المفيد أن نلاحظ أن أول تطبيق محدد لسياسة توزيع الأسلاب قام به اتحاد السكك الحديدية فى القرن التاسع عشر ميلاديا وهو « رابطة مهندسى القطارات » . وقد ظل ب.م. آرثر رئيسا أعلى لذلك الاتحاد طيلة عشرين عاما . وفى عام ١٨٧٧ عقب اضراب العمال فى خط بنسلفانيا الحديدى ، وضع آرثر خطة من شأنها اتفاق مهندسى القطارات مع أصحاب الشركات ، حيث ينفردون بتحسين احوالهم بعيدا عن بقية الاتحادات العمالية الأخرى . ولاقت هذه الخطة نجاحا باهرا . كانت ناجحة بقدر ما كانت أنايية . ومن هذه الخطة اشتقت كلمة «آرثرية» نسبة لآرثر كى تعنى مساهمة الاتحادات العمالية فى توزيع الأسلاب . وإذا كانت كلمة آرثرية قد حيرت علماء اللغة طويلا ، فاننى أرجو أن يكون اشتقاقها قد أصبح الآن واضحا .

وتحطمت رهوس لا حصر لها ، وقتل كثيرون . ولم ينج أحد من أعضاء تلك الاتحادات . كانوا يتجمعون فى جماعات عند ذهابهم وعودتهم من العمل ، ويسرون على الدوام فى منتصف الشارع . فقد كانوا معرضين إذا ما ساروا على الأرصفة أن تتحطم رهوسهم بالطوب والحجارة التى تلقى عليهم من النوافذ ومن أسطح البيوت . وسمحت السلطات لهم بحمل الأسلحة وراحت تعاونهم بكل السبل . وحُكِم على المتعرضين لهم بالسجن فترات طويلة حيث عوملوا بقسوة . ولم يسمح لأى رجل لا يتمتع بعضوية تلك الاتحادات بحمل السلاح . واعتبر خرق هذا القانون جنحة كبرى ينزل العقاب بمرتكبها .

وواصل العمال الثأرون انتقامهم من الخونة . وتشكلت بينهم وبين العمال حواجز فاصلة أوتوماتيكية . وتعرض أبناء الخونة لاضطهاد أبناء العمال الذين تمت خديعتهم . وأصبح من المستحيل على أولئك الأطفال اللعب فى الشوارع أو الالتحاق بالمدارس الإلزامية . كذلك أصبحت زوجات الخونة وعائلاتهم منبوذات ، بينما تعرض بقال الناحية الذى يبيعهم البضائع للمقاطعة .

لقد رد الخونة على أعقابهم من كل جانب . ونتيجة لذلك أصبحوا يعيشون هم وعائلاتهم كعشيرة واحدة بعد أن تبينوا استحالة إقامتهم بأمان وسط الطبقة العاملة التى خانوها . ومن ثم انتقلوا إلى أماكن جديدة سكنوها بمفردهم . وشجعهم الاحتكاريون على ذلك ومنحهم الامتيازات . فأقاموا لهم مساكن جديدة صحية وحديثة تحيطها أحواش واسعة وتفصلها الحدائق والملاعب من كل جانب . أما أطفالهم فقد التحقوا بمدارس أنشئت خصيصا من أجلهم ، حيث وجدوا التخصص فى التدريب اليدوى والعلوم التطبيقية . هكذا تحتم منذ البداية أن تنشأ من هذا العزل طائفة اجتماعية مغلقة . وأصبح أعضاء الاتحادات العمالية المميزة هم أرسنقراطية

الطبقة العاملة . لقد عزلوا جانباعن سائر العمال . كانت مساكنهم وملابسهم وطعامهم بل ومعاملتهم أفضل من الباقين . لقد راحوا يتقاسمون الأسلاب بكل قوتهم .

وفي نفس الوقت لآقت بقية الطبقة العاملة قسوة أشد في معاملتها . فاغتصب من العمال كثير من الامتيازات الضئيلة ، بينما أخذت أجورهم ومستوى معيشتهم في الهبوط المستمر وانهارت مدارسهم الإلزامية ، وشبنا فشبنا لم يعد تعليمهم إلزاميا . وزادت نسبة الأطفال الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة من الأجيال الجديدة بصورة تنذر بالخطر .

وأدى استيلاء الولايات المتحدة على السوق العالمى إلى تمزيق بقية أجزاء العالم . وفي كل مكان أخذت المؤسسات والحكومات فى الانهيار أو التحول - كانت كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا منهمكة فى تشكيل دكومنواث تعاونى، بينما أخذت الإمبراطورية البريطانية تمضى نحو التفسخ . كانت إنجلترا مشغولة بالأحداث ، فالثورة فى الهند أصبحت فى أوجها ، والصيحات فى كل آسيا تنادى د بآسيا اللاسيويين ، ا وخلف هذه الصحية وقفت اليابان تساعد وتمرض الأجناس الصفراء والسمراء ضد الجنس الأبيض . وبينما كانت اليابان تحلم بخلق إمبراطورية لها تمتد على القارة كلها ، وراحت تناضل من أجل تحقيق هذا الحلم، كانت اليابان تقهر ثورة الطبقة العاملة فيها . كانت مجرد حرب طائفية : الكولى ضد الساموراى . هذا بينما يغيب عشرات الآلاف من الاشتراكيين من الكولى فى السجون . وقد قتل أربعون ألفا منهم خلال قتال الشوارع بطوكيو ، فى أثناء الهجوم الفاشل الذى شنوه على قصر الميكادو ، واستحالت كوب ، إلى مجزرة ، وأصبح اغتيال عمال الصناعات القطنية بئيران المدافع الرشاشة مثلا بارزا على أفظع المذابح التى استطاعت أسلحة الحرب الحديثة القيام بها . وفاقت الاحتكارية اليابانية الناشئة الجميع فى وحشيتها . فسيطرت

اليابان على الشرق ، واستحوذت لنفسها على كل الجزء الآسيوي من السوق العالمي باستثناء الهند .

ولجأت إنجلترا إلى سحق ثورة الطبقة العاملة فيها ، وإلى الاحتفاظ ، بالهند ، رغم أن ذلك استنفد جهودها . كما اضطرت إنجلترا إلى أن تترك مستعمراتها الكبيرة تخرج بعيدا من تحت سيطرتها . وهكذا نجح الاشتراكيون في تحويل كل من أستراليا ونيوزيلندا إلى دكومنولث تعاوني ، وللسبب نفسه انفصلت كندا عن الوطن الأم . غير أنها سحقته ثورتها الاشتراكية بمساعدة القدم الحديدية . وفي نفس الوقت مدت القدم الحديدية يد العون لكل من المكسيك وكوبا لإخضاع الثورة فيهما . وأدى ذلك إلى تدعيم وطأة القدم الحديدية في العالم الجديد . لقد صهرت القدم الحديدية جميع أجزاء أمريكا الشمالية من قناة بناما حتى المحيط المتجمد الشمالي في كتلة سياسية متماسكة .

وهكذا لم تنجح إنجلترا عن طريق التضحية بمستعمراتها الكبرى إلا في الاحتفاظ بالهند ، ولكن ذلك لم يكن سوى لفكرة مؤقتة . فالمعركة مع اليابان وبقية بلدان آسيا للسيطرة على الهند لم تنته ولكنها تأخرت لحسب . لقد كان مقضيا على إنجلترا أن تفقد الهند خلال فترة وجيزة . وخلف هذا الحدث ظهرت المعركة بين آسيا الموحدة وبين بقية العالم .

وبينما راحت التناقضات تمزق العالم كله ، لم نكن نحن الاشتراكيين في الولايات المتحدة نتمتع بالسلام أو الهدوء . لقد أدى ارتداد الاتحادات الكبرى إلى إحباط ثورتنا العمالية . غير أن العنف كان سائدا في كل مكان . وبالإضافة إلى مشاكل العمال وسخط المزارعين وبقايا الطبقة المتوسطة ، تأججت نيران البعث الديني . وفجأة برزت شعبة من جماعة السبتيين لتعلن عن نهاية العالم .

وصاح إرنست :

« نالوث من اللعنات ١ . كيف نأمل في تحقيق التضامن العمالي مع كل هذه النزاعات والأهداف المتعارضة ؟ » .

والحق أن نطاق البعث الديني أخذ يتسع . لقد أصبح الناس ، نتيجة حياتهم البائسة وخيبة أملهم في كل الأشياء الأرضية ، مستعدين وتواقين إلى جنة بالسماء لا يدخلها طغاة الصناعة ، مثلنا لا يستطيع الجمل المرور من ثقب إبرة . وماجت الأرض بالمبشرين المتجولين . ورغم تحريم السلطات المدنية وقمعها كل من يخرج على أوامرها ، لم ينقطع سيل الاجتماعات الدينية التي تذكي نيران الخبل الديني .

وأعلن السبتيون أنها الأيام الأخيرة — بداية النهاية لهذا العالم . فلقد انطلقت الرياح الأربع ، وحرّض الله الأمم على النزاع . كان ذلك زمن الرؤى والمعجزات . وأصبح عدد الأنبياء والمنتبئات هائلا لا يحصى . وتوقف الناس بمئات الآلاف عن العمل وهربوا إلى الجبال حيث راحوا ينتظرون ظهور الرب الوشيك وصعود المائة والأربعة وأربعين ألفا إلى السماء . ولكن الله لم يأت في الوقت المحدد . وتضورت أعداد هائلة من الناس جوعا حتى الموت . وفي غمرة بأسهم أخذوا يغيرون على المزارع للحصول على الطعام ، وأدى ذلك إلى انتشار الفوضى والشغب في المناطق الريفية ، فتضاعف شقاء المزارعين البؤساء الذين نزعت ملكية أراضيهم .

غير أن المزارع والمخازن كانت ملكا للقدم الحديدية . وأنزات قوات من الجيش إلى الميدان . وسبق المتعصبون إلى أعمالهم في المدن تحت أسنة الحراب . وهناك داوموا على الاشتراك في مظاهرات الدهماء

والتهريب . أما زعمائهم فقد أعدموا بتهمة العصيان أو أرسلوا إلى
مستشفيات الأمراض العقلية . وواجه أولئك الذين حكم عليهم بالإعدام
الموت في بهجة الاستشهاد . كان عصر جنون انتشر فيه الاضطراب
والقلق . وراحت الجماعات الصغيرة التي عاشت من الهنود الحمر ترقص في
المستنقعات والصحاري والبراري ، من فلوريدا حتى آلاسكا ، رقصات
الأشباح ، منتظرة مقدم مسيح من جنسهم .

وخلال ذلك كله واصلت الاحتكارية ، وحش العصور كلها ، تقدمها
الصاعد في ثقة وهدوء مروعين . لقد هيمنت بيدها وقدميها الحديديتين على
الملايين المصطخبة . ففي غمرة الاضطراب أقامت نظامها ، وفي ظل الفوضى
والارتباك وضعت أساسها وبنائها .

وقال الجرانجيون :

« انتظروا فقط حتى نتولى زمام الأمور » .

« هكذا قال لنا كالفين في بيتنا بشارع ييل .

« انظروا إلى الولايات التي سيطرنا عليها . فإذا ما ساعدتمونا أيها
الاشتراكيون فسنجعل الاحتكاريين يتحدثون بلهجة أخرى عندما
نتولى الحكم » .

وقال الاشتراكيون :

« إن ملايين الساخطين والمعوزين يقفون في صفنا . لقد انضم إلينا
«الجرانجيون»، والمزارعون والطبقة المتوسطة «والشفيلة»، إن النظام الرأسمالي
سوف ينهار . وبعد شهر واحد سوف نبعث إلى الكونجرس بخمسين مندوبا
وبعد عامين ستصبح مناصب الحكم جميعها في أيدينا ، من رئاسة الجمهورية

حتى ذلك المنصب المحلى لمن يتولون الإمساك بالكلاب ، .

ولهؤلاء جميعا كان إرنست يهز رأسه ويقول :

« كم بندقية لديكم ؟ .. هل تعرفون من أين تحصلون على المزيد من
الرصاص ؟ صدقوني . عندما يتطور الموقف إلى استخدام البارود ستصبح
الأمزجة الكيميائية أفضل من الأمزجة الميكانيكية . »

* * *

الفصل السادس عشر

النهاية

عندما حان موعد رحيلنا أنا وإرنست إلى واشنطن ، لم يراقبنا أبي ، فقد أصبح مغرماً بالحياة العمالية . كان ينظر إلى حيويتنا القدر بوصفه مملاً كبيراً للتجارب الاجتماعية ، وانهمك في بحوث لا تبدو لها نهاية . لقد طاشر العمال ، وأصبح صديقاً مألوفاً في العشرات من البيوت . كما راح أبي يعمل في كثير من الأعمال الغريبة . وكان العمل بالنسبة له نوعاً من اللهو ، كما كان نوعاً من البحث العلمي . لقد استهواه ذلك ، ودائماً ما كان يعود إلى البيت حاملاً معه الملاحظات العديدة متدفقا بالمغامرات الجديدة . كان منالاً للعالم الحق .

ولم يكن هناك ما يعوز أبي للعمل على الإطلاق . ذلك أن إرنست وفق إلى الكسب من عمله في الترجمة ما يكفي لإعالتنا نحن الثلاثة ، غير أن أبي أصر على متابعة أهوائه المفضلة ، والمتقلبة بحكم الأعمال التي اشتغل بها . ولن أنسى ما حيت تلك الأمسية التي حمل فيها إلى البيت بضاعته كبائع متجول ، وكانت تتألف من أربطة الأحذية والحالات ، كما لن أنسى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى البقالة الصغيرة على الناصية كي أشتري بعض الحاجيات فوجدته هناك يقوم على خدمتي . ولم أدهش بعد ذلك عندما اشتغل ساقياً في الحافلة القائمة عبر الشارع لمدة أسبوع . واشتغل أبي حارساً ليلياً ، وباع البطاطس في الشوارع ، وألصق البطاقات في مخزن للسردين المعلب . وعمل في مصنع للورق المقوى . وراح يحمل الماء لجماعة من العاملين في بناء خطوط المترو ، بل وانضم إلى نقابة غاسلي الأطباق قبل انهيارها بفترة وجيزة .

وأعتقد أن المثال الذي ضربه الأسقف بملابسه التي كان يرتديها قد اتن
أبي . ذلك أنه لجأ إلى ارتداء قميص العمال الرخيص والمصنوع من القطن
مع الأوفرول، بحزامه الضيق عند الأرداف. ومع ذلك فقد استمرت معه
عادة واحدة امتدت من حياته القديمة . لقد استمر يرتدى ملابسه كلها
تناول طعام الغذاء أو العشاء .

وكان في وسعي أن أنعم بالسعادة أينما كنت مع إرنست ، وكانت
سعادة أبي في ظل ظروفنا المتبدلة تكمل من سعادتى .

وذات مرة قال أبي :

« في صباى كنت شديد الفضول . كنت أريد أن أعرف مسليات
الأشياء وكيف أصبحت . لذلك تخصصت في علم الطبيعة . واليوم فإن
حماسى للبحث والاستقصاء لا يقل عما كان هابيه في صباى . إنه يجعل
الحياة تستحق العيش ، .

وفي بعض الأحيان كان أبى يتجاسر ويتوجه شمال شارع «ماركت» ،
إلى حى المسارح والأعمال التجارية حيث يبيع الصحف ، ويؤدى بعض
الخدمات ويقوم بفتح أبواب عربات الأجرة . وهناك فى أحد الأيام عندما
كان أبى يغلق باب إحدى العربات التقى بمستر ويكسون . وفى المساء وصف
لنا أبى هذه الحادثة وهو فى قمة الابتهاج :

« عندما أوصدت باب العربة على ويكسون نظر إلى فى حدة وغمغم
قائلا . . « حسنا . سوف تحمل على اللعنة ا ، . هكذا نطق بها . .
« حسنا . . سوف تحمل على اللعنة ، . واحمر وجهه وتمسكه الاضطراب
حتى نسى أن يدفع لى البقشيش . ولكن يبدو أنه استعاد رباطة جأشه
بسرعة ، فلم تمض العربة أكثر من خمسين قدما حتى استدارت وعادت
نحوى . واتكأ ويكسون على الباب وهو يقول :

• اسمعنى أيها الأستاذ . هذا كثير للغاية . ماذا يمكننى أن أفعل من أجلك ؟ . . وأجبتته : • لقد أوصدت الباب من خلفك . وجرباً على العادة المألوفة يمكنك إعطائى عشر سننات . . وقال ويكسون وهو ينفخ بأفقه . . • دعك من هذا الهراء . لأنى أعنى شيئاً ذا قيمة أفعله من أجلك . • لقد كان جاداً لا شك فى ذلك . . ربما كانت وخزة من وخزات ضميره المتحجر ، أو شيئاً من هذا القبيل . لذلك أمعنت التفكير لحظة . وعندما بدأت فى الإجابة ارتسم الأمل على وجهه . ولكن كان الأجدر بكما أن ترياها عندما انتهيت من إجابتى . لقد قلت له . • يمكنك أن تعيد إلى بيتى وأسهمى فى مصانع سيرا . •

وأطرق أبى فى التفكير فسألته بلهفة :

• وبماذا أجاب ؟ . •

وقال أبى :

• وماذا يمكنه أن يقول ؟ . إنه لم يقل شيئاً . ولكننى قلت له . . •
• أرجو أن تكون سعيداً . . وعندما نظر إلى فى تعجب سأله . . •
• أخبرنى هل أنت سعيد ؟ . . . •

• وأمر ويكسون الحوذى بالانطلاق . ومضى بعيداً وهو يغازق القرل . ولم يعطنى البيت أو الأسهم ، بل لم يعطنى السننات العشر . وهكذا ترين يا عزيزتى أن مستقبل أيبك فى عمل الشارع محفوف بالفشل . •

هكذا رأى أبى أن يلزم بيتنا فى شارع ديل . • بينما ذهبنا أنا وإرنست إلى واشنطن . كان النظام القديم قد انتهى تقريباً . بل إن زواله النهائى أصبح أقرب مما ظننت . وعلى عكس ما توقعنا ، لم توضع فى وجه المندوبين الاشتراكيين أية عراقيل تحول بينهم وبين احتلال أماكنهم فى الكونجرس . لقد حدث كل شئ فى بسر . ورحلت أسخر من إرنست عندما رأى فى ذلك نذيراً بالخطر .

وجدنا رفاقنا الاشتراكيين واثقين منافلين بقوتهم . وبالمهام التي يستطيعون تحقيقها . وزاد من قوتنا قلة من أعضاء حزب جرانج الذين تم انتخابهم أعضاء في الكونغرس . وقد أعدت هذه القوى المتحدة برنامجا مفصلا لما يجب عمله . وفي كل ذلك شارك إرنست بإخلاص وحماس ، رغم أنه بين الحين والحين لم يكن يتمالك نفسه عن القول دون مناسبة :

• صدقوني . . . عندما يتطور الموقف إلى استخدام البارود — تصبح
الأمزجة الكيماوية أفضل من الأمزجة الميكانيكية

وكان الجرانجيون الذين فازوا بالأغلبية في الانتخابات الأخيرة بعدد من الولايات هم أول من واجهوا المتاعب . كان عدد هذه الولايات اثنتي عشرة ولاية . لكن الأعضاء الذين فازوا في الانتخابات لم يسمح لهم بتولي مناصبهم . ورفض محتلو تلك المناصب التخلي عنها . كانت المسألة غاية في البساطة . لقد طعنوا في شرعية الانتخابات ، وغلفوا الموقف كله بالروتين الرسمي الذي لا نهاية له . وكان الجرانجيون مجردين من السلطة . فلعجوا إلى المحاكم بوصفها الملاذ الأخير ، غير أن المحاكم كانت في أيدي أعدائهم .

ولاحث لحظة الخطر . فإذا ما لجأ النواب الذين غدر بهم إلى العنف ، سيفقدون كل شيء . وكم ناضلنا نحن الاشتراكيين حتى نمنعهم من ذلك . ومرت أيام وليال لم يسلم فيها إرنست عينيه إلى النوم . وأدرك القادة الكبار من حزب جرانج حقيقة الشرك فوقفوا إلى جانبا وقفه رجل واحد . لكن كل ذلك ضاع بلا جدوى . لقد أرادت الاحتكارية العنف فدفعت عملاءها المرضين إلى العمل . ولا شك أنهم هم الذين دفعوا ثورة الفلاحين .

واندلعت نار الثورة في اثنتي عشرة ولاية . ولجأ المزارعون الذين نزع
أراضيهم إلى القوة ، فقاموا بالاستيلاء على حكومات الولايات . وبالطبع
لم يكن هذا العمل دستوريا . وأصبح من الطبيعي أن تنزل الولايات المتحدة
جنودها إلى الميدان . وقام العملاء المحرضون بتحريض الشعب في كل
مكان . وتفنن جواسيس القدم الحديدية هؤلاء في صورة حرفيين ومزارعين
وعمال زراعيين . أما في ساكرامنتو عاصمة ولاية كاليفورنيا فقد نجح
الجرانجيون في المحافظة على النظام . واندفع آلاف العملاء السريين إلى
هذه المدينة الموالية . وتشكلت منهم جميعاً مظاهرات الدهماء لتشعل النيران
في المباني والمصانع وتقوم بنهبها . وظل العملاء السريون وراء الناس
يحرضونهم حتى شاركوهم أعمال السلب والنهب . ووزعت كميات هائلة من
الخمر وسط الأحياء القذرة حتى تلهب عقولهم . وعندئذ وبعد أن تم إعداد
كل شيء ، ظهر على المسرح جنود الولايات المتحدة الذين كانوا في الحقيقة
جنود القدم الحديدية . وأطلقت النيران على أحد عشر ألفاً من الرجال
والنساء والأطفال في شوارع ساكرامنتو أو تم اغتيالهم داخل منازلهم .
ووضعت الحكومة الاتحادية يدها على حكومة الولاية . وهكذا انتهى كل
شيء بالنسبة إلى كاليفورنيا .

وما حدث في كاليفورنيا حدث في أماكن أخرى . فلم توجد ولاية فاز
فيها الجرانجيون بالأغلبية إلا واجتاحها العنف واغتسلت بالدماء . وفي
البداية كان العملاء السريون والمئات السود يبعثون الاضطراب ، وعندئذ
يتم استدعاء قوات الجيش . وساد الشعب وحكم السوقة في المناطق الريفية .
وأصبح الدخان المنصاعد من المزارع والمخازن والقرى والمدن المحترقة يملأ
السما ليلاً ونهاراً . وظهر الديناميت . ونسفت جسور السكك الحديدية
وأفانقها ، ودمرت القطارات . وأطلقت النيران على المزارعين البؤساء
وشقق الكثيرون منهم . وكان الأخذ بالنار مريراً ، فاعتيل كثير من الأثرياء
وضباط الجيش . لقد امتلأت قلوب الرجال بشهوة الدم والانتقام . وقاتلت

القوات النظامية المزارعين في وحشية كما لو كانوا من الهنود الحمر . وكانت للقوات النظامية دوافعها . فقد أيد ألفان وثمانمائة منهم في « أوريجون » ، في سلسلة مروعة من انفجارات الديناميت . وبطريقة مماثلة ، وفي أماكن وأزمنة مختلفة ، تم تدمير العديد من القطارات وهي تحمل حواتها . لهذا قتلت القوات النظامية دقاغا عن حياتها مثلما فعل المزارعون .

أما بالنسبة للمليشيا ، فقد وضع القانون الخاص بها لعام ١٩٠٣ موضع التنفيذ وأجبر عمال الولاية الواحدة على إطلاق النار على رفاقهم العمال في الولايات الأخرى تحت تهديد الموت . وكان من الطبيعي أن يواجه قانون المليشيا المقارمة في بادئ الأمر . فأصدرت المحاكم العسكرية أحكاما بالموت على كثير من رجال المليشيا واغتيل كثير من ضباطها . وفي صورة مذهلة تحققت نبوءة إرنست في حالتى مستر كوالث ومستر آسمونسين . كان كل منهما لائقا للخدمة في صفوف المليشيا ، فاختيرا للخدمة في الحملة التأديبية التي أرسلت من كاليفورنيا ضد مزارعى ميسورى . ورفض كل من مستر كوالث ومستر آسمونسين المشاركة في تلك الحملة . وبعد أن منحاهم مهلة قصيرة ، سيقا إلى المحاكمة أمام المحكمة العسكرية . وكانت نهايتهما الإعدام ربما بالرصاص . وقد أطلقت فرقة الإعدام النار عليهما من الخلف .

وهرب كثير من الشباب إلى الجبال فراراً من الخدمة في صفوف المليشيا ، وهناك أصبحوا خارجين على القانون . بيد أنهم تلقوا عقوباتهم قبل أن تستقر الأحوال وتهدأ .

حدث ذلك بصورة رهيبه ، فقد أصدرت الحكومة إعلاناً لكل المواطنين الحريصين على القانون تدعوهم إلى أن يتركوا الجبال خلال ثلاثة أشهر . وعندما حل الموعد المضروب ، أرسل نصف مليون جندي إلى كل جزء من مقاطعة الجبال . ولم يكن هناك تحقيق أو محاكمة . فإذا ما التقى الجنود بأى رجل أطلقوا عليه النار فوراً . لقد تصرفت القوات على أساس

أنه لم يتبق في الجبال أى رجل أو حتى خارج على القانون . وقاتلت بعض العصابات التى تحصنت فى مواقع قوية ببسالة . غير أن كل من هرب من الميليشيا لاقى حتفه فى نهاية الأمر .

يبد أن العقوبة التى أنزلت بمليشيا كانساس كانت بمثابة درس مباشر له تأثيره القوي على عقول الناس . فعند بدء العمليات العسكرية ضد الجرانجيين حدث تمرد كانساس الكبير . وأعلن ستة آلاف من رجال الميليشيا العصيان . بعد أن ظلوا محتجزين فى المعسكر عدة أسابيع بدعوى تبرمهم وإثارتهم الشعب ، يبد أن تمردهم الصريح جاء بلا شك نتيجة لنشاط العملاء المحرضين .

وفى ليلة الثانى والعشرين من أبريل ثار جنود الميليشيا وقتلوا ضباطهم فلم تنج منهم إلا قلة قليلة . وجاء هذا أبعد من خطة القدم الحديدية . ويبدو أن العملاء المحرضين قاموا بعملهم أكثر مما ينبغى . غير أن كل شئ أصبح مهيباً للقدم الحديدية . لقد أعدت عدتها للعصيان . وبرر لها قتل ذلك العدد الكبير من الضباط كل الأحداث التى تلت . وبسحر ساحر قام أربعون ألفاً من جنود الجيش النظامى بتطويق المتمردين . كان هذا شركا . ووجد رجال الميليشيا البؤساء مدافعهم الرشاشة وقد عبث بها . كما وجدوا الذخيرة التى استولوا عليها من مستودعات السلاح لاتلائم بنادقهم ، فرفعوا الراية البيضاء معلنين التسليم . غير أن القدم الحديدية تجاهلتها . ولم يبق من رجال الميليشيا واحد على قيد الحياة . لقد أيد ستة آلاف رجل عن آخرهم ، حيث قذفوا من بعيد بالقنابل العادية وقنابل شرابنيل . وعندما لجئوا فى بأسهم إلى الهجوم على الخطوط التى تطوقهم ، حصدتهم المدافع الرشاشة حصداً . ولقد تحدثت مع شاهد عيان ، فقال إن أقل مسافة اقترب فيها رجال الميليشيا من المدافع الرشاشة لم تتعد مائة وخمسين ياردة . وغصت الأرض بحثث القتلى . وقام سلاح الفرسان بحملة

أخيرة مستخدما المسدسات والسيوف ، وسمح الجرحى الراقدين على الأرض تحت وقع حوافر الخيل .

وفي الوقت ذاته ، عندما كانت إبادة الجرانجين تجري على قدم وساق نشبت ثورة عمال المناجم . تلك هي المحاولة الأخيرة من جانب العمال المنظمين . واشترك في الإضراب خمسة وسبعون ألفا من العمال . غير أنهم كانوا مشتتين عبر البلاد بصورة جعلتهم لا يستفيدون من قوتهم الكامنة فيهم ، فعزلوا في مناطقهم وأكروا على التسليم . وكان هذا هو أول موكب ضخيم للعبيد . وفاز بوكوك^(١) بشهرته بجلاد للعبيد واكتسب كراهية العمال التي لا تموت . وتعددت المحاولات لاغتياله . ولكنه بدا وكأنه يحمل تعويذة تصون حياته . وكان بوكوك هو المسئول عن إدخال نظام الجوازات الروسي في المناجم ، وحرمان عمال الفحم من حق الانتقال من مكان إلى آخر داخل البلاد .

(١) البرت بوكوك . . وكان محطما آخر من محطمي الاضرابات في تلك الأيام . وقد نجح بوكوك حتى موته في حمل جميع عمال المناجم في البلاد على مواصلة اعمالهم . ثم خلفه ابنه . . اويس بوكوك . . في مهمته . وقد عرفت هذه السلالة من جلادى العبيد كيف تسيطر على العمل في مناجم الفحم طيلة خمسة أجيال . وعرف بوكوك الكبير باسم بوكوك الأول . ووصف بأنه « راس طويل مهزول ، تحيط به في أنصاف دوائر أهداب من الشعر الأسمر والأشيب . . وعظمتا وجهه بارزتان وذقنه هريضة . . ذو وجه شاحب وعينان رماديتان خائبتان وصوت رنان وقوام مترهل » . وقد ولد عن أبوين متواضعين . وبدأ حياته ساقيا في إحدى الحانات . ثم أصبح مخبرا خاصا في إحدى شركات الترو . وتقدم بخطى متتابعة حتى أصبح محترفا في تحطيم الاضرابات . أما بوكوك الخامس وهو آخر تلك السلالة ، فقد تنائرت أشلاؤه عند المضخات عندما القيت عليه قنبلة أثناء ثورة محدودة قام بها عمال المناجم في الاقليم الهندي . حدث هذا عام ١٠٧٣ ميلاديا .

في ذلك الوقت صمد الاشتراكيون . وبينما تلاشى الجرانجيون وسط
النيران والدماء ، وتمزقت الحركة العمالية المنظمة ، التزم الاشتراكيون
بالهدوء ، وراحوا يعززون تنظيمهم السري . وتوسل الجرانجيون إلينا دون
جدوى . لقد قلنا وكنا على صواب في ذلك إن أي تمرد من جانبنا سيكون
في الحقيقة انتحارا للثورة كلها . فإذا كانت القدم الحديدية تشك في بداية
الأمر في مدى قدرتها على مواجهة الطبقة العاملة كلها في وقت واحد . فلقد
وجدت المهمة أسهل مما كانت تتوقع . ولم تكن القدم الحديدية لتأمل خيراً
من هبة نقوم بها نحن الاشتراكيين . غير أننا تجنبنا ذلك رغم أن العملاء
المحرضين اندسوا في صفوفنا . في تلك الأيام الأولى كانت وسائل عملاء
القدم الحديدية لا تزال خرقاء . كان عليهم أن يتعلموا أشياء كثيرة . وفي
نفس الوقت قامت فرقنا المقاتلة باستئصالهم . كانت مهمة مريرة ودموية ،
لكننا كنا نقاتل من أجل الحياة ومن أجل الثورة . وتعين علينا أن نقاتل
العدو بنفس أسلحته . ومع ذلك كنا عادلين ، فلم نقم بإعدام أي عميل
من عملاء القدم الحديدية دون محاكمة . وربما وقعنا في أخطاء ، ولكن
إذا حدث ذلك فسوف تكون أخطاء نادرة . والتحق أشجع رفاقنا وأكثرهم
نضالية وتضحية بالنفس بالفرق المقاتلة . وذات مرة بعد عشر سنوات قام
إرنست بعمل إحصاء من واقع الأرقام التي قدمها رؤساء الفرق المقاتلة ،
واستخلص منه أن متوسط عمر أي رجل أو امرأة بعد الانضمام إلى تلك
الفرق لم يتعد خمس سنوات . كان جميع رفاقنا في الفرق المقاتلة أبطالاً .
والغريب أنهم كانوا يعارضون إزهاق الأرواح . لكنهم وقفوا ضد طبايعهم
الشخصية ، ومع ذلك فقد أحبوا الحياة ، ولم ييخلوا على القضية بأية تضحية
مهما غلت (١) .

(١) نظمت هذه الفرق المقاتلة إلى حد ما على نمط المنظمة المقاتلة في
الثورة الروسية . ورغم الجهود الدائبة للقدم الحديدية فقد عاشت هذه
الفرق خلال القرون الثلاثة التي ساد فيها حكمها . لقد تشكلت هذه الفرق
من رجال ونساء لا يهابون الموت وتحذوهم اغراض سامية . وهكذا =

وكانت المهمة التي عينها لآئفسنا ذات ثلاث شعب :

أولا تطهير صفوفنا من العملاء السريين للاحتكارية ، وثانياً تنظيم الفرق المقاتلة ، وبعبداً عنها المنظمة السرية العامة للثورة ، وثالثاً تسرب عملائنا السريين في كل فرع من تنظيمات الاحتكارية ، داخل التنظيمات الطائفية للمهال وخاصة عمال التلغراف والسكرتيرين والكتابة وفي صفوف الجيش والعملاء المحرضين وجلادى العبيد . كانت هذه مهمة بطيئة وخطرة ، وكثيراً ما منيت محاولتنا بالفشل مما كففناغالياً .

== مارسوا نفوذا هائلا ، وخففوا من وحشية الحكام الضارية . ولم تقتصر مهمة هؤلاء الرجال والنساء على الحرب الخفية مع عملاء الاحتكارية السريين . بل اضطر الاحتكاريون انفسهم الى الخضوع للقوانين التي تصدرها تلك الفرق . فاذا لم يطيعوا . نزل بهم عقاب الموت في غالب الأحيان . كذلك جرى الأمر بالنسبة لمرءوسى الاحتكاريين وضباط الجيش وقادة التنظيمات الطائفية للعمال .

وتمسك هؤلاء المنتقمون المنظمون بعدالة صارمة . غير ان اروع ما فيهم كان سلوكهم القضائى المجرد من العواطف والأهواء . لم تكن لديهم محاكمات صورية . فعندما يتم القبض على اى رجل ، تكفل له محاكمة عادلة ويمنح فرصة للدفاع . وقد اقتضت الضرورة محاكمة العديد من الرجال والحكم عليهم غيابيا ، كما حدث في قضية الجنرال لامبتون . حدث هذا في عام ١١٣٨ ميلاديا . وربما كان لامبتون أخبث رجال المرتزقة واشدهم تعظشا للدماء ممن خدموا القدم الحديدية . وقد ابلغته الفرق المقاتلة انها اجرت محاكمته ووجدته مذنباً وحكمت عليه بالموت . وتم هذا بعد اذاره ثلاث مرات كي يكف عن معاملته الوحشية للطبقة العاملة . واحاط لامبتون نفسه بعد الحكم عليه باجراءات لا نهاية لها لحمايته . ومرت السنوات ، وعبثا جاهدت الفرق المقاتلة لتنفيذ حكمها . فاخفق رفيق بعد رفيق رجالا ونساء في محاولاتهم . وقامت الاحتكارية باعدامهم في وحشية . وكانت قضية الجنرال لامبتون هى التى احييت عملية الصلب كوسيلة قانونية للاعدام . غير ان الرجل المحكوم عليه بالموت وجد حتفه في النهاية على يد فتاة نحيلة في سن السابعة عشرة هى مادلين بروئسن التى عملت في قصره خياطة للعائلة طيلة عامين حتى تبلغ هدفها . وقد ماتت مادلين في الحبس الانفرادى بعد تعذيب طويل ورهيب . ولكنها تقف اليوم مخلدة في تمثال برونزى في « بنتيون الاخوة » بمدينة سيرليز العجيبة .

وبجب علينا نحن الذين لا نعرف من واقع خبرتنا الشخصية شيئا عن راقة الدماء ، الاتقسوا في حكمنا على ابطال الفرق المقاتلة . لقدضحوا =

وانتصرت القدم الحديدية في الحرب المكشوفة . لكننا صمدنا في الحرب الجديدة . تلك الحرب الغريبة والرهيبة التي ابتكرناها كي تدور في الخفاء . كان كل شيء غير مرئي ، وثمة أشياء كثيرة لا يمكن تخمينها . لقد قاتل الأعمى الأعمى . ومع ذلك ساد النظام كما سادت العزيمة وروح الانضباط . وتسرب عملاؤنا في تنظيم القدم الحديدية . بينما تسرب عملاء القدم الحديدية إلى صفوف تنظيمنا الخاص . كانت حرباً مظلمة ، ملتوية ، مليئة بالخديعة والتآمر ، بالمكيدة والمكيدة المضادة . ووراء ذلك كله جثم خطر الموت على الدوام عنيفا ورهيبا . واختفى رجال ونساء من أقرب وأعز رفاقنا . كنا نراهم اليوم ، وفي اليوم التالي كانوا يمضون ثم لا نراهم بعد ذلك أبداً ، فنذكر أنهم لا قوا حتفهم .

لم تكن هناك ثقة أينما تذهب . فربما يكون الرجل المتآمر إلى جانبنا بقدر ما نعرف عميلاً للقدم الحديدية . لقد لغمنا تنظيم القدم الحديدية بعملاتنا السريين . بينما واجهت القدم الحديدية ذلك بتلغيم مضاد من عملائها السريين داخل تنظيمها نفسه . وحدث نفس الشيء لتنظيمنا . ورغم فقدان الثقة اضطررنا إلى تأسيس كل نشاطنا على الثقة . وكثيراً ما خدعنا . كان الرجال ضعافاً ، بينما استطاعت القدم الحديدية أن تقدم

== بحياتهم من أجل الإنسانية ولم يبخلوا بآية تضحيات مهما غلت . والحق أن الضرورة التي لا ترحم هي التي اضطرتهم إلى ذلك السلوك الدموي في عصر امتلأ بالدماء . ولقد شكلت الفرقة المقاتلة شوكة في جنب انقدم الحديدية عجزت عن انتزاعها حتى النهاية . وكان ايفرهارد هو الأب لذلك الجيش العجيب ، الذي تشهد انجازاته كما يشهد نجاحه في الاستمرار طيلة قرون ثلاثة على حكمة ايفرهارد في نشاطه التنظيمي وفي الأساس الراسخ الذي وضعه للأجيال القادمة حتى تواصل البناء . ورغم مساهمات ايفرهارد في مجالى الاقتصاد والاجتماع ، ونشاطه كقائد عام في الثورة فان تنظيمه للفرق المقاتلة يجب ان ينظر اليه من بعض الوجوه بوصفه اعظم انجازاته .

المال والراحة والمباهج والملذات التي تنتظرهم في مدن العجائب . ولم يكن في وسعنا أن نقدم شيئاً سوى الشعور بالرضا التابع من الولاء لمثل عليا نبيلة . ولم يكن أجر أولئك الذين حافظوا على إخلاصهم وولائهم سوى الخطر الدائب والعذاب والموت . كان الرجال ضعافا كما قلت . وبسبب هذا اضطررنا إلى تقديم المكافأة الأخرى والوحيدة التي كانت في متناول قدراتنا تلك هي مكافأة الموت . لقد اضطررنا الحاجة إلى عقاب أولئك الذين يقيمون بخيانتنا . كنا نطلق من رجل إلى عشرة من رجالنا المخلصين في أعقاب كل رجل يرتكب الخيانة ليأخذوا بالنار . وربما فشلنا في تنفيذ أحكامنا ضد أعدائنا مثلما حدث لأن بوكوك على سبيل المثال ، غير أن الشيء الوحيد الذي لم نتمكن نستطيع أن نتحمل الفشل فيه ، إنما هو عقاب الخونة من بين صفوفنا . ولقد سمحنا لبعض رفاقنا بارتكاب الخيانة حتى يظفروا بالذهاب إلى مدن العجائب . وهناك يقومون بتنفيذ أحكامنا بالموت على الخونة الحقيقيين . والواقع أننا سلطنا الإرهاب للدرجة أصبحت معها الخيانة في صفوفنا خطراً أكبر من الاستمرار في الإخلاء لنا .

وانتخدت الثورة طابع العقيدة الدينية إلى حد بعيد . لقد تعبدنا في هيكل الثورة الذي كان هيكلًا للحرية . كانت الشرارة الإلهية تومض في نفوسنا . ووهب الرجال والنساء حياتهم في سبيل القضية . بينما كرس الأطفال المولودون حديثاً لخدمتها مثلما كانوا يكرسون فيما مضى لخدمة الرب . لقد كان حب الإنسانية يجري في عروقنا .

* * *

الفصل السابع عشر

الرداء القرمزى

ومع نهاية ولايات الجرانجيين ، اختفى أعضاؤهم من الكونجرس . لقد حوكنوا بتهمة الخيانة العظمى . واستولت صنائع القدم الحديدية على مقاعدهم . وأصبح الاشتراكيون أقلية تدعو للرناء . وأدركوا أن نهايتهم أضحت قريبة . لقد أصبح مجلسا النواب والشيوخ مظاهر جوفاء أو مهزلة من المهازل . كانت القضايا العامة تبحث في وقار وتقر وفقاً للتقاليد القديمة . بينما كل ما يحدث في حقيقة الأمر إنما هو إضفاء الصفة الدستورية على أوامر الاحتكارية .

وكان إرنست في غمرة نضاله عندما حلت النهاية . حدث ذلك في المناقشة حول ميزانية إعانة المتعطلين عن العمل . فلقد ألفت أزمة العام السابق بجماهير غفيرة من الطبقات العاملة دون مستوى المجاعة ، بينما زاد من هبوطهم الاضطراب المتصل بأبعاده الواسعة . وأصبح ملايين الناس يتضورون جوعاً بينما يتخم الاحتكاريون وأنصارهم من فائض الإنتاج^(١) .

(١) حدثت نفس الظروف في القرن التاسع عشر في ظل الحكم البريطاني للهند . فقد مات ملايين المواطنين من الجوع بينما كان حكامهم يسلبونهم ثمرات كدحهم وينفقونها على المهرجانات الفخمة وأعمال السحر الطائشة . وعلى أى حال فلدينا الكثير من أعمال أسلافنا التى تبعث فينا الخجل في هذا العصر المستنير . وعزاؤنا الوحيد هو عزاء فلسفى . يجب علينا أن نتقبل المرحلة الرأسمالية من التطور وكأنها تعادل مرحلة القرد المبكرة . ويتعين على الانسان أن يمر عبر هذه المراحل في نشأته من حماة الحياة العضوية الوضيعة ، ومن المحتم أن تعلق به كثير من ادراك تلك الحماة التى لن تزول بسهولة .

وقد أطلقنا على اولئك البؤساء لقب أبناء الحضيض^(١) . ولم يتقدم
الاشتراكيون بميزانية المتعطلين عن العمل إلا لينخفوا من الامة الرهيبة .
غير أن ذلك لم يستهـم القدم الجديدة ، لقد كانت تعد لتشغيل تلك الملايين
بطريقتها الخاصة التي لم تكن طريقتنا . ومن ثم أصدرت القدم الجديدة
أوامرها بالتصويت ضد مشروعنا . وأدرك إرنست وزملاؤه أن محاولتهم
لن تجدى ولكنهم كانوا قد سئموا الانتظار . لقد أرادوا أن يحدث شيء ما .
فهم لم ينجزوا شيئاً وأصبح أقصى ما يؤملوه هو وضع نهاية لتلك المهزلة
التشريعية التي كانوا يشتركون في تمثيلها رغم أنهم . ولم يكن إرنست وزملاؤه
يدركون طبيعة النهاية التي يمكن أن تأتي . ولكنهم لم يتوقعوا على الإطلاق
شيئاً أسوأ مما حدث بالفعل .

في ذلك اليوم جلست في شرفة المجلس الكبيرة . كنا جميعاً نذكر أن
شيئاً رهيباً يوشك أن يحدث . ولقد انتشر ذلك بين الناس . ولاحت حقيقته
من صفوف الجنود المسلحين ومرابطتهم بالدهاليز ، ومن تجمعات الضباط
عند مداخل المجلس نفسه . إن الاحتكارية تأهب لتوجيه ضربتها . وكان
إرنست يخطب ويصف عذاب المتعطلين عن العمل وكأنما تملكه فكرة
هو جاء بتحريك قلوب النواب وضمائرهم بطريقة ما . غير أن الأعضاء
الجمهوريين والديمقراطيين أخذوا يسخرون منه ويتهكون عليه . وارتفع
الضجيج وعم الاضطراب . وبغاة شن إرنست هجومه من جهة أخرى فقال:

(١) « أبناء الحضيض » : صاغت عبقرية هـ . ج . ويلز هذا التعبير
في أواخر القرن التاسع عشر . كان ويلز نبياً في ميدان علم الاجتماع .
وكان عاقلاً وسويماً بقدر ما كان انساناً يفيض بالحماس . وقد وصلتنا
أجزاء كثيرة من أعماله : بينما وصلنا عملان كاملان من أعظم منجزاته وهما
« توقعات » و « نشأة الجنس البشري » . لقد تنبأ ويلز قبل الاحتكاريين
وقبل ايفرهارد ببناء مدن العجائب رغم أنه أشار إليها في كتاباته بوصفها
« مدن المتعة » .

« إننى لا أعرف شيئاً أقوله يمكننى من التأثير عليكم . فليس لديكم نفوس يمكن التأثير فيها . أنتم كائنات رخوة من اللاقريات . إنكم تدعون أنفسكم في نحر بالجمهوريين والديمقراطيين . ولكن ليس هناك حزب جمهورى . وليس هناك حزب ديمقراطى . وفى هذا المجلس ليس هناك جمهوريون أو ديمقراطيون . وما أنتم إلا طفيليون وقوادون وصنائع لحكومة الاقلية من الاغنياء ، إنكم تتحدثون فى لغو وصيغ عتيقة عن حاكم للحرية . بينما تلبسون طيلة الوقت الرداء القرمزى الخاص بالقدم الحديدية ، .

وهنا ضاع صوته وسط الصيحات والصرخات وهى تنادى :

« النظام .. النظام ، . ووقف إرنست فى ازدراء حتى خفت حدة الضوضاء ثم لوح بيده كى يشملهم جميعاً ، وتحول نحو رفاته قائلاً :

« استمعوا إلى حوار البهائم المتخمة ، .

وتعالت الضجة من مجلس الشيطان مرة أخرى ، وارتفعت طرقات رئيس المجلس طالبا النظام ونظر إلى الضباط المحتشدين عند الأبواب ، وصرخ البعض « عصيان ، ، وبدا نائب بدين من نيويورك يصرخ نحو إرنست: « فوضى ، ، ولم يكن منظر إرنست ممتعا . لقد أخذت كل عروقه النافرة ترتعش ، وأصبح وجهه مثل حيوان مقاتل ، رغم أنه كان مادنا متمالكا لزام نفسه .

وقال إرنست بصوت علا فوق الضجيج :

« تذكروا .. فكما تبدو الآن شفقتكم بالطبقة العاملة ، فإن هذه الطبقة العاملة نفسها سوف تبدى رحمتها بكم فى أحد الايام ، .

وتزايدت الصيحات .. « عصيان ، .. « وفوضى ، .

ومضى إرنست فى خطابه :

« إنني أعلم أنكم لم تصوتوا لصالح هذه الميزانية . لقد تسلمتم أوامر
أسياذكم كي تصوتوا ضدها . ومع ذلك تدعونني بالفوضوى . أنتم الذين
حطمت حكومة الشعب ، وتباهون بلا خجل بعاركم القره زى فى الأماكن
العامه . تدعوننى بالفوضوى . إننى لا أعتقد فى نار جهنم ومعادنها الكبريتية
ولكنى آسف فى مثل هذه اللحظات لعدم إيمانى . لا ، بل فى مثل هذه
اللحظات فإننى أكاد أومن بالفعل . بالتأكيد لا بد أن يكون هناك جحيم .
لأنه لا يوجد مكان أقل من هذا يمكن أن تلقوا فيه عقاباً يعادل جرائمكم .
وما دمتم على قيد الحياة ، فهناك الضرورة الحيسوية إلى نار جهنم فى
هذا الكون ، .

وحدثت حركة عند الأبواب . وتحول إرنست ورئيس المجلس وكل
أعضائه ليروا ماذا يجرى هناك .

وقال إرنست :

« لماذا لا تدعو جنودك أيها السيد الرئيس ، وتأمرهم بأداء مهمتهم .
يجب عليهم تنفيذ خططك على وجه العجلة ، .

لجاء الرد :

« بل مازالت هناك خطط أخرى . وهذا هو سبب وجود الجنود ، .

فقال إرنست فى سخرية :

« إنها خططنا على ما أعتقد . . اغتيال أو شيء من هذا القبيل ا ، .

وما إن نطق إرنست بكلمة اغتيال حتى ارتفع الضجيج مرة أخرى .
ولم يستطع إرنست أن يوصل صوته إلى أعضاء المجلس . ولكنه ظل
واقفاً ينتظر لحظة سكون . ثم حدث ما كان متوقعا . أما أنا فلم أر من

مكانى فى الشرفة غير وميض الانفجار ، لكن هديره ملاً أذنى . ورأيت إرنست يترنح ويسقط فى زوبعة من الدخان ، بينما تدفق الجنود على كل الممرات . وهب رفاق إرنست على أقدامهم وقد اجتاحهم الغضب والرغبة فى العنف . غير أن إرنست تمالك للحظة ولوح بذراعيه طالباً السكون .

ودوى صوته محذراً رفاقه :

« إنها مؤامرة - لا تفعلوا شيئاً وإلا فإنهم سيحطمونكم » .

ثم راح إرنست يتهاوى رويدا رويدا . ووصل الجنود إليه . وفى اللحظة التالية كان الجنود يخلون الشرفات فلم أر شيئاً أكثر من ذلك .

ولم يسمح لى بالاقتراب من إرنست رغم أنه زوجى وعندما بينت لهم شخصيتى اعتقلونى على الفور . وفى نفس الوقت تم القبض على جميع أعضاء المجلس من الاشتراكيين فى واشنطن بما فى ذلك سمبسون التمس الذى كان راقداً فى فندقه وقد اجتاحتهم التيفود .

وكانت المحاكمة عاجلة وقصيرة . لقد صدر الحكم على الرجال قبل أن تجرى محاكمتهم . والعجيب أن إرنست لم يحكم عليه بالإعدام . ولقد كانت هذه غلطة ارتكبتها الاحتكارية وكلفتها الكثير . لكن الاحتكارية فى تلك الأيام كانت تبالغ فى الثقة بقوتها . لقد أسكرها النجاح ولم يدرك فى خلدنا أن هذه الحفنة القليلة من الأبطال تحمل بين جنباتها القوة التى تمكننا من أن نقوض الاحتكارية من أساسها . وفى الغد عندما تنفجر الثورة الكبرى ويردد العالم صدى وقع أقدام الملايين ، سوف تتحقق الاحتكارية بعد فوات الأوان أى قوة بلغتها هذه العصابة من الأبطال " وبصفتى واحدة

«(١) افترضت آفيس أيفرهارد ان قصتها سوف تقرا فى أيامها . ومن ثم أهملت الإشارة الى نتيجة محاكمة الاشتراكيين بتهمة الخيانة =

من الثوريين ، بل ووثيقة الصلة بهم ، أعرف آمالهم ومخاوفهم وخطاهم السرية ، فإنني أصلح من بين عدد قليل للغاية ، لمهمة تنفيذ الاتهام الموجه لنا بتفجير القنبلة داخل الكونغرس ، وأستطيع أن أقول دون التواء أو تحفظ أو شك من أى نوع ، إن الاشتراكيين داخل الكونغرس أو خارجه ليست لهم يد في ذلك الحادث . نحن لانعرف من الذى ألقى القنبلة . غير أن الشيء الوحيد الذى تثق فيه تماما هو أننا لم نلق بها .

ومن جانب آخر ، هناك ما يشير إلى مسئولية القدم الحديدية عن الحادث . وبالطبع لانستطيع إثبات ذلك . فاستنتاجنا لا يقوم إلا على التخمين . ولكن هاهى ذى بعض الحقائق التى نعرفها جيدا . لقد أبلغ رجال مخابرات الحكومة رئيس المجلس أن أعضاء الكونغرس الاشتراكيين يتأهبون للجوء إلى الأساليب الإرهابية ، وأنهم اتفقوا على اليوم الذى يضعون فيه خططهم موضع التنفيذ . وكان ذلك هو يوم حدوث الانفجار . ولهذا السبب احتشدت قوات الجيش فى مجلس النواب ووقفت على

العظمى . وسوف يلاحظ القارئ فى المخطوط كثيرا من ذلك الاغفال الذى يثير البلبلة . لقد حوكم اثنان وخمسون من أعضاء الكونغرس الاشتراكيين ، أدانتهم المحكمة جميعهم . وكان غريبا الا يحكم على احد منهم بالاعدام . فقد حكم على أرنست واحد عشر آخرين من بينهم « تيودور دونيلسون » و « ماثيو كينت » بالسجن المؤبد . أما الأربعون انباقون فقد حكم عليهم بالسجن مددا تتراوح بين ثلاثين وخمسة واربعين عاما . بينما لم يحكم على آرثر سمبسون الذى جاء ذكره بالمخطوط على انه كان مريضا بحمى التيفود فى أثناء وقوع الانفجار الا بالسجن خمسة عشر عاما فقط . وقيل انه مات جوعا فى حبسه الانفرادى . وبررت هذه المعاملة القاسية بعناده ورفضه المساومة وكراهيته المتقدة والعمياء لكل الرجال الذين ناصروا الحكم الاستبدادى . ومات سمبسون فى كاباناس بكوبا حيث سجن ثلاثة من رفاقه الى جانبه . وقد سجن الاثنان والخمسون اشتراكيا من أعضاء الكونغرس فى الثكنات العسكرية المنتشرة عبر كل أراضى الولايات المتحدة . وهكذا احتجز كل من وودز ودى بوا فى بورتوريكو بينما وضع أرنست وفيرى ويلز بجزيرة « الكاتراز » بخليج سان فرانسيسكو والتى استخدمت كسجن عسكري منذ زمن بعيد .

أهمية الاستعداد ، وحيث إننا لم نكن نعرف شيئا عن القنبلة ، وحيث إن هناك قنبلة قد انفجرت بالفعل ، وحيث استعدت السلطات للانفجار مقدما ، فليس من التعسف أن نستنتج أن القدم الحديدية كانت تعرف كل شيء ، وأكثر من ذلك فإننا تهما بارتكاب العدوان ، وأنها بيتت هذا العدوان واقترفته بغرض تحميلنا وزر الجريمة ، ومن ثم القضاء علينا .

وتسرب التحذير من رئيس المجلس إلى كل الصنائع الذين يلبسون الرداء القرمزي بالمجلس لقد كانوا يعرفون في أثناء خطاب إرنست أن عملا عنيفا سوف يرتكب ، وإنصافا لهم فقد اعتقدوا في إخلاص أن هذا العمل سوف يقوم به الاشتراكيون . وفي المحاكمة شهد عديدون منهم بإيمان صادق أنهم رأوا إرنست وهو يستعد لإلقاء القنبلة ولكنها انفجرت منه قبل الأوان . وبالطبع فهم لم يروا شيئا من هذا القبيل . لقد ظنوا أنهم رأوا ذلك تحت وطأة الخوف وتصوراتهم المحمومة . هذا هو كل ما في الأمر .

وكما قال إرنست في أثناء المحاكمة :

« هل يتفق مع المنطق ، إذا ما اتويت إلقاء قنبلة ، أن أختار لهذه المهمة مفرقة صغيرة ضعيفة ، مثل تلك التي القيت ، إنها لم تكن تحوى بارودا كافيا . ولقد سببت دخانا كثيرا ولكنها لم تؤذ أحدا سواي ، إنها لم تتسبب في قتلى رغم أنها انفجرت عند قدمي مباشرة ، صدقوني . . عندما اتوى إلقاء قنابل فسوف أحدث الأضرار . وسوف يكون هناك في مفرقاتي أشياء أكثر من الدخان ، .

وفي مواجهة ذلك ذهب الادعاء في حجته إلى أن ضعف القنبلة كان خطأ وقع فيه الاشتراكيون . كما كان انفجارها قبل الأوان خطأ من جانب إرنست تسبب عنه فقدانه لأعصابه وإسقاطه القنبلة . وجاءت شهادة العديد

من أعضاء الكونجرس الذين رأوا إرنست وهو يتردد ويسقط القبلة
إثباتا لتلك الدعوى .

ولم يعرف أحد منا كيف أقيمت القبلة . وأخبرني إرنست أنه رآها
وسمعا وهي ترتطم بالأرض عند قدميه قبيل لحظة خاطفة من انفجارها .
وقد شهد بذلك في المحكمة، غير أن أحدا لم يصدقه . وبالإضافة إلى ذلك
كان كل شيء كما يقال في الحديث الدارج ، قد طبع ، لقد وطدت القدم
الحديدية عزمها على القضاء علينا . ولم يكن هناك شيء يعترض طريقها .

هناك مثل يقول إن الحقيقة سوف تعرف . ولكنني أصبحت أشك الآن
في صحته، لقد مرت تسع عشرة سنة ولكننا فشلنا رغم محاولاتنا التي لا نعرف
الكمال في معرفة الرجل الذي ألقى القبلة بالفعل . لاشك أنه كان واحدا
من عملاء القدم الحديدية لكنه أفلت من نطاق بحثنا . ولم نحصل إطلاقا
على أدنى أثر يدل على شخصيته . والآن وبعد مرور تلك السنوات ، فإن
المسألة لا يتبقى منها شيء سوى أن تأخذ مكانها بين الأحداث العارضة
في التاريخ " .

(١) كان لآبدي لافيس ايفرهارد ان تعيش عدة أجيال أخرى حتى
تستطيع أن تشهد جلاء هذا اللغز بالذات . فمئذ أقل من مائة عام ، أي
بعد ستمائة عام من وفاتها - تم الكشف عن اعتراف « برفايز » بين
محفوظات الفاتيكان السرية . ولعل من الأفضل أن نقول شيئا بسيطا
عن هذه الوثيقة الغامضة ، والتي لا تهم في الأساس سوى المؤرخين .

كان « برفايز » امريكيًا من أصل فرنسي . وفي عام ١٩١٣ أصبح
نزيرًا بسجن تومبز بمدينة نيويورك ينتظر محاكمته بتهمة القتل . ومن
واقع اعترافه تدرك انه لم يكن مجرمًا . بل كان رجلا عاطفيا ، انفعاليا
حار الدماء . وفي إحدى نوبات جنون الغيرة قتل زوجته ، وقد كان هذا
عملا مألوفًا في تلك الأيام . وتسلسل على برفايز الخوف من الموت - وقد
جاء كل هذا بالتفصيل في اعترافه - وحتى ينجس من الموت أبدى
استعدادا لعمل أي شيء . وأعدده رجال البوليس لذلك بعد أن أكدوا له
انه لن يستطيع الفرار من تهمة القتل العمد عندما يحين موعد محاكمته . =

وفي تلك الأيام كان القتل العمد جريمة تستحق الإعدام . فيجلس المدنب أو المدنبة على كرسي اعدام صنع خصيصا لهذا الغرض . ثم يقضى عليه بواسطة تيار كهربائي تحت اشراف اطباء اكفاء . ولقد اطلق عليه الإعدام بالكرسي الكهربائي . وكان هو الشيء المألوف خلال تلك الفترة . أما التخدير كوسيلة لتنفيذ الإعدام فلم يكن قد استخدم بعد .

هذا هو الرجل الذي كان طيبا في طبيعته ، غير أن بهيمية متوحشة تلف وجوده . انه يرقد في السجن ولا يتوقع شيئا اقل من الموت . هذا هو الرجل الذي حمله عملاء القدم الحديدية على القاء القبلة في مجلس النواب . ويقول برفايز في اعترافه بوضوح انهم افهموه ان القبلة سوف تكون ضعيفة ولن تتسبب في خسائر للأرواح . وهذا يتفق تماما مع حقيقة ضعف الشحنة التي احتوتها القبلة ، وعدم تسببها في قتل ارنست عندما انفجرت تحت قدميه .

وقد تم تهريب برفايز الى احدى الشرفات المغلقة ظاهريا بدعوى اجراء اصلاحات ، وكان عليه ان يختار لحظة القاء القبلة . ويعترف برفايز في سداجة انه كاد ينسى مهمته في غمار اعجابه بحملة ارنست والاضطراب الذي نشأ بسببها .

ولم يطلق سراح برفايز فحسب مكافأة على عمله ، ولكنه منح دخلا مدى الحياة . لكن برفايز لم ينعم بذلك طويلا . ففي سبتمبر عام ١٩٤٨ أصابته حمى الروماتيزم في القلب ، فلم تمهله سوى ثلاثة أيام . وفي ذلك الوقت أرسل برفايز في طلب القس الكاثوليكي الاب « بيتر دوربان » وادلى اليه باعترافه . وقد بدت للقس أهمية الاعتراف فرأى كتابته وان يقسم عليه برفايز . أما ما حدث بعد ذلك فلا نعرفه الا عن طريق التخمين . فمن المؤكد ان الوثيقة كانت من الأهمية حتى وجدت طريقها الى روما . ولا شك ان مؤثرات قوية قد سعت الى طمسها . فقد مضت قرون ولم يعرف العالم فقرة منها . حتى اذا ما جاء القرن الماضي عشر عليها العلامة الايطالي « لوريبا » عن طريق الصدفة اثناء ابحاثه في الفاتيكان .

وليس هناك اليوم ادنى شك في مسؤولية القدم الحديدية عن تفجير القبلة في مجلس النواب عام ١٩١٣ . وحتى اذا لم يكن اعتراف برفايز قد رأى النور قط ، فليس هناك منطوق في استمرار أى شك حول مسؤولية القدم الحديدية . وذلك ان حادث القبلة الذي تسبب عنه ارسال اثنين وخمسين عضواً من أعضاء الكونجرس الى السجن جاء متوافقا مع عدد آخر لا يحصى من الأعمال التي ارتكبتها الاحتكاريون ومن قبلهم الراسماليون .

فهناك المثال التقليدي الذي حدث بشيكافو في العقد قبل الأخير للقرن التاسع عشر ميلاديا ، عندما سخر القضاء في الاغتتيال الوحشي الذي جرى بلا حساب لأولئك الأبرياء الذين عرفوا باسم « فوضيو سوق التبن » . ويشكل التجاء الراسماليين أنفسهم الى احراق وتدمير ملكياتهم عن عمد نوعا من الاجرام قائما بذاته ، فكثيرا ما عوقب رجال ابرياء بسبب هذا الاتلاف للملكية ، أو بلغة ذلك العصر ، أرسلوا الى السجن ظلما وعدوانا .

وقد استخدمت أساليب مشابهة ولكنها أكثر دموية في الاضطرابات العمالية التي نشبت في العقد الأول من القرن العشرين بين الرأسمالية وبين اتحاد عمال المناجم الغربي . لقد نسف عملاء الرأسماليين محطة السكك الحديدية في « اند بندانس » قتل ثلاثة عشر رجلا وجرح عدد يفوقهم كثيرا . ثم وجه الرأسماليون الذين يسيطرون على الجهاز التشريعي والقضائي بولاية كولورادو اتهامهم لعمال المناجم بارتكاب الجريمة ، وكادوا ينجحون في أدانتهم . وكان رومينز أحد الأدوات التي استخدمت في هذه الحادثة . وكان مثل برفايز نزيلا في السجن بولاية أوسري هي « كانساس » ، ينتظر المحاكمة ، عندما اتصل به عملاء الرأسماليين . غير ان اعتراف رومينز خلافا لاعتراف برفايز نشر على الملأ في العصر الذي عاش فيه .

وخلال نفس الفترة ، حدثت قضية « موير وهايوود » وهما من قادة العمال الأقوياء الذين لا يهابون شيئا . كان أحدهم رئيسا لاتحاد عمال المناجم الغربي . أما الآخر فقد كان سكرتيرا للاتحاد . وفي ظروف غامضة تم اغتيال الحاكم السابق لولاية « ايداهو » وفي ذلك الوقت وجه الاشتراكيون وعمال المناجم التهمة صراحة الى أصحاب المناجم . وعلى الرغم من ذلك انتهك حاكما ولايتي ايداهو وكولورادو دستور البلاد ودساتير الولايتين فلجأ الى المؤامرة ، وتم اختطاف موير وهايوود وألقي بهما في السجن حيث وجهت لهما تهمة القتل . وهذه هي الحادثة التي دفعت يوجين - ف - ديبس القائد العام للاشتراكيين الامريكين في ذلك الوقت الى القول :

« ان القادة العماليين الذين لا يمكن رشوتهم او تهديدهم يجب ان ننصب لهم الشرك ويصرعوا . ان جريمة موير وهايوود الوحيدة تكمن في انهما لم يحيدا عن الاخلاص للطبقة العاملة .

لقد سرق الرأسماليون بلادنا وفسدوا سياستنا ولوثوا قضاءنا ولم يبالوا بنا . والآن فهم يقترحون اغتيال هؤلاء الذين لا يستسلمون لسيطرتهم الفاشمة في خسة . ان حاكمي ايداهو وكولورادوا لا ينفذان الا اوامر اسيادهما من حكومة الاقلية من الاغنياء . واليوم فان القضية هي العمال في مواجهة حكومة الاقلية . فاذا ما ضربت تلك الحكومة ضربتها العنيفة الاولى ، فسنضرب نحن الضربة الأخيرة .

الفصل الثامن عشر

في ظل جبل سونوما

ليس هناك الكثير مما أقوله عن نفسي خلال هذه الفترة . لقد ظلت في السجن ستة شهور رغم أنه لم توجه إلى أي تهمة . لقد كنت « مشبوهة » ، وهي كلمة لبث الخوف سرعان ما عرفها كل الثوريين . ولكن جهاز مخبراتنا السرية الوليد كان قد بدأ نشاطه . وعند نهاية الشهر الثاني على وجودي في السجن قدم إلى « أحد السجنائين نفسه بوصفه ثوريا يقوم على الاتصال بمنظمتنا . وبعد ذلك بعدة أسابيع عرفت في جوزيف باركهورست الذي عين لتوه طبيبا للسجن ، عضواً في الفرق المقاتلة .

وهكذا أخذت منظمتنا الخاصة تتشعب مثلها يفعل العنكبوت خلال تنظيم الاحتكارية . وبهذا ظلت على صلة بكل ما يحدث في العالم الخارجي . وأكثر من ذلك أصبح كل واحد من قادتنا المسجونين على اتصال بالرفاق الشجعان الذين تنكروا في رداء القدم الحديدية . ورغم أن إرنست كان نزيبلا بسجن يبعد ثلاثة آلاف من الأميال على ساحل المحيط الباسفيكي ، فقد ظلت على اتصال دائم به ، حيث كنا نتبادل خطاباتنا بانتظام .

وكان بوسع القادة داخل السجن وخارجه أن يناقشوا المعركة ويوجهوها . وخلال شهور قليلة بات من الممكن تهريب بعضهم من السجن . ولما كان السجن لم يعد حائلا دون نشاطنا ، فقد قررنا تجنب القيام بأي عمل سابق لأوانه . كان هناك بالسجن اثنان وخمسون عضواً بالكونغرس ، بالإضافة إلى ثلاثمائة آخرين من قادتنا . ولقد وضعت الخطة على أساس إنقاذهم جميعاً من السجن في نفس الوقت . فإذا ما هرب جزء منهم ، فسوف يشير

ذلك حذر الاحتكاريين فيمنعوا هرب الباقين . ومن ناحية أخرى رأينا أن هرب قادتنا دفعة واحدة من كل السجون المنتشرة في البلاد سوف يكون له تأثير نفسي هائل على الطبقة العاملة . إن ذلك سوف يكشف عن قوتنا ويمنحنا الثقة .

وهكذا تم الاتفاق . فعندما أفرج عني في نهاية الشهر الستة ، أصبح علي أن أختفي وأقوم بإعداد مخبأ أمين من أجل إرنست . ولم يكن الاختفاء في حد ذاته مهمة سهلة ، فما أن حصلت على حريتي حتى بدأ جواسيس القدم الحديدية في تعقب خطاى . وكان من الضروري أن أجعلهم يفقدون أثرى ، وأنجح في الوصول إلى كاليفورنيا . ولم كانت مضحكة الطريقة التي أنجزت بها كل ذلك .

كانت السلطات قد بدأت في تطبيق نظام جوازات المرور المضروب على الفرار الروسى . ولم أجرؤ على عبور القارة بشخصيتى الحقيقية . كان من الضروري أن أجعلهم يفقدون أثرى تماماً ، إذا ما رغبت في رؤية إرنست مرة أخرى . فبوسع السلطات عن طريق تعقبى أن تقبض عليه مرة أخرى بعد فراره . ثم إنى لا أستطيع أن أتذكر فى زى واحدة من العملات وأتمكن من السفر . ولم يبق أمامى غير التنكر فى صورة واحدة من أفراد الاحتكارية . فبينما كان أقطاب الاحتكارية لا يتعدون حفنة قليلة ، كان هناك عشرات الآلاف من الاحتكاريين الصغار من أمثال مستر ويكسون مثلا . رجال يسارون بضعة ملايين ويلتصقون بالاحتكاريين الأقطاب ، ولا شك أن عدد زوجات وبنات هؤلاء الاحتكاريين الصغار كان كبيراً . وهكذا تقرر أن أقوم بالتنكر فى زى واحدة منهم . ولم تمض سنوات حتى أصبح من الصعب القيام بمثل هذا التنكر ، ذلك لأن نظام الجوازات أضفى محكما لدرجة أن أى رجل أو امرأة أو طفل فى جميع أنحاء البلاد أصبح مسجلا ومراقبا فى كل حركاته .

وعندما آن الأوان قت بتضليل الجواسيس . ولم تمض ساعة حتى لم يعد لأفيس إيفرهاارد أى وجود . فى ذلك الوقت دخلت امرأة تدعى فيليس فان فيرديفان تصحبها خادمتان وكلب^(١) صغير وخادمته إحدى دواوين عربات البولمان^(٢) وما هى إلا دقائق قليلة حتى كان القطار يسرع متجهاً نحو الغرب .

كانت الخادمتان الثلاث اللاتي صحبتي من الثوريات ، كانت اثنتان منهن عضوتين فى الفرق المقاتلة . أما الثالثة فهى جريس هولبروك التى انضمت لفرقة مقاتلة فى العام التالى ، ثم لم تمض عليها ستة شهور حتى قامت القدم الحديدية بإعدامها . لقد كانت هى التى أخذت مهمة رعاية الكلب ، ومن الاثنتين الأخرين ييرتا ستول التى اختفت بعد اثني عشر عاماً ، بينما ما زالت الثالثة وهى آنا رويلستون تعيش وتلعب دوراً متزايد الأهمية فى الثورة^(٣) .

(١) تصور هذه الصورة الساخرة أحسن تصوير مسلك السادة الذى يخلو من الشفقة . فبينما كان الناس يتضورون جوعاً ، كانت هناك خادمتان لرعاية الكلاب الصغيرة . وقد كان هذا تنكراً جاداً من جانب أفيس إيفرهاارد . كانت المسألة تتعلق بالقضية ، مسألة حياة أو موت . ومن هنا فإن هذه الصورة يجب قبولها كصورة حقيقية ، فهى تقدم شرحاً مذهلاً لروح تلك العصر .

(٢) بولمان - تصميم لأكثر عربات السكك الحديدية بهاء فى ذلك الوقت وقد سماها مخترعها بذلك الاسم .

(٣) عاشت آنا رويلستون حتى الواحد والتسعين من عمرها رغم المخاطر المتصلة والتي لا يمكن تصورها . وكما تحدى آل بوكوك جلادى الفرق المقاتلة ، كذلك تحدى آنا جلادى القدم الحديدية . كانت تحمل روحاً مسعورة فعاشت وسط المهالك والمخاطر . ولقد عملت بنفسها كواحدة من جلادى الفرق المقاتلة . وعرفت باسم العذراء الحمراء . وقد أصبحت إحدى الشخصيات المهمة للثورة . وعندما كبرت آنا وبلغت سن الواحد والتسعين من عمرها ، أردت هالكليف الدموى قتيلاً وسط حاشيته المسلحة بينما هربت هى دون أن يصيبها سوء . وماتت آنا فى النهاية ميتة عادية من الشيخوخة فى ملجأ سرى للثوريين بجبال « أوزارك » .

وعبرنا الولايات المتحدة إلى كاليفورنيا دون أن نتعرض لأية مغامرة .
وغادرنا القطار عندما توقف في محطة الشارع السادس عشر بأوكلاوند .
هناك اختفت فيليس فان فيرديفان إلى الأبد ومعها خادماتها وكلبها الصغير
وخادمتها . وقاد رفاق موثوق بهم الخادومات بعيدا . وتولى أمرى رفاق
آخرون . ولم تمض نصف ساعة على مغادرتي القطار حتى كنت على ظهر
زورق صغير للصيد . وخرجت في الزورق إلى مياه خليج سان فرانسيسكو .
وهبت الرياح واندفعنا مع التيار دون هدف معظم الوقت بالليل . غير أنى
شاهدت أضواء سجن الكاتراز حيث ينزل إرنست . ووجدت العزاء فى
التفكير بأننى أصبحت على مقربة منه . وعند الفجر وصلنا إلى جزر مارينى
بفضل تجديف الصيادين . وظلمنا هناك محتبئين طيلة النهار . ثم ساقنا
فى اليوم التالى مد عارم وريح لطيفة ، فاجتزنا خليج سان باولو فى ساعتين
ثم اعتلينا صفحة المياه فى جدول ديتالوما ، .

وهناك كان رفيق آخر فى انتظارنا ومعهم خيول معدة . ودون أن
تتمهل ، انطلقنا تحت ضوء النجوم . وكنت أستطيع أن أرى جهة الشمال
جبل سونوما الذى تندفع خيولنا نحوه . ولقد تركنا بلدة سونوما القديمة
ناحية اليمين . وسرنا عبر واد ضيق يمتد بين الركائز القائمة للجبل . وها هو
ذا طريق العربات أصبح طريقا للغابات ، أما طريق الغابات فقد أصبح طريقا
للأبقار يتضائل شيئا فشيئا حتى ينتهى وسط مراعى المرتفعات . وصعدنا
قدما فوق جبل سونوما . لقد كان أكثر الطرق أمانا ، فليس هناك أحد
ليلحظ مرورنا .

وأدركنا الفجر فوق حافة الجبل الشمالية : وفى شبهة الفجر هبطنا من
خلال الدغل إلى أودية الغابات الحمراء العميقة والدافئة التى تفوح منها
أنفاس الصيف المنتفض . كانت البلاد بالنسبة إلى وطننا قديما ، عرفته
وأحبته . وسرعان ما أصبحت مرشدة الطريق . أما المخبأ فهو من أجلى

وقد قت باختياره . وأزلنا الحواجز واجتزنا مرجا عاليا . . ثم عبرنا
قة هضبة منخفضة تغطيها أشجار السديان وهبطنا في مرج أصغر وصعدنا
قة هضبة اخرى منطلقين في هذه المرة تحت أشجار المادرونيا الحمراء
وأشجار المانزانيا الأشداحرارا . وفي أثناء صعودنا الهضبة ترامت علينا أشعة
الشمس الاولى على ظهورنا . واندفع سرب من طيور السماء خلال الغابات ،
ودبر طريقنا أرنب برى ضخيم وهو يقفز في رشاقة وهدوء الغزال . ثم
شق وعل متعدد القرون تلمع أشعة الشمس على رقبتة وكتفيه في ألوان
ذهبية حمراء ، الحافة المتشابكة بالأشجار من أمامنا ثم مضى في سبيله .

وتبعنا آثار الوعل مسافة ، ثم أخذنا في هبوط طريق متعرج أبي
الوعل السير فيه ، بل مضى نحو مجموعة من أشجار الغابات الحمراء الرائعة
تحيط ببركة من المياه الداكنة بفعل المواد المعدنية من جانب الجبل . وكنت
أعرف كل شبر من الطريق ، ففي أحد الأيام امتلك العزبة أحد أصدقائي
الكتاب . ولكنه أصبح ثوريا هو الآخر ، وإن كان أكثر تعاسة مني لأنه
مات وانتهى بالفعل ، ولم يعرف أحد أين وكيف تم ذلك ؟ ولقد عرف هذا
الصديق دون غيره في تلك الأيام التي عاشها سر المنجبا الذي أتوجه إليه .
وكان قد اشترى العزبة لجمالها ، ودفع مبلغا ضخما حتى أثار استياء المزارعين
المحليين . واعتاد صديقي أن يصف والفرح العظيم بغمرة كيف كان
المزارعون يهزون رؤوسهم في رثاء على فداحة هذا الثمن ، ثم يهزرون في أذهانهم
بعض العمليات الحسابية ويقولون :

« ولكنك إن تربح ستة في المائة من ثمنها ،

ولكنه يرقد الآن ميتا ، وحتى المزرعة لم تؤل إلى أولاده . لقد امتلكما
من بين جميع الرجال ، مستر ويكسون الذي امتلك معها كل المنحدرات
الشرقية ، والشمالية لجبل سونوماو التي تمتد من مقاطعة سبريكاز حتى منخفض
وادي بينيت . وجعل ويكسون من هذه المساحة منزها رائعا للغزلان
حيث تمرح في براري تكاد تكون بدائية فوق آلاف الأفدنة من المنحدرات
اللطيفة والممرات والأودية . أما الناس الذين كانوا يملكون الأرض فقد

طردوا بعيداً ، بينما هدمت مصحة الأمراض العقلية حتى تنسع الأرض أمام الغزلان .

والخلاصة أن كوخ الصيد الخاص بويكسون ، كان يقع على مقربة ربع ميل من مخبئ ، ولم يكن هذا مصدر خطر ، بل على العكس كان زيادة في الأمان . هكذا وجدنا الأمن في حمى أحد الاحتكاريين الصغار . لقد تباعد الشك نتيجة لطبيعة المكان ، فإن منزله ويكسون للغزلان كان آخر مكان في العالم يمكن أن يطرأ على فكر جواسيس القدم الحديدية في بحثهم عنى وعن إرنست عندما ينضم إلى .

وربطنا خيولنا بالأشجار الحمراء عند البركة . وأخرج مرافق من مخبأ خلف كتلة مجوفة من الخشب المنعطن أشياء متنوعة ، مثل كيس به خمسون رطلاً من الدقيق وأطعمة معلبة من جميع الأنواع وآنية للطهي ، وأغطية ومشمعات من الخيش ، وكتب وأدوات للكتابة ولفة كبيرة من الرسائل وصفحة بها خمسة جالونات من الكيروسين ، وموقد غازي ، وأخيراً وأكثر الأشياء أهمية لفة كبيرة من الحبال المتينة . كانت الإمدادات وفيرة للغاية لاشك أن نقلها إلى ذلك الملجأ استلزم القيام بعدد من الرحلات . غير أن الملجأ كان قريباً جداً . وأخذت الحبل وشققت طريق عابرة خلال ممرات من العليقات والشجيرات المتشابكة امتدت بين رايتين تكسرها الأشجار . وانتهى الممر فجأة عند ضفة جدول شديد الانحدار . كان الجدول صغيراً تمده الينابيع التي عجزت أكثر شهور الصيف حرارة عن تجفيفها . وعلى كل جانب ارتفعت روابي مكسوة بالأشجار العالية ، حيث بدت مجموعة منها وكأنها تنبثق بلا مبالاة من يد مارد جبار . لم تكن تلك الروابي تقوم على قاعدة صخرية ، بل ارتفعت عن قواعدها مئات الأقدام ولم تشكل إلا من التربة البركانية الحمراء ، تربة سونوما الخيرية الشهيرة . وخلال هذه الروابي شق الجدول الصغير مجراه العميق المندفِع . وتعين علينا أن نزحف حثو ، نصل إلى مجرى الجدول حتى إذا ما وصلناه هبطنا في محاذاته نحو مائة قدم . وعندئذ وصلنا إلى الجحر الكبير . لم يكن

هناك شيء يدل على وجوده . ولم يكن جحراً بالمعنى العادى للكلمة ، فإن المرء يزحف خلال الأغصان الملتفة فيجد نفسه على الحافة نفسها محذواً في ستار أخضر يحيط به من كل جانب . ويبلغ طول الجحر مائتي قدم طولاً وعرضاً ، بينما يبلغ عمقه مائة قدم . وأغلب الظن أن تجويف الجحر حدث عبر قرون من الزمان تحت اندفاع المياه نتيجة خطأ ما وقع عندما انبثقت الرايتان معا . ولا شك أن عوامل قوية شاذة قد ساعدت على إتمام ذلك . وفي أى مكان لم يبد أثر للأرض الأصلية . لقد كستها كلها الحضرة ابتداء من « كزبرة البئر ، الصغيرة ، والخنشار الذهبي ، حتى الأشجار الحمراء الجبارة وأشجار التنوب الفضية . وحتى هذه الأشجار الكبيرة فقد انبثقت من جدران الجحر ، وانحنى بعضها حتى شكل زاوية عريضة بلغت خمسة وأربعين درجة رغم أن الغالبية منها ارتفعت في استقامة من التربة المتعامة للجدران شبه العمودية .

لقد كان مخبأً مثالياً ، فلم يصل إليه أحد قط حتى أولاد قرية « جلين إلين » . ولو أن هذا الجحر قام في قاع واد يباغ طوله ميلاً واحداً أو عدداً من الأميال لأضحى معروفاً للجميع ولكنه لم يكن في قاع واد . ولا يزيد طول مجرى الجدول من بدايته حتى نهايته على خمسمائة ياردة . ويبدأ الجدول من ينبوع على بعد ثلاثمائة ياردة فوق الجحر عند أسفل مرج منبسط ثم يجري منطلقاً إلى الأرض الفضاء على بعد مائة ياردة من الجحر منضمياً إلى الجحر الرئيسي ومتدفقاً عبر أرض قليلة الانحدار تغطيها الأعشاب .

وربط مرافق طرف الجبل حول إحدى الأشجار ، وشد طرفه الآخر حوله . وتدابيت حتى وصلت القاع بعد برهة . ولم يمض وقت طويل حتى حمل مرافق كل الأدوات من المخبأ وأنزلها إلى ، ثم سحب الجبل وخبأه . وقبل أن يمضى بعيداً ودعى وداعاً حاراً .

وقبل أن أمضى في حمايتي فإنني أرغب في قول كلمة عن هذا الرفيق .. جون كارلسون وهو شخصية متواضعة من رجال الثورة ، وواحد من

المخلصين في صفوفنا والذين لا يمكن حصرهم ، كان جون يعمل في خدمة ويكسون في الاصطبلات بالقرب من كوخ الصيد . والحق ان الخيول التي ركبناها عبر جبل سونوما كانت خيول ويكسون . ولقد مضى الآن نحو عشرين عاما و كارلستون يتولى حراسة الملجأ . وإتني لأثق كل الثقة أن الخيانة لم تراود تفكيره مطلقا خلال كل تلك السنين . إنه يعجز أن يتصور في ذهنه أى خيانة للثقة التي منحت إياه . كان كارلسون فترا وبليدا لدرجة كبيرة تدفع المرء على التساؤل كيف تعنى الثورة شيئا بالنسبة إليه ؟ . ومع ذلك كان حب الحرية يتأجج في هدوء وثبات في روحه المعتمة . والحق أن عدم توثبه واندفاعه في تخيلاته كان مفيدا من بعض النواحي فلم يكن كارلسون يعرف الفضول والثروة . وقد سألته ذات مرة كيف صار ثوريا ؟ . فأجاب قائلا :

كنت جنديا في صباى . وكان ذلك في ألمانيا حيث يتعين على كل شاب أن ينضم للجيش . وهكذا انضمت أنا . وكان هناك جندي آخر في ريمان الشباب أيضا . أما أبوه فهو ممن يطلقون عليهم المحرضين ، وقد دخل السجن بتهمة العيب في الذات الملكية ، أو ما نسميه قول كلمة الحق في الإمبراطور . وقد تحدث الفتى الابن إلى كثيرا عن الناس والعمل وعن نهب الرأسماليين للشعب . وجعلنى أنظر للأشياء بطريقة جديدة . وأصبحت اشتراكيا . كان حديث الفتى صادقا للغاية وطيبا لم أنسه مطلقا . وعندما عدت إلى الولايات المتحدة اتصلت بالاشتراكيين وأصبحت عضوا في أحد أقسام الحزب عندما كان يعرف باسم حزب العمل الاشتراكي . وفيما بعد عندما تم الانقسام ، انضمت إلى الشعبة المحلية للحزب الاشتراكي . وكنت أعمل عندئذ في اسطبل عمومي بسان فرانسيسكو . حدث ذلك قبل الزلزال . وقد دفعت اشتراكاتى . مدى اثنين وعشرين عاما . ورغم أن الحزب أصبح غاية في السرية ، فإننى مع ذلك عضو به وأدفع اشتراكاتى . وسوف أستمر إلى الأبد أدفع الاشتراك وسوف أكون سعيدا عندما تقام الجمهورية التعاونية .

وإذ أصبحت وحيدة بدأت في طهو فطوري على الموقد الغازي ، كما بدأت في إعداد مأواي . وكثيرا ما كان كارلسون ينسلل إلى الملجأ في الصباح الباكر أو في المساء عقب حلول الظلام ويكب على العمل مدة ساعتين . وفي البداية كان مأواي من الخيش المشمع . وفيما بعد شيدنا خيمة صغيرة . وعندما تأكدنا من أمن المكان أقننا بيتنا صغيرا خائناه تماما عن أي عين عابرة بالصدفة ، يمكن أن تسرق النظر من حافة الجحر وشكلت النباتات الفضية التي كست تلك البقعة المظلمة درعا طبيعيا . كذلك فإننا أقمنا البيت في مواجهة الجدار العمودي . وحفرنا في داخل الجدار نفسه حجرتين صغيرتين بعد أن دعمناه بأخشاب قوية وزودناه بأسباب التمويه وتصريف المياه . صدقوني إذا قلت لكم إننا نعمنا بكثير من أسباب الراحة . وعندما اختبأ معنا بيدينباخ الإرهابي الألماني بعد فترة من الوقت ، أقام تصديما لامتصاص الدخان مكثنا من الجلوس بجوار نيران الحطب وهي تطفئ في ليالي الشتاء .

وإلى هنا يتعين علي أن أقول كلمة حول ذلك الإرهابي ذي الروح الطيبة . فلا يوجد في صفوف الثورة رفيق أسوأ فهمه بصورة رهيبه أكثر منه . إن الرفيق بيدينباخ لم يخن القضية . ولم يعدمه الرفاق كما ساد الاعتقاد . فتلك أكدوبة روجتها صنائع الاحتكارية . لقد أصبح الرفيق بيدينباخ شارد اللب فاقده الذاكرة . وأطلق واحد من حراسنا النار عليه في ملجأ الكهف في كارمل عندما عجز بيدينباخ عن تذكر كلمات السر . كانت تلك مجرد غلظه تبعث على الأسى . أما خياناته لفرقة المفاتلة فتلك أكدوبة من أساسها . وليس هناك من خدم القضية أكثر صدقا وإخلاصا منه (١) .

(١) لقد بحثنا بقدر ما نستطيع بين كل المواد التي وصلتنا من تلك الأيام ، ولكننا لم نجد أي أثر لبيدينباخ الذي أشير إليه هنا . وليس هناك من ذكر له في أي مكان سوى مخطوط آفيس ايفرهارد .

ولقد ظل الملجأ الذي تخبرته مشغولا طيلة الوقت تقريبا لمدة تباع الآن تسعة عشر عاما . وطوال تلك الأعوام لم يكتشفه أحد من الخارج سوى مرة واحدة ومع ذلك فقد كان الملجأ يقع على مسافة ربع ميل من كوخ الصيد الخاص بويكسون ، ، وميلا واحداً من قرية « جلين إلين » . وكان بوسعى دائماً أن أسمع قطارات الصباح والمساء تصل وترحل . واعتدت أن أضبط ساعتى على موعد الصفارة التى تطلقها مصانع الطوب (١) .

(١) اذا ما استدار الرحالة المتجول جنوباً لقرية « جلين إلين » فسوف يجد نفسه على طريق ترتفع الأشجار على جانبيه ويمائل طريق المقاطعة القديم الذى كان قائماً منذ سبعة قرون . وعلى مسافة ربع ميل من القرية ، بعد اجتياز الجسر الثانى سوف يلاحظ الرحالة الى يمينه واديا صيقاً شديد الانحدار يمتد مثل ندبة عبر الأرض المتموجة حتى سلسلة من الروابى التى تكسوها الأشجار . هذا الوادى الضيق انما هو مكان الطريق العام القديم الذى كان يجرى فى زمن الملكية الخاصة للأرض بممتلكات رجل يدعى شوفيه وهو رائد فرنسى من كاليفورنيا جاء من وطنه فى أيام الذهب الأسطورية . اما الروابى التى تكسوها الأشجار فهى نفس الروابى التى اشارت اليها آفيس ايفرهارد .

وقد وقع الزلزال الكبير عام ٢٣٦٩ ميلاديا فحطم جانبا من احدى هذ الروابى والقى به فى الجحر الذى اتخذت منه آفيس ايفرهارد وزوجها ملجأ لهما . ومنذ اكتشاف المخطوط أجريت أعمال التنقيب وتم الكشف عن المنزل وحجرتى الكهف وكل ما تراكم من الفضلات بعد اقامة طويلة . وعثر على الكثير من الآثار القيمة من بينها - وهو شئ غريب - التصميم الخاص بامتصاص الدخان الذى أشير اليه فى الرواية على أنه من صنع بيدىناخ . ويتعين على الباحثين الذين يهتمون بمثل هذه الأمور أن يقرأوا الكراسة التى وضعها أرنولد بنشام والتى ستنشر عما قريب .

وإذا ما سار المرء مسافة ميل الى الشمال الغربى من الروابى المكسوة بالأشجار فسيجد نفسه فى موقع « واك روبين لودج » عند ملتقى جدولى « وايلد ووتر » ، « وسونوما » . ويمكن لنا ان نلاحظ بصورة عابرة أن جدول « وايلد ووتر » كان يدعى فى الأصل جدول « جراهام كريك » ، وقد اطلق عليه هذا الاسم فى الخرائط المحلية القديمة . فم ان الاسم الأخير غلب على غيره . ولقد عاشت آفيس ايفرهارد فيما بعد ولدة قصيرة فى « واك روبين لودج » عندما تنكرت فى صورة احدى العميلات المحرضات بخدمة القدم الحديدية ، وتمكنت من أن تلعب دورها بين الرجال والأحداث متمتعة بالحصانة . وما زال الاذن الرسمى باحتلال « واك روبين لودج » محفوظا فى السجلات وقد وقع عليه رجل بارز مثل ويكسون الاحتكارى الصغير الذى أشير اليه فى المخطوط .

الفصل التاسع عشر

التحول

كتب إرنست إلى يقول :

« يجب عليك أن تخلق نفسك من جديد . يجب أن تنتهي شخصيتك وتصبحين امرأة جديدة، ليس بمجرد تغيير الملابس التي ترتدينها ، بل وما تحت الملابس وداخل نفسك . يجب أن تغيرى نفسك تماما حتى لا أستطيع أن أعرفك أنا شخصياً . غيرى صوتك وإشاراتك وعاداتك وشجاعتك ومشيتك وكل شيء . »

وامتثلت لأمره ، وأخذت كل يوم أمضى الساعات في التدريب على دفن آفيس إيفر هارد السابقة إلى الأبد تحت بشرة امرأة أخرى يمكنني أن ادعوها نفسى الأخرى . ولم يكن من الممكن الوصول لمثل هذه النتائج دون التدريب الطويل . ففى تنعيم الصوت فقط ، أخذت أتدرب دون انقطاع تقريبا حتى أصبح صوت شخصيتى الجديدة ثابتاً وطبيعياً لا تكلف فيه . لقد كان عدم التكلف فى انتحال الأدوار هو الشيء المهم الذى لاغنى عنه . فعلى المرء أن يبرع حتى يخدع نفسه . وما أشبه ذلك بتعلم إحدى اللغات . ولتسكن الفرنسية مثلاً . فى البداية يكون الحديث بالفرنسية نابعا عن الوعى ، أو مسألة إرادة . ويبدأ الطالب تفكيره بالإنجليزية ثم يتولى ترجمة هذا التفكير إلى الفرنسية . أو يقرأ الطالب باللغة الفرنسية ثم يترجم ما قرأه إلى اللغة الإنجليزية قبل أن يدرك معناه . وعندما يقوى الطالب من أساس دراسته اللغوية فيما بعد ، فإنه يقرأ أو يكتب ويفكر بالفرنسية دون أن يلجأ إلى اللغة الإنجليزية على الإطلاق .

وهذا هو ما يحدث في التنكر . لقد كان من الضروري لنا أن نمارس التدريب حتى تصبح أدوارنا التي نتحلها طبيعية غير متكلفة ، وحتى تتطلب العودة إلى شخصياتنا الأصلية ممارسة يقظة وقوية لإرادة الإنسان . ومن الطبيعي أن يصبح الأمر في البداية مجرد تجارب حافلة بالخطأ . لقد كنا نخلق فناً جديداً . وتعين علينا أن نكتشف الكثير . غير أن العمل كان يجرى قدماً في كل مكان . فبرز أساتذة في ذلك الفن وتجمع لدينا رصيد كبير من الوسائل والحيل . وأصبح هذا الرصيد بمثابة مرجع ينتقل من واحد إلى آخر ، وجزءاً من منهج تعليمي ، إذا جاز لنا هذا التعبير ، في مدرسة الثورة^(١) .

في ذلك الوقت اختفى والدي ، وتوقفت رسائله التي كانت تصلني في انتظام . فلم يعد يظهر في بيتنا القائم في شارع ديبل ، . وبحث عنه رفاقنا في كل مكان . ونقبنا عنه في جميع سجون البلاد عن طريق جهازنا السري . ولكنه كان قد فقد تماماً كما لو أن الأرض قد ابتلعتة . وحتى يومنا هذا لم نكشف عن أي أثر يقودنا إلى معرفة ما آل إليه أمره^(٢) .

(١) في تلك الفترة أصبح التنكر فناً حقيقياً . وقد انشأ الثوريون في جميع ملاجئهم مدارس للتمثيل . غير أنهم ازدروا (الأكسسوار) مثل اللحي والشعر المستعار والحواجب المرسومة وغيرها من الأشياء التي يستعين بها الممثلون على خشبة المسرح . لم تكن لعبة الثورة سوى لعبة حياة أو موت وكان (الأكسسوار) المجرد نوعاً من الشرك . كان من الواجب على التنكر أن يصبح شيئاً جوهرياً أساسياً ، وجزءاً من وجود الإنسان ، وطبيعة جديدة له . وقد قيل عن العذراء الحمراء « انها كانت واحدة من أبرع الفنانات ، والى هذا يجب أن يعزى دورها الطويل الناجح » .

(٢) كان الاختفاء أحد أهوال ذلك العصر ، وكان ملازماً له مثل البيان الرئيسي في القصة والأغنية . كان من المحتم أن يصاحب الحرب التحتية التي عصفت خلال تلك القرون الثلاثة . وشاعت هذه الظاهرة في صفوف الاحتكاريين والتنظيمات الطائفية للعمال مثلما شاعت في صفوف الثوريين . لقد اختفى الرجال والنساء وحتى الأطفال دون تحذير ودون أن يتركوا أي أثر . ولم يرههم أحد بعد ذلك ، وانتهت حياتهم في غلاف من الغموض .

وبقيت وحيدة في ملجئ سنة شهر ، لكننا لم تكن شهوراً عقيمة .
لقد واصلت منظمنا تقدماً . وأصبحت هناك على الدوام تلالاً من الأعمال
تتطلب إنجازها . كان إرنست وزملاؤه من القادة يقررون من سجونهم
ما يجب عمله . وكان علينا نحن الذين في الخارج تنفيذ قراراتهم . فهناك منظمة
الدعاية ، غير المكتوبة ، ، ومنظمنا الخاصة بجهاز التجسس بمختلف فروعها
إلى جانب إنشاء مطابعا السرية وخطوط مواصلاتنا السرية التي كانت
تعني ربط عشرات الآلاف من ملاحنا وتكوين ملجئ جديد في الحلقات
المتقدمة داخل السلسلة التي مددناها في كل أجزاء البلاد .

لهذا أقول إن العمل لم ينجز أبداً . وانهت وحدتي في نهاية الشهر
السته بوصول رفيقتين ، وهما فتاتان صغيرتان باسلتان مفعمتان بحماس
الحب للحرية : أما الفتاة الأولى فهي لورا بترسون التي اختفت عام ١٩٢٢ ،
والثانية هي كيت بيرس التي تزوجت فيما بعد من دي بوا^(١) . وهي مازالت
تعيش معنا وعيناها تتطلعان إلى شمس الغد التي تبشر بالعصر الجديد .

ووصلت الفتاتان في غمرة من الانفعال . وأحاط بهما الخطر والموت
المفاجئ . فقد اختفى جاسوس من صنائع القدم الحديدية بعد أن نجح في
التخفي كأحد الثوريين ، وسط بحارة زورق الصيد الذي انتقلت فيه
الفتاتان عبر خليج سان باولو . ونفذ الجاسوس كثيراً إلى معرفة أسرار
منظمنا ، ولاشك أنه جاء متعباً آثراً . فقد عرفنا منذ وقت طويل أن
اختفائهم كان مصدر قلق كبير لدى جهاز المخابرات السرية التابع للاحتكارية .
ولحسن الحظ ، كما أثبتت الحوادث ، لم يبيع الجاسوس بمكثفانه لأي
أحد . ومن الواضح أنه أرجأ إرسال تقريره مفضلاً الانتظار حتى يصل

(١) ينحدر دي بوا الأمين الحالي لمكتبة آرديس من أصلاب هذين
الثائرين اللذين تزوجا فيما بعد .

إلى نهاية مظفرة باكتشاف مخبئى والقبض على . غير أن معلوماته ماتت بموته . فقد تذرع الجاسوس بإحدى الحجج حتى يفادر الزورق بعد أن نزلت الفتاتان عند « بالوما كريك » وركبتا الخيول .

وبعد صعود جزء من الطريق فى جبل سونوما ، ترك جون كارلسون الفتاتين توأصلان سيرهما . وقاد حصانه وعاد سيرا على الأقدام . لقد ثارت شكوكه ، فعاد وقبض على الجاسوس . أما ما حدث بعد ذلك فقد أعدنا عنه كارلسون فكرة واضحة :

« لقد قتلته » . تلك كانت طريقة كارلسون التى تفتقر إلى الخيال فى الوصف . وكرر كارلسون كلماته ، بينما اتقد ضوء معتم فى عينيه ، وهو يقبض ويبسط يديه المشوهتين من الكدح الطويل ، فتعبران فى بلاغه :

« لقد قتلته ، ولم يأت بأى صوت . ثم خباته . وفى الليل سوف أعود وأدفنه على عمق فى جوف الأرض » .

وأصبحت أتعجب خلال تلك الفترة من التحول الذى اعترانى . وفى بعض الأحيان بدا من المستحيل أن أصدق أنتى عشت دائما حياة وادعة آمنة فى مدينة جامعية ، أو أنتى أصبحت ثورية ترمست على مشاهد العنف والموت . إحداهما لا يمكن أن تكون ، إحداهما كانت حقيقة ، أما الأخرى فهى حلم ، ولكن أيهما الحلم وأيهما الحقيقة ؟ . هل كانت هذه الحياة التى أحيانا الآن كثورية تختنق فى جحر مجرد كابوس ، أم هل أنا ثورية حلت فى مكان ما وبطريقة ما أنها عاشت فى وجود سابق بيركلى ، ولم تعرف مطلقا شيئا من العنف أكثر من حفلات الشاي والرقص وقائمة المحاضرات ، غير أنتى أعتقد أن تلك تجربة مشتركة لنا مارسناها جميعا نحن الذين انضوينا تحت العلم الأحمر للإخاء الإنسانى .

وكثيرا ما تذكرت شخصيات من واقع تلك الحياة الأخرى .
والعجيب أنها كانت تظهر ونختفي في حياتي الجديدة . هناك الأسقف
مورهاوس ، عبثا بحثنا عنه بعد أن تطورت منظمنا . كان ينتقل من مصحة
للأمراض العقلية إلى مصحة أخرى ، وتتبعنا آثاره من مستشفى الولاية
للأمراض العقلية في نابا إلى مصحة ستوكتون ، ومن هناك إلى المصحة القائمة
في وادي سانتا كلارا ، وكانت تدعى مصحة أجنيز ، وهنا انقطع الأثر ،
ولم يكن هناك ما يسجل موته ، فلا بد أنه هرب بطريقة ما . ولم أكن
أتصور الطريقة البشعة التي قدر لي أن أراه بها مرة أخرى ، عندما لمحت
بصورة عابرة في إعصار مذبحه كوميون شيكاغو .

أما جاكسون الذي فقد ذراعه في مصانع سبيرا وكان سببا في انقلابي
إلى ثائرة ، فإنني لم أراه بعد ذلك أبدا ، غير أننا عرفنا جميعا ماذا فعل قبل
موته . إن جاكسون لم ينضم إلى الثوريين أبدا . لقد حز في نفسه ما آل إليه
مصيره ، وراح يطيل التفكير في الظلم الذي حاق به ، فتحول إلى فوضوي
وليس فوضويا بالمعنى الفلسفي ، ولكن مجرد حيوان ملاءه جنون الحقد
وشهوة الانتقام ، وانتقم جاكسون لنفسه أشنع انتقام عند ما غافل
الحراس أثناء نوم الجميع بالليل ، ونسف قصر بيرتونوايث ، فتناثر إلى
ذرات صغيرة ولم ينج أحد ، حتى الحراس ماتوا . وفي السجن أثناء انتظار
محاكمته ، خنق جاكسون نفسه تحت أغطيته .

واتهى الدكتور هامر فيلد والدكتور بالينجفورد إلى مصير يختلف
عن مصير جاكسون ، لقد ظلا وفيين لساتتهما ، وكوفنا مكافأة مجزية
بمنحها قصرين اكليريكين حيث عاشا بسلام مع العالم ، لقد كان كل منهما
مدافعا عن الاحتكارية ، وأصبح كل منهما مفرطا في بدائته ، وكما قال
إرنست ذات مرة :

« نصح الدكتور هامر فيلد في تعديل أفكاره الميتافيزيقية حتى يمنح

الله بركته للقدم الحديدية ، وحتى تشتمل أيضا على الكثير من عبادة الجمال ، وحتى تحيل الكائن الفقري الغازي الذي وصفه هايكل إلى طيف غير منظور. وهكذا يمكن الفرق بين الدكتور هامر فيلد والدكتور بالينجفورد في أن الأخير قد جعل إله الاحتكاريين أكثر غازية وأقل قليلا في تكوينه الفقري . أما بيتر دونيللي ملاحظ العمال في مصانع سيبرا ، والذي قابلته في أثناء بحثي قضية ماكسون ، فقد كان مفاجأة لنا جميعا ، ففي عام ١٩١٨ حضرت أحد اجتماعات دحرسان فرانيسكو ، وكانت هذه الفرقة من أفضح الفرق المقاتلة جميعها وأشدّها ضراوة وأبعدها عن الرحمة ؛ والحق أن فرقة سان فرانيسكو لم تكن جزءا من منظمتنا . فقد كان أعضاؤها متعصبين ومسعورين ، ولم نجروا على تشجيع مثل هذه الروح ، ومن ناحية أخرى ، فرغم أنهم لم ينضموا إلينا فقد حافظنا على علاقات الصداقة معهم . أما السبب الذي دفع بي إلى الذهاب هناك ، في تلك الليلة ، فقد كان أمرا بالغ الأهمية . وكنت الوحيدة التي لا تلبس قناعا بين عشرة رجال ، وبعد أن أنجزت العمل الذي أتى بي إلى هناك ، قادني أحد الرجال بعيدا . وفي أحد الممرات المظلمة ، أشعل الدليل عود ثقاب ، وقربه من وجهه مزيجا قناعه . ومرت لحظات وأنا أتفرس في أسارير بيتر دونيللي المنفصلة حتى انطفأ العود .

وقال دونيللي في الظلام :

«أردت فقط أن تعرف في أنه أنا، هل تذكرين دالاس المراقب بالمصنع ، وهزرت رأسي، وأنا أستعيد في ذاكرتي الوجه الشعلي لمراقب مصانع سيبرا .
وقال دونيللي في فخر :

« حسنا لقد قتله أولا . . حدث ذلك بعد انضمامي إلى الحر . . وسألته .

«ولكن كيف يتفق وجودك هنا . . وزوجتك . . وأولادك . . ؟»

فأجاب :

« لقد ماتوا . . . وهذا هو السبب . . . »

ومضى قائلاً بسرعة :

« لا . . . ليس للثأر لهم . لقد ماتوا في بساطة على فراشهم من المرض ، كما ترين كان المرض يزورهم من وقت لآخر . لقد غلوا يدي في أثناء حياتهم . والآن وقد ماتوا ، فإني أسمى للانتقام لرجواتي المحطمة . ذات يوم كنت يتردون ليلى ملاحظ العمال . واكتفى اللبلة رقم ٢٧ من «حمر سان فرانسيسكو» . والآن هيا بنا نخرج من هذا المكان . »

وسمعت عنه أشياء أخرى بعد ذلك . لقد قال لي الحقيقة على طريقته عندما أخبرني بموت جميع أولاده غير أن واحداً من أولاده ظل حياً . إنه « تيموثي » الذي اعتبره أبوه ميتاً ، لأنه انضم إلى قوات المرتزقة " في خدمة القدم الحديدية ، وكان كل عضو من مجموعة الحمر في سان فرانسيسكو يأخذ على عاتقه تنفيذ اثني عشر حكماً من أحكام الإعدام كل عام . أما الفشل فجزاؤه الموت ويلجأ العضو الذي يفشل في استكمال العدد المطلوب إلى الانتحار ، ولم تكن أحكام الإعدام تصدر كيفما اتفق . لقد كانت هذه الفرقة من المسعورين تجتمع كثيراً ، حيث يجرى بعد ذلك توزيع أحكام الإعدام بالفرقة من أجل تنفيذها .

والواقع أن المهمة التي أنت بي إلى هناك ليلة زيارتي ، كانت محاكمة من هذه المحاكمات . فلقد أهدر «حمر سان فرانسيسكو» حياة أحد رفاقنا

(١) بالإضافة إلى التنظيمات الطائفية ، نشأ تنظيم طائفي آخر ولكنه تنظيم عسكري . لقد خلقت الاحتكارية جيشاً نظامياً من الجنود المحترفين تحت إمرة ضباط منها وعرف هذا الجيش باسم المرتزقة . وقد حلت هذه المؤسسة محل الميليشيا التي برهنت على أنها غير عملية في ظل النظام الجديد . وأنشئ جهاز للمخابرات السرية يتبع تنظيم المرتزقة ، ويكون خارجاً عن نطاق جهاز المخابرات النظامي الخاص بالقدم الحديدية . ويشكل الجهاز الجديد حلقة اتصال بين البوليس والجيش .

بعد محاكمته . وكان قد نجح في المحافظة سنوات طويلة على وظيفة مكتبية في المكتب المحلي للمخابرات السرية التابعة للقدم الحديدية ، وبالطبع لم يحضر رفيقنا محاكمته ، ولم يعرف قضائه أنه أحد رجالنا ، وتمثلت مهمتي في الشهادة على هويته وولائه لنا ، وقد يتمجب المرء كيف أمكن لنا أن نعرف المسألة ، لكن التفسير بسيط ، فلقد كان أحد عملائنا السريين عضواً في فرقة الحرسان فرانيسكو . كان من الضروري لنا أن نراقب الصديق كما نراقب العدو . ولم تكن تلك الفرقة من الرجال المسعورين ضئيلة الأهمية حتى تبعد عن ملاحظتنا .

ولكن ، فلنعد إلى بيترو دونيللي وولده . لقد جرى كل شيء على مايرام بالنسبة له ، حتى وجد في العام التالي اسم « تيموثى دونيللي » في قائمة أحكام الإعدام التي وقعت من نصيبه ، وهنا تأكدت عصبية لعائلته ، وكانت عنيفة عنده لدرجة غير عادية ، فخان رفاقه حتى ينقذ ابنه . وتم إفساد أثر خيائنه جزئياً ، غير أن اثني عشر رجلاً من حمر سان فرانسيسكو ماتوا ، وكاد أن يقضى على الفرقة ، أمامن نجوا فقد كالوا لدونيللي الموت الذي استحقه بخيائنه .

ولم يعمر « تيموثى دونيللي » طويلاً ، لقد أخذ حمر سان فرانسيسكو على عاتقهم مهمة إعدامه . وبذلت الاحتكارية كل جهدها لإنقاذه ، فكان ينقل من مكان إلى آخر بالبلاد ، ومات ثلاثة من الحر في محاولات فاشلة لقتله ، ولم تكن الفرقة تتكون إلا من الرجال ، وفي نهاية الأمر لجأوا إلى امرأة هي واحدة من رفيقاتنا ، ولم تكن سوى آنا رويلستون ، وقد منعنا حلقنا الداخلية ولكننا كانت على الدوام تمضي بإرادتها الخاصة وتحترق النظام . وأكثر من ذلك كانت آنا عبقرية ومحبوبة ، ولم نستطع أن نخضعها للنظام بأي الطرق . إنها تشكل بمفردها طبقة ، وليس من الممكن إخضاعها لمقاييس الثوريين العادية .

ورغم رفضنا السماح لها بالقيام بالمهمة، مضت آنا رويلستون لتنفيذها. والواقع أنها كانت امرأة فاتنة . ولم يكن الأمر يقتضيها أكثر من إشارة تدعوبها رجلا من الرجال . لقد حطمت قلوب العشرات من رفاقنا الشبان وأسرت عشرات غيرهم، وقادتهم من أوتار قلوبهم إلى داخل منظماتنا، ومع ذلك أصرت على رفض الزواج . لقد أحببت الأطفال حبا جما. ولكنها اعتقدت أن إنجازها أي طفل سوف يشغلها عن القضية التي وهبت حياتها من أجلها .

وكان الفوز بتيموثي دونيللي ، مهمة سهلة بالنسبة لآنا رويلستون . ولم يورقها ضميرها . ففي ذلك الوقت بالذات ، حدثت « مذبحه ناشفيل » . عندما قامت قوات المرزقة تحت قيادة دونيللي بقتل ثمانمائة عامل من عمال النسيج في هذه المدينة . غير أن آنا لم تقتل دونيللي ، بل أعادته سجيناً إلى حمر سان فرانسيسكو . حدث هذا في العام الماضي لحسب . والآن ها قد أطلق عليها اسم جديد لقد سماها الثوريون في كل مكان « العذراء الحمراء » (١) .

أما الكولونيل أنجرام والكولونيل فان جيلبيرت ، فقد كانا شخصيتين مألوفتين آخرتين 'قدر لي مقابلتهما فيما بعد . وارتفع نجم الكولونيل أنجرام عالياً في سماء الاحتكارية . وأصبح وزيراً مفوضاً بألمانيا . وكان يتمتع

(١) لم تزدهر فرقة الحمر بسان فرانسيسكو مرة أخرى حتى سحقت الثورة الثانية . واستمر ازدهار الفرقة مدى جيلين . ثم تمكن أحد عملاء القدم الحديدية من أن يصبح عضواً فيها ، فنقل إلى جميع أسرارها ، ومهد لإبادتها كلية . حدث هذا عام ٢٠٠٢ ميلادياً . وقد تم إعدام الأعضاء واحداً بعد الآخر على فترات بلغت ثلاثة أسابيع وعرضت جثثهم في حي العمال بسان فرانسيسكو .

بكرهية الطبقة العاملة في كل من البلدين . وقابلته في برلين حيث استقبلني ، ومد لي كثيراً من يد العون بوصفي جاسوسة معتمدة من جواسيس القدم الحديدية . وهذه المناسبة يمكنني القول بأنني أنجزت بعض الأشياء القليلة والهامة للثورة خلال دوري المزدوج .

وكان الكولونيل فان جيلبيرت يدعى فان جيلبيرت « المزجر » وقد لعب أهم أدواره في وضع مشروع القانون الجديد عقب كوميون شيكاغو . ولكنه كان قبل ذلك قد استحق الإعدام كقاض بسبب خبثه الشيطاني . وكنت واحدة ممن حاكموه ، وقضوا عليه بالموت . وتولت أنا وروبلستون تنفيذ الحكم .

وما زالت هناك شخصية أخرى ترجع إلى الحياة السابقة . إنه جوزيف هورد محامي جاكسون . كان أبعده شيء أتوقعه أن أقابل هذا الرجل مرة أخرى ، وكانت مقابلة غريبة . ففي ساعة متأخرة من الليل بعد مرور عامين على كوميون شيكاغو وصلنا أنا وإرنست إلى ملجأ « بنتون هاربر » ويقع ذلك الملجأ في ميتشجان عبر البحيرة الواقعة وراء شيكاغو . وقد وصلنا عند ختام محاكمة أحد الجواسيس حيث صدر عليه الحكم بالإعدام . واقتيد الجاسوس لتنفيذ الحكم . هذا هو المشهد الذي وصلنا عنده وفي اللحظة التالية ، أفلت الرجل التعس من أيدي أسريه ، وألقى بنفسه عند قدمي مطوقاً ركبتي بذراعيه كما لو كان عاشقاً . وأخذ الرجل يتوسل في خيل طالبا الرحمة . وعند ما رفع وجهه الملتاع نحوي ، عرفت فيه جوزيف هورد . ولم يحدث لي أبداً على كثرة ما شاهدته من الأحداث الرهيبة ، أن فقدت أعصابي مثلاً حدث عندما شاهدت هذا المخلوق المتهوس وهو يتضرع من أجل الإبقاء على حياته . كان يحرص على حياته في جنون . وأثار في الشفقة . ورفض أن يفلتني رغم محاولة

عشرات الرفاق جذبه بعيداً عنى ، حتى إذا ما سحبه آخر الأمر ، وهو
يصرخ ، سقطت على الأرض مغشياً على . فكم هو أيسر للإنسان أن
يرى رجالاً شجعاناً يموتون من أن يسمع جباناً يستجدي الحياة^(١) .

(١) كان ملجأ «بنتون هاربور» قبوا ، يحتال للدخول اليه عن طريق أحد
الآبار . ولقد حوفظ عليه في حالة حسنة . ويمكن للزائر الذي يدفعه
الفضول أن يطوف اليوم بمناهاته حتى صالة الاجتماعات حيث حدث
دون شك المشهد الذي وصفته آفيس ايفرهارد . وابتعد من ذلك قليلاً
توجد الزنازين التي كان المساجين يجلسون فيها ، وكذلك غرفة الموت
حيث نقلت أحكام الأعدام . وإلى الخلف توجد المقبرة وهي عبارة عن
دهاليز طويلة متعرجة نحتت في الصخر الصلب ، وعلى كل جانب منها
تكتنفها تجاويف حيث رقد الثوريون ، طبقة فوق طبقة تماماً كما تركهم
رفاقهم منذ سنوات طويلة .

الفصل العشرون

احتكارى مفقود

غير أنى سبقت الأحداث فى قصتى عن الحياة الجديدة ، وأنا أستعيد ذكريات الماضى . لحتى حلول عام ١٩١٥ لم نكن قد نفذنا بعد خطة التهريب الجماعى للسجونين . وقد قمنا بتنفيذها رغم تعقيدها دون عقبات وشجعنا تحقيق هذه المأثرة على الماضى فى عملنا . فى ليلة واحدة أطلقنا سلاح واحد وخمسين من أعضاء الكونجرس الاثنين والخمسين ، بالإضافة إلى أكثر من ثلاثمائة قائد آخرين من عشرات السجون والمعتقلات العسكرية والشمكنات الممتدة من كوبا حتى كاليفورنيا ولم تواجه العملية الإخفاق فى أى مكان ، ولم يهرب الرفاق فحسب ، بل وصل كل منهم إلى ملجئه المحدد . أما الرفيق الوحيد من أعضاء الكونجرس والذى لم يوفق فى إنقاذه فقد كان هو آرثر سمبسون وكان قد توفى بالفعل فى كاباناس لمر تعذيب وحشى .

وربما كانت الشهور الثمانية عشر التى تلت أسعد فترة فى حياتى مع إرنست ، لم تنفصل خلالها على الإطلاق . فكثيراً ما افرقنا عندما عدنا مرة أخرى إلى العالم فيما بعد . ولم يحدث أن فرغ صبرى فى انتظار شعلة ثورة الغد مثلما فرغ صبرى فى تلك الليلة وأنا أنتظر مجئ إرنست . لم أكن شاهدته مدة طويلة ، وكان التفكير فى أن أى عتبة محتملة أو أى خطأ فى خطتنا كفيل بإبقائه فى سجنه بالجزيرة يكاد يمس عقلى بالجنون . ومرت الساعات كأنها الدهور وأنا وحيدة تماماً ، فقد خرج بيدفباخ والشبان الثلاثة الذين عاشوا معنا فى الملجأ إلى الجبل بعد أن تسلحوا جيداً واستعدوا

لأى طارىء قد يحدث . ويخيل إلى أن الملاجىء قد خلت جميعها من الرفاق في تلك الليلة .

وما أن شحب وجه السماء إيذاناً بطلوع الفجر حتى سمعت الإشارة قادمة من أعلى ، فأعطيت الجواب . وأوشكت أن أحتضن بيدى نباح في الظلام ، فقد كان أول من نزل ، ولكنى وجدت نفسى في اللحظة التالية بين ذراعى إرنست . واكتشفت في تلك اللحظة أن تحولى كان كاملاً حتى إننى لم أستطع أن أصبح آفيس إيفر هارد السابقة بعاداتها وابتساماتها وعباراتها ونبرات صوتها دون أن أبذل جهداً من الإرادة . هكذا استطعت بمجهود قوى أن أحتفظ بشخصيتى السابقة . ولم يكن فى وسعى أن أسمح لنفسى بالنسيان لحظة واحدة . هكذا تسلطت على بصورة أوتوماتيكية الشخصية الجديدة التى صنعتها لنفسى .

وعندما دخلنا الكوخ الصغير ، رأيت وجه إرنست فى الضوء ولم يطرأ عليه أى تغيير أو أى تغيير كبير على الأقل سوى شحوب السجن . إنه هو حبيبى وزوجى وبطلى الذى عرفته . ومع ذلك فثمة أمارات التقشف قد ظهرت على أسارير وجهه . غير أنه احتملها على خير وجه ، وبدت وكأنها تضيف شيئاً من النبيل والتمذيب إلى سمات وجهه التى طبعتها على الدوام حياته المتطرفة المشاغبة ، وربما ازداد وجهه صرامة عما كان عليه فى سالف الأيام . لكن ومضة الضحك ما زالت تلعب فى عينيه . وفقد إرنست عشرين رطلاً من وزنه ! لكنه كان فى حالة جسمانية رائعة . لقد داوم على التدريبات الرياضية طيلة فترة السجن ، وأصبحت عضلاته مثل الحديد . والحق أنه أصبح فى حال أحسن مما كان عليه قبل دخوله السجن . ومررت الساعات قبل أن تلمس رأسه الوسادة ، وأخذت الألفه حتى ينام ، ولكن النوم لم يكن من نصيبى ، لقد غمرتني السعادة ولم أكن قد هربت من السجن أو ركبت الخيل حتى يصيبنى الإرهاق .

وبينما راح إرنست في النوم ، بدلت ملابسى وتسريحة شعرى وعدت إلى قمص شخصيتى الجديدة غير المتكلفة ، وعندما استيقظ بيدى يديباخ والرفاق الآخرون دبرت بمساعدتهم مؤامرة صغيرة . وأصبح كل شىء معداً . وكنا فى حجرة الكهف التى استخدمناها مطبخاً وحجرة لتناول الطعام عندما فتح إرنست الباب ودخل . فى تلك اللحظة نادانى بيدى يديباخ باسم مارى فالتفت إليه وأجبتة ، ثم تطلعت إلى إرنست بإعجاب فضولى كما يفعل أى رفيق من الشباب عندما يرى لأول مرة بطلا بارزاً من أبطال الثورة مثل إرنست . غير أن إرنست لم يعرفنى وراح يحول بعينيه فى أرجاء الحجرة وقد فرغ صبره . وفى اللحظة التالية قدمونى إليه بوصفى مارى هولمز .

وحتى نستكمل الخدعة ، وضعنا طبقاً إضافياً على المائدة . وعندما جلسنا ظل أحد الكراسى شاغراً . وكان بوسعى أن أصرخ من الفرح عندما لاحظت اضطراب إرنست المتزايد ونفاد صبره . وأخيراً لم يستطع أن يحتمل أكثر من ذلك ، فسأل فى برود :

« أين زوجتى ؟ » .

وأجبتة :

« ما زالت نائمة » .

وكانت تلك هى اللحظة الحرجة . غير أن صوتى كان غريباً ، لم يجد فيه إرنست شيئاً مألوفاً . وواصلنا تناول الطعام . وأخذت أتحدث كثيراً فى حماس كما يفعل ذلك الذى يعبد البطولة . وكان من الواضح أنه هو بطلى . وارتفعت إلى ذروة الحماس والتعبس ، وقبل أن يخمن إرنست ما انتويته ، ألقىت بذراعى حول عنقه وقبلته فى شفتيه . وأبعدنى إرنست عنه مسافة ذراع . ونظر إلى فى ضيق وارتباك . وحياء الرجال الأربعة بهدير من الضحكات ، وشرحوا له كل شىء . وتغلب الشك عليه بآدى

الأمر . وتفحصني بدقة واقتنع إلى حد ما ثم هز رأسه غير مصدق . ولم يتأكد إرنست من أنني زوجته الصادقة حقيقة إلا بعد أن أصبحت آفيس إيفرهاارد السابقة وهمست في أذنه بأسرار لا يعرفها سوانا .

ولم يأخذني إرنست بين ذراعيه إلا في ساعة متأخرة من النهار مبدياً ارتباكاً شديداً ، مدعياً عواطف الرجل الذي يتزوج بأكثر من واحدة .

وقال إرنست :

« إنك زوجتي آفيس . وأنت امرأة أخرى كذلك . أتما امرأتان . لذلك فأتما حريمي . وعلى أي حال فنحن نعيش الآن في أمان . فلا تخشي شيئاً إذا لم تعد الولايات المتحدة تصلح لإقامتنا . فقد أصبحت مؤهلاً للحصول على الجنسية التركية (١) . »

وغمرت السعادة حياتي في الملبأ . صحيح أننا كنا ننفق الساعات الطويلة في العمل الشاق ، ولكننا كنا نعمل سوياً . لقد عشنا معاً طيلة ثمانية عشر شهراً من أغلى أيام الحياة . ولم نكن وحدنا فقد كان القادة والرفاق يذهبون ويأتون على الدوام — أصوات غريبة من العالم الخفي للثورة والمؤامرات ، حاملة إلينا حكايات عجيبة عن النضال والحرب على طول خطوط النار . وأخذنا كثيراً بأسباب النسبية والفرح . لم نكن مجرد متأمرين نلقهم الكآبة . لقد كدحنا بصورة شاقة وعانينا الكثير ، وملأنا الثغرات في صفوفنا ومضينا قدماً للأمام . ومن خلال كل هذا العمل وصراع الحياة والموت وجدنا الوقت الذي نضحك فيه ونحب . كان بيننا فنانون ، وعلماء ، وباحثون وموسيقيون وشعراء . وفي ذلك الجوهر كانت الثقافة أسمى وأرفع من ثقافات القصور أو مدن العجائب التي شيدها الاحتكاريون . والحق أن

(١) كان تعدد الزوجات لا يزال قائماً بتركيا في ذلك الوقت .

كثيرا من رفاقنا كدحوا لتجميل هذه المدن وتلك القصور (١) .

ولم نظل حبيسين للملجأ . فكثيرا ما ركبنا خيول ويكسون وخرحنا بالليل تريض فوق الجبال . لبيت ويكسون يعرف كم من الثوريين حملتهم خيوله . بل أكثر من ذلك قمنا برحلات الزهة إلى أما كن معزولة نعرفها ، حيث كنا نقضى هناك طيلة النهار . فنذهب قبل طلوع الفجر ، ونعود بعد حلول الظلام . كذلك استخدمنا قشدة ويكسون وزبدته (٢) . ولم يتورع إرنست عن صيد طيور السماء والآراب الخاصة بويكسون . بل وغز لأنه الصغيرة في بعض الأحيان .

والحق أن ملجأنا كان آمنا . ولقد قلت من قبل إنه لم يكتشف سوى مرة واحدة . ويقردني هذا إلى الكشف عن الغموض الذي اكتشف اختفاء ويكسون الصغير . فبوسعى الآن أن أتكلم بعد موته . فقد كان هناك في قاع الجحر الكبير ركن تنفذ منه أشعة الشمس عدة ساعات . وقد غطيناه من أعلى فنقلنا إليه عدة حمولات من الحصى من قاع الجدول ، حتى أصبح في جزءه ودفنه مكانا جميلا نتمشى فيه . وفي أصيل أحد الأيام غلبني النوم . فأغفيت نصف إغفاءة وأنا أمسك بديوان من قصائد ميندينهول (٣) . كنت

(١) ليس هذا من قبيل التباهي من جانب آفيس ايفرهارد لقد كنت زهرة فناني العالم ومثقفيه من الثوريين . وباستثناء عدد قليل من الموسيقيين والفنيين وقلة من الاحتكاريين ، كان جميع المخترعين العظام لذلك العصر والذين وصلتنا أسماؤهم من الثوريين .

(٢) ظلت القشدة والزبدة حتى ذلك العصر المتأخر تستخرجان بطريقة فجأة من لبن البقر . ولم يكن اعداد الأظعمة في المعامل قد بدأ بعد .

(٣) هناك اشارة مستمرة في كل ما بقى لنا من آداب ووثائق تلك الفترة الى قصائد ميند ينهول الشعرية . ولقد سماه رفاقه « باللهب » ولا شك انه كان عبقرية عظيمة ومع ذلك فلم يصل الينا من شعره غير بعض الأجزاء الغربية . من خلال كتابات الآخرين وقد اعدمته القدم الحديدية في عام ١٩٢٨ ميلاديا .

في غمرة من الراحة والاطمئنان حتى هجرت قصائده الغنائية الملتببة عن إثارتي -
وأفتت على طويرة تسقط عند قدمي . ومن أعلى سمعت صوت شيء -
يزحف . وفي اللحظة التالية ترجل عند قدمي شاب صغير منزلقا في النهاية
عبر الجدار المتهاوي . كان هو فيليب ويكسون رغم أنني لم أكن أعرفه في
ذلك الوقت . ونظر إلى في برود وأطلق صغيرا خافتا ينم عن الدهشة وقال :
« حسنا » .

ثم أضاف بعد لحظة وقبمته في يده :
« أعذريني ، فإني لم أكن أتوقع رؤية أحد هنا » .

أما أنا فلم أكن باردة إلى ذلك الحد . كنت ما أزال قليلة الخبرة فيما
يتعلق بالتصرف في المآزق الحرجة . ولا شك في أنني لم أعتد على مثل هذه
التصرفات الخرقاء عندما أصبحت جاسوسة دولية فيما بعد . وكما حدث فقد
زحفت على أقدامي وصحت صيحة الخطر .

وسألني وهو يتفحصني بنظراته :

« لماذا فعلت ذلك ؟ » .

وأدركت بارتياح أن الشك لم يداخله عندما هبط ووجدنا .

وأجبتني :

« ولأى سبب تعتقد أنني فعلت ذلك ؟ » .

حقا . . . كانت تصرفاتي خرقاء في تلك الأيام .

وأجاب فيليب وهو يهز رأسه .

« لا أعرف - إلا إذا كان معك بعض الأصدقاء هنا ، وعلى أية حال

فانت مطالبة بتقديم بعض التفسيرات . إننى لا أحب ذلك . إنك تتعدين على أملاك الغير ، فمذه أرض أبى و

وفى تلك اللحظة تقدم بيدىنباخ بأدبه ولطفه الممهوردين ، وقال بصوت خفيض من خلف ظهره :

« ارفع يدك أيها السيد الصغير ، »

ورفع ويكسون الصغير يديه أولاً ثم استدار ليواجه بيدىنباخ الذى صوب نحوه بندقية أرتوماتيكية من عيار ثلاثين - ثلاثين ، واحتفظ ويكسون برباطة جأشه وقال :

« أره . . إنه وكر للثوريين . بل يبدو وكر للدباير . حسنا أستطيع أن أقول إنكم لن تقيموا هنا طويلا ، »

وقال بيدىنباخ فى هدره :

« لعلك تقيم هنا طويلا حتى تعيد النظر فى هذا الحكم ، وفى نفس الوقت من الواجب على أن أدعوك لتأتى معى إلى الداخل ، »

وانتابت الفتى دهشة شديدة وراح يتساءل :

« الداخل ! . . هل يوجد هناك سرداب للموت ؟
أقد سمعت أشياء كهذه . »

وأجاب بيدىنباخ بنبرة صوته المحبوبة :

« تعال وسوف ترى . »

فاحتج الفتى بقوله :

« ولكن هذا غير شرعى . »

وجاءت إجابة الإرهابى ذات دلالة :

« صدقني . . ولكنه شرعي تماما بالنسبة لقوانيننا . يجب أن تعود نفسك على حقيقة أنك أصبحت في عالم آخر غير عالم القهر والوحشية التي عشت فيه . »

فغمغم ويكسون :

« هناك متسع من الوقت المناقشة . »

فقال بيدينباخ .

« إذن فلتبق معنا حتى نتناقش . »

وضحك الفتى وتبع أسره إلى داخل البيت ، حيث اقتيد إلى حجرة الكهف الداخلية ، وقام أحد الرفاق الشبان على حراسته ، بينما رحنا تناقش المرقف في المطبخ .

ودعا بيدينباخ والدموع تملأ عينيه إلى وجوب قتل ويكسون . غير أنه تنفس الصعداء عندما صوتنا ضد اقتراحه الرهيب . ومن ناحية أخرى لم تكن نجرؤ على السماح للاحتكاري الصغير بالرحيل .

وقال إرنست :

« سوف أقول لكم ما يجب عمله . . نحفظ به ونقوم بثقيفه . »

وصاح بيدينباخ :

« إذن فإني أطالب بشرف تنويره في مجال الشرع والقانون ، وهكذا وصلنا إلى قرار ونحن نضحك . سوف نحفظ بفيليب ويكسون سجيناً ، ونقوم بثقيفه وفقاً لقيمنا الأخلاقية والاجتماعية . ولكن ما زالت هناك بعض الأعمال التي يجب إنجازها في نفس الوقت . فكل أثر للاحتكاري الصغير يجب أن يختفي . وهناك العلامات التي خلفها في أثناء هبوطه على الجدار المتهوى للجر . وآلت هذه المهمة إلى بيدينباخ الذي تدلى بجبل من أعلى وراح يعمل بقية النهار حتى أزال كل أثر ، وبالمثل أزيلت كل الآثار الممتدة

من حافة الحفرة حتى أعلى الوادي . وفي الغسق جاء جون كارلسون
وطلب حذاء ويكسون .

ولم يرغب الفتى في تسليم حذائه بل وأعلن عن استعدادة للقتال من
أجله ، ولم يسلبه إلا عندما أحس في أبدى إرنست قوة حذاء الخيل . وقد
أخبرنا كارلسون فيما بعد أن ضيق الحذاء سبب له عديداً من القروح
والتساخات في جلده ، لكنه نجح في القيام بعمل مجيد ، فقد لبس كارلسون
الحذاء واتجه نحو اليسار عائداً من حافة الجحر حيث انتهت آثار الفتى
المحوة . ومشى كارلسون عدة أميال حول الروابي وفوق المرتفعات وعبر
الأودية . وأخيراً أخفى أثره في المياه الجارية لأحد الجداول . وهنا خلع
كارلسون الحذاء ، وواصل إخفاء أثره لمسافة ، ثم لبس حذائه الخاص .
ولم يمض أسبوع حتى استرد ويكسون الصغير حذاه .

في تلك الليلة أطلقت كلاب الصيد . ولم نعرف النوم في الملاجئ إلا قليلاً .
وفي اليوم التالي هبطت الكلاب العاوية الوادي مرة بعد أخرى ، واندفعت تجاه
اليسار فوق الأثر الذي رسمه كارلسون لها حتى تموه في الوديان البعيدة
أعلى الجبل . وانتظر رجالنا طيلة الوقت في الملاجئ وهم يسكنون بأسلحتهم
من البنادق والمسدسات الأوتوماتيكية ، هذا إذالم نذكر شيئاً عن ستة
آلات جهنمية من صنع بيدنباخ . ولشد ما سيكون وقع المفاجأة على فريق
الإنقاذ لو أنهم خاطروا بالتزول إلى مخبئنا .

هكذا سردت الآن حقيقة اختفاء فيليب ويكسون الذي كان احتكاريّاً
في وقت ما ، والذي أصبح رفيقاً من رفاق الثورة فيما بعد . لقد نجحنا في
تحويله آخر الأمر . كان عقله متفتحاً وطيباً . كما كان بطبيعته ذا قيم أخلاقية
إلى حد بعيد . وبعد عدة شهور ، أركبناه واحداً من خيول أبيه عبر جبل
سونوما إلى جدول ديتالوما كريك ، حيث استقل زورق صيد بخارياً

صغيراً . وشيئاً فشيئاً استطعنا تهريبه عبر خطوط مواصلاتنا السرية حتى ملجأ « كارمل » .

وظل فيليب في ذلك الملجأ ثمانية شهور . أبى في نهايتها أن يغادرنا لسببين : ويمكن السبب الأول في أنه وقع في حب آنا روبلستون ، أما السبب الآخر فلأنه أصبح واحداً منا . ولم يرضخ فيليب لرغبتنا ويعود إلى أبيه إلا عندما اقتنع بعدم جدوى حبه . وظل فيليب احتكاريًا من الناحية المظهرية حتى مماته . لكنه كان في الحقيقة واحداً من أكثر مساعدينا قيمة لنا . ولقد أصاب الذهول القدم الحديدية مراراً وتكراراً من جراء إحباط خططها وعملياتها ضدنا . ولو أن القدم الحديدية قد عرفت عدد عملائنا بين صفوفها لأدركت السبب . أما ويكسون الصغير فلم يتردد في ولاءه للقضية أبداً . والحق أن إخلاصه للواجب جلب له الموت . ففي الزوبعة الهائلة عام ١٩٢٧ أصيب فيليب بالالتهاب الرئوي في أثناء حضوره اجتماعاً لقادتنا ومات متأثراً به (١) .

(١) لم يكن ذلك الفتى نسيجاً وحده ، فقد وهب كثير من الشباب الاحتكاريين حياتهم للثورة بدافع من الإحساس بالسلوك القوي أو عن طريق استحواذ الثورة وامجادها على مخيلاتهم . وقد لعب كثير من أبناء طبقة النبلاء الروس دوراً مشابهاً في المراحل الأولى والطويلة من الثورة في بلادهم .

الفصل الحادي والعشرون

الوحش الهادر في الحضيض

وحافظنا خلال إقامتنا الطويلة بالملجأ على اتصالنا الوثيق بكل ما يحدث في العالم الخارجي . فكننا ندرس مدى قوة الاحتكارية التي نخوض الحرب معها . لقد أخذت المؤسسات الجديدة تتشكل عبر التغيرات الانتقالية على صورة أكثر تحديداً ، متخذة مظاهر الديمومة وصفاتها . ونجح الاحتكاريون في تصميم جهاز حكومي بالغ التعقيد والضخامة . وبدأ ذلك الجهاز عمله رغم كل جهودنا لعرقلته ووضع العقبات في سبيله .

وجاء كل هذا مفاجأة للكثير من الثوريين الذين لم يتصوروا إمكانية تحقيقه . ومع ذلك استمر العمل في البلاد . كان الرجال يكدحون في المناجم والحقول . ولم يزيدوا ، رغمًا عنهم ، على عبء أرقاء . أما فيما يتعلق بالصناعات الأساسية فقد ازدهر فيها كل شيء . وأصبح أعضاء التنظيمات الطائفية الكبرى للعمال راضين ، وراحوا يعملون في حبور . فعرفوا لأول مرة في حياتهم الأمن الصناعي . لم تعد تقلقهم الأزمات والإضرابات وإغلاق المصانع أو بطاقة النقابة . إنهم يسكنون الآن بيوتاً أكثر راحة ومدناً خاصة بهم تفيض بالمباهج إذا ما قورنت بالأحياء العمالية القذرة التي كانوا يسكنونها من قبل .

إنهم يتناولون الآن طعاماً أفضل ، ويعملون ساعات أقل ، وينالون أجازات أكثر ، إلى جانب المتع والمسرات العديدة والمتنوعة . ولم يبالوا أبداً بإخوانهم وأخواتهم الذين هم أقل حظاً . أولئك هم العمال المحرومون وأبناء الحضيض الذين تسوقهم الاحتكارية . لقد أطل على الإنسانية عصر من

الإنانية . ومع ذلك فليس هذا صحيحا كل الصحة . فقد تسرب عملاؤنا داخل
التنظيمات الطائفية للعمال ، رجال تعدت نظرتهم حدود احتياجات بطونهم
إلى الصررة المضبئة للإخاء والحريية .

وشكلت قوات المرتزقة مؤسسة أخرى كبيرة ، أخذت تعمل في هدوء .
وقد تألفت هذه القوة من الجنود الذين قدموا من الجيش النظامى القديم ،
وبائع عددهم المليون جندى ، هذا غير القوى الاستعمارية . وكون المرتزقة
جنسا مستقلا بذاته . وأقاموا في مدن خاصة بهم ، حيث منحوا الكثير من
الامتيازات . وعن طريقهم تم استهلاك جزء كبير من فائض الإنتاج الذى
كان يثر الارتباك . وراح جنود المرتزقة يفقدون كل اتصال وكل مشاركة
وجدانية مع سائر أفراد الشعب . كانوا فى الحقيقة يشكلون أخلاقياتهم
ووعيمهم الطبقي الخاص بهم . ومع ذلك فقد أصبح لنا آلاف العملاء داخل
صفوفهم (١) .

ويجب علينا أن نعتزف أن الاحتكاريين أنفسهم كانوا يجتازون مرحلة
تطور رائعة غير متوقعة . لقد نظموا أنفسهم كطبقة ، وأصبح لكل فرد
منهم عمله الذى يقوم به فى هذا العالم على نحو ملائم . لم يعد هناك شبان
أثرياء خاملون . فإن قواهم لا بد أن تستخدم كى تمنح الاحتكارية قوة
موحدة . هكذا أخذوا يعملون كقادة للقوات المسلحة ومديرين للصناعة .
ووجدوا مستقبلهم فى العلوم التطبيقية . وأصبح كثيرون منهم مهندسين
عظاما . ونفذوا إلى فروع الحكومة المتعددة ، وخدموا فى المستعمرات ،
وانضموا بعشرات الآلاف إلى مختلف أجهزة المخابرات السرية .

(١) لعب المرتزقة دورا هاما فى آخر أيام « القدم الحديدية » . فقد
صنعوا توازنا للقوى فى الصراع الناشب بين التنظيمات الطائفية للعمال
وبين الاحتكاريين ، فكانوا يلقون بثقلهم الى هذا الجانب حينما ، والى
الجانب الآخر حينما وفقا لمتطلبات الخديعة والتآمر .

وأستطاع القول بأنهم دربوا على القيام بعبء التعليم والفن والكنيسة والعلم والأدب . وقد أدوا في تلك الميادين مهمة خطيرة بتشكيلهم العمليات الفكرية للأمة في اتجاه تدعيم الاحتكارية ودوام نظامها .

لقد تعلموا ، ومن ثم علموا بدورهم أن ما يفعلونه هو الصواب . فقد بدءوا منذ طفولتهم يتلقون انطباعاتهم عن العالم . ومن هذه اللحظات تعلموا الفكرة الأرستقراطية التي نسجت في عملية تكوينهم حتى أصبحت جزءاً من لحمهم وعظامهم . كانوا ينظرون إلى أنفسهم كحكام وحوش ، ومروضى حيوانات ضارية . فن تحت أقدامهم ارتفعت على الدوام دمدات الثورة السرية . كما تسلسل الموت العنيف بين صفوفهم . لقد نظروا إلى القبلة والسكين والرصاصة بوصفها أنياباً عديدة لوحش الحضيض المزجر الذي يجب أن يسيطروا عليه إذا ما أرادت الإنسانية البقاء . كانوا منقذى الإنسانية ، فاعتبروا أنفسهم خداماً أبطالاً مضحين في سبيل الخير الأسمى .

وقد آمنوا كطبقة أنهم وخدمهم عماد الحضارة . وكانوا يعتقدون أنه لو قدر لهم أن يهذبهم الضعف . فإن الوحش الهائل سوف يتعلمهم داخل معدته المجوفة التي تقطر لزوجة ، كما يتلع كل ما هو جميل ورائع وبهيج وخير . بدونهم سنسود الفوضى وترتد الإنسانية إلى ليلها البدائي الذي خرجت منه عبر كثير من الآلام . وأمام أعين أطفالهم امتثلت على الدوام صورة الفوضى الرهيبة . وكان هؤلاء بدورهم يدفعهم هذا الخوف الذي نشأوا عليه ، يمسكون بصورة الفوضى أمام أعين الأطفال الذين خلفوهم . هذا هو الوحش الذي يجب أن يطوره بالأقدام . وهذه هي أسنى واجبات الأرستقراطية . وفي كلمات موجزة ، كانوا هم وخدمهم الذين يقفون بكدهم وتضحياتهم المتصلة ، حائلاً بين الإنسانية الضعيفة والوحش القادر على التهام كل شيء . ولقد آمنوا بذلك . آمنوا بذلك إيماناً راسخاً .

ولست في حاجة إلى المبالغة في تأكيد هذه القيم الأخلاقية العالية للطبقة

للاحتكارية كلها^(١) . ففيها تمثلت قوة القدم الحديدية . وهذا ما تباطأ أكثرية الرفاق في فهمه وامتنعوا عن إدراكه . لقد أوعز كثير من الرفاق قوة القدم الحديدية إلى نظامها الخاص بالتقدير والعقاب . وهذا خطأ . فالجنة والجحيم يمكن لهما أن تكونا دوافع الحماس الأساسية في عقيدة أحد المتعصبين . أما بالنسبة لغالبية المتدينين ، فإن الجنة والجحيم أشياء ثانوية بالنسبة للصواب والخطأ . فالعامل الرئيسى في العقيدة الدينية إنما يتمثل في حب الحق والرغبة إلى الصواب ، وباختصار السلوك القويم ، وهو نفس الشيء بالنسبة للاحتكارية . فالسجون والعنف والتجريد وصنوف التشريف والقصور ومدن العجائب جميعها أشياء ثانوية . إن القوة الهائلة المحركة لدى الاحتكاريين تتمثل في إيمانهم بصواب ما يفعلون . لندع الاستثناءات جانبا ولنضرب صفحا عن القهر والظلم اللذين عرفت بهما الاحتكارية . فإني أؤلم بكل ذلك . ولكن المسألة الأساسية هي أن قوة الاحتكارية اليوم إننا نكمن في اقتناعها بسلامة موقفها .

كذلك كانت قوة الثورة خلال هذه السنوات العشرين الرهيبة - لم تكن قوتها في شيء سوى الإيمان بعدالتها . فليس هناك شيء غير هذا يفسر تضحياتنا وتقديمنا الشهداء، وليس هناك سبب آخر جعل رودلف ميندينهول

(١) خرجت الاحتكارية من واقع التنافر وعدم التماسك الاخلاقي لدى الراسمالية بقيم اخلاقية جديدة محددة ومتناسكة ، حادة وقاسية مثل الصلب . ولم يحدث في يوم من الأيام لاي طبقة من الطبقات ان امتلكت من القيم الاخلاقية ما هو ابعداها عن العلم والعقل واكثرها فعالية في الوقت نفسه . لقد آمن الاحتكاريون باخلاقياتهم رغم ان علمى البيولوجيا والتطور قد كشفنا عن زيفها . وبسبب هذا الايمان تمكنوا من وقف المد العارم للتقدم البشرى طيلة قرون ثلاثة ، وهو مشهد عميق هائل يذهل الرجل الاخلاقي الميتافيزيقى بينما يثير كثيرا من الشكوك لدى الرجل المادى ، ويدفعه الى اعادة النظر في الأمور .

يلهب روحه من أجل القضية وينشد أغنية الشroud في تلك الليلة الأخيرة من حياته . وليس هناك سبب آخر جعل هير ليرت يموت تحت وقع التعذيب وهو يرفض أن يخون رفاقه حتى النهاية . وليس هناك سبب آخر جعل آنا رويلاستون ترفض الامومة المباركة، أو دفع جون كالرستون لأن يظل دون أجر الحارس الأمين للملجأ جلين إلين . وأينما يذهب المرء وسط رفاق الثورة سواء كانوا صفاراً أو كباراً ، رجالاً أو نساء من الطبقات العليا ، أو السفلى ، عباقرة أو حمقى ، فسيجد القوة المحركة لهم متمثلة في رغبتهم العارمة والأكيدة إلى الحق .

غير أنني مضيت بعيداً عن قصتي . لقد أدركنا جيداً أنا وإرنست قبل أن نغادر الملجأ كيف تتطور قوة القدم الحديدية . لقد تمهدت التنظيمات الطائفية للعمال وقوات المرتزقة والقطعان الهائلة من العملاء المرين والبوليس بمختلف أنواعهم بالإخلاص في خدمة الاحتكارية . فإذا ما غضضنا الطرف عن فقدانهم للحربة ، فقد أصبحوا بشكل عام أحسن حالاً مما كانوا عليه . ومن ناحية أخرى أخذت الجمهرة العاجزة من السكان وهم أبناء الحضيض يستسلمون للبؤس في بلادة حيوانية . وكلما أكد بعض العمال الأقوياء قوتهم في صفوف الجماهير ، سرعان ما التقطتهم الاحتكارية بعيداً عنها ومنحتهم ظروفاً أفضل بتحويلهم إلى أعضاء في التنظيمات الطائفية أو في قوات المرتزقة . وهكذا يهدى الاحتكاريون من شعور الاستياء ، ويسلبون العمال قاداتهم الطبيعيين .

وأصبحت حال أبناء الحضيض تدعو للثناء . لقد انتهى التعليم الإلزامي بالنسبة لهم . وأصبحوا يعيشون كالبهايم في أحياء عمالية كبيرة قدرة ، متقبحين وسط البؤس والانحطاط ، وفقدوا كل حتموهم القديمة في الحربة . لقد أضخوا عميداً للعمل ، فخرموا حقهم في اختياره ، كما حرّموا حق التنقل من مكان إلى مكان ، أو الحق في حمل السلاح أو حيازته . ولم يصبحوا

فأقننا للأرض مثل المزارعين ، بل عبيداً للآلة وعبيداً للعمل . وعندما كانت تنشأ الحاجة إليهم بصورة غير عادية ، مثلما يحدث عند بناء الطرق العمومية الكبرى وإنشاء خطوط الطيران وشق القنوات والأنفاق وللمرات تحت الأرض وإقامة التحصينات ، كانت الأحياء العمالية تجند ويُنقل عشرات الألوف من العبيد سواء رضوا أو لم يرضوا إلى مسرح العمليات . والآن فإن حشوداً هائلة منهم تكدح في بناء مدينة أرديس ، محتشدين في ثكنات حقيرة لا يمكن أن تقوم فيها الحياة العائلية ، هناك حيث تحمل البهيمية المتبلدة مكان السلوك اللائق . والحقيقة أن وحش الحضيض الذي يزأر فترتعد أمامه فرائص الاحتكاريين إنما يوجد هناك في الأحياء العمالية ، ولكنه الوحش الذي صنعوه وبدخله لن يتركوا الفرد والنمر يموتان .

في ذلك الوقت ذاع أن حشوداً جديدة سيتم تجنيدها من أجل بناء مدينة آسجارد وهي إحدى مدن العجائب التي صممت بحيث تفوق عند اكتمالها مدينة أرديس^(١) . أما نحن أبناء الثورة ، فسوف نواصل هذا العمل العظيم . ولكنه لن يقوم على اكتاف العبيد البؤساء . وسوف ترتفع جدران هذه المدينة وأبراجها وأعمدتها على أنغام الغناء . وسوف تختلط الموسيقى والضحكات بجمالها وروعها بعيداً عن الآنين والتهنيدات .

وازدادت لهفة إرنست إلى الخروج والعمل في العالم الخارجي . لقد كانت ثورتنا الأولى ذات المصير المشؤوم والتي أخفقت في كوميون شيكاغو

(١) تم بناء مدينة أرديس في عام ١٩٤٢ ميلادياً . بينما لم يستكمل بناء مدينة آسجارد حتى عام ١٩٤٨ ميلادياً . لقد استغرق بناؤها اثنين وخمسين عاماً اشتغل خلالها جيش دائم مكون من نصف مليون من العبيد . هذا إذا لم نحسب مئات الآلاف العاملين من التنظيمات العمالية ومن الفنانين .

تنضح بسرعة . ومع ذلك تدرع إرنست بالصبر . وحضر هادلي^(١) من إلبنيوس بغرض تغيير ملامح إرنست وتحويله إلى رجل آخر . وخلال تلك الأيام من العذاب ، راح إرنست يدير في رأسه المشروعات الكبرى لتنظيم العمال المدرسين ، والمحافظة على أقل تقدير على بقايا الثقافة في صفوف أبناء الحضيض . كل ذلك بالطبع في حالة إخفاق الثورة الأولى .

ولم تغادر الملجأ حتى يناير عام ١٩١٧ . وتم إعداد كل شيء . وفي الحال اتخذنا مراكزنا بوصفنا من العملاء المحرضين العاملين في مخططات القدم الحديدية . وكان من المفروض أن أكون شقيقة لإرنست . ولقد أعدنا ما وانا بواسطة احتكاريين ورفاق من الداخل احتلوا مناصب عالية . وقد مونا لنا جميع الوثائق الضرورية . كما تم تفسير كل شيء في حياتنا الماضية.

(١) كان هناك عديد من الجراحين في صفوف الثوار . وقد برعوا في عملهم في التشريح على الأجسام الحية . وكما جاء في نص كلمات آفيس ايفرهارد استطاع هؤلاء الجراحون إعادة خلق الانسان . وكانت عمليات استئصال الندبات والتشويبات أمورا تافهة بالنسبة لهم . لقد قاموا بتغيير ملامح الوجه في عناية بالغة الدقة حتى لا يتخلف أى اثر لعمل أيديهم . وكان الأنف هو العضو المفضل لديهم للعمل . كما كان ترقيع الجلد وزرع الشعر من بين وسائلهم الأكثر شيوعا . وجاءت التغيرات آلى وبقوا الى أحداثها في تعبيرات الوجه وكأنها من صنع سحرة ، فكانوا يعدلون تعديلا جذريا من مظهر العيون والحواجب والشفاه والافواه والاذان . وكان بإمكانهم تغيير طريقة الانسان في النطق والكلام باجراء عمليات ماكرة على اللسان والحنجرة والحلق وتجاويف الأنف . هكذا تدفع الأيام العصبية الحاجة الى علاج يأس . ولقد ارتفع جراحو الثورة الى مستوى المهمة . فكان في وسعهم ضمن أشياء أخرى ان يزيدوا من قامة انسان بالغ اربع بوصات أو خمس أو ينقصوها بوصة أو بوصتين . أما اليوم فقد أصبح عمل هؤلاء الجراحين فنا زائلا . ولم نعد بحاجة اليه .

لقد تلقينا المساعدة من الداخل . ولم يكن ذلك أمراً صعباً . ففي ذلك العالم الخفي في صفوف المخابرات السرية ، تصبح شخصية المرء شيئاً سديماً . فالعملاء يذهبون ويأتون مثل الأشباح مطيعين الأوامر يؤدون الواجبات متبعين الأثار ، مقدمين تقاريرهم إلى رؤساء لم يروهم من قبل في غالب الأحيان ، أو متعاونين مع عملاء آخرين لم يشاهدوهم من قبل ، كما لن يشاهدوهم بعد ذلك أبداً .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثاني والعشرون

كوميون شيكاغو

لم يكن في وسعنا بوصفنا من العملاء المحرضين أن نساfer كثيراً فحسب، بل استطعنا بحكم عملنا أن نتصل بالعمال وبرفاقنا الثوريين . هكذا أصبحت في كلا المعسكرين في نفس الوقت ، نخدم في الظاهر القدم الحديدية ، ونعمل في الخفاء بكل قوتنا من أجل القضية . كان هناك كثيرون منا في مختلف أجهزة المخابرات السرية الخاصة بالاحتكارية . ورغم عمليات الغريبة ، وإعادة التنظيم ، التي أخضعت لها أجهزة المخابرات ، فإنهم لم ينجحوا في التخلص منا جميعاً .

كان إرنست قد أوشك على وضع خطة الثورة الأولى . وحدد أحد الأيام المبكرة من ربيع عام ١٩١٨ موعداً لها . ففي خريف عام ١٩١٧ ، لم نكن قد أعددنا أنفسنا بعد ، وما زال أماننا الكثير مما نقوم به . وبالطبع فمن المحتوم أن تواجه الثورة الفشل إذا ما قامت قبل أوانها . وكانت الخطة بالضرورة معقدة إلى حد رهيب ، ومن المؤكد أن أي شيء متعجل سوف يقضى عليها . ذلك ما أدركته القدم الحديدية فوضعت خططها وفقاً له .

وحددنا خطتنا على أساس توجيه ضربتنا الأولى إلى الجهاز العصبي للاحتكارية ولما كانت الاحتكارية تذكر الإضراب العام فقد أمنت نفسها ضد ارتداد عمال التلغراف بإنشاء محطات لاسلكية تشرف عليها قوات المرتزقة . أما نحن فقد وضعنا بدورنا خطة مضادة ، فعند ما تعطى الإشارة سوف يخرج رفاق مختارون من جميع الملاجئ . ومن كل أنحاء البلاد من كل المدن والقرى والشكبات ، ويقومون بنسف جميع المحطات اللاسلكية .

وهكذا تسقط الاحتكارية عند الصدمة الأولى وتنطرح على الأرض ممزقة الأوصال من الناحية العملية .

وفي نفس الوقت يتولى رفاق آخرون نسف الكبارى والأنفاق ، ويمزقون كل شبكة السكك الحديدية . وفوق ذلك تقوم مجموعات أخرى من الرفاق ساعة إعطاء الإشارة بالقبض على قادة قوات المرتزقة والبوليس وكذلك كل الاحتكاريين ذوي القدرات غير العادية أو الذين يحتلون مراكز تنفيذية . هكذا يتم إبعاد قادة العدو عن ميدان المعارك المحلية التي سرف تدور رحاها حتماً في كل أنحاء البلاد .

وعندما تعطى إشارة البدء ، فإن أشياء كثيرة لا بد وأن تجرى في الوقت نفسه . فعندئذ يتعين على الوطنيين السكنديين ، والمكسيك الذين كانوا أقوى بكثير مما ظنت الاحتكارية ، أن ينفذوا في بلادهم خططاً تشابه خططنا . ثم هناك الرفاق (أما هؤلاء فمن النساء ، ذلك أن الرجال سيكونون مشغولين في أماكن أخرى) الذين تقع عليهم مهمة إصدار البيانات من مطابعتنا السرية . أما الثوريون الذين يحتلون مراكز عالية في خدمة القسم الحديدية ، فواجبهم البدء فوراً في إشاعة الاضطراب والفوضى في جميع الأقسام . وبداخل قوات المرتزقة كان يوجد الآلاف من رفاقنا . وتمثلت مهمة هؤلاء في نسف مخازن الذخيرة وتحطيم النظام الدقيق الذي تقوم عليه آلة الحرب كلها . وكانت هناك في مدن المرتزقة والتنظيمات الطائفية للعمال ثمة خطط تخريبية مماثلة يجب تنفيذها .

وفي اختصار تمثلت الخطة في تسديد ضربة هائلة تصعق الاحتكاريين . وهكذا تقضى الاحتكارية المشلولة نجحها قبل أن تتمكن من استعادة رعاياها . ولا يعني ذلك سوى قضاء أيام رهيبه وبذل خسائر فادحة في الأرواح . غير أنه ما من ثوري يتردد أمام مثل هذه الأمور . بل إننا اعتمدنا في خطتنا كثيراً على أبناء الحضيض غير المنظمين ، فسوف يتم إطلاقهم على

تصور السادة ومدنهم . ولا بأس من إزهاق الأرواح وتدمير الممتلكات .
دع وحش الحضيض يزأر . ودع المرتزقة والبوليس يسفكون الدماء .
فإن وحش الحضيض سيزأر على أية حال ، كما سيفك المرتزقة والبوليس
الدماء . ولا يعنى ذلك شيئاً سوى أن قوى خطيرة ستدمر إحداها الأخرى
دون أن تسبب أضراراً لنا . وفي الوقت ذاته نقوم بعملنا الخاص ، وقد
أبعدنا العراقل عن طريقنا إلى حد كبير ، ونسيطر على أجهزة المجتمع جميعها .

هكذا كانت خطتنا . وكان لا بد من رسم جميع تفاصيلها في الخفاء .
وبينما اقترب اليوم المحدد أخذنا نطلع عليها عدداً متزايداً من رفاقنا أكثر
فاكثر . تلك هي نقطة الخطر التي تمثل في اتساع حلقة المتآمرين . لكننا
لم نصل نقطة الخطر هذه أبداً . فلقد عرفت القدم الحديدية عن طريق
أجهزة تجسسها بنى الثورة واستعدت لتلقيننا درساً آخر من دروسها
الدامية . وكانت شيكاغو هي المدينة التي اختارتها لإعطائنا هذا الدرس
الذي تعلمناه على خير وجه .

كانت شيكاغو^(١) أكثر المدن نضجاً على الإطلاق - شيكاغو التي كانت
مدينة الدم فيما مضى من الأيام والتي كان عليها أن تستعيد شهرتها من جديد .

(١) كانت شيكاغو هي الجحيم الصناعي في القرن التاسع عشر .
وقد وصلت إلينا رواية غريبة عن جون بيرنز أحد القادة الكبار للعمال
الانجليز . والعضو السابق في الوزارة البريطانية . فقد سأل أحد
المخبرين الصحفيين في شيكاغو في اثناء زيارته للولايات المتحدة عن رأيه
في تلك المدينة ، فأجاب بيرنز :

ان شيكاغو هي صورة مصغرة للجحيم . وبعد فترة قليلة ، بينما
كان بيرنز يصعد باخرته مبحراً الى انجلترا ، اقترب منه صحفي آخر
أراد ان يعرف اذا كان بيرنز قد غير رأيه عن شيكاغو ام لا . وأجاب
بيرنز :

« نعم - لقد غيرت رأى - اننى لرى الآن ان الجحيم هو صورة
مصغرة من شيكاغو » .

هناك كانت الروح الثورية عارمة . ففي فترة الرأسمالية تجرع العمال مرارة قمع العديد من الاضرابات بصورة أكبر من أن ينسوها أو يغفروها للقائمين بها . حتى التنظيمات الطائفية للعمال بالمدينة أصبحت تنوق إلى الثورة . لقد حطم الكثير من الروس في الاضرابات الأولى . ورغم أن ظروف العمال قد تحسنت وتغيرت ، فإن حقدهم على الطبقة السائدة لم يذو . وأصابته هذه الروح الثورية قوات المرتزقة ، حتى أبدت ثلاث كتائب منها استعدادها للانضمام إلينا دفعة واحدة .

ولقد ظلت شيكاغو على الدوام مركز العاصفة في الصراع الدائر بين العمل ورأس المال . فكانت شيكاغو دائماً مدينة معارك الشوارع والموت العنيف . في هذه المدينة قام تنظيم الرأسمالية يعنى وجودها الطبقي ، وفي مراجعته تنظيم للعمال الواعين عبقياً . هناك في الأيام السالفة انخرط المدرسون في نقابات عمالية واندمجوا مع البنائين ومساعدتهم في اتحاد العمال الأمريكي . وهكذا أصبحت شيكاغو مركز الثورة الأولى التي انفجرت قبل أوانها . فلقد عمدت القدم الحديدية إلى التعجيل بإحداث الاضرابات ، وقامت بذلك في براءة . فراحت تعامل سكان المدينة جميعهم بما في ذلك التنظيمات الطائفية المميزة بطريقة تدفع لإثارة السخط والاستياء . ومزقت الاتفاقات ونقضت العقود ، ووقعت أفدح العقوبات على المذنبين حتى ولو كانت مخالفتهم بسيطة . هكذا تم إيقاف أبناء الحضيض من جمودهم تحت سياط التعذيب ، والحق أن القدم الحديدية أخذت تعد العدة لوحش الحضيض حتى يزأر . وإلى جانب ذلك عمدت القدم الحديدية الإهمال في اتخاذ الإجراءات الوقائية في شيكاغو بصورة لا يمكن تصورها . وأرخيت قبضة النظام بين صفوف قوات المرتزقة التي تبقت ، بينما سحبت كتائب عديدة وأرسلت إلى أجزاء مختلفة من البلاد .

ولم يستغرق تنفيذ هذه الخطة وقتاً طويلاً ، بل عدة أسابيع فقط .

وتناهت إلينا نحن أبناء الثورة إشاعات غامضة عن حقيقة الأحوال . ولكن لم يكن هناك أى شىء محدد يعيننا على فهم الموقف . والحق أننا تصورناها روحا تلقائية للثورة تتطلب منا العناية لكبح جماحها . ولم نتصور على الإطلاق أن ذلك قد دبر عن عمد . فقد تم التدبير فى سرية تامة من جانب الحلقة الداخلية للقدم الحديدية ، حتى إننا لم نستطع أن نحصل على أية إشارة لها ، كانت المؤامرة المضادة عملا قديرا تم تنفيذه ببراعة .

كنت فى نيويورك عندما تأقبت الأمر بالمضى فورا إلى شيكاغو . وكان الرجل الذى أعطانى الأمر واحداً من الاحتكاريين . تخمنت ذلك من حديثه رغم أننى لم أعرف اسمه أو أر وجهه . وكانت تعليقاته واضحة لدرجة لا تترك لى مجالاً للخطأ . وفى وضوح قرأت بين السطور أن مؤمراتنا قد اكتشفت وأن مؤامرة مضادة قد دبرت . وها هو الانفجار ينتظر الشرارة التى تمسك بالبارود . تلك هى مهمة عدد لا يحصى من عملاء القدم الحديدية وأنا من بينهم ، وسواء كانوا موجودين فى شيكاغو أو أرسلوا إلى هناك . وإننى لأعبط نفسى على احتفاظى برباطة جأشى تحت عين ذلك الاحتكارى الفاحصة . غير أن قلبى كان يخفق فى جنون . وكدت أصرخ وأقبض على حلقة يدي العاريتين قبل أن يمل على وهو بارد الأعصاب تعليقاته الأخيرة .

وما إن غادرته حتى رحى أحسب الوقت . لم يكن لدى سوى دقائق إذا أسعدنى الحظ كى أتصل بواحد من قادتنا المحليين قبل أن أستقل قطارى وأسرعت حذرة من اقتفاء أثرى نحو مستشفى الطوارى . وحالفنى الحظ عندما قابلت الرفيق جالفين رئيس الجراحين على الفور . وشرعت لاهثة فى الإدلاء بمعلوماتى . ولكنه أوقفنى قائلاً بهدوء رغم الشر الذى تطاير من عينيه الإبرلديتين :

« إننى أعرف الآن . . . لقد عرفت سبب مجيئك . بلغنى النبأ منذ خمس عشرة دقيقة . وأبلغته من جاني . سنفعل كل ما فى وسعنا حتى نحافظ على هدوء الرفاق . أما شيكاغو فنسضحى بها ، ولكن ذلك لن يتكرر فى أى مكان آخر . »

وسألته :

« هل حاولت إبلاغ شيكاغو ؟ »

لكنه هز رأسه :

« ليس هناك اتصال تلفرافى . . . لقد عزلت شيكاغو ، وهناك ستنتفح أبواب الجحيم . »

وأطرق جالفين لحظة ورأيت يديه البيضاويتين وهما تهماكسان ثم انفجر قائلاً :

« يا إلهى . . . كم أود لو قدر لى أن أكون هناك . »

وقلت له :

« لا تزال ثمة فرصة لوقف السكارثة . . . إذا لم يحدث شئ للقطار ، فإننى أستطيع أن أصل هناك فى الوقت المناسب ، أو إذا ما استطاع واحد من رفاقنا الآخرين العاملين فى صفوف المخابرات السرية والذين عرفوا الحقيقة أن يصل هناك قبل فوات الأوان . »

وقال جالفين :

« أما أتم الذين يعملون داخل صفوف القدم الحديدية فقد استسلمتم للنوم هذه المرة . »

وهزئت رأسي في ذلة وقلت له :

• لقد كان الأمر غاية في السرية ، ولم يعرفه حتى اليوم سوى الحلقة الداخلية من زعماء القدم الحديدية . وبالطبع لم تنفذ حتى الآن في صفوفهم إلى هذا الحد . لهذا لم نستطع تجنب إبقائنا على جهل بالموضوع . لو أن إرنست فقط كان هنا لربما كان الآن في شيكاغو وأصلح كل شيء . . .

وهز الدكتور جالفين رأسه قائلاً :

• كانت آخر الأنباء التي سمعتها عنه أنه أرسل إلى بوسطن أو نيوهافن . إن هذا العمل السري في خدمة العدو لابد وأن يعوقه كثيراً ، ولكنه خير من البقاء في أحد الملاجئ . . .

واستعددت الرحيل ، فضغطت جالفين على يدي وودعني قائلاً :

• كوني شجاعة الفؤاد . . . ماذا لو ضاعت الثورة الأولى ؟ . . . سوف تكون هناك ثورة ثانية وسوف نكون أكثر حكمة آنذاك . وداعاً وحظاً سعيداً . إنني لا أعرف ما إذا كنت سأراك مرة أخرى . سوف تفتح أبواب الجحيم في شيكاغو . وإنني لأبذل عشر سنوات من عمري إذا كان ذلك يمنحك فرصة الوصول هناك في الوقت المناسب . . .

وغادر القرن العشرون ، مدينة نيويورك في الساعة السادسة مساءً . وكان من المفروض أن يصل شيكاغو في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي . غير أن القطار أضع بعض الوقت في تلك الليلة ، فقد كنا نسير خلف قطار آخر . ومن بين المسافرين في عربتي البولمان . كان هناك الرفيق هارتمان الذي كان يعمل ممثلي في صفوف المخابرات السرية للقدم الحديدية . وقد كان هو الذي أخبرني بأن القطار الذي يسبقنا مباشرة ، هو نسخة طبق الأصل من قطارنا رغم أنه خلا من المسافرين . وقد قصد

بهذا القطار الخالي من المسافرين أن يواجه الكارثة ، إذا ما حدثت محاولة
لذسف « القرن العشرين » . ولهذا السبب لم يسافر في القطار سوى قلة من
الناس . ولم يكن هناك في عربتنا إلا ثلاثة عشر شخصا .

وانتهى هارتمان إلى القول :

« لا بد أن هناك بعض الشخصيات الكبيرة بالقطار - لقد لاحظت
وجود عربة خاصة في المؤخرة ، » .

وعندما قمنا بأول استبدال للقاطرة ، كان الليل قد هبط . وأخذت
أسير على رصيف المحطة التماسا لنفحة من الهواء النقي ، وحتى أرى ما يمكنني
رؤيته . ولحمت بسرعة من خلال نوافذ العربة الخاصة بثلاثة رجال تعرفت
عليهم . كان هارتمان على حق . فأحد الرجال الثلاثة هو الجنرال
آلتندروف ، بينما كان الآخران هما جاسون وفاندربولد الرأسان المفكران
في الحلقة الداخلية للبحارات السرية التابعة للاحتكارية .

وكانت ليلة هادئة مقمرة ، غير أن التوتر غلبني فلم أستطع النوم .
وارتديت ملابسى فى الخامسة صباحا ، وغادرت السرير .

وسألت الخادمة فى غرفة الملابس كم تأخر القطار فأخبرتني أنه تأخر
ساعتين . كانت الخادمة امرأة خلاسية . وقد لاحظت أنها شاحبة الوجه ،
ارتسمت تحت عينيها دوائر كبيرة . بينما اتسمت العينان ولازمهما شيء
من الرعب .

وسألتها :

« ماذا حدث ؟ ، » .

فأجابت :

« لا شيء يا آنسة . . أعتقد أنني لم أأنم جيداً ، .

ونظرت إليها في إمعان . وجربت معها إحدى إشاراتنا . فاستجابت ،
وهو ثقت بها .

وقالت الخادمة ::

« إن شيئاً رهيباً سيحدث في شيكاغو . هناك القطار المزيف من
أمامنا . وقد أخرجنا هذا القطار كما فعلت قطارات الجنود ، .

وتساءلت ::

« قطارات الجنود ؟ ، .

فهزت رأسها قائلة :

« لقد ازدحم بها الخط . ونحن نمر عليها طوال الليل . . كلها توجه إلى
شيكاغو . . وأن سيرها على الخط الرئيسي يعني شيئاً ، .

وأضافت المرأة في لهجة يشوبها الاعتذار :

« إن حبيبي في شيكاغو ، وأنا أخشى عليه . إنه واحد منا وهو يعمل
في قوات المرتزقة ، .

بالفتاة المسكينة — لقد كان حبيبها أحد أفراد الكتائب الثلاث التي
خرجت عن ولائها للاحتكارية .

وتناولنا أنا وهارتمان الإفطار معا في عربة الأكل . وقد أجبرت نفسي
على تناول الطعام . وغامت السماء بالسحب ، واندفع القطار مسرعا مثل
صاعقة متجهة وسط الغطاء الأشهب الذي يلف النهار المقرب . وأدرك
الزوج القائم على خدمتنا أن شيئاً رهيباً يوشك أن يحدث . واران عليهم

الضيق وزايلهم مرحوم الطبيعى . فكانوا متوازين فى خدمتهم ذاهلين عن واجباتهم . وراحوا يتهاوس أحدهم الآخر فى كآبة ، عند الطرف الآخر للعربة فى مواجهة المطبخ . أما هارتمان فقد صار يائسا من الموقفه

والدرة العشرين تساءل هارتمان وهو يهز كتفيه فى عجز :

« ماذا يمكننا أن نفعل ؟ ، ، »

وأشار هارتمان إلى خارج النافذة ، وقال :

« انظرى . . كل شىء معد - تستطيعين أن تثقى بأنهم يحتجزون الجنود على كل الطرق خارج المدينة على مبعده ثلاثين أو أربعين ميلا ، . »

كان هارتمان يشير إلى قطارات الجنود على الخطوط الجانبية . بينما الجنود يطهون طعام إفطارهم على التيران التى أشعلوها على الأرض بجانب الخط الحديدى . وأخذ الجنود ينظرون إلينا فى تهجب ، بينما راح قطارنا يمضى كالعاصفة دون أن يقلل من سرعته المخيفة .

وعندما دخلنا شيكاغو كان كل شىء هادئاً . كان من الجلى أن شيئاً لم يحدث بعد . وعند الضواحي وصلت الصحف إلى داخل القطار . لم يكن بها شىء ، ومع ذلك فقد كان بها الكثير لأولئك الذين تدرّبوا على القراءة فيما بين السطور التى قصد للقارى العادى أن يقرأها فى الأصل . وفى كل همود كانت بصمات يد القدم الحديدية الدقيقة ظاهرة جلية . لقد أعطيت بعض اللمحات عن الضعف الذى انتاب أسلحة الاختكارية . وبالطبع لم يوجد شىء محدد . كان من المقصود أن يتلص القارى سبيله بنفسه إلى هذه اللمحات . ولقد تمهّل ذلك بذكاء . كانت تلك الصحف الصباحية الصادرة فى يوم ٢٧ أكتوبر بما احتوته من روايات خيالية ، صحفاً فريدة من نوعها .

وخلت الصحف من الأنباء المحلية . وكانت هذه في حد ذاتها ، ضربة معلم ، . لقد لفت شيكاغو بغلاف من الغموض ، بينما بدا ذلك لقارى شيكاغو العادى أن الاحتكارية لم تجرؤ على إصدار الأنباء المحلية . وكانت هناك تليبعات كاذبة بالطبع عن عصيان اتشر في كل أنحاء البلاد . وقد قنعت هذه التليبعات في صورة لجة بإشارة إلى إجراءات رادعة سوف يتم اتخاذها . وتوالت أنباء عن نسف كثير من محطات اللاسلكى مع تقديم مكافآت كبيرة لمن يرشد عن الذين قاموا بذلك . وبالطبع لم تكن هناك محطات للاسلكى قد تم نسفها . وأوردت الصحف أنباء عن اعتداءات مماثلة تماشت مع الخطة التي اعتمز الثوريون تنفيذها . وقد قصدوا بذلك أن يتركوا في أذهان رفاقنا بشيكاغو انطبعا بأن الثورة العامة قد بدأت ، مع إثارة التشويش بالإشارة إلى إخفاقمها في كثير من التفاصيل . كان من المستحيل لذلك الذى لا يعرف حقيقة الوضع أن يتجنب الإحساس الغامض ، ولكنه إحساس مؤكد ، بأن البلاد كلها قد أصبحت متأهبة للثورة التي بدأ اندلاعها بالفعل .

وأوردت الصحف ، أنباء عن أن ارتداد قوات المرتزقة بكاليفورنيا أصبح بالغ الخطورة حتى إن ستة كتائب فيها قد حلت وصرحت ، بينما طرد أفرادها وأسرم من مدينتهم الخاصة إلى أحياء العمال القذرة . والحقيقة أن قوات المرتزقة في كاليفورنيا كانت أكثر القوات ولاء لآسيادها . ولكن كيف لشيكاغو التي عززت عن سائر أنحاء العالم أن تعرف ؟ . ثم إنه كانت هناك برقية مهلملة تهدف انتفاضة قام بها سكان مدينة نيويورك ، حيث انضمت لهم التنظيمات الطائفية للعمال . ولقد اختتمت البرقية بقولها (وقصد به أن يبدو للقارى على أنه خدعة) إن قوات الجيش قد ملكت زمام الموقف .

وكما فعل الاحتكاريون في الصحف الصباحية ، كذلك فعلوا بآلاف الطرق الأخرى ، ولقد عرفنا ذلك كله فيما بعد ، ومنها على سبيل المثال

الرسائل السرية للاحتكاريين التي أرسلت بغرض واحد هو تسربها إلى مسامع الثوريين الذين كانوا يستمعون إلى الأسلاك بين الحين والحين خلال الفترة الأولى من الليل .

وعندما تقدم القطار من المحطة الرئيسية قال هارتمان وهو يلقي بالصحيفة التي كان يقرأها :

«أعتقد أن القدم الحديدية لن تكون في حاجة إلى خدماتنا . لقد أضعوا توقعاتهم بإرسالنا هنا . فن الواضح أن خططهم قد نجحت نجاحاً فاق كل توقعاتهم . والآن سوف تندلع نيران جهنم في أي لحظة .»

وعند نزولنا استدار هارتمان ونظر إلى القطار وغمغم قائلاً :

« هذا هو ما توقعته . لقد فصلوا هذه العربة الخاصة عندما وصلت للصحن ، ،»

كان هارتمان مكتئباً بصورة يائسة . وحاولت إنعاشه غير أنه تجاهل محاولتي . ولجأة بدأ يتكلم بسرعة بالغة وبصوت خفيض ، بينما كنا نعبث بالمحطة . وفي البداية لم أستطع أن أفهم شيئاً . . كان يقول :

« لم أكن متأكداً ، ولم أخبر أحداً . لقد كنت أفكر في الأمر منذ أسابيع ولكنني لم أستطع التأكد . احذروا نولتون ، فإنني أشك فيه ، إنه يعرف أسرار عشرين من ملاحظتنا ، وهو يقبض على حياة المئات من رفاقنا بين يديه . إني أعتقد أنه خائن . وبالنسبة لي فإنه إحساس أكثر منه أي شيء آخر . ولكنني أعتقد أنني لاحظت تغيراً طرأ عليه منذ فترة قصيرة ، وأني أخشى أن يكون قد باعنا للعدو ، أو يكون في سبيله إلى ذلك . إني أكاد أكون على يقين . ولن أهتم بشكوكي لأي إنسان ، ولكن يخيل إلي أنني إن أغادر شيكاغو حياً بطريقة ما . راقبي

غولتون ، انصبى له الشرك وابحشى . إننى لا أعرف شيئاً آخر . إنه مجرد تخمين . ولقد فشلت حتى الآن فى أن أجد أبسط دليل ، .

وفى هذه اللحظة كنا نخطو على رصيف الشارع ، وختم حديثه مؤكداً:

• تذكرى - راقبوا نولتون ، .

وكان هارتمان على صواب . فلم يمض شهر حتى دفع نولتون حياته ثمناً لخيانته . وقام الرفاق بإعدامه رسمياً فى ميلواكى ، .

وكان كل شىء هادئاً فى الشوارع - هادئاً أكثر مما ينبغى . لقد رقدت شيكاغو على فراش الموت . لم يكن هناك أى ضجيج أو ضوضاء تبعثهما حركة المرور ، بل لقد خلت الشوارع من عربات الأجرة . وتوقفت عربات الشارع والعربات المعلقة .

لم يكن هناك غير السائرين على أقدامهم فوق الأرصفة . ولم يكن هؤلاء ليتسكثون فى سيرهم بل قصدوا غايتهم فى عجلة بالغة ، وانطوت حركاتهم على قلق غريب ، كما لو أنهم يتوقعون انهيار المباني فوقهم ، أو أن تغوص الأرصفة تحت أقدامهم ، أو أن تتطاير بهم فى الهواء . بيد أن بعض المنتشدين أخذوا يتسكعون هنا وهناك ، وفى أعينهم لهفة مكبوتة ، منتظرين حدوث أشياء رائعة مثيرة .

ومن مكان ما بعيداً ناحية الجنوب ، سمنا صوت انفجار خافت . ذلك كان كل شىء . ثم ران السكون مرة أخرى رغم أن المنسكدين جفلوا وأصاخوا السمع نحو الصوت ، مثلما يفعل الغزال الصغير . وأغلقت كل مداخل المباني . كما أغلقت المحال التجارية . غير أنه كان هناك كثير من المخبرين ورجال البوليس ، بينما اندفعت سيارة من سيارات المرتزقة على الأرض بسرعة بين حين وآخر .

واتفقنا أنا وهارتمان على أنه من العيب أن نبلغ عن وجودنا للرؤساء المحليين لجهاز المخابرات السرية . لقد أدركنا أنهم سوف يعذروننا لمثل هذا للتفكير على ضوء الأحداث القادمة . لهذا توجهنا رأساً إلى حي العمال الكبير في الجانب الجنوبي من المدينة ، أملنا في الاتصال ببعض الرفاق . لقد أدركنا أن الأوان قد فات ، ولكننا لم نستطع أن نقف مكتوفي الأيدي ، وألا نفعل شيئاً في هذه الشوارع الساكنة التي لفها شحوب الموت وكنت أتساءل .. أين كان إرنست ؟ .. ماذا يحدث في مدن التنظيمات الطائفية للعمال والمرتزة ؟ .. وماذا يحدث في الشكنات ؟ .

وبما لو كانت الإجابة عن تساؤلاتي ، انطلق هدير بصم الأذان ، خافتاً بحكم بعده ، متقطعاً بانفجار تلو انفجار .

وقال هارتمان :

« إنها الشكنات . كان الله في عون الكتاب الثلاث :

وعند أحد مفترقات الطرق ، شاهدنا عموداً هائلاً من الدخان في اتجاه حطائر الماشية . وفي المفترق التالي في اتجاه الجانب الجنوبي من المدينة ، انطلق كثير من أعمدة الدخان المشابهة نحو عنان السماء . وشاهدنا منطاداً حربياً هائلاً فوق مدينة المرتزة . وانفجر المنطاد لحظة مشاهدتنا له . وتهاوى حطامه المشتعل نحو الأرض ، ولم يكن هناك ما يميظ اللثام عن سر هذه الكارثة الجوية . ولم نستطع أن نقرر ما إذا كان المنطاد يقوده الرفاق أم الأعداء . وتناهى إلى مسامعنا صوت مبهم ، صوت آت من بعيد مثل غليان الماء في مرجل كبير . وقال هارتمان إنه صوت المدافع الرشاشة والبنادق الآتوماتيكية .

ومع ذلك ، واصلنا سيرنا في هدوء . لم يكن هناك شيء يحدث من حولنا . كان البوايسر يمر ، بينما أخذت دوريات الأمن تطوف بعرباتهما المسكان .

كما مرت ست من عربات إطفاء الحريق . وكان من الواضح أنها عائدة من حريق شب في مكان ما . وقد وجه أحد الضباط من عربته سؤالاً إلى رجال الإطفاء . وسمعنا صيحة واحدة تجيب: « ليس هناك ماء . لقد نسفوا الأنايب الرئيسية » .

وصاح بي هارتمان في انفعال:

« لقد حطمنا إمدادات الماء . إذا كنا نستطيع أن نفعل كل هذا في محاولة معزولة وسابقة لأوانها ، محاولة نجحنا في إحباطها . فما هو ذلك الذي لا نستطيع أن نفعله في محاولة مكتملة ومنسقة عبر البلاد كلها » .

وانطلقت السيارة تحمل الضابط الذي وجه السؤال . وبجأة انطلق هناك دوى يصم الأذان . وارتفعت العربة بحمولاتها البشرية وسط انفجار من الدخان ، ثم سقطت على الأرض كتلة من الحطام والموت .

وغمر السرور هارتمان وأخذ يكرر مرة بعد أخرى في همس:
« قاموا بها على خير وجه . إن الطبقة العاملة تتلقى اليوم درساً ولكنها تلقونهم درساً هي الأخرى » .

واندفع رجال البوليس نحو المكان ، كما أسرعت دورية أخرى مصفحة . أما أنا فقد أصابني الدوار . كانت مفاجأة الحادث مذهلة . فكيف وقعت الحادثة؟ إنني لم أدرك شيئاً رغم أنني كنت أنظر إليها مباشرة . وفي تلك اللحظة بلغ بي الدوار مبلغاً كدت لا أدري فيه حقيقة وقوعنا في أيدي رجال البوليس . وعلى حين فجأة رأيت أحد رجال البوليس وهو يوجه سلاحه إلى هارتمان . غير أن هارتمان كان رابط الجأش وأخذ يقدم له كلمات السر المناسبة . وشاهدت المسدس المرفوع يتردد ثم يتهاوى إلى أسفل . وسمعت رجل البوليس وهو يغمغم في استياء . لقد عصف به الغضب وراح يصب لعناته على كل جهاز المخابرات السرية مؤكداً أنهم

يعترضون سبيلهم على الدوام . هذا بينما كان هارتمان يرد عليه ويشرح في كبرياء تليق برجل المخبرات رعوة رجال البوليس وتصرفاتهم الخرقاء .

وأدركت في اللحظة التالية ، كيف حدث الانفجار . كان هناك جمع غير قليل يحيط بالحطام . بينما راح رجلان يرفعان الضابط الجريح ليحملانه إلى العربة الأخرى . ولجأة استولى الذعر على الجميع ، تدافعوا في كل اتجاه راكضين في رعب أعمى . بينما أسقط الضابط الجريح على الأرض في خشونة وترك هناك . كذلك مضى رجل البوليس الذى كان يصب لعناته يجرى هو الآخر . وجرينا أنا وهارتمان أيضا . ولم نكن ندرى السبب ، غير أن نفس الرعب الأعمى استبد بنا ودفعنا إلى الابتعاد عن ذلك المكان بالذات .

ثم لم يحدث شيء في الحقيقة . واصل كل شيء أصبح واضحا ، وأخذ الرجال الفارون يرجعون على استحياء ، بينما ارتفعت عيونهم طيلة الوقت في جزع إلى النوافذ المتعددة في المباني الشاهقة التي انتصبت على جانبي الشارع مثل جدران عمودية تحيط بأحد الأودية . لقد أقيمت القبلة من إحدى هذه النوافذ التي لا تحصى ، ولكن أية نافذة منها ؟ . ولم تكن هناك قبلة أخرى بل الخوف منها فحسب .

ومن ثم أخذنا ننظر إلى النوافذ في جزع ، فأى واحدة منها تنطوى على خطر الموت ، بينما اختفى في كل مبنى كمين محتمل . هكذا كانت الحرب في تلك المدينة الكبيرة أو الغابة المنحصرة ، فكل شارع يمثل أحد الوديان ، وكل مبنى يمثل أحد الجبال . إننا لم نتغير كثيراً عن الإنسان البدائي ، رغم العربات المصفحة التي راحت تذرع الطرق والشوارع .

وعند إحدى المنعطفات التقينا بامرأة ترقد على الرصيف غارقة في بركة من الدماء وانحنى هارتمان يفحصها ، أما أنا فقد غشيت غشيان مميت ، لقد

قدر لي أن أرى كثيراً من الموتى في ذلك اليوم ، ولكن الأشلاء جميعها لم تؤثر في مثلها فعلت هذه الجثة الأولى المهجلة ، وهي ترقد هناك على رصيف الشارع تحت قدمي . وقال هارتمان :

« لقد أصابها الرصاص في صدرها ، .

وكانت المرأة تحتضن بين يديها رزمة من المطبوعات كما لو كانت تحتضن طفلاً . وبدأت المرأة وكأنها تأتي حتى في موتها أن تتخلى عن ذلك الشيء الذي سبب لها الموت . ذلك أن هارتمان نجح في انتزاع رزمة المطبوعات ، فتبين لنا أنها تتألف من أوراق كبيرة مطبوعة هي بلاغات رجال الثورة .

وقلت :

« إنها إحدى الرفيقات ،

لكن هارتمان مضى يلعن القدم الحديدية . وتابعنا سيرنا . وكثيراً ما اعترضنا رجال البوايس ودورياتهم . غير أن كلمات السر مكنتنا من المضي ولم تسقط قنابل أخرى من النوافذ . وبدأت الشوارع وقد اختفى فيها آخر السائرين على أقدامهم . وتزايد الهدوء من حولنا عمقاً ، رغم أن الرجل الضخم واصل غلبانه من بعيد . وتناهى إلى أسماعنا من جميع الاتجاهات هدير انفجار مكنوم ، وأخذت أعمدة الدخان ترتفع في السماء منذرة بالسوء .

القصل الثالث والعشرون

أبناء الحضيض

ونجأة تغير وجه الأشياء . وسرى في الجو مس من الاضطراب .
مأسرت العربات مولية الفرار مثنى وثلاث وعشرات ، ومنها انطلقت
التحذيرات لنا . وانحرفت إحدى العربات المصفحة في سرعة جنونية هائلة
على بعد بضعة مبان . ولم تمض لحظة حتى كان الرصيف الذي تركته العربية
وراءها قد تطاير من انفجار قنبلة مخلفا لجوة هائلة . وشاهدنا رجال البوابس
حوم يتوارون هاربين في الشوارع الجانبية . وأدركنا أن شيئاً رهيباً يوشك
أن يحدث . كان في استطاعتنا أن نسمع هديره المتصاعد .

وقال هارتمان :

« هام رفاقنا البواسل قادمون ، »

واستطعنا أن نرى مقدمة طابورم تملأ الشارع من البالوعة حتى البالوعة
الأخرى . ومضت آخر العربات الحربية مولية الفرار ، واسكنها توقفت لحظة
إلى جانبنا تماماً ، وقفز منها أحد الجنود حاملاً بين يديه شيئاً ما وضعه
في البالوعة بعناية . ثم قفز عائداً إلى مقعده . وانطلقت العربية وانعطفت
عند الزاوية حيث اختفت عن الأبصار . وهرع هارتمان إلى البالوعة وانحنى
فوق ذلك الشيء الذي وضعه الجندي هناك .

وحذرتني هارتمان :

« عودي إلى الخلف ، »

واستطعت أن أراه وهو يعمل بيديه في سرعة . وعندما عاد إلى ، كان العرق يسيل غزيرا على جبهته .

وقال :

لقد حللتها في الوقت المناسب . هذا الجندي الآخر قد قصد بها رفاقنا . ولكنه لم يعطها وقتا كافيا . كانت ستفجر قبل الأوان ، ولكنها الآن لن تنفجر أبدا .

وراح كل شيء يحدث الآن في سرعة . وعلى بعد بضعة مبان عبر الشارع استطعت أن ألمح رموسا تطل من إحدى البنايات . وما كدت ألقت نظر هارتمان إليها حتى ارتفع غطاء من اللهب والدخان وحجب ذلك الجزء من وجه المبنى حيث أطلقت الرؤوس . وزلزل الانفجار الهواء ، وانهارت الأحجار من بعض الأماكن وكانت تغطي واجهة المبنى الخارجية فكشفت عن الهيكل الحديدي الذي اختفى من ورائها . وفي اللحظة التالية ارتفعت حجب مماثلة من اللهب والدخان على واجهة المبنى المقابل عبر الشارع ، وكان في وسعنا أن نسمع خلال هذه الانفجارات قعقة المسدسات والبنادق الآتوماتيكية . واستمرت هذه المعركة الجوية بضعة دقائق ، ثم خمدت . كان من الواضح أن رفاقنا يشغلون إحدى البنايتين ، بينما تشغل قوات المرتزقة البناية الأخرى وأنهم يتقاتلون عبر الشارع . غير أننا لم نكن نستطيع أن نحمس أي مبنى يحتله رفاقنا وأي مبنى تحتله قوات المرتزقة .

وفي هذه اللحظات كان الطابور في الشارع قد أصبح في مواجهتنا تقريبا ، وعندما مرت مقدمته تحت البنايتين المتحاربتين هبتا للنشاط مرة أخرى . وأخذت إحدى البنايتين في إلقاء القنابل فوق الشارع بعد أن هوجمت من عرضه ، فراحت بدورها ترد على ذلك الهجوم . وهكذا عرفنا البناية التي يشغلها رفاقنا . وقد أبلوا في عملهم فأنقذوا السائرين في الشارع من قنابل العدو .

وقبض هارتمان على ذراعي وسحبني إلى مدخل عريض وهو يصبح
في أذني :

« إنهم لبسوا برفاقنا ، .

ولم نستطع الفرار ، فأبواب المدخل الداخلية قد أقفلت وأغلقت
« بالترابيس ، . وفي اللحظة التالية مرت مقدمة الطابور من أمامنا . ولم يكن
طابورا ، بل جماعة من الفوغاء ، ونهرا رهيباً امتلأ به الشارع . إنهم أبناء
الحضيض وقد مستهم الخمر والظلم بالجنون . ونهضوا في النهاية يهدرون ،
متعطشين إلى دم أسيادهم . ولقد رأيت أبناء الحضيض من قبل وذهبت إلى
أحيائهم وظننت أنني عرفتهم . لكنني تبينت في تلك اللحظات أنني أشاهدهم
للمرة الأولى . هاهو جمودهم الآخرس وقد تلاشى . . إنهم يتحركون الآن .
إنه مشهد فاتن من الرعب . وتحت بهري اصطخب أبناء الحضيض في أمواج
متدافعة من الغضب ، مدمدمين وهز مجرين مثل الحيوانات الضارية، سكرى
بشراب الويسكى الذى نهبهه من المخازن ، سكرى بالحقد ، سكرى بالشهوة
إلى الدم . كانوا رجالا ونساء وأطفالا في أسمال بالية . . هم نفوس معتمة
متوحشة، انمحي كل ماهو إلهى من طبائعها ، بينما انطبع فيها كل ماهو شيطاني،
قرود ونمور ، مصابون بالسل وفقر الدم ، حيوانات كثيفة الشعر تحمل
الاثقال ، ووجوه شاحبة امتص منها مجتمع مصاصى الدماء رحيق الحياة . .
وصور منتفخة تورمت بالخشونة البدنية والفساد، وشمطاوات أصابهن الذبول،
وجاجم ملتحية مثل الكهنة القدامى . . شباب متقيح وشيوخة متقيحة ،
وجوه شيطانية . . وحوش ملتوية ومشوهة ومسوخة عصفت بها غوائل
المرض وكل أهوال سوء التغذية المزمنة . إنها حثالة الحياة ونفاياتها ، قطيع
لبسته روح الشيطان فراح يصرخ ويصبح في احتياج .

ولم لا ؟ . . فليس لأبناء الحضيض شيء يفقدونه سوى البؤس وآلام
الحياة . وماذا يكسبون ؟ . . لاشيء سوى أن يتخمروا أنفسهم بوجبة أخيرة

ورهيبة من الانتقام . وحينما نظرت إليهم خطر لي أنه يوجد وسط التيار
المندفع من الحمم البشرية رجال هم رفاق وأبطال كانت مهمتهم أن يوقفوا
وحش الحضيض ويشغلوا العدو بمنازلته .

في تلك اللحظة حدث لي شيء غريب . لقد غمرني التحول ، فزابتني
مشاعر الخوف من الموت بالنسبة لي وللآخرين . غمرني شعور غريب
بأنني كائن جديد يحيا حياة أخرى . لم يعد هناك شيء له أهمية . ففي تلك
اللحظة تلاشت القضية ، ولكن هذه القضية سوف تكون هنا غدا ، نفس
القضية وسوف تكون غضة ومتقدة على الدوام .

وفي غمرة الرعب الذي عصف بي خلال الساعات التي تلت ، استطعت أن
أنظر للأحداث باهتمام وهدوء . لم يكن الموت يعني شيئا ، وكذلك الحياة .
لقد كنت أتفرج على الأحداث في اهتمام . وفي بعض الأحيان كان التيار
يجرني فأشارك فيها . لقد قفز عقلي إلى درجة عالية من البرود ، وأعاد النظر
في القيم بصورة تخلو من الانفعال . ولو لم يحدث ذلك لأقيمت حتى دون شك .

وتم اكتشافنا بعد أن اجتازنا طابور الغوغاء بنصف ميل . فلقد
لمحتني كما لمحت هارتمان امرأة ترتدي أسعلا غريبة ، ذات وجنتين غائرتين مثل
الكهف ، وعينين سوداوين ضيقتين مثل ثقبين مشتعلين . وأطلقت المرأة
صيحة حادة وشقت طريقها نحونا . وانفصلت جماعة من الغوغاء عن الحشد
الكبير واندفعت في أعقابها . والآن وأنا أكتب هذه السطور أستطيع
أن أراها تقفز إلى الأمام وشعرها الأشيب يتطاير في خصلات رقيقة
متداخلة ، والدم يقطر فوق جبينها من جرح فوق رأسها ، والبلطة في يدها
اليمني ، بينما راحت يدها اليسرى المهزولة ، والمنخفضة مثل الخلب الأصفر
تمسك بالهواء في تشنج . وقفز هارتمان أمامي . لم يكن المجال يتسع للشرح
والتفسير . لقد كنا نلبس ملابس جيدة وفي هذا الكفاية . وسدد هارتمان
قبضته موجهة ضربته للمرأة فيما بين عينها المتقدتين . وأوقعت اللكمة

بالمرأة إلى الخلف . لكنها اصطدمت بجدار من زملائها القادمين فارتدت مرة أخرى إلى الأمام وقد أصابها الدوار وانتابها العجز ، بينما وقعت البلطة التي كانت تلوح بها على كتف هارتمان في ضعف .

ولم أدرك في اللحظة التالية ماذا يجري من حولي . لقد صحقني الحشد ، بينما امتلأت البقعة المحصورة بالصيحات والصرخات واللعنات وأخذت الضربات تنهال على ، والأيدى تمزق لحمي وملابسي . وشعرت كما لو أنني مزقت إربا . وخارت قواي . وأحسست بالاختناق . وأمسكت يد قوية بكتفي وضغطت عليهما بشدة وسحبته في ضراوة . وأصابني الإغماء وسط الألم والضغط . أما هارتمان فلم يقدر له أن يخرج من هذا المدخل أبدا . لقد حماه جسمه ، وتلقى الصدمة الأولى للهجوم . وأدى هذا إلى إنقاذي . ذلك أن الزحام سرعان ما تكاثف إلى درجة صعب فيها أي شيء سوى مسكات الأيدي وضربات المسعورة .

استعدت وعي وسط حركة ضارية كانت هي كل ما حولي . لقد أصبحت سجيناً ذلك الطوفان العارم الذي أخذ يجرقني إلى حيث لا أدري . وراح الهواء الطلق يداعب وجنتي ويلسع رثتي برقة . واستبد لي الدوار والإغماء حتى إنني شعرت شعورا مبهما بالبد القوية التي تطوقني من تحت إبطي وترفعني نصف رفة . لم تكن قدماي تقويان على حملي إلا في وهن . واستطعت أن أرى أمام عيني ستره رجل يتحرك أمامي وقد شقت من أعلاها حتى أسفلها على طول خط الخياطة الذي يمتد في منتصفها . وأخذت السترة تنفخ بطريقة إيقاعية عندما راح الشق ينفرج ويلتحم بانتظام مع كل خطوة يخطوها الرجل الذي يرتديها . وقد فتنني هذه الظاهرة برهة ، بينما كنت أستعيد وعي . وفي اللحظة التالية بدأت أشعر بوخزات الألم في وجنتي وأنني . واستطعت أن أحس بالدماء تقطر على وجهي . لقد فقدت قبعتي ، وأصبح شعري مرسلا فراح يتطاير . وذكرتي وخزات الألم في جلد رأسي

بمنظر يد تجديني من شعري وسط الضغط الذي تكالب علينا عند المدخل .
وأصاب الرضوض فزاعى كما أصابت صدرى ، وانفجر الألم فى
عشرات الأماكن .

وأضهى ذهنى أكثر صفاء . وعندما شرعت فى الجرى ، التفت إلى
الرجل الذى كان يمسك بى . كان هو الرجل الذى شدنى من عند المدخل
وانقذنى . ولاحظ الرجل حركتى فصاح بى فى صوت أجش :

« لا بأس . لقد عرفتك فى الحال ، » .

ولم أستطع أن أتذكره . ولكننى وقبل أن أتمكن من الكلام دست
على شىء حتى تلوى تحت قدمى . وجرفنى من كان خلقتى فلم أتمكن من أن
أنظر إلى الأرض وأرى . ومع ذلك أدركت أنها امرأة قد سقطت ، بينما
أخذت آلاف الأقدام المتتابعة تطؤها فوق أرض الشارع .

وأعاد الرجل قوله :

« لا بأس . . . إننى جارتوايت ، » .

كان ملتجئاً ، شاحب الوجه ، قدراً . ولكننى وفقت إلى تذكر ذلك
الشاب الباسل الذى قضى معنا عدة شهور فى ملجأ جلين إلين منذ ثلاث
سنوات . وأعطانى جارتوايت كلمات السر لجهاز المخبرات الخاص بالقدم
الحديدية ، دلالة على أنه يعمل هو أيضاً فى خدمتها .

وأكد لى جارتوايت :

« سوف أخرج بك من هنا عند أول فرصة ، ولكن احترس فى
خطواتك . وحذار أن تعثرى وتسقطى على الأرض ، » .

وفي ذلك اليوم كانت كل الأشياء تحدث فجأة ، كما حدث عندما تجمد
موكب الغوغاه بصورة تبعث على الغثيان ، واصطدمت بعنف مع امرأة
أخرى كانت أمامي (اختفى الرجل ذو السترة المشقوقة) بينما ارتطم بي
من كانوا خلفي ، وانطلقت ضجة شيطانية من الصيحات واللعنات وصرخات
الموت وغلبت عليها جميعاً قمقعة المدافع الرشاشة وطققة البنادق . ولم أفهم
شيئاً بادئ الأمر . راح الناس من حولى يتساقطون يمناً ويسرة واثنت
المرأة التي كانت أمامي على نفسها وأيديها تنبش يبطنها في تشنج . وأخذ
واحد من الرجال يرتجف عند قدمي وهو يلفظ أنفاسه .

وتبين لي أننا في مقدمة الطابور ، لقد اختفى نصف ميل منه . . .
لا أعرف كيف ولا أين اختفى . وحتى يومنا هذا فإنني لا أعرف ماذا كان
من أمر ذلك النصف ميل من النفوس البشرية ، وما إذا كانت صاعقة رهيبة
من صواعق الحرب قد محته من الوجود ، أم أنه تبعثر وتناثرت أشلائه ،
أم أنه لاذ بالفرار . غير أننا قد أصبحنا في مقدمة الطابور بدلا من منتصفه ،
بينما راح سبيل الرصاص المدوي ينتزع حياتنا .

وما إن خفف الموت من كثافة الزحام حتى قاد جارثوايت ، وكان
لا يزال ممسكا بذراعي ، جماعة ممن كتبت لهم النجاة إلى مدخل واسع لأحد
مباني الأعمال ، وأصبحنا هنا في المؤخرة ، في مواجهة الأبواب حيث
تدافعت علينا جبهة من المخلوقات اللاهثة ، وظللنا في هذا الوضع بعضاً
من الوقت دون أية حركة .

وأخذ جارثوايت يندب وهو يقول لي :

« لقد قتت بها على خير وجه ، اندفعت بك رأساً إلى داخل الشرك ،
كانت لدينا في الشارع فرصة المقامر ، أما هنا فلا توجد أية فرصة على
الإطلاق .. كل شيء انتهى ما عدا الهتاف : فلتحيا الثورة ، » .

ثم بدأ ما توقعه جارثوايت . راحت قوات المرتزقة تسفك الدماء دون
هوادة . وفي البداية كانت الموجة البشرية المتزاحمة تسحقنا ، غير أن الضغط
خفت وطأته عندما واصلت قوات المرتزقة عمليات الاغتيال . وتهاوى
الموتى والمحتضرون مفسحين المكان . ووضع جارثوايت فمه في أذني وصاح ،
غير أنني لم أستطع أن ألتقط أية كلمة من كلماته وسط هذه الضوضاء الرهيبة .
ولم ينتظر جارثوايت ، بل أمسك بي وطرحني على الأرض ، ثم أخذ
يسحب امرأة محتضرة ووضعها من فوقى ، وزحف جارثوايت بهد أن بذل
جهداً كبيراً بين الضغط والدفع ثم رقد جزئياً فوقى ، وبدأت أكمة من الموتى
والمحتضرين تتراكم علينا . وفوق هذه الأكمة زحف أولئك الذين ظلوا على
قيد الحياة وهم يئنون وينبشون بأظافرهم ، لكنهم سرعان ما همدوا هم
أيضاً . وران على المكان شبه سكون ، لا تنخله سوى أنات الاختناق
وزفراته وأصدائه .

كان مقبراً لي أن أسحق تحت هذه الأكدا من الموتى لولا جارثوايت .
وبدا لي أنه من غير المعقول وأنا في هذا الوضع أن أتحمّل الثقل وأحتفظ
بحياتي . ومع ذلك فلم تملكني فيما عدا الألم سوى مشاعر الفضول
والتساؤل . كيف ستكون النهاية ؟ . كيف ستكون صورة الموت ؟ .
وهكذا تعمّدت بالدماء في مذابح شيكاغو ، وقبل ذلك لم يكن الموت
بالنسبة لي سوى شيء نظري . أما بعد ذلك فقد أصبح الموت حقيقة بسيطة
لا تهم ، إنه أمر هين للغاية .

لكن المرتزقة لم يقنعوا بما فعلوا ، فاجتاحوا المدخل وأخذوا يقتلون
الجرحي ويبحثون عن أولئك الذين لم يصعبهم أذى مثلنا ورددوا مثل الموتى .
وإنني أذكر رجلاً سحبه من أحد الأكوام فأخذ يتوسل إليهم ويتضرع
حتى أنهت طلقة المسدس توسلاته . ثم كانت هناك المرأة التي شنت هجومها
من أحد الأكوام فأخذت تطلق النيران وهي تزجر . لقد أطلقت هذه

المرأة ستطلق قبل أن يصيها . ورغم ذلك فإننا لم نستطع أن نعرف مدى الإصابات التي حققتها ، ذلك أننا لم نكن نتبع هذه المأساة إلا عن طريق الأصوات لحسب ، ووقعت تخطات مماثلة بين الحين والحين ، وكان كل منها يصل إلى ذروته عندما تضع طلقة المسدس نهاية له . واستطعنا أن نسمع الجنود خلال فترات الراحة وهم يتحدثون ويشتمون ، بينما أخذوا يبحثون في جثث الموتى وقد استحثهم ضباطهم حتى يسرعوا .

وأخيراً جاءوا للعمل في كومننا ، واستطعنا أن نشعر بالضغط يتناقص ، بينما أخذ الجنود يسحبون الموتى والجرحى . وبدأ جارثوايت يعطى كلمات السر بصوت عال . ولم يسمعه أحد في البداية فرفع صوته .

وسمعنا جندياً يقول :

« استمع » .

ثم سمعنا أحد الضباط يقول بصوت حاد :

« انتظروا هناك - خذوا حذرکم ، » .

أوه . . . يا لأنفاس الهواء الأولى التي استنشقتها عندما سحبتنا الجنود إلى الخارج . وتكلم جارثوايت في البداية ، غير أنني اضطررت لتقديم شرح مختصر يثبت عملي في خدمة القدم الحديدية .

ووصل الضابط إلى استنتاجه بقوله :

« حسناً - أتم من العملاء المحرضين ، » .

كان فتى حليقاً - تلبذاً من تلاميذ الكلية الحربية . من الواضح أنه ينتسب إلى إحدى الأسر الاحتكارية الكبيرة .

ودمدم جارثوايت :

« إنها مهمة لعبنة ، إنني سأحاول الاستقالة والاتساب إلى الجيش فليدكم

هناك حيوية ، » .

وأجاب الضابط الشاب :

« أنت تستحق ذلك . إن لي بعض النفوذ وسوف أرى ما إذا كنت أستطيع تدير الأمر ، وفي وسعنى أن أخبرهم كيف وجدتك . وأخذ الضابط اسم جارثوايت ورقه ثم استدار نحوى قائلاً :

« وانت ؟ »

فأجبتة فى مرح :

« أوه إننى على وشك الزواج ، وعندئذ سأترك كل هذا . . . » .

وهكذا أخذنا تتجاذب أطراف الحديث ، بينما سفك دماء الجرحى يجرى على قدم وساق . والآن وعندما أعود بهذا كرتى إلى الوراى فإن ذلك لا يتعدى كونه أحد الأحلام . ولكنه كان فى ذلك الوقت أكثر الأشياء منطقية فى العالم كله . واستغرق جارثوايت والضابط الشاب فى حديث حار حول الفرق بين ما يدعى بالحرب الحديثة ، وبين قتال الشوارع الدائر ومعارك ناطحات السحاب التى كانت تدور رحاها عبر كل أنحاء المدينة . وأصفت إلى حديثهما باهتمام ، بينما رحت فى نفس الوقت أسوى شعرى ، وأثبت قبصى الممزق بالدبابيس . وظلت عملية سفك الدماء مستمرة طيلة الوقت . وفى بعض الأحيان كانت طلقات المسدس تغطى على حديثهما فيضطران إلى إعادة ما كانا يقولانه .

لقد عشت ثلاثة أيام من كومبون شيكاغو . وفى وسع الإنسان أن يتصور مدى شموله ، ومدى اتساع المذبحة إذا قلت إننى لم أر طيلة الوقت شيئاً من الناحية العملية سوى سفك دماء أبناء الحضيض والقتال الجوى بين ناطحات السحاب . والحق أننى لم أر شيئاً من الأعمال البطولية التى قام بها الرفاق . لم يكن فى وسعنى غير أن أسمع صوت انفجارات قنابلهم وأغامهم ، وأن أرى دخان حرائقهم فحسب . بيد أننى شاهدت فى الفضاء جانباً من أعمالهم

العظيمة تلك هي الهجمات التي شننا رفاقنا بالمناطيد على الشكنات ، وحدث ذلك في اليوم الثاني . لقد أيدت الكتابب الثلاث المتعددة في الشكنات حتى آخر رجل منها ، وغصت الشكنات بقوات المرتزقة . وهبت الريح في الاتجاه الملائم ، وخرجت مناطيد مرتفعة من أحد مباني الأعمال بالمدينة .

كان بيدنباخ قد اخترع قبل مغادرته «جلين إلين» متفجرة من أقوى المتفجرات سماها «المنطلق» ، وهذا هو السلاح الذي استخدمته المناطيد . ولم تكن سوى مناطيد ملأى بالهواء الساخن . تم صنعها على مجل دون عناية . ولكنها أدت الغرض المطلوب منها . ولقد شاهدتها جميعا من أعلى مبنى من مباني الأعمال ، وأخطأ المنطاد الأول الشكنات كلية ، واختنى داخل البلاد ، لكننا عرفنا مصيره فيما بعد . كان يرتون وأوسوليئان بذلك المنطاد ، وعندما أخذ المنطاد يهبط بهما ، اندفع عبر السكة الحديد لينزل بهما مباشرة فوق قطار من القطارات التي تحمل الجنود ، قاصداً شيكاغو بأقصى سرعته . وأسقط يرتون وأوسوليئان كل ذخيرتهما من المتفجرات فوق القاطرة ، وأدى الحطام الناتج إلى قطع الخط الحديدى عدة أيام ، وأحسن ما في ذلك أن المنطاد انطلق بعد تخلصه من ثقل المتفجرات إلى أعلى ولم يهبط إلى الأرض إلا بعد ستة أميال ، وهكذا نجا البطلان دون أن يصيبهما أى أذى .

وفشل المنطاد الثاني . كان يطير متعرجاً ، وأخذ يسبح في الهواء على ارتفاع شديد الانخفاض فأصابه الرصاص وملاه بالثقوب قبل أن يتمكن من الوصول إلى الشكنات . وبذلك المنطاد كان يوجد هيرفورد وجونيبس ، ولقد تم نسفهما مع الحقل الذي هبطا فيه وتناثرت أشلاؤهما ، وأصاب اليأس بيدنباخ - ولقد سمعنا بذلك كله فيما بعد - فصعد بمفرده في المنطاد الثالث حيث طار على ارتفاع منخفض كذلك ، لكن الحظ حالفه ، ففشل الأعداء كلية في ثقبه ، وإثني أستطيع الآن أن أراه كما رأيته في ذلك الوقت من قمة المبنى الشاهقة - ذلك الكيس المنتفخ سابحاً في الهواء ، وذلك الرجل الذي يبدو مثل ذرة دقيقة ملتصقاً بقاعدته ، ولم يكن في وسعي

أن أرى القلعة ولكن أولئك الذين كانوا معي على السطح قالوا إنه كان فوقها مباشرة، ولم أر المتفجرة وهي تسقط عندما أطلقها، لكنني رأيت المنطاد وهو يثب فجأة إلى أعلى نحو السماء، ولم تمض لحظات حتى ارتفع في الهواء عمود هائل من الانفجارات، ثم سمعت هديرها. لقد دك بيدينباخ الرفيق إحدى الشكاكات. وفي نفس الوقت انطلق منطادان آخران، ونسف أحدهما وتناثرت أشلاؤه في الجو. وانفجرت المتفجرة، ومزقت الصدمة المنطاد الثاني فسقط في روعه على الشكنة المتبقية، ولم يكن من الممكن وضع خطة أفضل مما حدث، رغم أن الرفيقين اللذين كانا بالمنطاد ضحيا بحياتهما.

ولكن فلنعد إلى أبناء الحضيض. ففهم انحصرت مشاهداتي. لقد تملكهم الهياج فذبحوا ودمروا كل شيء في المدينة الأصلية، وواجهوا الهلاك بدورهم. لكنهم لم ينجحوا أبداً في الوصول إلى مدينة الاحتكاريين القائمة في الجانب الغربي. لقد حسم الاحتكاريون أنفسهم جيداً، وليس المهم ذلك الدمار الذي أصاب قلب المدينة، فقد نجوا جميعاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم - وقد قيل لي إن أطفال الاحتكاريين كانوا يلعبون في الحدائق خلال تلك الأيام الرهيبة. بل كانت لعبتهم المفضلة هي تقليد كبارهم في الدوس على أجساد الطبقة العاملة.

ووجدت قوات المرتزقة أنه من العسير عليها أن تقاوم أبناء الحضيض والرفاق في نفس الوقت. وكانت شيكاغو أمينة لتقاليدها. فرغم أن جيلاً من الثوريين قد فنى، فقد راح معهم في الوقت ذاته جيل من أعدائهم. وبالطبع أخفت القدم الحديدية الأرقام الحقيقية، غير أنه وفقاً لأكثر التقديرات المعتدلة لقي مالا يقل عن مائة وثلاثين ألفاً من قوات المرتزقة حتفهم غير أن الطريق سد في وجه الرفاق. فبدلاً من أن تهب البلاد كلها للثورة هبة رجل واحد، أصبح الرفاق وحيدين، وأصبح في وسع الاحتكارية

أن توجه كامل قوتها ضدهم إذا ما اقتضى الأمر ذلك . هكذا أخذت قوات المرتزقة تندفق بمئات الآلاف إلى شيكاغو ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم في قطارات عملة لانهاية لها .

وما أكثر أبناء الحضيض . لقد سم الجنود ذبحهم . فبدوا في عملية حشد القطعان الهائلة من الغوغاء كي يسوقوها مثل الماشية نحو بحيرة ميتشجان . كانت تلك العملية لا تزال في بدايتها عندما تقابلنا أنا وجارثوايت مع الضابط الشاب . ومنيت حركة حشد القطعان بالفشل من الناحية العملية بفضل العمل الرائع الذي قام به الرفاق . وبدلاً من الحشد الهائل الذي منيت قوات المرتزقة نفسها بجمعه ، فإنهم لم يوفقوا إلا في سوق عدد لا يزيد على أربعين ألفاً من البؤساء إلى جوف البحيرة . وبين الحين والحين عندما كان المرتزقة يوفقون إلى دفع حشد من الغوغاء عبر الشوارع نحو المياه ، كان الرفاق يقومون بشغافهم حتى يتمكن الغوغاء من الهرب عبر الفجوة التي أحدثت في الشبكة التي تطوقهم وتحيط بهم . ولقد رأينا أنا وجارثوايت مثلاً من ذلك بعد التقائنا بالضابط الشاب مباشرة . فقد أجبرت جماعة من الغوغاء ، والتي كنا بينها ، على التراجع ، وحيل بينها وبين الهرب نحو الجنوب والشمال بواسطة تجمعات قوية من قوات العدو . وكانت القوات التي اشتبكت معهم قد صدتهم من ناحية الغرب . ولم يبق أمامهم منفذ غير الشمال ، حيث يقودونهم إلى البحيرة . وهكذا ساقوهم من الشرق والغرب والجنوب بنيران المدافع الرشاشة والأسلحة الأتوماتيكية . ولست أدري ما إذا كان الغوغاء قد أدركوا أنهم يساقون إلى البحيرة ، أو أن ذلك كان مجرد تلو أعمى للوحش . وعلى أية حال فقد اندفع الغوغاء في شارع عرضي إلى الغرب . وفي الشارع التالي داروا على أعقابهم ، ثم عادوا عبر ذلك الدرب متجهين إلى الجنوب نحو حي العمال الكبير .

وكنت أنا وجارثوايت نحاول آنذاك أن نشق طريقنا إلى الغرب حتى

نخرج من نطاق قتال الشوارع . ولكننا ما لبثنا أن وقعنا في خضمه من جديد . وعندما وصلنا إلى الزاوية رأينا الغوغاء المزججين مندفعين نحونا . وأمسك جارتوايت بذراعى . وكنا نوشك على الجرى عندما صحبني إلى الخلف بعيدا عن عجلات ست عربات حربية مجهزة بالمدافع الرشاشة كانت تهول لاحتلال الموقع . ومن خلف العربات أقبل الجنود بينادقهم الأتوماتيكية . وما إن اتخذوا مواقعهم حتى حمل الغوغاء عليهم . وبدأ أنهم سيفرقون في هذا الخضم قبل أن يتمكنوا من العمل .

وهنا وهناك راح جندى يطلق النار من بندقيته ، غير أن هذه النيران المتفرقة لم تؤد إلى صد تقدم الغوغاء ، فاندفعوا نحو الجنود وهم يجأرون في غضب وحشى ، وبدأ من المتعذر على المدافع الرشاشة أن تنطلق . وكانت السيارات التي نصبت فوقها المدافع الرشاشة تسد الشارع ، فاضطر الجنود إلى البحث عن مواقع لهم بين الأرصفة أو فوقها ، ووصلت تباعا إمدادات جديدة من الجنود، وعجزنا عن الخروج والفرار وسط هذا الزحام وأمسكني جارتوايت من ذراعى والتصقنا تماما بواجهة إحدى البنايات .

ولم يكد الغوغاء يقتربون إلى مسافة خمسة وعشرين قدما حتى انطلقت المدافع الرشاشة . فهل هناك من يستطيع النجاة أمام هذا الغطاء المتهب من الموت ؟ . وتدافع الغوغاء ، لكنهم لم يستطيعوا التقدم . وتكدسوا بعضهم فوق بعض أكواما، بل رابية، موجة ضخمة متدافعة من الموتى والمحتضرين، ودفع الغوغاء من الخلف من هم أمامهم . وتكوم الطابور على نفسه من البالوعة إلى البالوعة . وتقضى الجرحى رجالا ونساء فوق تلك الموجة الرهيبة . وسقطوا من على وجها مثلوين حتى تقلبوا تحت السيارات وأقدام الجنود الذين طعنوا بحراهم أولئك البؤساء وهم في حشرجاتهم الأخيرة . ورغم ذلك رأيت واحدا منهم ينجح في الوقوف على قدميه ويقفز على أحد الجنود ناهاش رقبته . وتهاوى الاثنان معا ، الجندى والعبدى الحماة المتلاطمة .

وتوقف إطلاق النار . لقد أنجزت المهمة ، وأوقفت محاولة الغوغاء الضارية لشق الطريق، وصدرت الأوامر بتحرير عجلات السيارات الحربية، فهي لا تستطيع التقدم فوق هذه الموجة من الموت . وأخذ الجنود يجرّون الجثث بعيداً عن العجلات عندما حدثت مذبحة أخرى . وقد عرفنا فيما بعد كيف حدثت . فعلى مسافة عدة أبنية كان مائة من رفاقنا معتمسين بإحدى البنايات، وعبر الأسطح وخلال المباني شق رفاقنا طريقهم حتى وجدوا أنفسهم يطلون على الجنود المتراصين وعندئذ دارت المذبحة المضادة .

ودون أي إنذار انهار سيل من القنابل من أعلى المبنى ، وتناثرت أشلاء السيارات مع كثير من الجنود ، واندفعنا نحن وسط الناجين نتقهقر في جنون . وعندما اجتزنا عدة مبان فتحت النار علينا من مبنى آخر . وكما فرش الجنود الشارع بجثث الموتى ، كذلك أصبحوا هم بدورهم بساطاً من الموت . أما أنا وجارثوايت فقد كنا نحمل تعويذة تصون حياتنا . وكما فعلنا من قبل، كذلك بحثنا عن المأوى مرة أخرى في أحد المداخل . ولكن جارثوايت لم يسمح لنفسه هذه المرة أن يؤخذ على غرة . وعندما خفت هدير القنابل بدأ جارثوايت يترقب . ثم ناداني قائلاً :

« الغوغاء عائدون . . يجب أن نخرج من هنا ، .

وهربنا عبر الرصيف المدمى ويدي في يده . ورحنا نتعثر ونزلق ونحن نشق طريقنا إلى الزاوية ، واستطعنا أن نرى عبر الشارع الجانبي قلة من الجنود تراصل عدوها، ولم يكن هناك شيء يصيبهم . وبدأ الطريق خالياً . وهكذا تمهلنا لحظة ونظرنا إلى الخلف . وأقبل الغوغاء في بطء، لقد كانوا مشغولين بتسليح أنفسهم ببنادق القتلى والإجهاز على الجرحى . ورأينا نهاية الضابط الشاب الذي أنقذنا . لقد رفع نفسه في ألم متكئ على كوعه، وسقط منه مسدسه الأوتوماتيكي .

وضحك جارثوايت عندما اندفعت إلى الرجل الجريح امرأة تلوح في
يدها بساطور جزار وقال :

« هاهي فرصتي في الترقية تضيع . تعالى من هنا . إنه الاتجاه الخاطئ »
ولكننا سوف نخرج منه بطريقة ما ، .

وهربنا متجهين نحو الشرق من خلال الشوارع الهادئة ، متاهبين عند
كل شارع جانبي لأي طاري يحدث . وإلى الجنوب كان هناك حريق هائل
يملا السماء ، وأدركنا أن الحى العمالي الكبير يحترق . وأخيرا ارتيمت على
الرصيف ، لقد أنهكت قواي ولم أعد أستطيع المضي أكثر من ذلك ، كانت
أطرافي كلها مرضوضة ، متقرحة تنضح بالآلم . ومع ذلك فلم أتمالك عن
الابتسام لجارثوايت الذي راح يلف سيجارة ويقول :

« أنا أعرف أنتي تخطت في إنقاذك ، ولكني لا أستطيع أن أفهم من
الموقف شيئاً . إنها ورطة حقاً . في كل مرة نحاول شق الطريق يحدث شيء
ونعود أدراجنا . والآن فإننا لا نبتعد عن ذلك المدخل الذي أخرجتك منه
إلا بوضع مبان . لقد اختلط الجميع ، الصديق والعدو . إنها الفوضى والارتباك
إنك لا تستطيعين أن تخمئي من الذين يشغلون تلك المباني اللعينة . حاولي أن
تعرفي وسوف تتلقين قبلة على رأسك . حاولي المضي في طريقك بسلام
فسوف تجددين نفسك في صفوف الغوغاء وتقتنين بالمدافع الرشاشة ، أو قد
تجددين نفسك في صفوف المرتزة وتقتلين بواسطة رفاق لك من أحد الأسطح
وفوق كل ذلك يأتي الغوغاء نحوك ويقتلونك أيضاً ، .

وهز جارثوايت رأسه في اكتئاب ، وأشعل سيجارته ، وجلس على
الأرض بجاني - وأضاف قائلاً :

« وبالإضافة فإنني جائع ، وفي استطاعتي أن آكل الحصى ، .
ولم تمض لحظة حتى هب جارثوايت على قدميه من جديد ، وخرج إلى

الشارع . وراح يتفرس في إحدى الحصى . وعاد بها وطوحها على نافذة
بأحد المحال من خلفنا .

وقال جارثوايت موضعا بينما هو يساعدننى على الدخول خلال الفجوة
التي أحدثها :

« إنه دور أَرْضِي لا يصلح ، ولكنه أفضل مماستطيع أن تفعله . خذى
غفوة ، أما أنا فسأذهب للاستكشاف . اننى سأنجز مهمة إنقاذك على خير
وجه . ولكننى أحتاج إلى الوقت ، إلى كثير منه ، وإلى شيء آكله . »

لقد وجدنا أنفسنا في مخزن لعدة الخيل . ومن ثم وضعنى جارثوايت
في فراش صنعه من أغطيها في حجرة المكتب الخاصة القائمة في المؤخرة .
وزاد في تعاستى بده إحساسى بصداع عنيف . ولم تغمرنى السعادة إلا لأننى
سأغلق عيني وأحاول النوم .

وودعنى جارثوايت قائلا :

« سوف أعود . إننى لا أتوقع أن آتيك بسيارة ولكننى متأكد بأننى
سأحمل لك بعض الطعام على أية حال ، »

وكانت تلك هى المرة الأخيرة التى أرى فيها جارثوايت طيلة ثلاثة
أعوام . فبدلا من أن يعود ، نقل إلى إحدى المستشفيات ، وقد اخترقت
رئتيه رصاصة ، بينما استقرت رصاصة أخرى في عنقه .

الفصل الرابع والعشرون

كابوس

لم أتم الليلة السابقة في قطار ، القرن العشرين ، وأدى بي الإجهاد إلى الاستغراق في النوم . وعندما أفقت للمرة الأولى ، كانت الدنيا ليلاً ، ولم يكن جارثوايت قد رجع بعد ، وإذا فقدت ساعتى لم تكن لدى أية فكرة عن الوقت ، وفيما أنا راقدة ، وعيناي مغمضتان ، سمعت نفس الصوت المكنوم لانفجارات بعيدة . ما زالت نار جهنم تناظى . وزحفت عبر المحل إلى المقدمة ، فإذا بالسماء تعكس لمبج الحرائق الهائلة وتكاد تحيل الدنيا نهاراً ، هناك يستطيع المرء دون عناء أن يقرأ أدق حروف الطباعة . ومن على بعد عدة أميال أقبل دوى القنابل اليدوية الصغيرة وهدير المدافع الرشاشة ، كما دوت من بعيد سلسلة طويلة من الانفجارات الثقيلة ، وزحفت عائدة إلى أعطية الخيل ، واستسلمت للنوم من جديد .

وعندما استيقظت للمرة الثانية وجدت الضوء الأصفر الباهت يترامى إلى . لقد طالع فجر اليوم التالى ، وزحفت إلى مقدمة المحل ، فوجدت غطاء من الدخان يملأ السماء تنخلله ومضات باهتة ، وعلى الجانب الآخر من الشارع ، راح عبد بائس يترنح وقد ضغط على جنبه بإحدى يديه تاركاً خلفه أثراً من الدم . وأخذت عيناه تهيم فى كل مكان وقد ملاًهما التوجس والرعب ، وفى إحدى لفئاته نظر إلى مباشرة ، ونطق وجهه بكل العواطف البكاء التى ينطق بها حيوان جريح مطارد ، لقد رآنى ، غير أنه لم تكن تجمعنا أية صلة للقربى ، ولا أى تفاهم وجدانى من جانبه على الأقل . وخر العبد على ركبته ، ومضى يجر نفسه . لم يكن فى استطاعته أن يأمل فى أية مساعدة تمتد إليه

في جميع أنحاء أرض الله . كان عبداً في المهرجان الكبير الذي أقامه الأسياد لصيد العبيد ، فكل ما استطاع أن يأمله وكل ما فكر فيه ، أن يجد حفرة يزحف إلى داخلها ويختبئ فيها مثلما يفعل أى حيوان . وأجفل العبد عندما سمع رنيناً حاداً لسيارة الإسعاف وهي تمرق عند الناحية . لم تكن سيارة الإسعاف لأمثاله ، وتأوه العبد من الألم وألقى بنفسه عند مدخل أحد المباني ، ولم تمض دقيقة حتى خرج مرة أخرى وهو يعرج في ياس .

وعدت إلى أغطية الحبل ، وانتظرت جارثوايت ساعة أخرى ، لم يكن الصداق قد زايلني ، بل على العكس زادت وطأته ، ولم أكن أستطيع أن أفتح عيني وأرى الأشياء إلا بجهد من الإرادة ، وسبب لي ذلك عذاباً لا يحتمل ، فقد كان رأسي أيضاً ينبض بشدة ، وخرجت إلى الشارع من خلال النافذة المحطمة ، ضعيفة ومترنحة ، أتلمس بغريزتي طريقاً للفرار من الجزيرة الرهيبة ، وعشت بعد ذلك في الكابوس .

وإنني لا أتذكر شيئاً مما حدث في الساعات التي تلت سوى ما يستعيدته المرء في ذاكرته بعد كابوس . هناك أحداث كثيرة تتجمع في عقلي ، غير أن هذه الصور التي لا تمحى إنما تتخللها فترات من فقدان الوعي ، لا أعرف ماذا حدث خلالها . ويبدو أنني لن أعرف إلى الأبد .

وأذكر الآن كيف تعثرت بقدمي رجل عند الناحية ، فإذا به ذلك البائس المسكين المطارد الذي كان يجر نفسه أمام مخبئي . وكم أذكر في وضوح يديه السقيمتين المشوهتين اللتين تثيران الرثاء وهو يفترش أرض الشارع . كانت يده أقرب إلى الأظلاف والمخالب ، التوتا وتشوهتا من كدحه طيلة الحياة ، بينما نمت على راحتيه طبقة قرنية من العظام بلغ سمكها نصف بوصة . وعندما نهضت من عثرتي ، نظرت إلى وجه ذلك الشيء ، فوجدته ما زال على قيد الحياة ، ذلك أنه كان ينظر إلى ويراى بعينه اللتين شع منهما بصيص ذكاء خافت .

وحلت بعد ذلك فترة رهومة من الغيبوبة . لم أكن أرى أو أدرك شيئاً ، بل خذت أترجح بحثاً عن الأمان . وكانت رؤياي في الكابوس التالى شارعاً من الموتى يافه السكون ، وقد تراءى لى فجأة كما يتراءى الجدول المنساب أمام رجل يهيم على وجهه فى الريف . غير أن هذا الجدول الذى رأيت لم يكن يتدفق بالمياه . كان متجمداً بالموت ، ممتداً فى استواء من شارع إلى شارع مغطياً الأرض صفة ، ولم يكن يعترض هذا السطح المستوى غير كتلة أو أكداس من الجثث ملقاة هنا وهناك . بالآبناء الحضيض الساكنين والعبيد المطاردين . إنهم يرقدون هناك مثلما ترقد الأرانب عقب إحدى حملات المطاردة فى كاليفورنيا^(١) وتجولت بنظري فى الشارع طويلاً وعرضاً ، لم يكن هناك أى صوت أو أية حركة . المباني الساكنة تطل على المشهد من خلال نوافذها العديدة . ومرة واحدة فقط ، رأيت ذراعاً تتحرك فى ذلك الجدول الميت . أقسم أننى رأيتها تتحرك وتلوى بصورة غريبة تكشف عن آلام الاحتضار . ومع اليد ارتفع رأس ملاحظ بالدم ممتلئ برعب لا سبيل إلى وصفه . وتمم الرأس إلى ثم استلقى مرة أخرى وسكن إلى الأبد .

وأذكر شارها آخر بمبانيه الساكنة على جانبيه ، وأذكر الرعب الذى أعادنى إلى الوعى ، عندما رأيت أبناء الحضيض من جديد . غير أنهم جاءوا فى هذه المرة فى جدول يتدفق ويندفع إلى الأمام ، ثم إن ما رأيت هناك لم يكن ليبحث على الخوف ، فقد كان الجدول يتحرك ببطء ، بينما ارتفع منه الأنين والنحيب وهذيان الشبخوخة والمستيريا والجنون . هناك اجتمع

(١) فى تلك الأيام كان السكان متناثرين على طول البلاد ، فاجتاحتها الحيوانات الوحشة . وفى كاليفورنيا تطورت عادة مطاردة الحيوانات . فى يوم معين يجتمع جميع المزارعين فى المنطقة ثم يندفعون عبر الريف فى صفوف متداخلة مطاردين الأرانب بعشرات الآلاف حتى يحاصروها فى قطعة أرض معدة يحيطها سياج . وهناك يضرب الرجال والأولاد الأرانب بهراواتهم حتى الموت .

الشباب يسافح مع الطاعنين في السن ، الضعفاء والمرضى ، العاجزون
والبائسون ، كل حطام الحى العمالى فى الجانب الجنوبي من المدينة . لقد
ساقهم الحريق هناك سوقا إلى جحيم قتال الشوارع ، ولم أعرف أو أسمع
أبدأ ماذا أصبح من أمرهم وإلى أين مضوا^(١) .

وإننى لأحتفظ فى عقلى بذكرىات باهتة عن تحطيمى لإحدى النوافذ
والاختباء فى دكان ما ، حتى أتفادى جماعة من الرماح يطاردون الجنود ،
كما أذكر مرة انفجرت فيها قنبلة بالقرب منى ، حدث ذلك فى شارع يرين
عليه السكون ، حيث لم أكن أستطيع إذا ما جلت ببصرى فى كل
مكان أن أجد أى إنسان . ومرة أخرى تبدأ ذكرىاتى تتجمع بحدة على
صوت قعقة بندقية ، حينئذ أدركت فجأة أن جندياً سبطلق النار على من
سيارة ، وأخطأتنى الرصاصة ، وفى اللحظة التالية كنت أصرخ وألوح
بكلمات السر . ثم إننى لا أذكر فى وضوح ركوبى السيارة ، على
الرغم من الصورة المتوهجة التى تخللت تلك الفترة ، فلقد جعلنى صوت بندقية
الجندي الجالس إلى جوارى أفتح عيني ، ورأيت جورج ميلفورد الذى
عرفته أيام إقامتنا بشارع هـ بيسل ، يسقط يبطه على الرصيف . وأطلق
الجندي النار عليه مرة أخرى وهو يسقط ، وانحنى ميلفورد على نفسه ثم
اندفع بجسمه وسقط ممتدداً على الأرض ، وانفجر الجندي ضاحكاً ، بينما
أمرعت السيارة فى طريقها .

وكان الشيء التالى الذى أدركته هو أننى استيقظت من نومى العميق
على صوت رجل يسير جيئةً وذهاباً بالقرب منى ، وعلى وجهه بدا الاكفرار

١١ ظل الناس يختلفون لمدة طويلة حول ما اذا كان حريق حى العمال
فى الجانب الجنوبي من المدينة قد حدث مصادفة ام بفعل قوات المرتزقة .
أما الآن فقد استقر الأمر بصورة محددة على ان حريق حى العمال قامت
به قوات المرتزقة بأوامر تلقوها من زعمائهم .

والتوتر ، وتصيب العرق من جبهته على أنفه ، وثبت يده اليد الأخرى على صدره بقوة . بينما أخذ الدم يسيل منه على الأرض وهو يسير ، كان يلبس البذرة الرسمية لقوات المرتزقة ، وتناهى إلينا من الخارج ، كما لو كان عبر جدار سميك ، الهدير المكثوم للقنابل المتفجرة ، لقد كنت في مبنى التحم في القتال مع أحد المباني الأخرى .

وقدم أحد الجراحين ليضمّد جراح الجندي . وعرفت أنها الساعة الثانية بعد الظهر . ولم يكن الصداع قد زابني . وانصرف الجراح عن عمله فترة طويلة حتى يعطيني دواء قويا يخفف من ضربات قلبي ويجلب لي الراحة . ومن جديد عاودني النوم . ولم أع في المرة التالية إلا وأنا أقف فوق قمة أحد المباني . لقد توقفت معارك الشارع ، وأخذت أراقب هجوم المنطاد على الشكنات . كان أحدهم يطوقني بذراعه ، بينما رحت أستند إليه بشدة . وخطر لي كما لو كان الأمر الواقع أن هذا هو إرنست . ووجدت نفسي أتعجب كيف سمح لشعره وحاجبيه أن يحترقا على هذا النحو السيء .

ولقد عثر أحدنا على الآخر في تلك المدينة الرهيبة بمجرد الصدفة . لم تكن لدى إرنست أي فكرة عن مغادرتي نيويورك ولم يصدق عينيه بادي الأمر عندما اجتاز الغرفة التي نمت فيها . بعد ذلك لم أشهد من كوميون شيكاغو إلا القليل ، فقد أخذني إرنست عقب مشاهدتنا هجوم المنطاد ، وهبط. بي إلى قلب المبنى حيث قضيت الأصيل والليل في نوم طويل . وقضينا اليوم الثالث في المبنى . وفي اليوم الرابع حصل إرنست من السلطات على سيارة وإذن بالرحيل ، وتركنا شيكاغو .

وزابني الصداع ، غير أن جسمي كان منهكا وروحي متعبة للغاية . واستندت إلى إرنست داخل السيارة . وأخذت أراقب بعينين حادتين الجنود وهم يحاولون الانطلاق بالعربة خارج المدينة . كان القتال دائرا ، ولكن

في مناطق معزولة لحسب . وما زالت هنا أو هناك مناطق كاملة تخضع لسيطرة الرفاق ، غير أن قوات ضخمة تقوم بتطويقها وحراستها . هكذا حوصر الرفاق في مائة من الشراك المعزولة ، بينما استمرت عملية إخضاعهم . ولم يكن الإخضاع ليعنى سوى الموت . ذلك أن الرفاق لم يسلبوا شبرا واحداً بل قاتلوا يبطولة حتى الرجل الأخير^(١) .

وكلما اقتربنا من تلك المناطق ردنا الحرس على أعقابنا وأعادونا من حيث أقبلنا . وذات مرة ، لم يكن أمامنا من طريق سوى المرور عبر جزء محترق يقع بين موقعين منبئين للرفاق . واستطعنا أن نسمع من كلا الجانبين قعقعة الحرب وهديرها ، بينما السيارة تأخذ طريقها عبر الخرائب المحترقة والجدران المتداعية . وكثيراً ما وجدنا الشوارع وقد سدت بجبال من الأنقاض اضطرتنا إلى العودة من حيث جئنا . ولقد كنا في متاهة من الخراب . وكان تقدمنا بطيئاً .

كانت حظائر الماشية (حتى العمال والمصنع وكل شيء) خرائب يتصاعد منها الدخان . وعلى بعد وإلى اليمين غشت سحابة عريضة من الدخان وجه السماء . إنها مدينة بولمان أو بالأحرى ما كان من قبل مدينة بولمان . ذلك

(١) صمد عدد من المباني أكثر من أسبوع ، بينما صمد أحدهم أحد عشر يوماً . كان على المرتزقة أن يقتحموا كل مبنى وكأنه أحد الحصون . وقد شقوا طريقهم طابقاً بعد طابق . كان قتالاً رهيباً لا هوادة فيه من الجانبين . وفي المعركة امتاز الثوريون على أعدائهم باحتلالهم المواقع العليا . وبينما مضت عملية إبادة الثوريين ، لم تقتصر الخسارة على جانب واحد . لقد ظلت الطبقة العاملة الفخورة في شيكاغو أمينة لمجادها القديمة بعد أن جندلت من أفراد العدو مثل ذلك العدد الهائل الذي اغتاله من بين رجالها .

أنها دمرت تماما . هكذا أخبرنا الجندي سائق العربة . وكان ذلك الجندي قد قاد السيارة إلى هناك في أصيل اليوم الثالث حاملا معه بعض الرسائل . وكما ذكر ، دارت هناك بعض المعارك العنيفة ، وسدت أكوام الموتى الكثير من الشوارع .

وما إن درنا حول الجدران المتهمة لأحد المباني في منطقة حظائر الماشية ، حتى توقفت السيارة أمام موجة من الموتى وكأنها موجة قذفها البحر . واتضح لنا ما حدث . فعندما راح الغوغاء يهاجمون عبر الناحية ، حصدتهم المدافع الرشاشة المنصوبة على الشارع الجانبي على مرمى أفق ومن زوايا قائمة . غير أن الكارثة حلت بالجنود كذلك . فلا ريب أن قبلة غير هادفة انفجرت في صفوفهم . عندئذ اندفع الغوغاء ، بعد أن أحبط هجومهم وتألقت تلك الموجة من موتاهم والمحتضرين منهم ، اندفعوا وقذفوا من فوقهم بالزبد من العبيد المقاتلين الذين لم يلاقوا حتفهم . هكذا رقد الجنود والعبيد معاً ممزقين ومشوهين فوق حطام السيارات والمدافع ومن حولها .

وعلى حين لجأة قفز إرنست عندما لمح كتفين مألوفين لديه داخل قبص من القطن ، وأهداب شعر أشيب ليس غريباً عليه . أما أنا فلم أر أحداً ، ولم أعرف حتى عاد إرنست إلى جانبي وقال والسيارة تمضى :

« إنه القس مورهاوس ، »

وسرطان ما بلغنا الريف الأخضر ونظرت ورائي للمرة الأخيرة نحو السماء المختنقة بالدخان . ومن بعيد أتى صوت واهن لأحد الانفجارات . وعندئذ أرحمت وجهي على صدر إرنست وأخذت أبكي في هدوء القضية التي ضاعت ، بينما ذراع إرنست تطوقني مفعمة بالحب .

وقال إرنست :

« لقد ضاعت القضية هذه المرة يا حبيبتى ، ولكن ليس للأبد . لقد تعلمنا . وغداً سوف تنهض القضية مرة أخرى قوية بالحكمة والنظام ، »

وتقدمت السيارة بنا نحو محطة من محطات السكك الحديدية . هنا سوف نستقل القطار إلى نيويورك . وبينما أخذنا نتنظر على رصيف المحطة ، مرت ثلاثة قطارات وهي تدوى كالرعد متجهة إلى الغرب نحو شيكاغو ، وقد غصت بعالم غير مهرة من أبناء الحضيض في أسماهم البالية .

وقال إرنست :

« إنهم عبيد يجندون لإعادة بناء شيكاغو . هكذا ترين . لقد قتل عبيد شيكاغو عن آخرهم ، .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

الإرهابيون

لم تتمكن أنا وإرنست من إدراك مدى عمق الكارثة التي نزلت بالقضية إلا بعد مضي أسابيع على رجوعنا إلى نيويورك . كان الموقف مريراً ودامياً . ففي عديد من الأماكن والبقاع المتناثرة عبر البلاد ، هبت ثورات العبيد ، ودارت المذابح ، وتزايد عدد الشهداء بصورة هائلة . وفي كل مكان جرت عمليات إعدام لاحصر لها . وغصت الجبال والبراري بطريدى العدالة واللاجئين الذين طوردوا بلا رحمة . وازدحمت ملاجئنا الخاصة برفاق خصصت الحكومة المكافآت ثمناً لردوسهم . وعن طريق المعلومات التي تلقوها من جواسيسهم أغار جنود القدم الحديدية على العشرات من ملاجئنا وأصاب اليأس كثيراً من الرفاق فنزعوا إلى الانتقام بوسائل إرهابية . لقد جعلتهم الخيبة التي منبت بها آمالهم يستسلمون لليأس والقنوط . وتكونت كثير من المنظمات الإرهابية التي لا تنسب إلينا وسببت لنا الكثير من المتاعب^(١) . ولقد ضحى هؤلاء الناس الذين ضلوا الطريق

(١) ان تواريخ تلك الحقبة الوجيزة المليئة باليأس تملأ صفحات دامية . كان الانتقام هو الدافع السائد . أما أعضاء المنظمات الإرهابية فلم يباليوا بحياتهم ، وفقدوا الأمل في المستقبل . واخذ « الدانيون » أسهمهم عن ملائكة الانتقام المستمدة من « الميثولوجيا المورمونية » ، وقد انبثقوا في جبال الغرب الكبير . وانتشروا على طول شاطئ المحيط الباسفيكي من بناما حتى الاسكا . أما الفالكيرايز ، فقد كانوا جميعاً من النساء وأكثر المنظمات إرهابياً . ولم تكن أى امرأة لتفوز بعضوية ذلك التنظيم الا اذا كانت قد فقدت اقرباء مقربين لها على أيدي الاحتكارية . ولقد اتهموا بانهم عذبوا أسراهم حتى الموت : كذلك هناك منظمة مشهورة أخرى للنساء هي منظمة « أرامل الحرب » . أما منظمة « البيرسيركوز » فكانت منظمة شقيقة للفالكيرايز ولم يضع هؤلاء الرجال لحياتهم أى

بجياتهم في تهور. وكثيرا ما أفسدوا علينا خططنا وعطلوا من تقدم تنظيمنا .

وخلال ذلك كله تحركت القمم الحديدية في حزم ودون شفقة. اتهز كل أجزاء البنيان الاجتماعي بحثاً عن الرفاق ، مطلقة قوات المرتزقة والتنظيمات الطائفية للعالم وكل أجهزة المخابرات ، موقعة العقاب دون رحمة أو حقد ، وهي تنجرع في صمت عمليات الانتقام التي وجهت ضدها ، وتملاً الثغرات في صفوفها المقاتلة بمجرد ظهورها . وفي الوقت ذاته عكف إرنست والقادة الآخرون على العمل من أجل إعادة تنظيم قوى الثورة . وفي استطاعة المرء أن يدرك جسامه المهمة إذا ما ... (١) .



= قيمة مهما كانت . وهؤلاء هم الذين دمروا تدميرا كاملا مدينة المرتزقة الكبيرة ، وهي مدينة « بيللونا » بسكانها الذين زادوا عن مائة ألف نفس . أما جماعتنا « البدمايتس » (المجانين) - والهداماييتس (الجهنميين) فكانتا منظمتين توامتين للعبيد . كما كانت هناك فرقة دينية جديدة عرفت باسم « غضب الله » ولكنها لم تعمر طويلا . وحتى نبين خطورة هذه المنظمات وغرابة اطوارها ، فاننا نذكر أسماء المنظمات التالية من بين الجماعات التي ظهرت في ذلك الوقت : « القلوب الدامية » و « أبناء الصباح » و « نجوم الصبح » و « ذوى اللهب » و « الزوايا المثلثة » و « القضبان الثلاثة » و « الروبينيقيون » و « المنتقمون » و « الكومانش » و « الأريبييون » .

(١) هذه هي نهاية مخطوط السيدة ايفرهارد . أنها تنتهي فجأة عند منتصف جملة . ولا ريب أنها تلقت تحذيرا بوصول قوات المرتزقة . ذلك أنه كان لديها الوقت الكافي حتى تخبئ هذا المخطوط في امان قبل أن تولى الهرب أو يقبض عليها . وأنه لمن دواعي الأسف أنها لم تعش حتى تكمل قصتها ، فلو أنها فعلت لكشفت دون شك عن الغموض الذي اكتنف مصرع إرنست ايفرهارد طوال سبعة قرون .

محتويات الكتاب

الصفحة	
٥	مقدمة
٦	مقدمة المترجم
١٣	الفصل الأول : النسر
٣٤	الفصل الثاني : تحديات
٥٧	الفصل الثالث : ذراع جاكسون
٧٣	الفصل الرابع : عبيد الآلة
٨٥	الفصل الخامس : عشاق الرياضيات
١١٠	الفصل السادس : بوادر أحداث
١٢١	الفصل السابع : رؤيا الأسقف
١٣١	الفصل الثامن : محطمو الآلات
١٥٤	الفصل التاسع : رياضيات حلم
١٧٦	الفصل العاشر : الدوامة
١٨٨	الفصل الحادي عشر : المغامرة الكبرى
١٩٩	الفصل الثاني عشر : الأسقف
٢١٤	الفصل الثالث عشر : الإضراب العام
١٢٦	الفصل الرابع عشر : بداية النهاية
٢٣٨	الفصل الخامس عشر : الأيام الأخيرة
٢٤٦	الفصل السادس عشر : النهاية
٢٥٨	الفصل السابع عشر : الرداء القرمزي
٢٦٨	الفصل الثامن عشر : في ظل جبل سونوما
٢٧٨	الفصل التاسع عشر : التحول
٢٨٩	الفصل العشرون : احتكارى مفقود
٢٩٩	الفصل الحادي والعشرون : الوحش الهادر في الحضيض
٣٠٧	الفصل الثاني والعشرون : كوميو شيكاغو
٣٢٤	الفصل الثالث والعشرون : أبناء الحضيض
٣٤١	الفصل الرابع والعشرون : كابوس
٣٤٩	الفصل الخامس والعشرون : الإرهابيون

طريقنا للطباعة ٧١٢٢٧

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

دار الهمما للطباعة ٧١٢٢٧



Exclusive

For

www.ibtesama.com